

شاي تركي من فضلك

تركيا من الماضي إلى الحاضر

كاثرين براننج



شاي تركي من فضلك

تركيا من الماضي إلى الحاضر

يحتوي هذا الكتاب على رسائل بعثت بها حياءُ السيدة كاثرين براننج (Katharine Branning) إلى السيدة ماري مونتاغيو عام (1689م - 1762م)، تستعرض فيها الانطباعات التي أخذتها عن تركيا والأترك طيلة ثلاثين عاما كاملة كانت تتردد فيها على تركيا.

والسيدة ماري مونتاغيو هي زوجة سفير انجليزي عاش في تركيا في القرن الثامن عشر. قضت معه في تركيا ثلاثة عشر شهرا ترسل فيها لصديقاتها وأسرحتها رسائل تفصل فيها مشاهداتها في هذا البلد، وقد نُشرت هذه المراسلات بعد وفاتها بعنوان "رسائل السفارة". وأهم ما تتميز به هذه الرسائل أنها تنقل الأحداث والوقائع كما هي دون مواربة.

هذا وقد بدأت رحلة كاثرين براننج في تركيا والتي استمرت قراءة ثلاثين عاما بعد رؤيتها في الفصل الدراسي بفرنسا صورةً لمدرسة "جوك" الكائنة في "سيواس" بتركيا.

ورغم أن هناك ثلاثة قرون بين الرحالتين الغربيتين إلا أن مشاهداتهما تلنقي في تصوير تركيا كيف كانت وكيف هي الآن. وتشرح الكاتبة سبب تحريرها لهذا الكتاب فتقول:

"وهذه الرسائل هي تعبيرٌ بسيط عن مدى حيي وتقديري لتركيا وشعبها، وردًا على آلاف الأكواب من الشاي التي قُدمت إليّ خلال ثلاثين سنة قضيتها في تركيا."

ISBN: 978-975-315-540-3



9 789753 155403



شاي تركي من فضلك
تركيا من الماضي إلى الحاضر

كاثرين براننج



شاي تركي من فضلك

تركيا من الماضي إلى الحاضر

Copyright©2013 Dar al-Nile

Copyright©2013 Işık Yayınları

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بآلة أو يدوية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

عبد المولى علي حريبع

تصحيح

عبد الجواد محمد الحردان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع: 3-540-315-975-978 ISBN

رقم النشر

485

İŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ - جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - علف سني بنك - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ في الزاوية - المي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

شاي تركي من فضلك
تركيا من الماضي إلى الحاضر

تأليف
كاثرين براننج

ترجمة
أسماء عادل

فهرس

٧	مقدمة.....
١١	الجزء الأول: زوجتا سفيرين وجسران للتعارف.....
١٣	الرسالة الأولى: آلاف الأكواب من الشاي.....
١٧	الرسالة الثانية: قلم توازن وإدراك.....
٢٣	الرسالة الثالثة: في العالم مكان يسمى سيواس.....
٣٠	الرسالة الرابعة: بناء جسر.....
٣٨	الرسالة الخامسة: عبور الجسور.....
٤٥	الجزء الثاني: وطن.....
٤٧	الرسالة السادسة: وطن بعيد عن الوطن.....
٥٣	الرسالة السابعة: وطني الحبيب!.....
٦٧	الرسالة الثامنة: تبتني عائلة تركية!.....
٨٢	الرسالة التاسعة: السر في اسم عظيم الشأن.....
٩٠	الرسالة العاشرة: صباحات سعيدة!.....
١٠٦	الرسالة الحادية عشرة: أشعر بالراحة هنا.....
١٢٥	الجزء الثالث: شعب.....
١٢٧	الرسالة الثانية عشرة: سعيد من قال: أنا تركي.....
١٥٣	الرسالة الثالثة عشرة: ضجة في العالم.....
١٦٨	الرسالة الرابعة عشرة: امرأة وحيدة.....
١٧٥	الرسالة الخامسة عشرة: احترام الكتب من احترام البشر.....

الجزء الرابع: أسلوب حياة	١٨٩
الرسالة السادسة عشرة: صينيّة بقلّوة من غازي عتاب	١٩١
الرسالة السابعة عشرة: وسائل وكعك	٢٠٣
الرسالة الثامنة عشرة: مكنونات نفيسة	٢٢٣
الرسالة التاسعة عشرة: رؤية ثاقبة	٢٣٣
الرسالة العشرون: كنت جائعة	٢٥٠
الرسالة الحادية والعشرون: البصمة التركيّة	٢٦٦
الرسالة الثانية والعشرون: سجادة من سبعين مليون عقدة	٢٧٧
الرسالة الثالثة والعشرون: عثرتُ عليه في قلبي	٢٩٣
الجزء الخامس: آفاق	٣١٩
الرسالة الرابعة والعشرون: سلّم بيتك من الجُدريّ!	٣٢١
الرسالة الخامسة والعشرون: اقتحام الماضي	٣٣٢
الرسالة السادسة والعشرون: عُقد سريعة نشيطة	٣٧١
الرسالة السابعة والعشرون: طاقة أزهار التوليب	٤١٤
الرسالة الثامنة والعشرون: ما شاء الله!	٤١٩

مقدمة

لطالما أعجبت بحقتين من التاريخ أكثر من الحقب الأخرى كلها:
الأولى: هي عصر التنوير في أوروبا؛ وذلك يرجع بشكل كبير إلى
الأدبيات الكثيرات اللامعات اللاتي ظهرن آنذاك.

أما الحقبة الثانية فهي حقبة الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس
عشر، إنها حقبة السعي الدؤوب نحو النقاء والجمال في الفنون المختلفة؛
فكان من الطبيعي لزاماً أن تؤثر في شكل خاص "رسائل السفارة للسيدة
مونتاجيو" عندما قرأتها أول مرة.

كانت السيدة ماري مونتاجيو (١٦٨٩-١٧٦٢م) امرأة استثنائية؛
فهي إحدى السيدات المذهلات الكثيرات اللاتي لمغن كالنجوم
الساطعة في ثريا أوروبا التنوير خلال القرن الثامن عشر، استطاعت أن
تصنع لنفسها اسماً من خلال أسلوبها المثير في كتابة الرسائل، وغدا
أسلوبها مرآة لذكائها الاستثنائي ومعرفتها الواسعة، تألق ذكاؤها الحاد
في تعليقاتها الخاصة بالحياة اليومية التي ضمنتها رسائل عدة كتبها من
الخارج لأسرتها وأصدقائها، وكذلك سطع اسمها أديباً من خلال أحداث
زواجها المضطرب، وشجاعتها في مواجهة مرض الجدري، وعلاقتها
الصعبة بأبنائها، ورحلاتها الكثيرة، ومناداتها الصريحة بمبادئ المساواة
بين الجنسين، وأنشطتها السياسية وغربتها عن إنجلترا التي فرضتها على
نفسها، وأسلوب حياتها الطليق في أعوامها الأخيرة، كل ذلك موثق في
مئات الرسائل التي وصلت إلينا.

ولدت السيدة مونتاجيو -وُسِّمَتْ ماري بيربونت- عام ١٦٨٩م في نوتنجهامشير بإنجلترا في غرفة من مجموعة غرف يبلغ عددها "٢٢٤" غرفة بمنزل أبيها الفخم الذي بني على طراز القرن الثامن عشر، ويحمل اسم ثورسبي هول، وقد تلقت تعليمًا متميزًا؛ وكانت طفلة محظوظة فهي ابنة دوق كينجستون.

برز ذكاؤها الفطري في سنٍّ مبكرة جدًا فقبل: إنها تعلمت اللغة اللاتينية قبل سنِّ الثامنة، قابلت السيد ورتلي مونتاجيو المحامي والسياسي البارز وهي لا تزال في سنِّ المراهقة، وتحابَّ الاثنان خلال فترة مغازلة امتدت أكثر من سبع سنوات، وعندما تقدم لخطبتها رفضه والدها دوق كينجستون؛ إذ رآه لا يتمتع بالاستقرار المادي الكافي من وجهة نظره، ووجد لها شخصًا ثريًا على ذوقه، إلا أنها وجدته غليظ الطبع، وفي لفتة أولية تنم عن استقلالها المذهل الذي غدا سمة أساسية في حياتها؛ تحدث والدها، ورتبت لأن يختطفها مونتاجيو في طريقها للزفاف؛ وهرب الاثنان وتزوجا في عام ١٧١٢م.

غير أنَّ الأحداث التي تلت هذه القصة الخيالية لم تحقق أحلام خيالها الطموح؛ فتبيَّن لها أن الحياة الزوجية صعبة، وها هي رسائلها تقدم الكثير والكثير من اكتشافاتها التأملية التي تعبر عن تزايد تحررها من الوهم، ولكي تنفس عن هذه التعاسة؛ شرعت في بناء نفسها أدبية من خلال كتابة المقالات الأدبية والنقدية.

وعندما انتقل الزوجان إلى لندن باتت ماري محبوبة لدى مجتمع لندن الراقي الذي قدَّر ما تتمتع به من توليفة الجمال الأخاذ والذكاء المتقد والكتابة المتميزة؛ وشعرت ماري في تلك الفترة بالسعادة النسبية رغم مشكلاتها الزوجية المستمرة؛ وُولد ابنها إدوارد بعد سنة من الزواج.

وفي العام التالي (١٧١٦م) سافرت عائلة مونتاجيو إلى تركيا، حيث عُين السيد ورتلي مونتاجيو سفيراً؛ وكانت مهمته التفاوض من أجل السلام بين العثمانيين والنمساويين، وحماية المصالح البريطانية التجارية والبحرية في بلاد الشام.

في ذلك الوقت كانت السيدة ماري في السابعة والعشرين من عمرها، وولدت طفلتها ماري في تركيا في يناير/كانون الثاني عام ١٧١٨م، وخلال إقامتها بتركيا -وهي ثلاثة عشر شهراً- أرسلت خمساً وعشرين رسالةً إلى أصدقائها وأهلها في موطنها، وقد عُرفت تلك الرسائل -التي نُشرت بعد وفاتها- باسم "رسائل السفارة".

وهكذا تلاقت قصتي وقصتها...

وأودّ أن أعبر عن خالص شكري للشاعر محسن إلياس صوباشي لتشجيعه ودعمه المستمر لجهدي في الكتابة والبحث، كما أودّ أن أعبر عن خالص حبي لزوجي ستيفن إيب جوتليب؛ فما يقدمه لي من حنان وتفاهم دائبين في كل ما أفعل هو ما يجعله أحب الناس قاطبةً إليّ، كما أشكر بالطبع شعب جمهورية تركيا، نعم سأحدث عن معالم تركيا إلا أن حبي لشعبها هو السبب الرئيس وراء وقوعي في عشق هذا البلد الرائع.

كاثرين براننج

الجزء الأول

زوجتا سفيرين
وجسران للتعارف

الرسالة الأولى

آلاف الأكواب من الشاي

أصدقائي وأهلي الأعزاء،

في يوم من الأيام قال لي صديقي الشاعر المؤرخ القيصري محسن إلياس صوباشي: أنت تذكريني بالسيدة مونتاجيو من عدة نواح، وأعتقد أنك إذا كتبت كل الأشياء التي رأيته هنا طوال الثلاثين عامًا الماضية فسيكون ذلك ذا أهمية كبيرة عند الأتراك بل عند سائر العالم أيضًا؛ فجميعهم سيكون شغوفًا أن يرى تركيا بعيون أجنبيّ تردّد إليها كثيرًا.

في البداية اعتقدت أنه اقتراح مستحيل؛ لأنني لم أكن أتخيل أن تجاربي في تركيا قد تهم أي شخص غيري، غير أنني كلما فكرت فيما قال اقتنعت أنه ربما يكون على حق، وأنني أحتاج لأن أكتب بعض تجاربي التي مررت بها أثناء سفري؛ ومن خلال ذلك ربما أستطيع أن أفسر سبب استمرارني في الذهاب إلى هناك طوال كل تلك السنوات...

وهكذا قررت أن أبدأ مراسلة خيالية مع السيدة ماري العظيمة نفسها، وأكتب انطباعاتي وتأملاتي الشخصية في رسائل موجهة إليها كما لو أنني أحدث معلوماتها عن البلد الذي وقعت في غرامه.

ورغم أن الرسائل التالية موجهة إليها فهي موجهة إليكم أيضًا -أصدقائي وأهلي- ولأي شخص آخر قد يهتم بقراءتها، وللشعب التركي أيضًا.

إنني لا أكتب دليلًا للسائحين المتجهين إلى تركيا؛ لذا فهذه الرسائل ستكون مختلفة تمامًا عن معظم الكتابات الأخرى التي كتبها زوّار تركيا عبر

القرون الأربعة الماضية، وخاصة تلك التي كتبت في العقدين الأخيرين. هذه الرسائل لن تكون سجلًا يوميًا للرحلة؛ لأن الرحالة غالبًا ما يغامرون بالذهاب إلى أماكن غير مألوفة، ولكن الأماكن في تركيا مألوفة لي بطريقة ما، وأيضًا فأنا لا أريد أن يُصاب القارئ بالملل بسرد قصص الرحلات التي تتناول أشياء سخيفة تافهة تتعلق بالسفر مثل غثيان معدتي، أو الطائرات والحافلات التي فاتتني، أو ما فقدته من مال أو متاع؛ لن تجدوا هنا قصص المستكشف الشغوف التي تجدونها في كتابات ريتشارد بيرتون، وألكساندرا دافيد نيل، وفريد برنابي.

ولا أودّ أيضًا أن أكتب دليلًا يصف المشاهد الخلابة التي يسهل العثور عليها في كتب رحلات كثيرة مطبوعة حاليًا أو موجودة على الإنترنت، لن تكون تلك الرسائل بمنزلة كتاب تمهيدي عن تركيا يقدم حقائق وتفصيلات تاريخية يسهل العثور عليها في أي دليل جاد؛ إن قرائي لا يحتاجون إلى معرفة كل ما فعله أتاتورك، ولا إلى قصص الحريم، ولا تقاليد الحمامات، ولا ما فعله الحثيون في مستوطنة تشاتالهوريوك.

ولن تكون هذه الرسائل أيضًا دراسة مجتمعية عن الأنماط الحياتية التركية؛ فتركيا تتغير على نحو مطرد، فالإحاطة بها أمرٌ مستحيل، ولن تكون الرسائل تحليلًا سياسيًا أيضًا.

نعم، أنا لا أستطيع أن أغض النظر عن السلبيات أو أن أخفي المشكلات، لكن لا يمكنني أن أدعي -وأنا أجنبية- أنني أستطيع إزالة الغموض عن هذه البلاد المليئة بالتباينات والمتناقضات، سوف أترك هذه المهمة لعلماء الاجتماع والسياسيين.

ولا أودّ البتة أن تغدو هذه الرسائل مذكرات لي أو سيرة ذاتية؛ فحياتي ليست جذابة لهذا الحد، وقصص رحلاتي لا تحمل الكثير من المغامرات المثيرة؛ ولذلك لا ينبغي لي أن أطلق العنان لنفسي فيصيصكم الممل.

وأهمّ من ذلك أنني لا أريد أن أتهكّم أو أسخر من الأتراك؛ فلطالما كانت وجهة النظر الغربية ضدهم وبشكل غير لائق أحياناً؛ وقد تبادل كتاب مشهورون مثل لامارتين، ونرفال، وجيد، ولوتي، وجوتيه، وتوين، وستارك، وبارنبي، وغيرهم الأدوار في وصف عادات الأتراك؛ ما أخذه على هؤلاء الكتاب الرحالة بشكل رئيس - لا سيما رحالة القرن التاسع عشر العظماء الذين عبروا "الشرق الساحر"، وسردوا قصصهم البطولية المبالغ فيها حول الصعوبات التي تغلبوا عليها- هو أنهم يبدوون لثاماً مستكبرين؛ يزدرون الموضوع الذي يتناولونه بشكل صريح.

لا أرغب في سرد قصص مطولة ومملة تقضي بالقارئ إلى طريق ملتوية كي أصل إلى السخرية من مدى غرابة العادات والتقاليد في هذا البلد، ولا أرغب أيضاً في المساس بالكبرياء التركي من خلال قصص حكايات استهزائية أو فكاهية، أريد فقط أن تشاركوني بعض القصص التي حدثت معي، وماذا تعني بالنسبة لي، فلسوف تتضمن هذه الرسائل تجارب شخصية حرّت في تفسير بعضها.

تعلمت من سنوات سفري ومن حياتي المهنية بكاملها في مجال العلاقات بين الثقافات المختلفة الكثير والكثير، لكن أكبر درس تعلمته هو أنه ينبغي على المرء أن يخطو بحرص شديد عندما يتكلم عن بلد أجنبي وشعب أجنبي، وتعلمت أن وجهة نظرك حول العالم غالباً ما تكون متأثرة بالتصورات التي تحملها داخلك، والتي ورثتها من بلدك الأم ومن نشأتك.

عندما تكون بصدد موقف غير قابل للتفسير ينبغي أن تأخذ نفساً عميقاً، وترجع إلى الوراء، ثم تنزع نظارتك الغربية المهيمنة، عندها ستمكن من البدء في تحديد ما هو لهم، وما هو لك، وما هي الحقيقة.

لا شك أنك عندما تفتح عينيك لتدرك قيمة شعوب أخرى وبلاد أخرى ومجتمعات أخرى تختلف عن بلدك وشعبك ومجتمعك فإن ذلك

أمر لا يقدر بثمان، ولا يوجد بلد آخر في العالم يجعل هذه التجربة أرق وأكثر نبضًا بالحياة من تركيا.

أنا أطوف في تركيا وأتعامل مع شعبها منذ وقت طويل، وقد نما في حب هذا البلد وثقافته بقدر حبي لوطني وثقافتني أو بقدر حبي لفرنسا وطني الآخر بالتبني.

أعرف أنكم جميعا لا تفهمون كيف أكنّ تلك المشاعر القوية تجاه البلد الذي ظهر بصورة سيئة في فيلم "محاولة الهروب" وتجاه هؤلاء "الأتراك البغيضين"، ما أريده منكم هو أن تعطوا تركيا فرصة، فهذه الرسائل هي محاولة مني بأسلوب السبيل لترسيخ تفاهم أكبر بين تركيا وسائر العالم؛ وعليه فأمل أن يكون في هذا العمل ردٌّ على أسئلتكم إذا ما سألتهموني جميعًا: لماذا أسافر إلى تركيا عامًا بعد عام، وأذهب مرة أخرى للأماكن المُنْغَبِرة نفسها بدلًا من استكشاف أركان العالم الأربعة كما فعل فيلياس فوج^(١)؟

غير أنني كما قلت من قبل لا أوجه هذه الرسائل لأهلي وأصدقائي والقراء الآخرين فحسب بل هي للشعب التركي أيضًا، وأتمنى أن تمثل رسائلي رسالة شكر طويلة وبسيطة لتركيا وشعبها، وتعبيرًا بسيطًا عن تقديري وحبي لهذا البلد ومواطنيه.

هذه الرسائل هي طريقتي لردّ الجميل، وردًا على آلاف الأكواب من الشاي التي قدّمت إليّ خلال السنوات الثلاثين الماضية، فيا لها من كمية كبيرة من الشاي، حقًا حقًا، وأقول لهم: نعم، أريد كوبًا آخر من الشاي.

مع تقديري

كاثرين

(١) بطل فيلم «حول العالم في ٨٠ يومًا» (المترجم).

الرسالة الثانية

قلم توازن وإدراك

عزيزتي السيدة ماري،

آمل ألا تنظري إلى هذه الرسالة على أنها تطفل مني، وأن تغفري لي تبجحي في الإقدام على الكتابة إليك؛ فقد شجعتني رغبتني في التعبير عن إعجابي بأسلوبك في الكتابة على مخاطبتك بشكل مباشر، وأود أيضاً التعبير عن الصلة التي شعرت أنها تربطنا بعد قراءتي للرسائل التي كتبتها إلى وطنك أثناء فترة إقامتك في تركيا من عام ١٧١٦م حتى عام ١٧١٨م.

أرجو أن تسمح لي بأن أقدم لك نفسي: اسمي كاثرين براننج، امرأة أمريكية وأمينة مكتبة، أشرت معك في عدة أشياء فمثلاً: كل منا تركت وطنها في سن صغيرة لتعيش في بلد أجنبي، كما أن كلتينا اخترت أن تغترب عن وطنها عدة سنوات من حياتها، أنا متزوجة أيضاً، وكلتانا تؤمن بأهمية التعليم، والأهم من هذا كله أننا نتشارك تركيا، فقد قضيت وقتاً طويلاً في السفر داخل تركيا خلال العقود الثلاثة الماضية.

أنا كاتبة رسائل مثلك، أسعد أيما سعادة بكتابتها، وأحب أن أرى الصفحة وهي تمتلئ بالسطور مثلما يمتلئ حوض الاستحمام بالمياه الدافئة، وأن أشعر بالتوتر قليلاً بينما يتحرك رأس القلم على الورقة، وأن أختار أدواتي في كتابة الرسائل بعناية: أفخر أنواع الورق الكثيف أو البطاقات الملونة، وقلم رشيق التصميم جيد الصنع يتوازن بشكل تام في يدي، وطوايع بريد مختارة بدقة مليئة بالألوان والإشارات التاريخية أو القضايا التي أفضلها.

كتابة الرسائل تحمل قدراً كبيراً من الأمل والإثارة، حتى إنني أشعر وأنا أكتب أنني أعمل بنفس الحب الذي أعمل به وأنا أطهو وجبة متميزة لأحبائي، وأتخيل سلسلة الأشخاص الذين ستمرّ بهم الرسالة وهي في الطريق، والسعادة على وجه صديقي عندما يرى الرسالة في صندوق بريده، وفضوله وهو يحل شفرة الطوايع، وحماسه وهو يلتقط مفتاح الرسائل ويفض الظرف، ثم فرحته عند قراءته لما أودّ أن أقوله له، ولكن فوق ذلك كله أعتقد أن أكثر ما أتلذذ به هو الحميمية التي تقدّمها كتابة الرسائل بين شخصين، وحالة الشخص وهو يتقدم أو يتأخر كما يحبّ عند تعبيره عن عاطفة ما لديه؛ وأقدر كيف يستطيع المرء أن يخفي الأفكار السرية خلف الكلمات، وكيف يستطيع أيضاً أن يخطو للأمام مع تلك الأفكار نحو دائرة الضوء.

لا شيء يمكن أن يحلّ محلّ الحميمية التي تسمح بها سطور الرسالة، وأنت يا سيدة ماري قد حظيت بذلك القدر دون شك... بين القسطنطينية وإنجلترا، وبين حياتك الجديدة الغامضة وحياتك المألوفة التي تركتها وراءك.

وعلى الجانب الآخر، تقدّم كتابة الرسائل قدراً كبيراً من الحرية والصراحة والطاقة؛ فكتابة رسالة ذات لهجة لاذعة تمكنني من تبديد الحزن الذي يصيبني في كثير من الأحيان.

لقد كتبتَ خمسًا وعشرين رسالة من تركيا خلال السنة التي قضيتها هناك، وهو عدد غير قليل؛ بالنظر لأنك كنت مشغولة بأمور منزلك الجديد، وبطفلك الصغير الذي يبلغ من العمر أربع سنوات، وبالاستعداد لولادة طفلك الثاني، ومنذ أن كتبتَ هذا العدد من الرسائل نجحت في أسر خيال عدد لا يحصى من القراء والفنانين، وخاصة خيالي أنا باعتباري رحالة كاتبة.

وبمرور الوقت اكتسبت مكانة مرموقة بصفتك واحدة من أبرز كتاب الرسائل باللغة الإنجليزية؛ فقد وصل إلينا نحو تسعمائة رسالة مطبوعة من رسائلك منذ أن كتبتها، أما تلك الرسائل التي كتبتها في تركيا ونشرت بعد وفاتك فلا تزال تُقرأ إلى اليوم، وتمثل منجمًا للاقتباس بالنسبة لكثير من كتاب الرحلات، كما تقدم الكثير والكثير من المادة الأولية للبحوث الأكاديمية عند دعاة الحداثة والمستشرقين ودعاة المساواة بين الجنسين.

لدي صديق تركي، وهو كاتب أيضًا، يقول: إنني أذكره بك، ويا له من إطرء! لا أعتقد أنه يعني أنني أمتلك نفس مواهبك وذكاكك، بل أعتقد أنه يقصد أنني أحاول أن يكون لدي نفس النظرة المتفتحة المحايدة تجاه ما حولي كما فعلتِ أنت، وهذا ما يجعل أسلوبك في كتابة الرسائل على هذا القدر من التميز في رأيي؛ فهذا التميز لا يرجع إلى ما تعرضين من نظرات ثاقبة في التاريخ والحياة اليومية خلال تلك الحقبة، بل إلى إدخالك عنصري السهولة والاتزان في موقف شخص غريب يعيش ثقافة مختلفة.

أنا معجبة بكيفية نقلك للأحداث والحقائق بشكل صريح وصادق، لا بشكل سلبي أو نقدي؛ فقد كنت سائحة لديها القدرة على الاعتراف بالجميل والتقدير، وتصرفت دائمًا كما لو كنت ضيفة في بيت أحدهم؛ فلم تكن نبرتك أبدًا نبرة الموبخ القاسي الذي يحتقر الأتراك وكأنه يمتاز عنهم أخلاقيًا، وأعطيت لنفسك حرية الشك في التركيبة المجتمعية الخاصة

بمجتمعك أنت، لا في تركيبة المجتمع التركي، ولم تصدري أبداً أحكاماً متحيزة ضدهم، وفهمت المعنى الحقيقي للتبادل الثقافي، وخاصة في مناقشاتك مع معلمك "السيد أحمد"، وبحثت عن التناقضات بين أوروبا الغربية وتركيا، وكذا التناقضات داخل أوروبا وداخل تركيا.

أنا أستمع بتخيل شخصية المرأة التي أراها وراء تلك الكلمات؛ لقد سعت بفضول وشغف تتعلمين كل ما تستطيعين تعلمه عن الحياة اليومية بدءاً من الدين إلى المواقف والأطعمة، وغمست نفسك في عالمك الجديد، ولم تعطي الفرصة لأي شيء ليعيقك عن استكشافه.

أشعر أنك امرأة ذكية ذات روح مبتهجة، يكون تألق ذكائها وسحرها في قمته دائماً عند نهايات رسائلها المتفائلة، وتقدم رسائلك إشارات بأنك تستطيعين أن تكوني ذات إرادة قوية وقلب طيب أيضاً تبعاً للموقف.

ما أروع الرسائل التي كتبتها لوطنك من تركيا يا سيدة ماري! وما يدهشني دائماً أن الكثير والكثير من المسافرين إلى تركيا عبر القرون المختلفة تقابلهم نفس القضايا ويتعرضون لحوادث سوء التفاهم والإحباطات نفسها؛ يبدو أن الجميع يفاجأ بنفس الأشياء سواء كانوا من العسكريين المغامرين في القرن التاسع عشر، أو من دعاة الحداثة في أواخر القرن العشرين؛ بعض الأشياء لا تتغير أبداً، وبعض الصراعات لا تجد حلاً أبداً؛ فالكثير من الأسئلة لا تزال دون إجابة.

عندما أنظر إلى تجاربي وأرى مدى محاكاتها لتجاربك، أشعر بأن هناك ارتباطاً بيني وبينك؛ كنت عازمة على تحقيق أفضل ما يمكن تحقيقه في كل موقف، والاستمتاع بالحياة، والحصول على كل ما تستطيعين من كل ما يصادفك.

أحاول أن أتخيل كيف كان رد فعلك تجاه الحوادث اليومية، وكيف تعاملت مع سوء التفاهم والارتباك المتكررين مرارًا بينما كنت تحتفظين بذهن صافٍ لا يصدر أحكامًا؛ حقًا إن ذلك كان منك بيسر ونبل دون تكلف أو شكوى على الإطلاق، ولطالما أعجبت بهذا فيك.

لقد حاولت أن أثبتني نفس أسلوبك المتفتح في عملي ورحلاتي، ولكن بصفتي غريبة أيضًا يستحيل علي أن أرى أي شيء بوضوح؛ فالغريبة ترغب أن تكون كالمواطنة، ويغلب عليها احتمال التحيز والإمبريالية.

وفي النهاية، أحاول عندما أسافر أن أطبق نفس الاستراتيجية التي ترشدني في مهنتي بصفتي أمينة مكتبة: أجمع المعلومات، ثم أنظمها، ثم أنشرها، ولا أحاول تفسيرها أو تعديلها، بل أنشرها فقط، أو هذا ما أحاوله، كما قلت أنت في رسالتك من راتيسبون: "من الحكمة أن يبقى المرء محايدًا" أو كما قلت من فيينا: "الكياسة والنشأة الجيدة تختلفان في الأجواء المختلفة، تمامًا مثلما تختلف الأخلاق والدين؛ ولن نعرف من على الصواب حتى يوم الحساب".

أنا متأكدة أنك تومئين برأسك وتبتسمين بسبب كثير من تعليقاتي التي شعرت بها قبلي منذ (٢٩٠) سنة، ولكن ليحي هذا التواصل، وهذا البحث الأبدي المستمر عن التفاهم، وهذه المقارنة، وهذا التحدي؛ ففي ثقافات العالم الكثير لشاركه وتكتسبه بعضها من بعض، وفي النهاية ربما نستطيع أن نتعلم كيف نشارك بشكل أمثل في حركة الإنسانية الحرة نحو مجتمع يسوده التفاهم والاحترام والسلام، قد يبدأ كل ذلك بكتابة رسالة، أليس كذلك؟

إذا هل تسمحين لي بمكاتبتك؟ سوف أسعد كثيرًا بأن أشاركك انطباعاتي الخاصة عن بلد كلتانا تعشقه؛ أتمنى أن تستمتعي بمعرفة التفاصيل عن تركيا في أواخر القرن العشرين، وسوف تطمئنين أن الكثير

والكثير من القيم والمعالم التي أعجبت بها كثيرًا سائدة في هذا البلد ولا تزال كما هي، ولسوف تسعدني أيضًا برؤية تطور ونمو هذا البلد وشعبه، أشخاص مثلك ربما أسهموا في تدعيم هذا النمو من خلال توضيحهم للأتراك بأن الغرب والغربيين يمتلكون من الكرم والطيبة ما يمتلكون.

مع تحيات صديقتكم

كاثرين براننج

الرسالة الثالثة

في العالم مكان يسمى سيواس

عزيزتي السيدة ماري،

آه يا سيدتي! لم تكوني في يوم من الأيام مضطرة للتعامل مع أي سؤال بالغ الصعوبة في رسائلك، ولا عليك سوى أن تشاركي بانطباعاتك عن هذا البلد الذي كنت تزورينه، وما أروع ما قدمت في هذا الشأن برأيي! ولكن لم يكن عليك أبدًا تبرير وجودك هناك، صدقيني غالبًا معالجة هذا الموضوع ليس أمرًا سهلاً؛ فقد أوفدت إلى تركيا، لمرافقة زوجك؛ فلم يكن لك خيار في هذه المسألة.

أعتقد أنك كنت تستطيعين البقاء في بلدك حول المدفأة في منزلك الكبير بالريف الإنجليزي، غير أن ذلك لم يكن ليمثل خيارًا بالنسبة لامرأة تمتلك هذا القدر الكبير من الفضول مثلك، لكن الأمر كان مختلفًا عندي؛ فقد ذهبت إلى تركيا استجابة لهوس لدي.

أمّا السؤال الذي يُطرح عليّ دائمًا "لماذا تركيا؟" فغالبًا ما أشعر بالإحراج الشديد ولا أفصح عن السبب الحقيقي لذهابي إلى هناك لأول

مرة، فأحياناً يكون الأسهل عليّ أن أتلعثم ثم أقول: إن لديّ أصدقاء أتراكا، أو بشكل أدق: إن لدي حبيبا تركياً -ويبدو أن هذه هي الإجابة التي يؤدّ كل الناس سماعها- أو إنني أستمتع بدراسة اللغات النادرة، أو إنني من هواة جمع السجاد، أو إن لدي عملاً في تركيا، ولكن السبب الحقيقي وراء ذهابي إلى تركيا لأول مرة هو رغبتني الجارفة في رؤية مبنى، نعم مبنى، ولكن ليس أي مبنى؛ إنه مبنى من القرن الثالث عشر، أقدم من أي شيء قد يتصور أمريكي وجوده أو رؤيته في بلدنا، فعندما رأيت هذا المبنى لأول مرة معروضاً خلال محاضرة بالجامعة لمادة تمهيدية لدراسة تاريخ الفن الإسلامي زُرعت بذرة في رأسي ظلت تكبر تدريجياً حتى استحوزت على حديقة خيالي بكاملها.

كنت في التاسعة عشرة من عمري فتاة من وسط الغرب الأمريكي من ولاية أوهايو، سافرت بعيداً جداً عن وطني للدراسة في إحدى جامعات فرنسا، كان اليوم الذي حدثت فيه هذه المصادفة في فصل الشتاء بباريس، وكالمعتاد في شتاء باريس كان الجو رمادياً وممطراً وقارساً وكنت جالسة في المدرج الضخم المظلم في يوم من أيام شهور الأولى هناك، وكنت أشعر بالوحدة قليلاً.

شعرت بالوحدة لأنني لم أكن قد كونت صداقات بعد، وبالإحباط لأن لغتي الفرنسية لم تكن جيدة بما يكفي لكي أفهم كل شيء بشكل تام، وباليأس لأنني وجدت نسق المحاضرات الفرنسية غير ودي على الإطلاق؛ فقد بدت تلك القاعات الضخمة رسمية تماماً مقارنة بالفصول الصغيرة المفعمة بالمشاركة التي تعودت عليها في نظام التعليم الأمريكي.

كنت أفقد الشدّ والجذب بين الطالب والمدرس، والهيّاج والكمياسة اللذين يميزان الفصل الدراسي في الولايات المتحدة، حتى إنني بدأت

أشكّ في مدى ملائمة المسار الدراسي الذي اخترته؛ وذلك لأن كل شيء كنت قد قابلته حتى تلك اللحظة بدا منفصلاً للغاية عن أية حقيقة تربط بين الفنّ والحياة، ولا يتناسب مع اهتماماتي بشكل كبير، كنت قد قضيت شهوراً في محاضرات مادة تاريخ الفنّ في دراسة الحفريات الفرنسية الشهيرة في بلاد ما بين النهرين القديمة، مع ساعات طويلة من المحاضرات المليئة بصور لا تنتهي للفائف التعاويذ والتماثيل الخرقاء التي ترجع إلى حضارات ميتة، كل ذلك بدا غير مثير للانتباه وعديم الفائدة ومملًا.

لكن في هذا اليوم الشتوي الرمادي، في منتصف المادة التمهيدية لتاريخ الفن الإسلامي، "أطلّ الملك من مركبه"، كما يُقال في الروايات الإغريقية؛ فقد ظهرت على الشاشة فجأة بلا سابق إنذار صورة هزني وأسقطت عني كل تشاؤمي وكآبتي، كانت صورة لمبنى بدا وكأنه قد بُني بحجارة من الذهب، وفجأة ظهر ما يبدو أنه كالسحر... إنها شمس الأصيل، ومن ورائها ضوء أصفر يتدفق من الشاشة ليضيء تلك القاعة الكثيفة، فشعرت فوراً أنني أقف في أرض فضاء في يوم من أيام الربيع تحت سماء تشبه زرقته زرقه أحجار القمر الخفية التي رأيته تزين جدران المبنى، كانت على هذه الأحجار الذهبية نقوش عميقة لحيوانات راقصة، ونجوم، ونباتات، وأشجار، وكتابة بحروف متصلة، وطيور يغلفها جميعاً شريط من زخرفة (الأرايسك) التوريق العربية، يشبه جمالها وتعبيرها السحري تماثيل الأديرة الفرنسية الرومانسية التي أعشقها.

قال الأستاذ: "...والآن ها نحن نرى مدرسة جوك الدينية في سيواس" لم أكن قد سمعت من قبل كلمات "مدرسة (medrese) وجوك (Gök) وسيواس (Sivas)" ولم يكن لدي أدنى فكرة أين يقع هذا المبنى

بالطبع -ولكن عندما كنت أكتب هذه الكلمات في دفترتي بأفضل ما أمكنتني- وأسرعت في تسجيل هذه الكلمات على دفترتي وأحسست أن تلك الكلمات هي مفردات للغة جديدة سأتعلمها.

ما الذي أسَرَ خيالي في هذا المبنى على هذا النحو؟ سأخبرك عن هذا في رسالة لاحقة، ولكن الكثير من رسالاتك أنت تمتلئ بأوصاف لمبان رأيتها؛ ولذلك فإنني واثقة من أنك تستطيعين إدراك ما أعنيه بشكل ما، يكفي أن أقول لك: إنَّ الأمر كان يشبه أول مرة تحدِّقين فيها في عيني رجل سوف تتزوجينه؛ عرفت تمامًا أنَّ الأمر حقيقي.

نعم، الحجارة لديها القدرة على ترجمة الدفء والحياة، والمعمار يستطيع تجسيد المشاعر الأكثر عمقًا ويجعلها حقيقية وملموسة، نعم لقد تأكدت من هذا في تلك اللحظة.

سارعت إلى المكتبة بعد المحاضرة للبحث عن كتاب يستطيع أن يوضح لي تلك الكلمات ويفسر معناها، عثرت على كتاب فيه خريطة توضح موقع هذا المكان الذي يسمى سيواس:

”سبسطية“: مدينة في وسط تركيا تمامًا، وأصبحت تلك النقطة على الخريطة بمنزلة رأس مؤشر البوصلة عندي، مثل علامة على خريطة الكنز تحدد المكان الذي دفنت فيه جرة الذهب؛ عرفت أنني يجب أن أذهب لرؤية البلد الذي تمكن من إنتاج مبنى كهذا بشكل مباشر.

استمرت الصورة تلازمني وتستحوذ على فكري مثل النبات المتطفل على ساق شجرة، وتظهر بشكل مفاجئ ليل نهار، وبعد فترة قصيرة أدركت أنني بحاجة لأحد أمرين: إما أن أزيل العشب الضار عن تلك الحديقة، وإما أن أمدّها بالسماذ، فقررت أن أسافر إلى تركيا، وأذهب إلى هذا المكان الذي يسمى سيواس لأعثر على هذا المبنى؛ فأنا أستطيع

-كما ترين- أن أجده، فهو ليس كنزاً مدفوناً، إنه هناك! الكل يستطيع رؤيته! أردت أن أقف أمامه، وأن ألمس تلك الأحجار الدافئة، وكنت مقتنعة بأنها سوف تكلمني، ومتأكدة أن لديها القدرة على الاستمرار في تحويل أيامي المظلمة إلى أخرى مشمسة.

وعندما كنت في تركيا أقف أمام هذا المبنى عرفت أنني قد عثرت على جرة الذهب في شوارع سيواس، لم يكن الأمر بحثاً عقيمًا لا فائدة منه؛ فقد عثرت على غنيمة أكبر من المبنى ذاته؛ عثرت على مثال جيد لانعكاس التطلعات الفنية إلى داخل الحياة اليومية: هذا معمار يتكلم وتلك الحجارة تتحدث.

ومنذ ذلك الحين عاهدت نفسي أن أصبح صديقة لهذا البلد الذي يسمى تركيا، أردت أن أعثر على مبانٍ أخرى مثل هذا المبنى، أردت أن أستكشف كيف شُيِّدَ هذا المبنى، وعلى أيدي مَنْ من البشر؟

وكلما زادت معرفتي بتركيا أكثر فأكثر من خلال الرحلات السنوية، والبحث، والاستكشاف، وعدد هائل من الحجارة طوال الثلاثين سنة التالية، لم يساورني الشك لحظة واحدة أنني سأبقى مرتبطة إلى الأبد بذلك البلد العظيم الذي يمتلئ بأشخاص لديهم قلوب دافئة تمامًا مثل تلك الحجارة.

صديقتكم

كاثرين براننج

SIVAS



سيواس



OTEL KÖŞK

SIVAS - TURKEY
55

دليل السائح وظرف الفندق، سيواس عام ١٩٧٨م



مدرسة جوك في سيواس عام ١٢٧١م



الرسالة الرابعة

بناء جسر

عزيزتي السيدة ماري،

لقد ذكرت في الرسالة التي كتبتها لـ "القس كونتي" التي تصفين فيها المرحلة الأخيرة من رحلتك البرية عبر أوروبا إلى القسطنطينية أنك قضيت ليلتك في مدينتي سيليفري ويويوك شكمجي، تشتهر هاتان المدينتان بالجسور العثمانية الشهيرة التي أثارت إعجابك مثلما تثير إعجاب الزائرين اليوم:

"مررنا في بقية رحلتنا عبر مروج مصبوعة بالألوان الجميلة على شاطئ بحر مرمره "برويونتس قديمًا"، وقضينا ليلتنا التالية في سيليفري -كانت قديمًا بلدة راقية-، وهي الآن مرفأ بحري جيد جدًا، مبنية بشكل منسق ومنظم، وفيها جسر يحتوي على اثنتين وثلاثين قنطرة... ثم قضينا الليلة التالية في بلدة تسمى "بويوك شكمجي" أو "الجسر الكبير"، واللييلة التي تليها في "كوتشوك شكمجي"، أو "الجسر الصغير" في نزل مريح جدًا، كان في السابق تكيّة للدراويش، وكان أمامها ساحة واسعة تحيط بها حجرات رخامية تتوسطها نافورة رائعة، إنَّ المشهد من هذا المكان والحدائق المحيطة به من أروع ما شاهدت، وهو دليل على أن رجال الدين في كل الأديان يعرفون كيف يختارون أماكن خلوتهم".

قام السلطان سليمان القانوني قبل وفاته بفترة وجيزة عام ١٥٦٦م بتكليف سنان معماري السراي بتشييد جسر "بيوك جكمجه" الذي يمر فوق بحر مرمره بقناطره المميزة المحددة الرأس، وتشييد جسر "سيليوري".

لا شك أن قوات السلطان أحمد الثالث التي شاهدتها في أدرينوبل (Adrianople) "أدرنة" قد عبرت هذين الجسرين قبل في رحلتها إلى ساحة القتال في النمسا، وهي في طريقها للاشتراك في الحرب ذاتها التي حاول زوجها أن يفاوض لعقد هدنة لها، لم تخفت حدة حلم الأتراك الدائم في مد نفوذهم في أوروبا منذ الأيام المجيدة الأولى لبناء هذين الجسرين المقنطرين.

يحدوني الفضول لمعرفة انطباعاتك عن هذين الجسرين؛ لأن الجسور التركية قد لعبت دورًا في حياتي؛ ففي نفس الوقت الذي عثرت فيه على هذه الأحجار المتحدثة في مدرج الجامعة حدث موقف آخر يستحيل أن يكون بمحض الصدفة، كان بمنزلة سهم آخر يشير في خريطة حياتي إلى الطريق المؤدي إلى تركيا.

حينما انتقلت للحياة في باريس وأنا طالبة شابة، كان من الضروري أن أجد عملاً لأدفع نفقات معيشتي، وقد أسعدني الحظ بالعثور على وظيفة في شركة تقدم خدمات الترجمة لشركات الهندسة المدنية الفرنسية الكبرى؛ وهكذا عملت مع فرق من المهندسين الذين يحاولون فك شفرة وثائق فرنسية صعبة وترجمتها إلى الإنجليزية، مثل وثائق الرموز الصناعية، وطلبات العطاءات، ومعايير البناء، والمناقصات، ووثائق التشييد، وما شابه، كان عملاً رتيباً جداً لكنني أحببت فيه الدقة والإتقان والوضوح؛ لهذا أشعر كثيراً أن هذه التجربة قادتني للعمل أمينة مكتبة، عندما بدأت العمل في هذه الشركة كنت فتاة صغيرة بريئة مبتدئة،

فكنت خائفة بعض الشيء؛ لهذا كان أول مشروع ترجمة يُسند إليّ يعتبر خطوة مهمة لأثبت نفسي وقدراتي، وحينما علمت أنني سأعمل على ترجمة مناقصة لتشييد جسر شعرت فجأة بالألفة تجاه المشروع والرغبة الشديدة في تشييد جسور بين فرنسا والدول النامية.

غير أن هذا الجسر لم يكن كأبي جسر، فمن المقرر أن يعبر واحدًا من أشهر المجاري المائية في العالم "مضيق البوسفور" في إسطنبول بتركيا؛ إنه جسر جديد سيبنى شمال الجسر الأول الذي بُني عام ١٩٧٣م. بالطبع كنت أعرف جغرافيا المكان جيدًا، لكنني في تلك الليلة أحضرت الخريطة ونظرت عن كثب إلى موضع التشييد المحدد، وكانت الصدفة أن موقعه في نفس الأرض ذات الأحجار المتحدثة التي شاهدتها في الصف، ولم أنس ذلك مطلقًا.

على مدار الأشهر التالية بذلنا جهدًا كبيرًا في ترجمة وثائق هذا العطاء، التي كانت تمثل الأوراق التجارية التي ستقدمها إحدى أكبر شركات التشييد الفرنسية لهذا المشروع الدولي الضخم.

لقد هالتني ملايين الدولارات المرصودة لهذا المشروع، علاوة على حجم البناء، وكمية المعادن، وحمولات المحمل، والحسابات المتخصصة، كل هذه الأمور أربكتني، ومع أنني نشأت في بلد كبير معتاد على تشييد مباني ضخمة، فإنني لم أتعامل سابقًا مباشرة مع مشروع بهذا الحجم الهائل.

بعد ساعات من ترجمة معاملات الإجهاد ومعادلات تحميل الحمل كنت أعود إلى منزلي ليلاً وأحضر كتابًا لدراسة صور مضيق البوسفور، وكنت أحاول الإجابة عن بعض الأسئلة التي تطرأ في ذهني حول دوري في هذا المشروع، أسئلة مثل: ماذا سيكون دور "جسري"؟ كيف سيغير

حياة الناس المقيمين على جانبيه؟ هل سأضرر بهؤلاء الأشخاص كما تسحق الأبراج الضخمة أشجار الأرجوان على ضفاف البوسفور؟ هل هذا الجسر يحترم التاريخ والبيئة الطبيعية هناك؟ ما مقصد قادة البلد من إتمام هذا المشروع؟ ظلمت أنظر إلى صور قديمة وحديثة، وإلى مجموعة رسوم شهيرة رسمها ميلينج تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، وحاولت استيعاب تاريخ المنطقة وسياقها.

الفرق شاسع بين الرسوم الحجرية القديمة التي تعكس صورة المياه الهادئة وقوارب التجديف الخشبية المتكاسلة، والعالم الحديث المليء بالسيارات المسرعة المكتظة بالركاب والشاحنات المزعجة الممتلئة بالبضائع.

ومع ذلك، كلما قرأت أكثر عن تركيا وتاريخها وأحلامها بدأت أفهم أن هذا الجسر ليس مجرد قناة لعبور السيارات والأشخاص، بل إنه بمنزلة ممر لنقل الأفكار والقيم؛ إنه يرمز لتقدم هذا البلد، إنه المسمار الذهبي الذي سيربط الطريق الممتد عبر القارات ليصل آسيا بأوروبا.

وهكذا بدأت أربط أهداف هذا الجسر وحجمه بالأرض التي سيبنى عليها، حينها شعرت فجأة أنني جزء من شيء عظيم إنه ميلاد بلد قوي، وأن مشاركتي الصغيرة سيكون لها أثر في حياة الأشخاص الذين سيعبرون هذا الجسر يوميًا، في البلد الذي تستقر فيه أبراجه، وفي عالم الأفكار الذي سيسافر عبره من الشرق إلى الغرب والعكس.

شرعت أقرأ عنهم عن تاريخ هذا الشعب، وخاصة عن الرجل الذي سيحمل الجسر اسمه "السلطان محمد الفاتح"، المجاهد الذي فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م؛ وأدركت أن هذا الجسر قدّر له أن يواصل مسيرة العظمة والتوسع التي بدأها السلطان، كما أن هذا الجسر سيحقق

طموحات رجال عظماء آخرين، مثل سليمان القانوني وأتاتورك فضلاً عن قادة الجمهورية التركية الحديثة.

أدركت أن شعب تركيا ما زال يتحلى بعد مرور مائتين وستين عاماً بنفس روح "الفتاح"، ولأنني نتاج بيئة غرب أمريكا المتوسط؛ ففهمت هذا الطموح وأعجبت به، أردت أن أعرف المزيد عن هؤلاء البناة المتحمسين، وحلمت بعبور الجسر معهم.

يمكنك أن تري يا سيدة ماري، كيف عايشت قصة جسر الفاتح في مرحلة من حياتي؛ شعرت بصلة قرابة مع هذا البلد المتلهف لتحديث نفسه، وهذه عادتي دائماً، فأنا أدمعهم في هذا.

تعلقت بهؤلاء الأشخاص الذين سيعبرون يوماً ما "جسري"، وتخيلت شعورهم في تلك اللحظة التي يتمكنون فيها من تحريك رأسهم لرؤية الأفق الشرقي والغربي، علاوة على شريط المياه الزرقاء الحريري أسفلهم.

أثناء عملي مع هذه الوثائق بدأت أفكر أيضاً في مشروع بناء حياتي؛ فمشروع الجسر قد أصبح المحك الذي أختبر عليه الأسئلة التي حيرتني خلال انتقالي من مرحلة الشابة المتلقية إلى الراشدة المنتجة: هل أريد أن أصبح صانعة جسور لربط الثقافات؟ هل أريد أن أساعد الناس على العبور من مكان إلى آخر؟ هل أريد أن أبني بالفعل أشياء كما فعل والدي الذي امتهن البناء؟ هل أريد أن أكون مترجمة لإبداع الآخرين أم أكون أنا المبدعة؟

أفترض أنك طرحت نفس هذه الأسئلة على نفسك يا سيدة ماري عندما شرعت في مهنتك بوصفك كاتبة: ما الذي دفعك لالتقاط القلم في البداية؟ ما الذي شجعك وحثك على التقدم بسرعة في مساعيك الأدبية، بالرغم من القيود الاجتماعية التي كبلتك؟ أيأ كان الدافع الذي شجعك على ذلك فيبدو أنه بالنسبة لي كان الجسر التركي.

للأسف لم تحصل الشركة الفرنسية التي أتحدث عنها على عقد بناء جسر الفاتح، لكنها استمرت -وكذلك فعلت- في بناء جسور أخرى، ومستشفيات في إفريقيا، وجامعات في المملكة العربية السعودية، لكن الحقيقة أنني لم أجد أية وثائق بين التي ترجمتها تحمسنى وترضيني أو تمس قلبي مثل وثائق جسر البوسفور.

بعد إتمام جميع وثائق العطاء وإرسالها، كنت متأكدة أنني قدمت أكثر من مجرد ترجمة؛ فقد وجدت المحك الذي سأقيس عليه بقية حياتي، نعم، لقد أردت بناء أشياء، فضلاً عن الشعور بالقوة والإنجاز الناجمين عن ذلك.

نعم، لقد أردت مساعدة الناس على العبور من ضفة إلى أخرى على جسر التفاهم، والأهم من ذلك كله أنني علمت أن تركيا ستشكل جزءاً مهماً في حياتي القادمة.

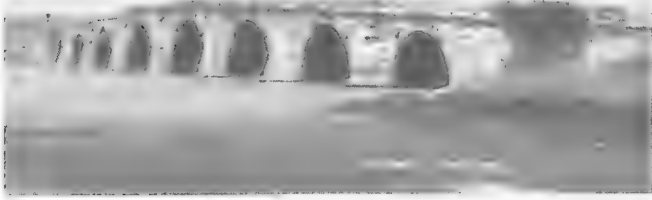
تحدث الكثيرون منذ ذلك الحين عن جسر الفاتح وما يرمز له بوضوح من عناصر مختلفة للصراع الثنائي العنيف الذي اعتمل في قلب كل تركي قروناً بين الشرق والغرب، والقديم والحديث، والديني والديني، والأوروبي والآسيوي، والتراث العثماني والرؤية الأتاتورية، والبسطاء والعلماء، والفقير والثراء، والمدينة والريف.

ما زالت هذه الرموز تشغل الكتاب حتى الآن، وما زال الجسر يكرر نفس السؤال الملح: "في أي جانب تقف؟" إن الكابلات الحديدية المزدوجة التي تعلّق هذا الجسر قوية ومرنة معاً، مثلها مثل القضايا الجغرافية، واللغوية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية المتعددة التي تدور الآن في جمهورية تركيا، لكن الجسور في النهاية رمز القوة؛ فالشخص الذي يتحكم في الجسر يتمتع بتفوق استراتيجي، هذا هو الموضع الذي

اختارته إسطنبول لنفسها بمساعدة هذا الجسر؛ لتغدو الحلقة المركزية في السلسلة الأوروبية والآسيوية.

وكما ترين يا سيدة ماري؛ لهذا سألتكِ عن انطباعاتكِ عن هذين الجسرين في مدينتي سيليفري وبويوك شكمجى، فقد كنتِ حينها مثلي ومثل تركيا -وقت بناء هذين الجسرين العثمانيين وجسر الفاتح- على مشارف حياة جديدة؛ لم تعرفي وقتها ماذا يوجد في الجانب الآخر من هذا الجسر ذي الاثنتين والثلاثين قنطرة، أو إلى أين يؤدي الطريق في الجانب الآخر، لكنكِ عرفت -بمجرد بناء جسر في هذا المكان- أن الجانب الآخر يستحق الوصول إليه، وهذا هو ما يجعل عبور الجسور تجربة مثيرة.

مع تحيات صديقتكم
كاثرين براننج



جسر بويوك شكمجى ذو القناطر التسع عام ١٥٦٧م



جسر سيليفرى ذو الاثنتين والثلاثين قنطرة "وما زالت القناطر كلها واضحة كما كانت في أيام السيدة ماري مونتاجيو" عام ١٥٦٨م



جسر الفاتح في إسطنبول عام ١٩٨٨م

الرسالة الخامسة

عبور الجسور

عزيزتي السيدة ماري،

وهكذا توجهت صوب بلاد الجسور والأحجار المتحدثة في صيف

١٩٧٨ م.

لم أسجل بدقة انطباعاتي عن الزيارة الأولى في دفتر رحلاتي؛ ربما لأنني كنت منبهة لدرجة تفوق تصوري، فلم أتمكن من توثيق كل شيء. غير أنني أذكر بوضوح شعوري بالسعادة عند رؤيتي أول مسجد ذي مآذن تشبه قلم الرصاص وأنا في الطائرة فور وصولي إلى إسطنبول "الاسم الحالي لمدينة القسطنطينية التي تعرفينها".

ماذا كان انطباعك عن هذه المدينة الرائعة يا سيدة ماري؟ لقد وصفت أول مرة ترين فيها إسطنبول ق. لي بنحو مائتين وتسعة وخمسين عاماً بالآتي:

”... وصلنا في الليلة التالية إلى القسطنطينية، لكنني لا أستطيع أن أخبركم الكثير عنها بعد؛ لأنني انشغلت تمامًا بتلقي الزيارات... قصرنا يقع في منطقة بير^(١)، وهي ضاحية من ضواحي القسطنطينية تشبه ضاحية ويستمنستر خارج لندن، ويقيم جميع السفراء بالقرب منا.

يطل أحد جوانب منزلنا على المرفأ والمدينة وجناح الحريم في قصر السلطان، وعلى تلال آسيا البعيدة، ولعلها أجمل إطلالة في العالم كله!

ذات مرة قال كاتب فرنسي: ”إن حجم القسطنطينية ضعف حجم باريس...”

بالطبع كان جسر البوسفور الأول من أهم الأشياء التي تركت انطباعاً قوياً في نفسي، ذلك الجسر الذي بدا وحيداً وقتئذ؛ لأن ”جسري“ جسر الفاتح لم يكن قد بُني بعد؛ يا له من مشهد جليل؛ بموقعه الحيوي وامتداده يكاد يشبه جسر البوابة الذهبية، أو جسر بروكلين في بلدي!

في وقت لاحق اختبرت بنفسي شعور الفخر الذي شعر به الأتراك نحو هذا الجسر؛ ففي زيارة لاحقة لتركيا نزلت عند أسرة صديقة لي في مدينة سوادي على الجانب الآسيوي من الجسر، وذات يوم أخبرتني الأسرة: أنها قد أعدت مفاجأة لي، حينها لم أكن أفهم اللغة التركية جيداً؛ لذا لم أعلم ما هي المفاجأة، لكنني كنت مستعدة لها. ركب جميع الأعمام، والعمات، وبعض الأبناء، وأنا، وصديقتي في سيارة قديمة من نوع ”شيفروليه“ وانطلقنا.

كان يوماً شاتياً متجمداً والثلوج تتساقط؛ لهذا سعدت بالدفع المنبعث من تكدس ثمانية أفراد في السيارة.

حينها كانت تركيا تمر بحالة من الفقر والصعوبات الشديدة في شتاء عام ١٩٨٠م، بعد أن فرضت الأحكام العرفية؛ ومن هنا أدركت أن حرق الوقود الشحيح في رحلة كهذه يدل على أنها رحلة مميزة جداً.

فور أن بدأنا الرحلة أخبروني أنهم سيعبرون بي جسر البوسفور، وقالوا: "نريدك أن تحلقي فوق المضيق كالطائر، وتشاهدي العبارات من أعلى، لتجربي إحساس العبور من قارة إلى أخرى!"

كانوا في غاية الفخر وهم يمنحون ضيقتهم هذه التجربة، وقد خانتني الكلمات حينها، ولا أحد فيهم يعرف علاقتي الشخصية بمضيق البوسفور والجسور.

وإذا ظننت يا سيدة ماري أن الإطلالة من منزلك كانت "أجمل إطلالة في العالم كله"، فيجدرك بك مشاهدة هذه التلال الآسيوية من أعلى الجسر على ارتفاع خمسة ومائة قدم في الهواء؛ فهكذا عبرت أول جسر لي في تركيا في تلك السيارة المليئة بالأتراك المفعمين بالحماس، خطوات خطوة رمزية مهمة لما بقي من حياتي؛ إذ شعرت بإثارة الانتماء لشيء أكبر مني.. شيء يجذبني بخيوط سحرية.

بعد عبوري الجسر لم يعد شيء كسابق عهده مطلقاً؛ فقد بدأت السير من أحد جوانب الجسر بوصفي زائرة سائحة، ووصلت إلى الجانب الآخر وأنا أكثر من ذلك.

حينما سافرت إلى فرنسا في البداية عدت ذات ليلة في أواخر شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر إلى منزلي سيراً على الأقدام تحت أضواء الليل،

وفي تلك الليلة الخريفية الباريسية غرس في ضوء الغسق المترامي على محطة قطار "مترو رو دو باك" شعورًا لن أنساه ما حييت، فجأة رأيت كل شيء بوضوح، وشعرت أنني أنتمي إلى هذا المكان، ملأني شعور بأنني مقبولة، وأنني أستطيع العثور على مكاني، وأستطيع النمو في هذا المكان، وأنني في هذه الرحلة سأكون وسط رفاق، وأنني سأتلقي دعوة للمشاركة في الحياة هناك عسى أن أقدم لهم شيئًا ذا بال.

شعرت أن المكث هناك والبحث عن سعادتي من حقي، وكما أحيت باريس أحببني وبادلتني الشعور، وهذا هو نفس الشعور المؤكد الذي ملأني عندما عبرت جسر البوسفور.

تركيا مثلي، تتفقد مسارها مع مرور السنين، وتنمو، وتوسع؛ لقد غدت تركيا بمنزلة جسر لي، أو مكان آمن فوق المياه الهادئة والمضطربة؛ إنها تذكرني باستمرار أنني أعبر لأذهب إلى مكان ما، وأنني دائمًا بين صفتين: الضفة التي أنا عليها، والأخرى التي أستطيع الوصول إليها أو بلوغها.

يعلمني عبور الجسور أن أكون مستعدة ومتسلحة بالثقافة لعبور طريقي، سواء هنا أو في وطني، وأن أبحث عن شخصيتي في تواريخ الآخرين المتباينة؛ لقد تركت تركيا بصمتها على حياتي كما تركت بصمتي على حياتها، وأنا أواصل السفر وعبور الجسور لأفهم هذا الرابط العاطفي الدائم الذي يربط شاطئي بشاطئها.

حتى يومنا هذا أجد متعة وإثارة في عبور أي جسر، وما أكثر الجسور في تركيا، لا يقتصر الأمر على الجسرين الواقعين خارج "أدرنه" اللذين عبرتهما يا سيدة ماري، أو الجسرين اللذين يعبران مضيق البوسفور، بل ثمة مئات الجسور الأخرى التي بُنيت على مدار آلاف السنين، على يد الرومان أو البيزنطيين أو السلاجقة أو العثمانيين، وهي إنما بُنيت لتربط طرق الاتصال والثقافة والتجارة المتفرقة.

وأنا أحرص في رحلاتي أن أعثر على الجسور وأسير فوقها، وحين أعبرها ببطء شديد أشعر أنني أستمد من صخورها القوة، وأفكر في كل الأشخاص المشهورين والمجهولين، البسطاء والمهمين، الذين خطوا نفس خطواتي؛ فالحيوانات والفلاحون والمسافرون والمحاربون والملوك والسلاطين والدراويش كلهم عبروا قبلي هذه الجسور.

من بين الجسور اللافتة التي عبرتها: "الجسر المقوس" في ضواحي مدينة سيواس، حيث تمرح كلاب الكنجال التركية على ضفتيه، وجسر "أك" الذي يقع في وسط مدينة أنقرة النشطة، وهو يعود إلى القرن الثالث عشر، وجسر "خان كيسك كبور" الطويل ذو القناطر الثلاث عشرة، و"جسر مالابادي" الكبير، وجسر "البيزنطيين" الذي يعود إلى القرن السادس ويقع خارج أسوار مدينة ديار بكر ويمكن رؤيته من الفضاء، والجسر المفضل لدي "الجسر السلجوقي" الصغير الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات، فهذا الجسر يلهمني بجماله وموقعه وبساطته والرسالة التي يحملها؛ فقد تمكن ثلاثة إخوة يتنافسون على العرش السلجوقي أن يضعوا خلافاتهم جانبا لينوا هذه التحفة الفنية الصغيرة التي تربط محور التجارة الجديد من الشمال إلى الجنوب في مملكتهم.

دعونا نحن أيضًا -حكامًا ومواطنين وأمما- نضع خلافاتنا جانبًا لنبني بعض الجسور، ونعبرها معًا خطوة تلو الأخرى.

صديقتكم

كاثرين براننج



جسر "هادريان" الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات عام ١٢٥٠م



جسر البوسفور، إسطنبول عام ١٩٧٣م

الجزء الثاني

وطن

الرسالة السادسة

وطن بعيد عن الوطن

عزيرتي السيدة ماري،

لم تكن هناك ولايات متحدة أمريكية وقت كتابتك لخطاباتك، لكنك عرفت بالطبع المستعمرة البريطانية غرب المحيط الأطلنطي، حيث هاجر الكثيرون من بلادك لتأسيس أعمال تجارية ومستوطنات ومزارع.

كثير من أبناء وطنك من المتحضرين وأصحاب المتاجر المتعلمين والتجار وأصحاب الحرف المهرة والمزارعين تطلعوا لحياة جديدة في هذه المستعمرات، كما أن نسل آل كويكرز الذين عاشوا شمال ميدلاندز -القرية من بيت عائلتك "ثورسبي هول" - أقاموا مدينة شكّلت جزءاً مهماً من تاريخ أمريكا، إنها مدينة الحب الأخوي "فيلادلفيا".

وقدّم الهولنديون والسويديون والألمان أيضاً، وتعلّمت هذه المجموعات من المستوطنين بعد البقاء معاً مائة عام كيفية تقبل الآخر، واحترام الاختلاف في التقاليد والديانات.

وفي سبيل الحفاظ على ما يتمتعون به من ممتلكات واستقلال، ولمواجهة "الضريبة بدون تمثيل برلماني" تلك التي فرضها الملك جورج الثالث ابن الملك الذي كان في الحكم عندما سافرت إلى تركيا؛ قام هؤلاء "الأمريكان" بالتحالف معاً والفوز في معركة حامية لنيل استقلالهم، وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية.

لا أسرد لك كل هذا لأسخر من عدم قدرة ملككم القوي على الاحتفاظ بهذه المستعمرة، ولكن لأخبرك أن بلاداً رائعة قد وُلدت نتيجة لذلك، إنها

أول دولة ديمقراطية في العالم بأسره، فالمبادئ التي قامت عليها كانت ثماراً لبجد رجال رائعين حضر أغلبهم من الشواطئ الإنجليزية.

حينما ذهبت إلى تركيا أول مرة في صيف عام ١٩٧٨م حدث لي شيء عجيب، شعرت بأنني لم أذهب إلى بلد غريب، بل شعرت أنني عدت إلى وطني أمريكا، ذاك البلد ذي التنوع في العادات والأعراق والديانات.

ولأنك لا تعرفين أمريكا؛ فأنا واثقة أنه من الصعب عليك أن تدركي ما أتحدث عنه؛ لذلك دعيني أحاول أن أشرح ذلك لك: أذكرك أنني وقت زيارتي الأولى لتركيا كنت أقيم في فرنسا سنوات، أنت أيضاً تعرفين فرنسا والفرنسيين جيداً؛ فقد قضيت بعض الوقت في ليون وباريس في طريق عودتك من القسطنطينية إلى إنجلترا، وكانت لك بعض الملاحظات الشائقة الصائبة حول المجتمع والحضارة الفرنسية؛ فقلت مثلاً: "تفوق فرنسا على إنجلترا بنظافة أرصفة الشوارع، وبناء كل المنازل من الحجارة، وأن أغلب منازل الأشخاص رفيعي المستوى تزينها الحدائق"، لكنك لم تتحملي السيدات الفرنسيات، فهن على حد قولك: "تافهات في اختيار ثيابهن ومتصنعات في زينتهن"، علاوة على انزعاجك من "الإطراء الغث وقلم لوبران المتكلف".

يعجبني هذا البلد وحضارته كثيراً، لكنني أقر أنه ليس مكاناً يسهل على غريب العيش فيه أحياناً؛ فكثيراً ما يشعر المرء في هذا المجتمع بالإقصاء لاختلاف محل ميلاده أو تراثه أو ديانتته أو مهاراته اللغوية، بالإضافة إلى أن الثقافة الباريسية تسعى دائماً لتحقيق الرقي والكمال.

ومع أنني أجنبية فقد كان يتوقع مني أن أسير وفق نفس هذه القواعد في السعي وراء التميز، وفي بعض الأحيان كان من الصعب تحمل ذلك.

قارنوا معي، هذه تركيا بلد متسامح ومتقبل للآخر؛ عندما ذهبت إلى تركيا لأول مرة شعرت بالتححرر من هذا النسيج المجتمعي الصارم،

لم أشعر بأن الأشخاص يراقبون كل خطواتي في انتظار أن أخطئ، بل وجدتهم متسامحين وطيبين، مثلهم مثل أهل أمريكا حيث نشأت.

قد يكون من الصعب أن أشرح لك ذلك يا سيدة ماري، لكنني عندما تعرفت إلى هذا البلد وقابلت أهله الودودين، أدركت أنهم سيفهمونني لأننا نتحدث نفس اللغة، لقد شعرت أنك ذاهبة إلى ثقافة مختلفة تمامًا عنك أما أنا فشعرت أنني عدت إلى وطني.

وكلما عرفت عن تركيا أكثر زاد اقتناعي أنها تشبه بلادي أمريكا على مستويات مختلفة:

أولاً على المستوى الشخصي، نشأت في عائلة من الوعاظ والمعلمين، ولم أتخل عن نظرة سكان الغرب الأوسط المتطلعة نحو المدينة والأماكن الغربية والثقافات الأخرى؛ فسهول الغزلان الواسعة التي رأيته خارج سيواس بدت لي كحقول الذرة والقمح الواسعة في أمريكا، وهدير الجرارات ورائحة الطين والسماد أعادتني إلى البراري في حقل عمي في كانساس، أما إزناك فقد بدت مثل قرية صغيرة في أوهايو تصطف أشجار الجميز على جانبي شارعها الرئيس وذكرتني مدينة توقات بقرية من قرى رعاة البقر.

والحياة في هذه القرى تشبه الحياة في قرى الغرب الأوسط، حيث أكوام الحبوب والجرارات والمقاهي، يمكنك فقط أن تستبدلي المقاهي بحدائق الشاي، لكن الصداقات المتينة والحوارات المتبادلة حول المحاصيل والضرائب ستظل واحدة.

يطعم الناس في البلدين أحاديثهم بمقتطفات من النصوص الدينية، كما يتشابهون في دفاعهم الشديد عن القيم المشتركة الخاصة بالدين والعائلة، والأطفال، والأرض الجيدة، والمجتمع، والمشاركة، والبساطة، والإيمان بالله وطاعته، وحب الطبيعة، والحيوانات، والحياة اليومية، والحب، والزواج، والكفاح من أجل البقاء، وفوق كل هذا حب الوطن.

السؤال الآن: هل أتيت إلى تركيا في رحلتي الأولى متحاملة على الأتراك؟ لا أعتقد ذلك؛ لأنني أمريكية ولست أوروبية، فلست متأثرة بحصار الأتراك لفيينا، بل إنني لأذكر وقوف الجنود الأتراك جنبًا إلى جنب مع أبناء وطني في كوريا، وانحيازهم إلى جانبنا في الناتو.

مجرد النظر إلى جغرافيا البلدين كافٍ لإيجاد القواسم المشتركة بين الولايات المتحدة وتركيا؛ فأمريكا بلد كبير، وتركيا بلد كبير أيضًا مقارنة بالبلاد الأخرى في أوروبا؛ فهي أكبر من فرنسا وألمانيا مجتمعتين، والبلدان لهما جغرافيا متميزة؛ فكلتاهما تضم سبعة أقاليم متنوعة ومختلفة، وتكوينهما متشابه جدًا؛ فالشمال الشرقي، والأطلنطي، والجنوب، والبحيرات العظمى، والسهول العظمى، والشمال الغربي، والجنوب الغربي في الولايات المتحدة؛ كلها تشبه كثيرًا الأقسام السبعة لتركيا: هضبة الأناضول، والمرتفعات الشرقية، والجنوب الشرقي، والمنطقة المركزية، ومنطقة البحر الأسود، والبحر المتوسط، وبحار إيجه وتراقيا ومرمرة، وتركيا كأمريكا ثرية بالشواطئ والسهول والجبال وبعض الصحاري وبمناخها المتنوع، ويحيط بكليهما بحران، وتعرض كلتاهما لتغيرات مناخية واسعة شديدة، بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية الخطيرة كالزلازل والأعاصير والعواصف والفيضانات والانهيارات الثلجية، والولايات المتحدة الأمريكية تمر فيها سلسلتان أساسيتان من الجبال من الشمال إلى الجنوب، بينما تمران في تركيا من الشرق إلى الغرب، والبلدان بهما أنهار عظيمة مثل: دجلة والفرات والميسيسيبي وأوهايو، وكلتاهما بلد القمم الجبلية المهيبة: (أرارات، وأرجيز، وأولوداغ، وماكنلي، ورينييه)، وتدخلهما سلاسل من البحيرات (بحيرات منطقة أغيردير، والبحيرات العظمى، وبحيرات الإصبع)، وبهما حياة برية خلاصة وطيور، وبهما وفرة في الموارد الطبيعية كالماء والفحم، بالإضافة إلى المحاصيل المتنوعة من الفواكه الاستوائية كالموز والموالح، وكل أنواع الحبوب الممكنة.

وبالنظر إلى تكوين المجتمع فهناك أوجه للتشابه أيضاً: فتركيا مثل أمريكا تعتمد نظام الكفاءة والاستحقاق؛ فالمجتمع يتكون من مواطنين وصلوا إلى مكانتهم بالعمل الجاد، وليس نتيجة ما ورثوه من طبقة اجتماعية أو مزايا الميلاد كما في فرنسا وإنجلترا بلدك.

يوفر البلدان لمواطنيهما قدرة هائلة على الحراك الاجتماعي؛ فقطاع الأعمال التركي نشط جداً كما في أمريكا، ومستعد أن يدخل القرن الحادي والعشرين بخطى موازية لباقي العالم، وتركيا مليئة بأفراد أقوياء إيجابيين ذوي إرادة، عازمين على النجاح، لا يهابون الوقوع في الأخطاء، تماماً مثل مواطني بلدي.

لكن ربما يكون أكثر ما يشعرني بتشابه البلدين هو ملامح السكان؛ فهناك أنواع كثيرة مختلفة من الأتراك! لقد تركت كل الثقافات أثرها على موروثات الأطفال الذين وُلدوا هناك: الرومان، والبيزنطيين، والفارسيين، والأرمن، والعرب، واليونانيين، والجورجيين، والبدو القادمين من وسط آسيا، والسلاجقة من إيران، والمنغوليين من الشرق والعثمانيين؛ فكما تتمتع تركيا بالتنوع الإقليمي الواسع فإن لديها تنوعاً بشرياً كألوان الطيف.

معنى أن تكون تركياً أن تكون مواطناً في الجمهورية التركية، فالكلمة تشير إلى الجنسية لا إلى الهوية العرقية.

الأتراك ورثة العادات الثقافية الدولة العثمانية ومثل التجديد التي تبناها أتاتورك والغرب.

نحن مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية نتفهم ذلك؛ فكلنا أتينا من أماكن مختلفة بلغات وديانات وثقافات مختلفة، واتحدنا بهدف بناء بلد عظيم.

ليس التشابه في سمات الأشخاص والأراضي فقط هو ما يجعلني أشعر أنني في وطني، بل إن مشكلاتنا متشابهة أيضاً؛ لقد رأيت قرى معدمة مليئة بأطفال جياع وبيوت مهدمة، فالفقر في تركيا الشرقية كما هو في أبالاتشيا، وحجم التباين بين الأغنياء والفقراء صاعق كما في أمريكا. كذلك واجه البلدان مؤخراً كوارث طبيعية قاسية: زلزال أزميت عام ١٩٩٩م، وإعصار كاترينا الذي ضرب نيو أورلينز عام ٢٠٠٥م، والمجتمعان يعانيان من مشكلات داخلية وعنف ونزاعات.

وكلانا واأسفاه لديه مشكلات مع مجموعات ترفض الانضمام لحلم الديمقراطية، ومع ذلك ما زالت أماننا فرصة لتحقيق هذا الحلم.

لدى عودتك إلى الوطن كتبت إلى القس كونتي "لا يسعني سوى النظر بانحياز إلى بلادي"، وذكرت أيضاً أن جُل ما نحصل عليه من الترحال هو "رغبة عقيمة في دمج المتع المختلفة وأسباب الراحة في أماكن مختلفة من العالم، ومع ذلك لا يمكن تحقيقها في أي منهم".

أما أنا فلا أعود إلى بلادي بعد سفري إلى تركيا لأقارن نقاط تفوق بلادي، وعموماً فقد ساعدني السفر إلى تركيا أن أشعر بالفخر بالإنجازات التي حققتها بلادي والبلد الذي زرته للتو.

إن أوجه الشبه بين البلدين تبرز لي بوضوح شديد الدروس التي يمكن أن يتعلمها بعضنا من بعض، حتى نبني مجتمعاً أفضل للأمم التي نحيا فيها، ذاك الشبه ساعد غريباً مثلي أن يشعر أنه من أهل البلد.

على أية حال فالشخص الذي يشعر دائماً أنه في وطنه بعيداً عن وطنه مواطن أمريكي من أوهايو في بلاط السلطان عثمان.

صديقتكم

كاثرين براننج

الرسالة السابعة

وطني الحبيب!

عزيزتي السيدة ماري،

على منحدر جبلي خارج منطقة أضرورم تظهر لافتة ضخمة مكوّنة من مجموعة أحجار مطلية باللون الأبيض على شكل حروف، كتبها بكل عناية وحب جنود الجيش، ويمكن رؤيتها على بُعد أميال، واللافتة عبارة عن كلمة واحدة: *Türkiyem* (تركيّتي: وطني الحبيب).

”تركيّتي: وطني الحبيب“ يا لها من كلمة بسيطة تعبر عن فخر المرء ببلاده! لا داعي لقول المزيد، فكل شخص يمكنه تفسير الكلمة كما يشاء. حينما كنت أصدق في هذه اللافتة أدركت أن لها دلالة خاصة عندي بعد أن كوّنْتُ مفهومي الخاص عن كلمة ”بلد“.

”تركيّتي: وطني الحبيب“ ليست تركيا التي يعرفها ٩٩٪ من زوار تركيا وربما ٩٥٪ من الأتراك أنفسهم؛ فهي ليست تركيا التي تضمّ مدناً رفيعة المستوى وغنية ومصقولة مثل إسطنبول وأنطاليا وبورصة وأنقرة، بل إنها تركيا التي تضم سهول الأناضول؛ قلبي معلق بشرق أنقرة.

أنتِ -كمعظم السائحين- سافرت إلى العالم الواسع المتنوع متعدد الجنسيات لمدينتي القسطنطينية وأدريانوبل "أدرنة اليوم"، وقلتِ في رسالة كتبها في أدرنة: "إن أخلاق البشر لا تختلف كثيراً كما يريد كُتّاب الرحلات أن يقنعونا"، ومع ذلك لم تحاولي المخاطرة بالابتعاد عن هذا الحيز العالمي الغني لاستكشاف الفرق، أو للتعرف إلى أهالي المناطق الريفية المجاورة لتلك المدن، أعتقد بشدة أنكِ كنتِ ستستمتعين كثيراً لو أنكِ فعلت ذلك!

معظم السائحين يعرفون تركيا بما يرونه في إسطنبول والشواطئ الجنوبية، ولكن تركيتي مختلفة؛ إنها تركيا الواقعية التي يعيش فيها المرء على الأرض يكدح ويعمل بجِد، إنها تركيا الهضاب الجافة لا تركيا الشواطئ المترفة.

من السهل الافتتان بلؤلؤة العالم إسطنبول، مبتغى كل إنسان، ولكنني وقعت في حب السهول الجرداء التي تشبه حقول وسط الغرب الأمريكي، وتعكس القوة المطلقة للطبيعة وحلم الإنسان في العمل لتحقيق المزيد، أغلب الناس ينظرون إلى هذه السهول فيرون أراضي مكشوفة مملّة، لكنني أراها مساحات مفتوحة حرة لا نهاية لها كالبحر، مليئة بالأمال.

حينما ذهبت إلى تركيا لأول مرة كانت قلة من الأجانب تأتي إلى مثل هذه الأقاليم، أما الآن فالجميع يهرع إلى إسطنبول لقضاء ست وثلاثين ساعة أو العطلة الأسبوعية، فيها هم الأجانب يملؤون أسواقها، ويعيشون حياة المغتربين بكل معالمها، وهم يتركزون في الأغلب في إسطنبول التي تعد في الواقع مركزاً حضارياً رفيعاً لا يقل مستوى عن باريس ونيويورك.

لطالما شعرت أن إسطنبول نقطة التقاء تجمع بين سمات نيويورك والجزائر والبندقية، لكنها لا تزال منطقة حضرية خاصة بكل سماتها المتفردة.

والوضع في "تركيتي" مختلف؛ فأنا أعشق السفر إلى المدن الصغيرة حيث الأسواق المحلية وعدد محدود من المطاعم أو المقاهي.

أعتقد أن الأمريكان عندما يسمعون اسم تركيا يفكرون في مكان غامض غريب، ولا يعرفون فيها سوى مدينتين هما إسطنبول وأنقرة، لكنك قد تندهشين عندما تعلمين أن هاتين المدينتين لا تمثلان تركيا الحقيقية الكبيرة، تمامًا كما يستحيل أن تمثل مدينتا نيويورك وبوسطن أمريكا التي ترعرعت فيها، فالريف الممتد خارج المراكز الحضرية الكبيرة يكاد يكون بلدًا آخر؛ لهذا تحبّر الناس في سبب تفضيلي للقرى المبنية بالجص والسهول المتربة الجرداء على الجبال والبحر والمياه الفيروزية للبحر الكاريبي والريفيرا بل على جنوب تركيا أيضًا، ربما أكون شخصية مختلفة غريبة، لكن ثراء التجارب التي مررت بها في تلك المناطق ليس له حدود.

”تركيتي“ بلد يقيم مهرجانات من كل لون وشكل؛ فعلاوة على المهرجانات الفنية الكثيرة المرموقة التي تُقام في مدنها الكثيرة مثل مهرجان ”البرتقالة الذهبية“ السينمائي في ”أنطاليا“ هناك مهرجانات متعددة لتكريم الفن الشعبي وأبطاله ”نصر الدين خوجا، ويونس امرأة، وحاجي بكتاش“، أو للاحتفال بالمنتجات المحلية وتميزها مثل: مهرجان مصارعة الإبل في سلجوق ودينزلي، والبجع في بريجيك، وحلوى ”باور جام“ في مانيسا، ورياضة جيريت ”نوع من أنواع البولو يُمارس بطريقة الرجبي“ في قونيا وأرضروم، والأفاعي في ماردين، والفراولة في بارتون، والشاي في ريزي، والمشمش في مالاطيا، والطماطم في توقات، والبندق في أوردو، والعسل في تشانقورو، والطهارة في مينجين، والخزف في كوتاهيا، ومحصول العنب في كابادوكيا، والبطيخ في ديار بكر ”بلغ وزن ثمرة البطيخ الفائزة العام الماضي إلى ثمانية وتسعين رطلاً“، ومصارعة الثيران في أرتفين، والتين في جيرمينجيك، والفحم في زونجولداك، ورقص الدراويش ”المولوي“ في قونيا؛ لا شك أن هذه المهرجانات تتفوق على مهرجان ولاية أوهايو بفرق شاسع.

في "تركيتي" لا ينتظرني البحر، أو المتجعات، أو الأندية الراقية، أو أشخاص رائعون يرتدون أثواب السباحة، أو أندية الرقص، أو منحدرات التزلج، بل إن السحر يكمن في أشياء أخرى؛ إنه يكمن في المنازل الخشبية، والمراعي الجبلية، وأشرطة النذور المربوطة في الأشجار، ونباييع المياه المتدفقة على جانب الطريق، والشعراء الغنائيين وال دراويش، والجسور المُحدودة، وأحواض المياه، والغابات والأنهار الجارية، وعازفي "الساو"، والطيور المغردة، وأيام وجبات الأرز اللذيذة، واحتفالات الختان، والنوافذ والمداخل المليئة بالأزهار المزروعة في علب زيت زيتون فارغة، وأبراج الساعات، والمطاعم ذات الغرف الخاصة بالنساء، وحنائق الشاي المظلمة بتعريشات العنب، والنساء اللاتي تذرّن البذور في الحقول أو تفرزن المشمش أو البصل، والمنازل ذات الهياكل الخشبية، والأودية الخضراء الخصبة، والكليم المغسول وقد وُضع في الهواء ليجف، والستائر اللاسيه، والنساء المحجبات، والأبواب المصنوعة من الطوب المحفور، والأصوات الخافتة، والنوافذ المظلمة بالمشرييات، والسهول المترية، والأسقف المكسوة بالآجر، والحنائق المسوّرة التي تتسلق جوانب التلال، وحافلات القرى المكتظة بالأطفال والحيوانات وحقائب البطاطس والإطارات الاحتياطية أو أجزاء المعدات، والبحيرات المالحة في منتصف السهول الجافة، واللحم المشوي على أوراق العنب والغار، والعامل الذي يسير وحيداً على حافة الطريق ويبيده حقيبة أدواته، والأسقف الخشبية المحفورة والمطلية، والعربات التي تجرها الخيول، والينابيع الساخنة، والكهوف، والمزارعين المتأرجحين في الشاحنات في طريقهم إلى الحقول، والفتيان والفتيات الذين يكررون آيات القرآن ليحفظوها عن ظهر قلب، ومساقط المياه، وأصوات الطبول العالية المعلنة عن حفل ختان أو زفاف، ومستنقعات القصب، والجرارات والعربات

التي تجرّها الحمير، وحقول البطيخ والطماطم، والمدن المزينة بالقلاع والحصون التي تعلوها أعلام خفاقة برمز الهلال، والهدوء الشديد الذي تكاد تلامسه يديك، والذباب الطنان، والكليم الملون بألوان قوس قزح المشرقة الذي يغطي أراضي المساجد، وكبار السن المتكئين على العصي في طريقهم إلى نادي القرية للقاء أصدقائهم، والأرصعة المشورة عليها لب دوار الشمس، وتربة الجنوب الشرقي الساخنة الملتهبة، والأحداث العائلية المفجعة، وحفلات الزفاف الرقيقة، والأغصان القصيرة، والتراب الأصفر، وحافلات نقل الركاب داخل القرى المنطلقة سريعاً، وخرب الأنهار، والمناظر الخلابة المتعاقبة في الطرق الجبلية الملتفة، والأخرفة مجزوزة الصوف أو مذبوحة، وتساقط الثلوج بسرعة وكثافة تسد الشوارع في ساعات قليلة، والدراويش والبكتاشيين، والرجال الذين يقضون ساعات في رسم آيات من القرآن بالخطوط العربية المزخرفة، والمنازل العثمانية ذات الهياكل الخشبية، والطرق المرصوفة بالحصى التي سار فيها جنود الحشيين والفرس واليونان والرومان والسلاجقة والعثمانيين وجنود أتاتورك، والسهول الذهبية المترامية عبر الأفق، والينابيع الساخنة، والهزات الأرضية، والتاريخ الذي يطل عليّ من وراء كل حجر، والأسواق الأسبوعية الصاخبة، وقمم الجبال المكسوة بالجليد، ومتاجر الحلوى والمكسرات، وغابات التّنّوب الكثيفة، والشعاب الجبلية، وأبراج المقابر المخروطة المليئة بالأضرحة المخضرة، وأسواق الخضراوات المفتوحة، والأسواق المسقوفة، والشوارع الخلفية التي تعج بالنجارين والحدادين وصنّاع السرج والسباكين، وكلاب الرعي الكنجال بلون السهول التي تلاحق الخرفان مغبرة اللون، وبيوت الطيور المليئة بالنّحام الزهري، والأفق الذي تغشاه الحرارة، وقطعان الغنم عريضة الذنب وتراها ترغو، وطيور السنونو التي تهبط سريعاً، والأطلال المهجورة، ورؤية البحيرات الزرقاء المتلاثلة من

أعلى الطريق، والنساء اللاتي يراقبن الطريق من مقاعدهن خلف إطارات النوافذ الغائرة، والمقابر المليئة بالشواهد العتيقة المتهدمة، والسهول متناثرة الأجمات، والغابات شبه القاحلة، والنساء الكرديات اللاتي يرتدين ملابس بألوان الزهور البرية المذهلة، والمروج الواسعة حيث تركض الخيول والأمهار بحرية، وشجيرات الزهور المتفتحة في كل مكان، وثمار التوت الأبيض الطازجة، ورائحة الدم والخبز الطازج والتراب والسماد وقشر البطيخ، والمنازل المشيدة بالخشب، والحجارة، والطوب اللبن، والتلال الخضراء المتقاربة، والخيام السوداء والأخرفه البيضاء، والبدو الرُحل وأصحاب المتاجر، والسهول المنخفضة الممتدة إلى سلاسل تلال لا تنتهي، والمنازل ذات الأرضيات الترابية المضغوطة، وأسراب الإوز أو الأغنام المتهداية التي تسد الطرق، ونقطة التقاء السماء بالأرض، وورق الإعلانات الصغير المصفر الخشن، وعصير المشمش الطازج، وتسلق الشعاب الجبلية، ورؤية البانوراما الكاملة للوحة السهول الخضراء المرقعة من الأعلى، والرائحة المنبعثة عن اشتعال السماد، ومذاق الماء من كوب مملوء من نبع متدفق على جانب الطريق، والبدر الكامل الذي يبدو حجمه وضوؤه ضعفهما في أي مكان آخر في العالم، والمناشف المعلقة أمام متاجر الحلاقين لتجف، والخيل المكتسية بمنسوجات مطرزة وخرز أزرق، والجسور القديمة، وتيجان الأعمدة الساقطة، والكهوف الغامضة، وآثار الحضارات البائدة منذ ألفي عام، ومظاهر الطبيعة ذات الأصوات العالية مثل الضفادع والحشرات والطيور والمياه الجارية، والمزارعين الكادحين، والحقول البنية التي تتناثر فيها أزهار دوار الشمس الصفراء وثمار البطيخ الأصفر، والزوابع الترابية، والمدن التي يوجد فيها طريق تصطف على جانبيه سلسلة من المباني القديمة التي تعود إلى ثماني مائة عام ومبانٍ سكنية إسمتية حديثة، والمدارس المكوّنة من فصل دراسي واحد، وأبراج تخزين

الحبوب، والجمعيات التعاونية الزراعية، والسهول الشاسعة جدًا ولا تتسع لها عدسة الكاميرا متسعة الزاوية أو لا يمكنني رؤيتها كلها بنظرة واحدة.

هذه هي "تركيتي" التي أحبها حبًا جمًّا، البعيدة عن إسطنبول المتحضرة الرفيعة المستوى، كيف تستطيع الشواطئ المحمومة وملاهي الرقص المليئة بالأجانب أن ترقى لمستوى إثارة أيِّ مما ذكرت؟ يا سيدة مارى، أتمنى لو استطعت أن أكون مرشدتك في أرجاء "تركيتي"، أنا واثقة أنك كنت ستعشقينها كما أعشقها.

صديقتكم

كاثرين براننج



صفائح زيت الزيتون



منزل شاکر آغا العثماني، بيرجي عام ١٧٦١م



سوق عثماني، أماسيا



الأم وبناتها، منطقة جاي



نزل "تاش خان"، أقشهر عام ١٢٥٠م



مشهد من الشارع، بورصة



عبور جسر كوش في أماسيا



حارس القبر، ألانيا



مشهد من الشارع، إزنك



بطاقة بريدية من عام ١٩٧٨م



شارع الأطباء قسطنطيني



يوم السوق، منطقة شاي



مشهد الغروب على بحيرة بيشهير



مشهد من الشارع، كوتاهيا



منبع نهر الفرات، بالقرب من أرزينجان

الرسالة الثامنة

تبننتي عائلة تركية!

إلى سعادت صوباشي هانم أفندي

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة أمر يتعلمه المرء سريعًا جدًا في تركيا، ألا وهو أن البلد لا يديره ساسة الحكومة أو أباطرة الأعمال أو الشيوخ على مآذنهـم العالية، بل تديره الأسرة، لن تصادفي مجتمعًا آخر يتسم بقوة وتماسك الروابط الأسرية في تركيا.

إن تماسك الأسرة أفضل سمة في أي مجتمع مهما كان مركزه على سطح الأرض، لكن الروابط الأسرية في تركيا أقوى منها في أي مكان آخر، إنك لتجد كل أسرة تُدار كأنها شركة مصغرة.

إن القيم الأسرية طريقة حياة وليست مجرد كلمات تتكرر في الخطاب السياسي أو الديني كما هو الحال في بلادِي فالأسر عندنا أكثر تحررًا وتفككًا.

لقد اختبرت هذين الهيكلين الأسريين بنفسي يا سيدة ماري؛ فأنا أنحدر من أسرة مسيحية مترابطة من الغرب الأوسط، ومع أن والدي كنا يتيمين فإن العمات والأعمام وأبناء العمومة كانوا بمنزلة مجموعة مترابطة سعيدة؛ ففي أيام الآحاد بعد القداس كان اثنا عشر شخصاً منا على الأقل يلتفون حول مائدة أحدنا في "دعوة الأحد" الكبيرة، ومقابل هذا لي أصدقاء كثر علاقتهم بأسرهم غير وثيقة.

سيدة ماري، لقد تحدثت والدك وهربت مع السيد ورتلي، أما أنا فتركت أسرتي في سن مبكرة لأعيش في الخارج، نحن الاثنين نشأنا في ثقافات تشجع الأطفال على الاستقلال عن أسرهم منذ الصغر، والآن أعيش في مدينة تبعد ألف ميل عن أقرب قريب لي؛ لهذا قد يكون من الصعب علينا أن نفهم الروابط الإسمتية التي تربط الأسر التركية.

لقد حالفني الحظ "وتبنتني" عدة أسر تركية، فأتاح هذا لي الفرصة أن أقارن بين أوساط الأسر التركية والغربية.

للأسف لم يحالفك الحظ مثلي يا سيدة ماري، صحيح أن الجميع استقبلك بالترحاب في بلاط وقصور السلاطين والحريم والسفراء، لكنك لم تجلسي حول مائدة الإفطار مع أفراد أسرة تركية، ولم تشاركيهم جلسات احتساء الشاي وسرد القصص، ولم تتح لك الفرصة لحمل أطفالهم الرضع بين يديك، وهكذا حُرمت من جزء كبير من تركيا.

شعرت أنا أيضاً بالترحاب والاحتفاء من عدة جوانب في منازل صغيرة مكونة من غرفة واحدة كما شعرت أنت في صالونات الباب العالي، وكثيراً ما يكون الاهتمام الذي تحيطك به الأسر التركية هائلاً أحياناً، إنه شعور رائع.

ما سرّ قوة الروابط الأسرية في تركيا؟ أعتقد أن هذا راجع إلى إحساس الأتراك العالي بمعنى الأمة "ulus"، والشعور بالتحالف القبلي الذي ورثوه عن أسلافهم الأتراك.

والأمة تنظيم مجتمعي يحدد وظائف كل الأشخاص الأتراك: مثل التنظيم الإداري، والهيكل، والوظيفة، والسياسة، وأنماط حركة الرعي والهجرة، والقوات العسكرية، والخلافة، والسلطة.

مفهوم الأمة هو ما ساعد الأتراك على الهجرة بنجاح إلى الأناضول وتأسيس الدولة السلجوقية نواة تركيا الحديثة.

أما مفهوم الأمة اليوم فتمثل في شكل كل أسرة على حدة، وقادتها هم الآباء الأتراك المعروفون باسم "بابا".

في هذا الكيان تجدين كلّ العلامات المميزة في الحياة - كالميلاد والختان والزواج والوفاة - منظمة كما كانت في أمة الماضي، وتميزها طقوس محكمة ومكثفة، فالأسرة التركية الحديثة التي يديرها الأب ضاربة بجذورها في تقاليد "الأمة".

مظاهر التبجيل المطلق للوالدين في تركيا مقدسة كقدسية أي أمر قرآني، فرجل الأسرة أو "بابا" يُعامل باحترام شديد وخضوع، يليه في السلطة الابن الأكبر "آبي: أخي الكبير" الذي يكون بمنزلة نائب عن الوالد في غيابه، وهذا الابن لا يُناديه إخوته وأخواته باسمه مطلقاً، بل دائماً ما يُنادى بلقبه "آبي: أخي الكبير".

ثمة أسماء أخرى تُطلق على مختلف أفراد الأسرة، تعتمد على درجة قرباتهم، سواء كانت من جهة الأب أو الأم؛ فلن تجد في تركيا أحداً يُدعى "العم" أو "العمة" أو "أخا الزوج" فقط، بل يحصل كل فرد في الأسرة

على لقب دقيق يلتصق به، ويحدد دوره في الأسرة.

وهذه المصطلحات المختلفة التي تصف علاقات القرابة من أصعب التحديات في تعلم اللغة التركية وفهم الثقافة؛ فهناك أربعة ألقاب لأخت الزوج وحدها! وهكذا يا سيدة ماري، يمكنك أن تري أنه ليس مجتمعاً مفككاً.

إن الرباط الذي يجعل الأسر التركية متماسكة لهذا الحد بسيط جداً، هو الحب والاحترام.

في الواقع إن هاتين الكلمتين المهمتين اللتين تعلمتهما في بلدي تشكلان أساساً كاملاً للثقافة التركية بأوسع معانيها، تسعى كل الأسر جاهدة لتدريب أبنائها على هاتين القيمتين المهمتين: احترام الكبير والعطف على الصغير، فظاهرة تقبيل أيدي الوالدين والأقارب كبار السن شائعة في تركيا، وطقوس تقبيل يد الكبير التي تتضمن الانحناء وتقبيل اليد ثم رفعها لتلامس الجبهة من أكثر الدلالات المؤثرة التي رأيتها في حياتي.

تسعى الأسر التركية كما في ثقافات عدّة لتوفير كل الفرص المتاحة لأطفالها، حتى إنها تبذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً، ويسعدني أن أعلن أن أقوى حافز يحرك الآباء الأتراك هو ضمان حصول أبنائهم على تعليم جيد، فالآباء مستعدون لفعل أي شيء لتوفير هذه الفرصة لأبنائهم، فمنهم من يشغل عدة وظائف ويعمل طوال الوقت لكسب المال اللازم لشراء الكتب، وحقائب المدرسة، وتوفير نفقات الدروس الخصوصية الباهظة استعداداً للاختبارات، ودفع مصروفات المدارس الخاصة، أو حتى إرسال الأبناء للدراسة في أمريكا؛ وهو حلم كل والد.

يساهم الأخ الأكبر "آبي" أيضاً في مساعدة إخوته وأخواته الصغار، ويتشرف بدفع نفقات دروس أخته من ماله الخاص بدلاً من شراء أغراض شخصية لنفسه.

علاوة على ذلك يؤمن الأتراك بقوة بأهمية الشهادات العليا؛ والأسر مستعدة -خاصة أسر الطبقة الأرستقراطية- لإرسال أبنائها للخارج للدراسة، ويشارك في هذا التشجيع التعليمي كل أفراد القرية، وإذا كان أحد الأبناء لا يتمتع بالقدرة أو المهارة التي تؤهله للالتحاق بالجامعة فإن أسرته تحرص على مساعدته في تأسيس عمله الخاص، بل تبحث له أيضاً عن شريكة حياة مناسبة.

ذات مرة كنت أزور مسجداً في بُنيان فدنا مني شخص وبدأنا نتحدث، ثم ذهب إلى بعض الأطفال المتحمسين الواقفين على مقربة منا وقال لهم: "أترون! إنها أمريكية وتحدث التركية! ماذا تفعلون أنتم لتكونوا متميزين؟ انصرفوا وعودوا إلى منازلكم لتذاكروا!".

ومن الملاحظات الأخرى أن أفراد الأسر التركية متلاحمون ومتربطون بشدة؛ فهم يتصلون عدة مرات بعضهم ببعض على هواتفهم النقالة فقط للاتمئنان وسماع صوت القريب المحبوب، وهم يعسكرون في غرف المستشفيات عندما يمرض أحدهم، ويراعون المريض بطريقة تعجز عنها الممرضات المنهكات، كأن يراقبوه ويغسلوه وينظموها مواعيد تناوله الدواء، إنها الرعاية الطبية النابعة من الحب.

ولا أظن أن أشخاصاً كهؤلاء يفكرون في أهمية مجموعات الدعم أو فكرة التمريض الخارجي؛ لأن الأسرة تتولى مسؤولية هذا الدور في عملية الشفاء.

ومن العادات السعيدة الأخرى التي أستمتع بحضورها حفلات الختان، فبعد عامين من مغادرتك إسطنبول يا سيدة ماري أقام السلطان أحمد الثالث -الحاكم حينها- واحدًا من أكبر الاحتفالات في التاريخ العثماني؛ إنه احتفال مشترك بختان أبنائه الأربعة، استمر الاحتفال خمسة عشر يومًا، واشتمل على مواكب استعراضية، ومفرقات، وسباقات بالقوارب، وعزف، ورقص، وسباحة، من المؤسف أنك لم تشاهدي كل ذلك!

صحيح أن احتفالات الختان اليوم كبيرة وتُجرى في فنادق فاخرة، إلا أنني أستمتع أكثر بالاحتفالات المتواضعة التي تُجرى في نطاق الأسرة، فأبي صبي يبلغ الثامنة من العمر تقريبًا يحظى بهذه الطقوس الخاصة بهذه السن، وتحرص الأسرة على الاحتفال بذلك حتى تكون مناسبة لا ينساها الصبي مطلقًا، فيلبسونه زيًا تقليديًا مزركشًا ويغرقونه بالحلويات والهدايا. وإذا كانت إحدى الأسر أفقر من أن تتمكن من إقامة حفل لابنها تكفل بال حفل أحد الأثرياء المحليين أو تتحمل المدينة نفقات الحفل؛ لذا كثيرًا ما يسمع المرء في أيام الأحاد من فصل الصيف أصوات أبواق السيارات، ويرى صبيانًا سعداء متأنقين مع أسرهم في زيارات للمواقع المقدسة في طريقهم لحفلات الختان.

أما أكبر دليل على قوة روابط الأسرة التركية فهو مائدة الإفطار؛ قدّمت وصفًا في إحدى رسائلك لمأدبة عشاء مع السلطانة، لكنني أؤكد لك أن مائدة الإفطار في تركيا تحظى بنفس القدر من الاهتمام ومراعاة التقاليد، فوجبة الإفطار في تركيا تحدد مسار باقي اليوم، يجتمع فيها كل أفراد الأسرة، والحب يملأ المكان، وكل ثمرة زيتون على المائدة تبشر بالخير الذي سيعمّ اليوم وبالسعادة التي ستتشر فور رفع المائدة، لا أحد يأكل وحده، ولا أحد يشرب فنجانًا من القهوة ويتناول قطعة خبز محمصة في الطريق إلى الخارج.

لا أحد يبدأ يومه بدون جرعة من الحب، ولا أحد يبدأ يومه دون المشاركة في مظهر من مظاهر الترابط الأسري، وموائد الإفطار الفاخرة في الفنادق التركية ليست سوى امتداد لهذه العادة الأسرية، وستجدين أن أكثر الفنادق تواضعاً في أفقر الأحياء تقدم وجبة الإفطار بكل عناية واهتمام وحب.

قد يكون "بابا" هو من له الأمر في الأسرة، لكن الأطفال في الواقع هم أصحاب الكلمة الأخيرة؛ ذلك أن الأتراك غارقون في حب أبنائهم ويدللونهم ويسمحون لهم بفعل أي شيء.

إن أول سؤال يُوجّه إلى أي امرأة هو "كم طفلاً لديك؟" كما أن قبور النساء العثمانيات مزينة بنقوش أزهار، ترمز كل زهرة إلى كل طفل ولدته المرأة، وفي القرى تُزْرَع شجرة كلما وُلد طفل.

أتعلمين أن تركيا هي البلد الوحيد في العالم الذي يخصص يوماً رسمياً للاحتفال بالسيادة الوطنية للأطفال؛ ففي كل عام في الثالث والعشرين من شهر نيسان/أبريل تستضيف تركيا عدة مهرجانات وفعاليات لتكريم الأطفال وضمان مستقبلهم وحريتهم ورفاهتهم.

يتنشر الأطفال في كل أنحاء تركيا، فنسبة ٧٠٪ من السكان تحت سن خمسة وثلاثين عاماً، وبوجه عام كل الأطفال ساحرون بأعينهم الواسعة وابتساماتهم العذبة، وهم دائماً يتلقون الأحضان والقبلات والرعاية والمداعبة.

أخبرني بستاني تركي ذات مرة أنه اختار هذه المهنة بالذات؛ لأنه شعر أن الأزهار كالأطفال، كل زهرة مختلفة وجميلة وتحتاج إلى الحب والرعاية، ففكر أنه لا يوجد في الحياة عمل يبعث على السعادة أكثر من عمل البستاني.

يتسم سلوك الأطفال الأتراك بالانضباط بوجه عام؛ سافرت في رحلة بالحافلة مدتها ثماني ساعات ويجلس في المقعد خلفي طفل في الثالثة من العمر ولم أسمع صوتاً طوال الرحلة، فالأطفال الأتراك لا يشيرون الجلبة في الأماكن العامة، بل يجلسون في هدوء مع ذويهم دون الحاجة إلى ألعاب أو أشياء لشغل انتباههم أو تسليتهم، بل يتعلم الأطفال الاعتماد الكامل على الذات منذ سن مبكرة، وهي من أعظم الميزات، ولا يمر يوم دون أن تَرَى مجموعة أطفال تلعب كرة القدم، ففور أن تتوفر مساحة كافية وكرة يبدؤون اللعب، وقد تكون الكرة مجرد حجر أو قصاصات أقمشة بالية ملفوفة معاً، وقد رأيت أطفالاً في القرى يلعبون بعصي، وقطع من حبال، وقشر جوز، وأحجار، مبتكرين ألعاباً خيالية تؤنسهم لساعات.

عندما يغدو الأطفال الأتراك مراهقين غالباً ما يحتفظون بنفس الرقة والعدوبة؛ ويندر أن تَرَى شباباً يضحكون بصوت عالٍ، أو يلقون النكات الخارجة، أو يتبادلون السباب، أو يتدافعون، أو يتعاركون، أو يتصرفون بشكل غير لائق على الملأ.

والكلمة التركية التي تصف الشباب هي "delikanlı" وتعني "صاحب الدم الحامي"، لكن تجربتي مع المراهقين الأتراك أثبتت أنهم في قمة الأدب، غير أن هناك مجموعة من الشباب اليافعين المزعجين الذين لاحقوني باستمرار، وأصروا أن يرشدوني في تركيا بحجة تحسين لغتهم الإنجليزية، أحياناً يكونون مزعجين جداً ويرفضون الابتعاد، بالطبع يصعب عليّ تجاهل هذه الرغبة الحماسية في تقوية اللغة، وأرضخ في النهاية وأقضي معهم بعض الوقت، لكنه يكون أمراً مرهقاً ومزعجاً عندما يزيد عن حده، فكلما قضيت وقتاً مع أحدهم يظهر غيره، لكنهم لا يتسببون في أي أذى.

ثمة موقف حدث مع بعض الفتيان المراهقين في إسطنبول من شأنه أن يسلط الضوء على طبيعة الشباب الأتراك وتربيتهم: ركبت القطار المعلق ذات مرة لصعود التل، وكانت هناك مجموعة من المراهقين الصاخبين يجلسون في العربة يضحكون ويمزحون ويتدافعون، وكان المقعد الوحيد الشاغر يتوسطهم؛ فذهبت لأجلس فيه لكن رفيقتي في السفر قالت: "كلا! لن أجلس بجوار هؤلاء المزعجين" لكنني ذهبت لأنني كنت أشعر بالحرارة وأكاد أفقد وعيي، ولم أعتبرهم سوى مجموعة من الصبيان يتصرفون كعاداتهم.

بعد أن جلست تحدث أحد الفتية لزملائه بصوت منخفض قائلاً: "هلاً هداً أتم! ألا ترون المرأة الأجنبية الشقراء التي تجلس بجوارنا، من الأفضل أن نحسن التصرف بدلاً من أن تأخذ انطباعاً سيئاً عنا؟" بالطبع لم يعلم الفتية أنني أتحدث التركية وأفهم كل ما قالوا، ولم يعلموا مدى امتناني لهم لأنهم يعرفون كيف يحسنون التصرف في الأماكن العامة، خاصة عند وجود ضيف أجنبي.

يستمتع الأتراك بكسب الأصدقاء أكثر من أي عمل آخر، يفعلون ذلك بدعوة الشخص للانضمام للأنشطة العائلية كأنه فرد من العائلة، وقد نزلت ضيفة على عدد من المنازل التركية، وشعرت في كل واحد منها أن الأسرة تبتني، ربما أنزل عندهم فترة بعد الظهر أو يوماً أو أسبوعاً، كانوا يشعرونني دائماً أنني جزء من حياتهم، وكانت أكواب الشاي المتعاقبة تمهد الطريق دائماً لهذا الشعور بالمؤاخاة.

على سبيل المثال قضيت فترة بعد الظهر ذات مرة أشاهد الصور الفوتوغرافية بصحبة أسرة القائم على دير دراويش إقليم أماسيا، وقضيت يوماً أقشر الجوز في ساحة دار عثمانية عمرها مائتا عام خارج قسطنطيني

بصحبة مزارع وأسرتة، وفي نهاية اليوم ساعدت ابنته في إعادة الأبقار من المرعى إلى الحظيرة في الطابق الأرضي من المنزل، وقضيت يومًا آخر بصحبة جدة تعيش في منزلها خارج مدينة كيرشهير، وقدمت لي الأسرة خبز الشابورة المخبوز حديثًا مع الشاي، وتلقيت دعوة لمتزل حارس متحف في مدينة سافرانبولو، جمعت لي زوجته ثمار التين الطازجة من الحديقة لأتناولها مع الشاي.

وعندما تحين لحظة الرحيل تكون الطقوس متشابهة؛ إذ تتبادل العناوين حتى نظل نتبادل الرسائل والهدايا والأخبار والصور، أو أظل أتذكرهم في أفكارٍ ودعواتي، وقد بكى البعض عند رحيلي، وبعض النساء سكين الماء على درج الباب تيمناً بأن تسير رحلتي بسلاسة كسيلان الماء، وقدم لي البعض هدايا وزهورًا عند ركوبي في الحافلة؛ إن أسرتي الحقيقية لا تغدق عليّ بمثل هذا الحب والاهتمام، هل تفعل أسرتك ذلك يا سيدة ماري؟

هل تصدقين أنني كدت أصبح فردًا في أسرة تركية في نيويورك؛ تأملني: ذات مرة وأنا في المطار طلبت مني امرأة تركية لا أعرفها من قبل أن أعطني بابنها البالغ ستة عشر عامًا في رحلته الأولى إلى تركيا.

أما أقرب الأسر التركية إلى نفسي فهي الأسرة التي تبنتني واعتبرتني ابنتها الكبرى "أبلة"؛ إنها أسرة محسن إلياس صوباشي في قيصري، منحتني الأسرة اسمًا تركيًا وعاملتني باحترام واهتمام ومراعاة أكبر مما تلقيت أنتِ خلال زيارتك الدبلوماسية الرسمية يا سيدة ماري، أصبحت واحدة منهم وصديقة لهم، وتعرفت برب الأسرة عن طريق رسالة كهذه؛ إذ أرسلت إليه لأثني على الكتاب الذي ألفه حول تاريخ قيصري فردًا عليّ، وعلى الفور بدأنا نتبادل الرسائل حتى استقبلني في منزله، وهو منزل هادئ وجميل يقف عاليًا بين التلال خارج قيصري، يستقبل النسيم البارد، ويطل على الفوهة البركانية لجبل أرجيس.

والمنزل تعمه السكينة، ولا تُسمع فيه أصوات مزعجة أو موسيقى صاخبة أو حتى صوت التلفزيون؛ إنه بيت رجل نبيل "أفندي" يمتلك سبعة آلاف كتاب، ويحتفظ بها بعناية شديدة في مكانها المخصص في الطابق الثالث بمكتبه.

يقع المنزل في منتصف حديقة تزخر بأشجار الكرز والتفاح والمشمش والفواكه المزهرة، بينما تفيض أحواض الخضراوات بثمار الطماطم والفلفل.

والمنزل بالكامل مفروش بأثاث مريح وبه مساحات خالية وإضاءة جيدة ومزهريات رائعة، أما نساء المنزل فهن نساء قويات، فزوجته وبناته الثلاث يشرفن على كل شيء، ويدرن المنزل كأنه مصنع زُيْتَتِ آلاته جيداً فهي تعمل بكفاءة وسلاسة.

وأول ما يراه المرء عند مدخل البيت ثلاثون زوجاً من الأحذية مختلفة المقاسات بانتظار أي ضيف ليلبسها ويدخل، وكثيراً ما يزورهم الجيران لاحتساء الشاي أو القهوة وتبادل الأخبار والقبل والقال.

وقد شيدت الابنة المتزوجة بيتها بجوار بيت الأسرة، واعتاد زوجها أن يحضر للأسرة هدايا خاصة يحضرها بنفسه، مثل البهارات المطحونة حديثاً وأوعية اليخنة الكبيرة التي تكفي لإطعام الإنكشاريين كلهم.

في هذا البيت تُسرد أبيات الشعر بعد العشاء بحضورهم جميعاً، وفيه يشعر الجيران بالترحاب الشديد فيقطعون الحديقة سيراً على الأقدام في طريقهم إلى منازلهم.

إنه بيت منظم لن تجد فيه شيئاً مهملاً أو في غير مكانه أو صحناً غير مغسول، في هذا المنزل يتم تحضير الوجبات الضخمة، وخاصة وجبة

قيصري الشهيرة "فطائر اللحم" (الرافولي التركي)، في مطبخ مجهز جيداً، وتقوم البنات بتقديمها بكياسة على صينيات رقيقة.

إنه منزل يتم فيه تقديم خمسة عشر طبقاً تحت تعريشة عنب في الحديقة خلال وجبة الإفطار في الصباح مبكراً؛ لذا فهذا المنزل أجمل من أي قلعة من قلاع إنجلترا يا سيدة ماري، أو أي قصر من قصور السلاطين التي زرتها.

إنه منزل ينبض بالحياة تسكنه أسرة متحابة؛ وهذا ما يجعله منزل الأحلام، أصبح لي فيه مكان بفضل طيبة الأسرة التركية التي تبنتني وعاملتني فرداً من أفرادها.

صديقتكم

كاثرين براننج



صبيان وكلاب الكنجال التركية، نكسار



الإفطار مع سعاد هانم في قيصري



مراسم الزفاف في توقات



احتفال عائلي بالختان، أنقرة



عربة خيل مطلية، بازار



قرية اليوروك



أول يوم في الدراسة، إغيردير أيلول/سبتمبر عام ١٩٩١م

الرسالة التاسعة

السرفي اسم عظيم الشأن

عزيزتي السيدة ماري،

أنت تحملين لقب "ليدي" (سيدة) بصفة رسمية؛ فأنت ابنة مالك مزرعة إنجليزي وزوجة سيد نبيل، عندما سافرتِ إلى تركيا أخذت معك لقبك الذي اكتسبته بفضل ميلادك وتراثك ونشأتك وثروتك وتعليمك وعلاقاتك؛ فتفتحت كل الأبواب في وجهك فورًا بسبب منزلتك العالية، ومعارف زوجك السياسيين، وجواز سفرك الدبلوماسي.

لقد منحك لقب سيدة بكل ما يحمل معه من تراث ميزة خاصة سبقتك قبل أن تعبري الحدود وتجذبي الأنظار إليك؛ ناداك الكل بلقب "السيدة" أينما ذهبتِ كما اعتدت أن يفعل الناس جميعًا في إنجلترا، لكن لعلك لم تنتهي أن لقب "سيدة" لا يمنحك ميزة خاصة في تركيا، لأن كل امرأة هناك "سيدة".

وأنا أيضًا "سيدة" في تركيا، سيدة تختلف عنك إلى حدٍ ما، لكنني سيدة بالرغم من ذلك؛ لم أولد لمالك مزرعة، لكنني اكتسبت النبل من كوني امرأة؛ فالأتراك يضعون كل النساء في مرتبة خاصة، منذ أيام إلهة

الأمومة لدى الحيشين، وعندما يخاطبك أحد يتوجه إليك بلقب "هانم" أي سيدتي، فيستخدمون هذا اللقب بعد اسمك الأول إذا كانوا يعرفونه وتصيح ذات لقب حالاً.

أنا لست مجرد كاثرين في تركيا بل "كاثرين هانم" أينما ذهبت، وهذا اللقب يجعلني أنظر لنفسني بطريقة مختلفة، وأشعر بالتميز نوعاً ما، وبأنني محظوظة لأنني وُلدت في هذه الفئة النبيلة فئة النساء.

يتعامل الأتراك مع لقب سيد (بيه) وسيدة (هانم) بخصوصية شديدة، ويستخدمونها في كل مرة يتحدثون إليك؛ فلا يقولون مثلاً: "السيد ديفيد جونز" أو "السيدة سارة هارت" بل "ديفيد بيه" و"سارة هانم"، وليس من الشائع استخدام الاسم ثنائياً في تركيا، وبالرغم من كل اتجاهات التفرنج التي شاعت خلال السنوات الأخيرة فإن الأتراك ما زالوا يتعاملون بالأسماء الأولى فقط؛ فاستخدام الاسم ثنائياً يبدو غريباً عليهم، وهم يعتبرون أنه يضيف جواً من الرسمية الشديدة ويمنع التواصل بشكل ملائم.

حينما كنت في تركيا يا سيدة ماري، كان الوضع كذلك؛ إذ كنت تتعاملين مع معارفك فاطمة وأحمد باسمهما الأول، وهي حرية وألفة لم تكوني لتحظي بها في وطنك إنجلترا.

في الواقع لم يستخدم أحد اسم عائلته في تركيا إلا منذ فترة قريبة، بل عاش الأتراك قروناً وهم يستخدمون الاسم الأول فقط، أو كما هي العادة المتبعة في الدول الإسلامية يستخدمون لقباً مثل: "علي مبارك" أو "محمد الصقر".

ساد هذا النظام قبل ظهور مصطفى كمال أتاتورك، الذي أخذ على عاتقه مهمة سن قانون إصلاح من شأنه أن يغير للأبد طريقة التعامل بالأسماء في تركيا.

كان "قانون التسمية" عام (١٩٣٤-١٩٣٦م) خطوة متعمدة في طريق الفرزجة، علاوة على عدد من الإصلاحات الاجتماعية الموجهة سياسيًا التي شنها خلال الأعوام الأولى للجمهورية التركية.

تبنى "قانون التسمية" تشريعًا يفرض على كل مواطن أن يقوم بتسجيل اسم عائلته، الأمر الذي أربك الأتراك وتركهم في حيرة ابتكار أسماء لأنفسهم، ومع أن الأتراك المتمدين لم يجدوا مشكلة في هذا القانون الجديد، فإن سكان الريف وجدوا صعوبة في إدراك المغزى من هذا القرار، وفي آخر الأمر تم تبني عدة أنماط لاختيار الاسم وتحديد ما هو مهم.

توضح أسماء العائلة القيم المجتمعية السائدة في ذلك الوقت، التي ما زالت إلى حد ما سارية إلى يومنا هذا.

وكان من أوائل الأنماط لاختيار أسماء عائلية تحديد العلاقة العائلية التي تعكس الاحترام البالغ للكبار الذين تحدثت عنهم في رسالتي السابقة، وظهر ذلك جليًا في استخدام كلمة "أوغلو" (ابن)، وإلحاقها بالاسم؛ فهنا في تركيا من العادي أن يكون اسمك الثاني "ابن صانع البنادق" مثلاً.

يعرف الأتراك تمامًا من هم ومن أين أتوا، ويفخرون بانتمائهم لتلك المنطقة؛ لهذا يختارون في الأغلب أسماء تعكس هذا الفخر مثل "أحمد قونبالو أي أحمد من قونيا"، ويفخرون بأسلافهم العظماء ويختارون أسماء وطنية للقبائل العظيمة، سواء كانت من نسل أبناء آسيا الوسطى أو السلاجقة أو العثمانيين، مثل: "علي سلجوق أوغلو أي علي ابن السلاجقة"، أو "محمد كارامان أوغلو أي محمد ابن الكرامان"، أو ألقاب السلاطين العثمانيين المشهورين مثل: "يلدرم أي الصاعقة"، و"ياووز أي العازم"، أو أسماء بعض السلالات القبلية

الرحالة مثل "كليتشليلار أي السيّافة"، أو "كارني بويوك أي أصحاب البطون الكبيرة".

وعلى مستوى أوضح كثيرًا ما يختار الأتراك أسماء أشياء شائعة محبّبة وملهّمة مثل: "أسلان أي الأسد"، و"بوزكورت أي الذئب الرمادي"، و"سياه بيتشاك أي السكين الأسود"، و"أوزكايماك أي الزبد الخالص".

أنا أفضل بوجه خاص أسماء العائلة التي تم اختيارها لأنها جذابة وشاعرية أو بسبب ما تستحضره من معانٍ محبة مثل: "كولن أي المبتسم"، و"يوجيل أي المُعظم"، و"يغموردريلي أي القادم من الوادي المطير"، و"جوكديمير أي السماء الحديدية"، و"بويوك دوغاني أي البدر المَكتَمَل"، و"جوموشكمر أي الحزام الفضّي"، و"أكدومان أي الدخان الأسود"، و"كارادومان أي الدخان الأسود"، و"دوست أوغلو أي ابن الصديق الغالي"، و"أسكي بهليوان أي بطل المصارعة القديم"، و"يشكنسوت أي اللبن المحضّر جيّدًا" و"تاتليسس أي صاحب الصوت الجميل" و"تساملي بل أي ممر أشجار الصنوبر".

من أسماء العائلة المبتكرة جدًّا تلك التي تُختار لأن الشخص يتسم بميزة بدنية ظاهرة مثل: "تشولاك أوغلو أي ابن الرجل ذي اليد الواحدة"، و"أوكسوز أوغلو أي ابن اليتيم"، و"بوسكوللو أوغلو أي ابن الرجل ذي الشُرّابات".

أما أسماء العائلة المفضّلة لديّ فهي التي يتم اختيارها لتحديد المهنة؛ فأنّا أرى أنّ في ذلك تتجلى أسمى الصور لفخر الأتراك بمهنتهم، ومن هذه الأسماء على سبيل المثال: "فهوجي أي صانع القهوة"، و"أوكجو أوغلو أي ابن النّبال"، و"منانجي أوغلو أي ابن صانع البيض المخفوق"، و"لبليجي أوغلو أي ابن محمّص الحمص"،

و"مومجو أوغلو أي ابن صانع الشمعدان"، و"يورجانجي أوغلو أي ابن صانع اللحاف"، و"فندكتجي أوغلو أي ابن زارع الفستق"؛ فهذه الأسماء ستظل تذكر الأتراك بطريقة حياة سادت في تلك الفترة من تاريخهم.

أما اليوم فاختيار اسم العائلة غالبًا سيكون مثلًا "عليّ ابن مطور برامج الحاسوب"، لكن في عام ١٩٣٤م كانت الأوضاع مختلفة.

ورغم مرور أكثر من خمسة وسبعين عامًا على تبني قانون التسمية لأتاتورك ما زال الاسم الأول هو السائد؛ فبمجرد التعارف بين شخصين يبدأ التعامل بينهما بالاسم الأول، الأمر الذي يخلق شعورًا بالألفة والمودة اللتين تُدهشاننا في أحوال كثيرة نحن أبناء الحضارة الأكثر تحفظًا.

تعلمت في نشأتي أن لا أنادي شخصًا باسمه الأول إلا إذا سُمح لي بذلك، أما هنا فالعلاقة وثيقة منذ البداية، وتحتاج عملية رفع الكلفة هذه إلى اعتياد من الغربيين.

بالرغم من كل جهود أتاتورك فما زال الأتراك حتى يومنا هذا يفضلون مناداة أحدهم باسمه الأول، ولم يعتادوا على استعمال اسم العائلة في كلّ المواقف.

ولم يبدأ دليل هاتف إسطنبول في سرد الأسماء أبجديًا باعتماد اسم العائلة إلا في عام ١٩٥٠م، أي بعد وقت طويل من تبني قانون التسمية، وعملت سابقًا متطوعة في جمعية خيرية تركية مقرها في الولايات المتحدة، وأوكلت إليّ مهمة تحديث قاعدة بيانات أسماء الأعضاء التي اكتشفت لاحقًا أنها مرتبة وفق الاسم الأول.

والأسماء الأولى مبتكرة وممتعة بقدر أسماء العائلة؛ ففي الماضي كانت الأسماء التي استخدمها الأتراك العثمانيون مستوحاة من طبيعة

العرب والمسلمين، أما اليوم فهناك اتجاه حديث لاختيار أسماء الأطفال التركية الأصل (أصلان، وأورهان، وأوزير، وتورهان، وكويلاي، وتيمور، وإلهان) أكثر من الأسماء المتأثرة بالتقاليد الفارسية والعربية.

وعلاوة على التفضيل المتزايد للأسماء التركية التقليدية ذات الأصول العائدة إلى آسيا الوسطى، بدأت تظهر أسماء أوروبية وأسماء غربية مثل اسم "تايفون" الذي وجدته غريباً إن لم يكن شاذاً.

تكون الأسماء الأولى مثلها مثل أسماء العائلة ملهمة وشاعرية وجميلة؛ فالأتراك يميلون لتسمية الصبيان أسماء قوية وحماسية، مثل: "جنكيز" و"تيمور" و"يلماز"، والاسم الذي أفضله هو "طارق" أي النجم الساطع في السماوات.

أما الفتيات فيحصلن على أسماء رقيقة وعذبة، وعادة ما تكون أسماء مخلوقات طبيعية مبهجة أو أوصافاً لأفكار شاعرية، مثل: "سندس" و"لؤلؤ" و"أحلام" و"نبح العسل"، وأكثر اسم أفضله هو "إريم أي حديقة الجنة".

إذا أضفت اسماً أول نابضاً بالحياة إلى اسم عائلة مميز، فغالباً ستكون النتيجة ملحمة متكاملة، مثل "يلدرم أكبولوت أي السيد سحابة البرق البيضاء" أو "أوزديمير كالباكشي أوغلو أي السيد الحديد الخام ابن صانع قبعات الفرو" أو "إلهان ديميركايا أي السيد صخرة الفولاذ المنغولي" أو "كايا أوزتوبراك أي السيد صخرة الأرض الحقيقية" أو "دورسون ديليغول أي السيد الزهرة البرية المزهرة دائماً"، وهذه مجرد أمثلة أعجبني.

هل يتخيل شخص أن يكون اسمه "اللورد سحابة البرق البيضاء"؟ كم تمنيت أن يكون اسمي "الزهرة الحريرية" أو أي اسم مماثل! لو كان لي أخ اسمه "طارق" فربما يصبح مستكشفاً أو رحالة عندما يكبر،

لكن اسمي الأول عادي جداً، ذات مرة سألني صديقي التركي الشاعر: "ما معنى اسمك يا كاثي؟" وكم شعرت بالحرج عندما لم أجبه؛ لأنني في الحقيقة لا أعرف معنى اسمي ولا سبب اختيار والدي له!

حينها أدركت مدى إجداب حضارتنا الغربية التي تمنح الأطفال أسماء لا معنى لها، وتحرمهم من الأسماء الملهمة وفرصة النمو وتحقيق مغزى تلك الأسماء؛ لهذا قدّرت الأتراك المبدعين الذين ينسبون لأبنائهم سمات، مثل: الأمل، والقوة، والشعر.

نظراً لأن صديقي رجل تركي مسؤول؛ قرر منحني اسماً تركياً، وتوصل إلى اسم على وزن اسمي الحقيقي وفي الوقت نفسه يحمل معنى يلائمني؛ وهو "قدريّة"، ويعني الشخصية الموقرة المقدرة الجليلة.

واتضح لي أنه اسم قديم، لكنني كلما قدّمت نفسي باسم "قدريّة" جاء رد فعل الأتراك مخالفاً تماماً لرد فعلهم عندما أذكر اسمي الحقيقي. بالطبع يسهل عليهم حفظ هذا الاسم ونطقه مقارنة باسمي الإنجليزي، لكنه فوق كل شيء يميزني بأنني امرأة تستحق الاحترام والتقدير؛ ولهذا سأظل ممتنة للأبد لصديقي الذي منحني هذا الاسم، جعلني أشعر بالترحاب وبأنني جزء من الثقافة التركية، وقد أصبح اسمي الآن "قدريّة" بالنسبة لأي تركي أعرف إليه، وبالنسبة لجميع أصدقائي الأتراك.

وبخلاف هذا الاسم حصلت على عدة ألقاب أيضاً كلها تستخدم مع لقب سيدة؛ فقد أسموني "السيدة السابحة" و"سيدة الخان" و"سيدة الزهرة الصفراء" و"سيدة العيون الباسمة" و"سيدة العيون الزرقاء"؛ بالطبع لا يمكنني نسيان هذه اللغات المبدعة الصادقة لأصدقاء منحوني اسماً بسيطاً.

بالفعل لكلّ مسمًى من اسمه نصيب كما تقول المقولة القديمة، إذا عمّ تخبرنا أسماء الأتراك؟ تخبرنا أنه شعب معتر بترائه وأهله ومهنة؛ شعب يحب الطبيعة والجمال بصدق؛ شعب يحب أن يحلم ويتمنى أن يخلق هوية قوية لأبنائه، تخبرنا عن الجانب الإبداعي والترفيهي في شخصيته؛ فهذه الأسماء التركية تجعلنا نكتشف شعباً محترماً وودوداً، حقاً إنه يمكن لشيء بسيط كالأسماء أن يخبرنا بالكثير عن هذا الشعب.

هل فكرت يوماً يا سيدة ماري في اسم العائلة الذي ستختارينه إذا أتاحت لك الفرصة؟ حقاً سيكون هذا من أصعب الاختيارات، على الأرجح سأختار لنفسى اسم "السيدة قيمة الكتب"، وأنت سيكون اسمك "السيدة صاحبة القلم المتدفق"، لكنني بالرغم من كل شيء أتفق مع الأتراك؛ فمن ذا الذي يحتاج إلى اسم عائلة! وأخيراً أظن أن اسم "السيدة قدريّة الزهرة الصفراء" يلائمني تماماً.

صديقتكم

قدريّة براننج

الرسالة العاشرة

صباحات سعيدة!

إلى معلماتي التركيات في الماضي والحاضر

عزيزتي السيدة ماري،

من بين التعليقات الأكثر تأثيرًا في نفسي وكنت قرأتها في ”رسائل السفارة“ تلك التي كتبتها إلى أختك من فيينا:

”تجسد أقصى سعادة في الحياة في محادثة منتقاة مع عدة أشخاص نكنّ لهم التقدير“

إنها كذلك بالفعل، ولعل هذا هو سبب اهتمامي الشديد باللغات الأخرى؛ فهي تسمح للمرء بالقيام بتلك المحادثات المنتقاة مع ”أشخاص يقدرهم“ من مختلف بقاع الأرض، وقد كان هذا حافزي الأساس لتعلم اللغة التركية؛ إذ أدركت أنني إن أردت حقًا التعرف على هذا البلد وأهله فلا بد أن أتحدث لغتهم، وما أشد غفلي حينها عن التحديات التي سأواجهها!

أنتِ أيضًا أيقنت أن تعلم اللغة التركية سيمنحك تميزًا في بيتك، كما سيساعدك على الاطلاع على المؤلفات التركية، وهو أمر أثار اهتمامك أكثر من أي شيء آخر، تلخص هذه المعاني عبارة لآنا تورك محفورة فوق مدخل مبنى علم الإنسانيات في جامعة أنقرة: ”العلم هو المرشد الحقيقي في الحياة“؛ ونظرًا لإيمانك بهذه العبارة كانت دافعًا لك لبدء برنامج تدريبي صارم لتعلم اللغة التركية قبل أن تصلي إلى القسطنطينية.

يبدو أنك لم تواجهي صعوبة كبيرة في تعلم اللغة التركية، إنها الحقيقة، أنت تعلمت اللغة اللاتينية قبل أن تستكملي الثامنة من العمر، ولا بد أن أقرّ أنني أشعر بالغيرة قليلًا من قدرتك على التعلم بسرعة! ربما يرجع الفضل إلى معلمك الممتاز؛ فبعد مغادرة فيينا مكثت في بلجراد ثلاثة أسابيع فتعلمت اللغة التركية على يد أحمد أفندي الذي قلت عنه: ”شرح لي أبياتًا كثيرة من الشعر العربي، ولاحظت أن أوزانها تختلف عن أوزان أشعارنا، فهو شعر مقفى، له جرس موسيقي ملحوظ، أما عبارات الحب فهي متقدمة العاطفة ومفعمة بالحياة...“

لقد فتح لك أبواب عالم الأدب العربي، والفارسي، والعثماني، ولا شك أنك كنت طالبة استثنائية؛ إذ أرسلت إلى صديقك أليكساندر بوب بعد أسابيع قليلة بعض ملحوظاتك حول اللغة التركية، قلت في رسالتك: ”إن اللغة المستخدمة في البلاط تختلف كليًا عن لغة عوام الأتراك“، وأوضحت له أسلوب كتابة الشعر بإرسال قصيدة لأحد النبلاء، وتباهيت أمامه بسعة علمك الأدبي حينما قلت: ”كما ترى فقد قطعت شوطًا كبيرًا في تعلم لغة الشرق“.

لا بد أن أعترف أنني مذهولة من سرعة تعلمك كل ذلك في وقت قصير، وأعجبًا فأنت التقيت فاطمة ”الجميلة كالملاك“ مرة أخرى

في القسطنطينية بعد مرور عام كنتِ قادرة على التحدّث معها باللغة التركية، وهو أمر مثير للإعجاب بالفعل! وأرسلتِ رسالة إلى صديق بعد مرور عام على وصولك، وتحديدًا في أبريل/نيسان عام ١٧١٨م تقولين فيها: ”أصبحت أتحدث التركية على نحو جيد، وأسعدني الحظ بتكوين صداقات مع نساء تركيات أعجبن بي، ويمكنني أن أفخر بأنني أول امرأة أجنبية تحظى بهذا الشرف“.

عقب وصولك إلى القسطنطينية تابعت برنامج تعلمك الذاتي، ووضعت نظامًا يوميًا صارمًا لتعلم اللغة، وقد وصفت لصديقك بوب جدول أنشطتك التدريبية الأسبوعي الذي اعتبرته أهم من مشاغلِكَ في إنجلترا فقلت: ”أسعى جاهدة لإقناع نفسي أنني أعيش حياة متنوعة ومنسجمة أكثر منك، وأن مراقبة طائر الحجل يوم الاثنين، وقراءة الأدب الإنجليزي يوم الثلاثاء، وتعلم اللغة التركية يوم الأربعاء -وأنا أتقنها جيدًا الآن- ودراسة المؤلفين الكلاسيكيين يوم الخميس، والكتابة يوم الجمعة، والانهماك في الخياطة يوم السبت، وتبادل الزيارات والاستماع إلى الموسيقى يوم الأحد، ذلك كلّهُ أسلوب مناسب لقضاء الأسبوع أفضل من الجدول الروتيني الدائم في لندن“، نعم تعلّم اللغة قد يصبح حقًا مغامرة مثيرة وجذابة.

غير أنك لست الشخص الوحيد الموهوب في تعلم اللغات؛ فالأتراك ماهرون في ذلك أيضًا، وربما يرجع ذلك إلى مهارتهم الفطرية، أو إلى وجودهم الدائم في مفترق طرق لغويّ، علّقت في رسالة لك بتاريخ ١٦ آذار/مارس عام ١٧١٨م على سعة معرفتهم باللغات المختلفة:

”...أنا أعيش في مكان يعتبر أفضل تمثيل لبرج بابل؛ ففي منطقة ييرا يتحدثون التركية، واليونانية، والعبرية، والأرمنية، والعربية، والفارسية، والروسية، والسلافية، والوالاكية، والألمانية، والهولندية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، والمجرية؛ والأكثر من ذلك أن هناك عشرًا من هذه اللغات مستخدمة في بيتي: فسائسو الخيل عرب، والخدام فرنسيون وإنجليز وألمان، ومربيّتي أرمنية، وخادمتي روسيات، وهناك ست خادِمات أخريات يونانيات، ومدير المنزل إيطالي، والجنود الإنكشاريون أتراك، فأصبحت أستمع باستمرار إلى هذا المزيج من اللغات، وهو ما يترك انطباعًا استثنائيًا على الأشخاص الذين يولدون هنا، فهم يتعلمون كل هذه اللغات في الوقت نفسه دون أن يتقنوا أيًا منها بالقدر الكافي الذي يؤهلهم لاستخدامها في الكتابة أو القراءة، وثُمَّة عدد محدود من الرجال والنساء والأطفال الذين يعرفون كلمات بخمس أو ست لغات... قد يصعب تصديق هذا الأمر، وأنا أرى أنه أحد الأمور اللافتة للنظر في هذا البلد، كما أنه يتنقص كثيرًا من مزايا سيداتنا اللاتي يدعين العبقرية الفذة بفضل معرفتهن السطحية باللغة الفرنسية والإيطالية“.

هناك عدة لغات ”مختلفة“ يتحدثها الأتراك حتى يومنا هذا: العربية في محافظة هاتاي، والكردية في شرق تركيا، واللغات الأوروبية التي تستخدمها العائلات الشامية القديمة في ييرا ”الفرنسية واليونانية والإيطالية غالبًا“، وقد اكتشفت لغة أخرى جديدة في إسطنبول: هي لغة الأسواق، كم تدهشني مهارة أصحاب المتاجر والباعة -الذين يتعاملون مع السياح- في الانتقال بسلاسة ويسر بين الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية، واليابانية أحيانًا بدون أدنى مجهود، وهم لا يتحدثون هذه اللغات فحسب، بل يتمتعون بمهارة تحويل العملات المتعددة ذهنيًا؛ فيمكنهم حساب ثمن أي سلعة بسرعة فائقة تنافس سرعة الآلة الحاسبة.

ليتنى أستطيع التفاخر بمهاراتي في اللغة التركية كما تفاخرين بمهاراتك أمام صديقك بوب، ومع أنني قد حظيت بعدة معلمين ممتازين للغة التركية، فلم أتمكن من إتقانها تمامًا، يمكنني قول أي شيء أريد، لكنني عندما أتحدث التركية أرى في أعين المستمعين صراعًا لفهم ما أحاول قوله، أو أجد أعينهم تبرق بدهشة لدى سماع عباراتي المفككة، قضيت أعوامًا عدة في تدريس اللغات الأجنبية وتشجيع الآخرين على تعلمها، وأدرت واحدة من أكبر مدارس اللغات في العالم؛ وهذا يعني أنني ملّمة بالتحديات ومشاعر الإحباط والسعادة المصاحبة لتعلم لغة جديدة، بل إنني أشهد أن اللغة التركية قد أمدتني بنصيب وافر من التحديات ليست اللغوية فحسب بل الثقافية أيضًا.

أدركت مبكرًا أن القاعدة الأولى للتواصل في العائلات التركية هي نفس القاعدة التي تحكم كل علاقات التواصل، ألا وهي الاحترام؛ فالأتراك يهتمون جدًا بالتواصل مع الآخر بأسلوب يعكس قدرًا كافيًا من الاحترام، وهذا الاحترام يعتمد على عدة عوامل منها السن، والثروة، والمعارف، والمنصب الذي يحتله الشخص في مهنته أو مجتمعه، والويل لمن لا ينجح في إظهار القدر الملائم من الاحترام للطرف الآخر، إن التواصل عند الأتراك يعني في المقام الأول إبداء الاحترام بترك الطرف الآخر يتحدث مطولًا دون مقاطعته، والإنصات باهتمام لما يقول، ويُحظر معارضة الطرف الآخر؛ لأن هذا قد يعتبر دليلًا على مجاهرة العدا، والأتراك حساسون جدًا تجاه هذه النقطة، تعلمت هذا الدرس بالطريقة الصعبة، لأنني اعتدت في ثقافتي -وخاصةً في مدينة نيويورك حيث إيقاع الحياة السريع- على إجراء عدة محادثات في آن واحد، أما في فرنسا فالاعتراض أثناء المحادثات أمر متوقع؛ لأن المرء إذا لم يعترض فهذا يعني أنه غير منتبه لكلام الآخر، لكن الأمر مختلف في تركيا.

وبعيداً عن مجرد تبادل الحديث، فمن الضروري فهم الشكليات الصغيرة الواجب مراعاتها في كل الحوارات الناجحة، فعلى سبيل المثال ليس من المستحب الاقتراب من شخص وطرح سؤال مباشرة دون الاستهلال بكلمة: ”مرحباً“ أو ”عذراً“ أو ”أنا آسف على الإزعاج“، إلى غير ذلك، بل إن الأتراك غالباً ما يبدوون حديثهم بالكلمة البسيطة الرقيقة *Acaba* التي تعني ”أتساءل...“ أو ”ياترى هل يمكن هذا...؟“ وسرعان ما يدرك المرء أنه إذا لم يراع هذه القواعد والشكليات البسيطة فإن علاقته بالآخرين ستحيد عن الصواب، وسيُنظر إليه أنه شخص فظ، فمثلاً إذا اقترب منك شخص وعرض المساعدة في توجيهك إلى أي مكان تريد، فلا بد أن تقبل عرضه الصادق وأن لا ترفضه وإن كنت تعلم جيداً المكان الذي ستذهب إليه؛ لأن رفض مساعدته تصرف غاية في الغلظة، ويجب أيضاً دائماً قبول كوب الشاي المقدم إليك، ولعل أكثر الحالات لسوء الفهم اللغوي التي تحدث للأجانب في تركيا تكون بسبب كلمة ”لا“؛ فعندما يرغب شخص تركي في الرفض لا يقول ذلك، بل يعبر عنه برفع حاجبيه بجدية وصرامة، وإصدار صوت طقطقة من فمه، مع إمالة الرأس إلى الوراء قليلاً، وأحياناً يلاحظ المرء كل هذه الإيماءات أو واحدة منها فقط، ومع أنها قد تكون غير واضحة غالباً لكنها مستخدمة، ونادراً ما تُنطق كلمة ”لا“، بل تُستخدم الإشارات للتعبير عنها؛ لهذا لا بد من الانتباه للإشارات، ومحل سوء الفهم أن الأجانب الذين لا يتلقون إجابة على سؤالهم كثيراً ما يظنون أنه قد تم تجاهلهم، في حين أنهم قد تلقوا إجابة بالفعل عبر هذه الإشارات الصامتة.

لعل قواعد التواصل العالمية تحمل أهمية قصوى في تركيا بفضل الوعي الشديد لإبداء الاحترام، ولتفادي حالات سوء الفهم ينبغي ملاحظة الأمور الخفية لا الأمور الجلية فحسب، فكل أنواع التواصل

تحمل ثلاث رسائل مختلفة: الرسالة التي تريد إرسالها، والرسالة التي تخرج من فيك، والرسالة التي تصل بالفعل إلى الطرف الآخر ويؤولها وفق مستواه العقلي وتفكيره، فكل شخص يجلس معك في الغرفة سواء كان في القرية أو في المتجر أو في مركز حضاري أو في اجتماع أعمال في المدينة يتصرف وفقاً لتأثير الحوار عليه، أو بحسب علاقته بالآخرين، والأجانب الذين يراعون هذه النقطة ويتنبهون لإبداء الاحترام الواجب يسهل على المجتمع تقبلهم.

من المفيد أيضاً محاولة البحث عن الدعابة في مواقف التواصل الغريبة التي تحدث يومياً؛ فلا ينبغي اعتبار أي لقاء أو موقف من المسلّمات، مع التسليم بأن المرء لن يفهم كل شيء، حتى عندما يتم تفسير المواقف ربما يعجز المرء عن فهمها لأنه بكل بساطة ليس تركياً؛ فمواقف كثيرة ربما تكون شائعة أو عادية لكن نظراً لأنني أعجز عن فهم الدافع وراءها تبدو محيرة في نظري، قيل لي ذات مرة إنني أشبه الفرس، وهو تشبيه تركني منزعة عدة أيام؛ لأنه يعتبر إهانة صريحة في ثقافتني، ولم أعرف إلا بعد مرور وقت طويل كيف يقدر الأتراك الخيل تقديراً شديداً؛ حينها فقط أدركت أنني تلقيت واحدة من أسمى المجاملات في الواقع.

في السنوات الأولى التي قضيتها في تركيا كان من النادر جداً أن أجد أجنبياً يتحدث اللغة التركية، خاصة المناطق الريفية التي أكثر السفر إليها، وكان من الشائع أن تتسبب عبارة بسيطة أقولها بالتركية مثل "مرحباً، صباح الخير، هلاً تدلني على طريق المسجد الكبير!" في تدافع الأتراك المفاجئ حولي كسرب طير في حقل حبوب، أظنك واجهت مواقف مشابهة يا سيدة ماري؛ ففي رسالتك لصديقتك السيدة بريستول

في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م حكيّت كيف جذبت أنت وزوجة السفير الفرنسي أنظار الجميع في نزهتكما:

”خرجت معها منذ عدة أيام في جولة حول المدينة في عربة تجرها الخيول وقد رُفع غطاؤها، وبصحبتنا موكب مشترك من الخدم، يسبقه الحراس الذين اجتذبوا الناس لرؤية مشهد لم يروه من قبل، ولن يروه بعد؛ إنهما سفيرتان شابتان مسيحيتان لم يسبق لهما المجيء معاً إلى البلاد، ولا أظن أن هذا سيتكرر، يمكن لسيادتك أن تتخيلي حشد المتفرجين الضخم الذي وقف يراقبنا في صمت مطبق، لو أن أحد هؤلاء العامة فكر أن يتجاوز حدوده فإن الجنود الإنكشاريين لم يكونوا ليترددوا عند أول حركة أو موقف غريب في الانهيار عليه بسيفهم المعقوفة...”

قد يكون جذب كل هذه الحشود مخيفاً في بعض الأحيان، وقد شعرت في عدة مواقف بالخوف حتى أدركت أن هؤلاء الأشخاص مجتمعون حولي بدافع الفضول المحض، وحينما فهمت أخيراً أنهم ليسوا مجتمعين حولي بسببي، ولكن بسبب أخطائي التركية ولهجتي الغربية شعرت بالراحة، في رأيي إنها المرة الأولى التي يستمع فيها معظم هؤلاء الأتراك إلى لغتهم بلسان أجنبي؛ فحداهم الفضول إلى معرفة كيف سأركّب العبارات وأختار الكلمات، وفوق كل شيء أرادوا الاستماع إلى لهجتي، لقد اكتشفت أن نطق التركية بلهجة مختلفة قد يساعد كثيراً في تلقي خدمة رائعة في المطاعم؛ ففور أن أجلس يهرع إلي خمسة نادلين لتلقي طلباتي، وتعديل المنديل، وصب الماء لي، وكل ذلك بهدف الاستماع إلى لهجتي الغربية.

صحيح أنني حينما سافرت إلى تركيا في البداية لم يكن هناك سوى مدارس قليلة لتعليم اللغة التركية، وعدد محدود من كتب القواعد، وانعدام تام للكتب الدراسية الخاصة بتعليم اللغة التركية للأجانب، لكن صارت اللغة التركية الآن تُدرّس في الجامعات والمدارس في مختلف أنحاء العالم، والأترك يؤلفون الكتب الدراسية بغزارة حول تعلم اللغات الثانية، وهناك مسابقات لغوية لصغار الطلاب الذين يتعلمون التركية، وتبنى الأتراك الإطار الأوروبي الموحد لإرشادات تعليم اللغات في مدارسهم قبل أن أتبناها بوقت طويل.

ومع ذلك ظلّ تعلم اللغة التركية صعبًا ومحيّرًا في نظري، وكان أصعب شيء إجراء مكالمة هاتفية؛ لأنني أرتبك وأقترف أخطاء شنيعة تنتهي بفترات صمت طويلة بيني وبين الطرف الآخر، ولأن إجراء مكالمة أمر مقلق؛ فإنني ألبأ غالبًا لكتابة ما أود قوله في ورقة، والقراءة منها أثناء المكالمة، ولاحظت أنني إذا أردت التأكد من معلومة فإن سؤال امرأة يكون أفضل؛ لأن لغة النساء أسهل في الفهم ولعل النساء في مختلف أنحاء العالم تميل للحديث بنفس اللمنة! وخلال المحادثات الطويلة غالبًا ما أصاب بالإحباط والإرهاق والتعب من المجهود العقلي المضني الذي أبذله لاختيار كلمات مفهومة وتركيبها في عبارات ذات معنى، أو جرأ من الانتباه المستمر ومحاولة فهم كل شيء، وهو ما ينهكني، وفجأة يتوقف عقلي عن العمل، ويكون الحل الوحيد أن أرحل متمنيةً ألا يعتبرني الآخرون غير مهذّبة أو ينقصني احترام الآخرين.

بقدر صعوبة تعلم اللغة التركية تبدو سهلة جدًا بفضل المساعدة التي يقدمها لك الأتراك عندما تحاول التعبير عن نفسك؛ فهم يشجعونك على البحث عن الكلمات والعبارات للتعبير عن أفكارك، وعندما تتحدث

بلغة تركية ركيكة لا يقاطعونك مطلقاً، بل يكملون الحوار معك، وهم في ذلك مختلفون تماماً عن الفرنسيين المتأهين دائماً لتصحيح أي خطأ طفيف يرون أنه قد يسيء إلى لغتهم، أما الأتراك فهم يشجعونك كفرس منطلق في مضمار السباق، ويحمسونك دائماً بتهنئتك على الوصول إلى خط النهاية عندما تتمكن من إنهاء عبارة بنجاح، بالإضافة إلى كل معلمي فإن البلد كله كان مكرساً لتعلم اللغة التركية.

علاوة على ذلك فإن حرص الأتراك على إبداء الاحترام خلال التواصل أمر يرحب به الأجانب ويقدرونه، فالأتراك ينتظرون حتى تنتهي تماماً مما تقول وإن كانوا لا يفهمون كلمة مما قلت، وكثيراً ما يومنون برؤوسهم، لا يصحح الأتراك مطلقاً أخطاءك اللغوية - فذلك يوحى بالتناقض والاعتراض - أو ينظرون إليك باستهجان وعدم فهم وهم مقطبو الجبين، وتجدهم يكررون اسمك باستمرار في سياق الحوار لتظل متنبهاً ومركزاً، وعندما يشعرون أنك لا تفهم ما قيل فإنهم يتوقفون ويعيدون صياغة الفكرة بكلمات وعبارات يوقنون أنك ستفهمها، فصبر الأتراك لا حدود له، ومن المستحيل أن ترتكب خطأ لغوياً فادحاً؛ لأن الأتراك لن يتركوك تصل إلى هذه المرحلة، فبمجرد أن يشعروا أن الأمور ليست على ما يرام يبدؤون في مساعدتك بهدوء؛ إذ يصعب عليهم فهم ما تحاول قوله كما يصعب عليك فهم ما يقولونه، لكنهم لا يبدون ذلك قط، إنهم سادة في التواصل لأنهم يراعونك على طول الخط، وهذا يعني أن طبيعة الأتراك الحقيقية تظهر في علاقات التواصل مع الأجانب؛ إذ تتجلى سمات الاحترام والطيبة والكرم والصبر وروح الدعابة في أوضح صورها.

إذا كانت اللغة التركية صعبة إلى هذا الحد فلماذا أثابر على تعلمها؟ فضلاً عن ترقب تلك "المحادثات المتقاة" وقراءة أشعار نديم فهناك

أشياء كثيرة تجذبني في اللغة التركية، فمن الناحية اللغوية يعتبر تركيب مفرداتها الإلصاقية مذهلاً؛ إذ يضيف المرء للكلمة اللواحق واحدة تلو الأخرى مثل مقطورات، وكما هو الحال في اللغة الألمانية فإنني أستمتع بالعثور على الفعل في اللغة التركية في آخر الجملة كالمقطورة الأخيرة للقطار، فيفسر ويوضح كل الأسماء والصفات السابقة له، كم تحيرني إمكانية بناء عبارة كاملة من كلمة واحدة تقف في منتصف الجملة! وبالمثل تحيرني الجمل التي تبدو -على عكس اللغة الإنجليزية- مركبة من النهاية إلى البداية أو بالمقلوب، ويبهمني وجود زمن "الماضي غير المشهود" في اللغة التركية الذي يجعلك تروي أحداثاً لم ترها أو تسمع عنها مباشرة، فهو يسمح لك أن تكون مجرد ناقل لأخبار يُحتمل ألا تكون صحيحة، ويذهلني وجود زمن يمكنه أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً بحسب الموقف، فعلى سبيل المثال هذه العبارة "مكتب البريد الذي أمامه المرتدية السترة الحمراء -المستعدة لشد شعرها- الأجنبية تقف" ليست كلاماً مبهماً، بل إنها عبارة تركية مثالية التركيب؛ لهذا تجعلني اللغة التركية متنبهة دائماً لأنني لا أعلم موقعي في الجملة، في المرات النادرة التي يتمكن فيها عقلي من فهم الرموز اللغوية المستحيلة لقطار الكلمات المتراص في الجملة أشعر أنني فككت شفرة سرية مُحكمة.

أحب أيضاً صوت الحديث باللغة التركية؛ فعندما يتحدث بها الرجال يصدر صوت أشبه بتدفق المياه في غدير مشجر، وعندما تتحدث بها النساء (خاصة نساء إسطنبول) يصدر صوت أشبه بحديث طائر مغرد، ويسعدني استعارة الأتراك كلمات كثيرة من اللغة الفرنسية في مجالات الإدارة والأزياء والفنون؛ فقد سهل ذلك الأمور عليّ كثيراً لأنني غالباً ما أجد كلمة مألوفة، وبالإضافة إلى الاستعارة المبدعة من لغات أخرى تسعدني قدرة الأتراك الفنية على ابتكار كلمات جديدة

تواكب التقدم الحضاري، مثل "حاسب المعرفة" إشارة إلى الكمبيوتر و"هاتف الجيب" إشارة إلى الهاتف المحمول، وتعجبني أيضاً قوة وصرامة بعض صيغ الأمر التي تستطيع بقوتها وقف صاروخ في الفضاء: "Yapma! Ayıp! Dur!" (لا تفعل ذلك! عار عليك! توقف!)، ومن المتع الحقيقية في اللغة التركية آلاف الأمثال التي تزخرف الحديث؛ فالأثرak يحبون استخدام العبارات التراثية التقليدية، ولديهم باقة متنوعة منها، ومن هذه الأمثال الشعبية: "الحمار لن يقدر عصير الفاكهة"، و"المصارع المهزوم لا تنهكه المصارعة"، و"مشتري البقول العفنة رجل أعمى"، و"من يدخل حماماً تركياً فسيعرق"، و"ثمة أسد في كل قلب"، و"الكفن لا جيوب له"، و"الديك الذي يصيح قبل الموعد سيُقطع رأسه"، بل إن هناك معاجم كاملة مخصصة لتلك الأمثال.

أسعد بسماع الكلمات الرقيقة التي يتبادلها الأثرak في الحياة اليومية، مثلاً "سلمت يداك" لمن يطهو أو يفعل شيئاً ممتازاً، و"شفاك الله" للمريض، و"الله يعينك" عند المرور بعمال يعملون بأيديهم، والعبارة المؤثرة "عسى أن تكون أسوأ أيامنا كهذا اليوم" التي تُقال في المناسبات السعيدة، وتتمتع اللغة التركية أيضاً ببعض الخصائص الرائعة، وأبرزها كلمة Yok التي تحمل معاني عدة، بدءاً من "لا" وصولاً إلى "حتماً أنت تمزح" و"إياك!" أما العادة الخاصة المفضلة لديّ فهي تمنني صباحات وأمسيات سعيدة للآخرين، وعندما استفهمت عن معنى ذلك كان الرد: نظرات مستغربة؛ إذ يبدو أنهم بسخائهم غير المتناهي لا يمكنهم تمنني صباح سعيد واحد فقط للآخرين، بل لا بد من تمنني حياة مليئة بالصباحات والأمسيات السعيدة.

قضيت وقتاً طويلاً في ترجمة القصص والأشعار التركية إلى الإنجليزية، وواجهت تحديات تفوق كل التحديات التي تواجه المترجمين عادة، أنت أيضاً يا سيدة ماري شاركت أحد أصدقائك رسالة حب مسلية قمت بترجمتها، وفي أحيان كثيرة يكون من الصعب جداً نقل هذا التدفق في المشاعر إلى لغة إنجليزية سلسة، ربما لأن تركيب العبارات التركية دائري وليس خطي كعبارتنا الإنجليزية، سيدة ماري، لقد اعترفت بعد ترجمة القصيدة بما يلي: ”لا يمكنني أن أحدد إجمالاً مقدار نجاحي في الترجمة، وأظن أن لغتنا الإنجليزية غير كافية للتعبير عن هذه المشاعر القوية التي نادراً ما نختبرها، ونريد أيضاً مثل ما في اللغة التركية من هذه الكلمات المركبة المؤثرة الشائعة“، الترجمة تشبه الجهة الأخرى من السجادة؛ إذ تستطيع رؤية الألوان، وتحديد دقة عدد العقد، وملاحظة أي خطأ ارتكبه النساج، وتستطيع أن تحدد فوراً مدى مهارة النساج، فينبغي أن تنظر إلى الترجمة من أوجه متعددة لتتمكن من الحكم على جودة العمل والمجهود المبذول فيه وتقدير جماله الكلي.

عقب أشهر من دراسة اللغة التركية وصلت إلى حائط سديا سيدة ماري، مع أنك موهوبة وتتقن عدة لغات، فقد خشيت أن تفقدي لغتك الإنجليزية في سعيك لملأ رأسك بلغات أخرى كثيرة: ”يستحيل على إنسان واحد أن يتقن عشر لغات مختلفة إتقاناً تاماً كما يستحيل عليه أن يسيطر على عشر ممالك مختلفة، أو يحارب عشرة رجال في آن واحد“، لكن هذا الصراع في تعلم اللغة التركية مجز؛ لأنه ساعدنا كلتنا أن نعيش في تركيا بوصفها أجنبية وليست سائحة، وساعدنا على كسب صداقات ومشاركة الحياة مع الآخرين، وكما قلت عن صديقك أحمد: ”لا يمكنك تصور مدى سعادته النابعة من قدرته على الحديث معي“، وكذا سعادتنا بالحديث معهم.

في إحدى رسائلك الأخيرة كتبت إلى صديقة تخبرينها عن مدى
أسفك لمغادرة تركيا بعد أن تعلمت اللغة، لكنك حتمًا تعرفين يا سيدة
ماري أن المرء قد يرحل عن البلد لكنه لن يفقد اللغة التي تعلّمها مطلقًا،
فأول جمهورية هي جمهورية اللغة.

مع تمنياتي بأسيات سعيدة
قدريّة براننج



مقولات للبطل الشعبي نصر الدين خوجا (جحا) ويُفترض أن يكون محل ميلاده
في قرية هورتو



كاتب عثماني بريشة بيليني

الرسالة الحادية عشرة

أشعر بالراحة هنا

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة سؤال يوجه إليّ باستمرار، سواءً من الأتراك أو غيرهم، وهو عن سبب ترددي على تركيا عامًا تلو الآخر، وعادة ما يأتي هذا السؤال عقب سؤالني عن سبب حضوري إلى تركيا في المقام الأول، إن السفر في حد ذاته يعد تحديثًا ومتعة، وخاصة إلى تركيا، وكما ذكرت في إحدى رسائلك المبكرة يا سيدة ماري: السفر إلى تركيا أشبه بعرض أوبرا، ”هذا البلد بلا شك أحد أعظم بلدان العالم؛ كل ما رأيته حتى الآن جديد عليّ، كأنني أرى مشهدًا جديدًا في الأوبرا كل يوم“، عقب رحلتي الأولى في عام ١٩٧٨م بدأت أدرك حقًا مزايا السفر، واكتشفت أنني أستمتع بملاحظة ما بين الناس من اختلاف، لكنني أحتاج إلى بذل مجهود كبير للتعرف عليهم وكسر حاجز القوالب والأنماط الشائعة، وبالطبع تطلب هذا الجهد زيارة البلد عدة مرات.

نحن متشابهتان جدًا يا سيدة ماري، وعلى الأرجح كنا سنشكل رفقة سفر ممتازة؛ فأننا أيضًا بدأت أهتم بالحياة الاجتماعية والإسلام، وعلمت

نفسى اللغة التركية والشعر بكل حماس، وزرت المساجد والآثار القديمة، وسافرت وحدي بدون زوجي، أنا مثلك مهتمة بحياة النساء وقضاياهن من تعليم وصحة وتكافؤ فرص وزواج، وأشكك مثلك في الديانة التي أعتنقها بمقارنتها بديانة أخرى، تمكنت كلتانا من الانفتاح على قضايا عدة لأننا امرأتان أجنبيتان تتمتعان بمكانة خاصة.

إن سفر المرء -خاصة منفردًا- يتطلب دافعًا قويًا بالقدر الكافي ليتمكن من الصمود أمام عقبات مثل الحرارة، والتعب، والشهية، والقلق، والخوف، والقصور الذاتي والميل الجبلي للكسل، عندما يكون المرء في مكان غريب فإن المواقف البسيطة كسوء الفهم المتبادل والحزن واللقاءات القصيرة تمنحه فهمًا عميقًا لنفسه وللبلد الذي جاء منه.

هذه هي الأسباب البسيطة الممتعة التي تجعلني أحب السفر بوجه عام؛ فهو يتيح لي فرصة التعرف على أصدقاء جدد، وتذوق أطباق جديدة، واكتشاف ألعاب ورياضات جديدة، وإعادة التعرف على أصدقاء لا أراهم سوى مرة كل عام، ومناقشة مختلف الموضوعات لساعات بلا توقف، والتقاط صور فوتوغرافية، والرسم والتلوين، والكتابة والقراءة، وتناول ثلاث وجبات يوميًا، والاستمتاع بأوقات الشاي والمرطبات، ومراقبة عجائب الطبيعة والإنسان، خلال رحلاتي يمكنني أن أسير على قدمي طوال اليوم، وأنام بعمق طوال الليل، وأستطيع أن أقضي وقتي في الهواء الطلق وسط الطبيعة، أراقب الأشجار وأنصت إلى الطيور وأتنفس بعمق.

غير أن السفر إلى تركيا يوفر لي أكثر من ذلك؛ فهو يمنحني الوقت لأستغرق في أحلام اليقظة، خاصة أثناء رحلات الحافلة الطويلة، ويمنحني الوقت لأرتب الكتب في مكتبة حياتي ترتيبًا يلائمني، تساعدني هذه الرحلات الطويلة عبر السهول المترامية أن أفعل ذلك، فهي تمنحني

الوقت لأجلس مع نفسي في هدوء وأنصت إلى صوت أفكاري، ويساعدني السفر إلى تركيا أيضًا أن أتعافى من جراحي، فأحيانًا تمر على المرء لحظات يشعر فيها بقواه تخور، أو يشعر بالخوف من الخروج من خلف الستار للوقوف في دائرة الضوء على مسرح حياته المهنية، أو يشعر أن الحياة ستتوقف بعد فقد الحب، أو يشعر أن حقيقة مخاوفه وهمومه قد أثقلت كاهله، أو يشعر بالحنين لذلك الجزء المعنوي المفقود من حياته، أو يشعر بالوحدة والخوف يملآن حياته؛ في تلك اللحظات يساعد الطريق الترابي الخالي في التخفيف عنه؛ لأنه يدرك أنه حتى في هذه السهول الأناضولية الجرداء قد يرى مختلف صور الجمال، في هذا الطريق النائي عن كل ما هو مألوف يمكن للمرء أن يرى كل شيء واضحًا بمعزل عن حياته، من الغريب أن أجد متعتي في هذه الغربة، فهي تمدني بالسعادة والقوة لمواصلة السفر، وعندما أشعر بالخوف والوحدة والعزلة والشك وعدم الثقة في نفسي أثناء السفر أقهر هذا الشعور وأنقلب عليه، وأنا أفتخر بهذه الانتصارات الصغيرة التي أحققها؛ لأنها بمنزلة المطرقة التي تدق حائط شخصيتي لتراب صدوعه.

حينما يسافر المرء إلى تركيا، وإن كان منفردًا، يمكنه الشعور بالأمان أثناء تأدية هذه الأمور البسيطة، وبمقدوره أن يسترخي حقًا، وهو ما يستحيل أن أفعله في نيويورك حيث ينبغي أن أظل حذرة ومتنبهة على الدوام، في رحلتي عبر تركيا إبان ذلك الفاصل السعيد بين الوطن واستكشاف المجهول عثرتُ على بلد مهيا للمسافرين، مليء بالأيدي الرقيقة ووسائل الراحة وأماكن الفرار من الإجهاد والقلق.

سيدة ماري، تحدثت عن سمة أحببتها في صديقتك فاطمة، وهي روحها الأسيرة: ”إنها تواقه جدًا للتعرف على عادات البلدان الأخرى،

ولا تنحاز مطلقاً لبلدها كما يفعل أصحاب العقول الضيقة“، أنا أيضاً لا أريد أن يكون عقلي ضيقاً؛ ولهذا أسافر.

حقاً هناك ذكريات سارة ترتبط بالسفر إلى تركيا، ورسائلك الأولى من ”أدرنه“ تعكس حماساً شديداً ومتعة، ويمكنني استشعار سرورك الشديد لا باكتشاف المجتمع العثماني فحسب بل أيضاً بعالم السفر الواسع، لقد مررت بمجموعة واسعة من تجارب السفر والسياحة مثلي؛ إذ أقمت في إحدى قصور السلطان، كما أقمت في فندق شراغان الذي كان في السابق قصرًا سلطانيًا، ورافقك إلى ”أدرنه“ مجموعة حرس من ٥٠٠ جندي إنكشاري، أما أنا فإن أيادي المساعدة التي امتدت إلي وأحاطت بي تكاد تكون جيشًا من الحراس الشخصيين، وتحدثت كذلك بانبهار عن الزخارف والأثاث المترف في القصور، وكم أتمنى لو أمكنك أن تري ترف قصر دولما بهجة الذي شيد عقب رحيلك! حكيت كيف شاهدت السلطان وهو يمر في موكبه، وأنا أيضاً شاهدت شخصيات قيادية سياسية وصافحت رئيسة الوزراء السيدة تانسو تشيلر والسيد سليمان ديميريل أثناء رحلاتي، وتخبرنا إحدى أشهر رسائلك عن المأدبة التي أقامتها لك زوجة السلطان السابق، وأنا أيضاً جلست على مائدة الطعام مع شخصيات مهمة مثل عمدة إسطنبول خلال احتفالات اجتماع عام ١٩٩٥م للاتحاد الدولي لجمعية أمناء المكاتب، وتكشف لنا رسالة أخرى كيف ارتديت الملابس التركية لتيسير زيارتك للأماكن الدينية، وأنا أيضاً أمتلك زياً خاصاً ارتديه في رحلاتي يغطي ذراعيّ وساقيّ ورأسي، ويساعدني على عبور الشوارع ودخول أي مبنى أشاء في سرية، وقد استمتعت بشراء بابوج ”خف شعبي“ وطربوش ومناديل وجوارب صوفية من السوق لأرتديها في غرفتي في الفندق، إن وصفك لجامع السليمية في أدرنة لا يضارعه أي وصف لأشهر

المؤرخين الفنيين المعاصرين، إذ تصوّرني بدقة حتى أدق التفاصيل، وقد أسعدني أنك أقمت صداقة مع امرأة تركية هي فاطمة الجميلة؛ لأنني اختبرت بنفسي متعة أن أكسب صداقة أترك وأزورهم مرات ومرات، اعتدت يا سيدة ماري الخروج في نزعات بالعربة إلى الريف المحيط بمنزلك، وبالمثل قمتُ بتوظيف سائق لأشعر في مغامرة العثور على أطلال كوباداباد أو الخان المفقود، عقب وصولك إلى إسطنبول وجدت إيقاعاً لحياتك يشبه إيقاع حياتي حينما أسافر؛ اتبعت نظاماً ممتعاً من القراءة، والكتابة، وتعلم اللغة التركية، والاستماع إلى الموسيقى، وزيارة الأسواق والشوارع والأحياء القديمة والحمامات والجوامع وتكايا الدراويش، والتنزه بالقوارب صعوداً في بحر البوسفور، كما ترين نحن نستمتع بنفس مباهج السفر في تركيا؛ وأنا أسير على خطاك بكل دقة.

يشع بريق سعادتك -وأنت سائحة- في رسائلك التي كتبتها من إسطنبول، وهناك فقرات معينة تتفوق على محاولات كتاب السفر المعاصرين بلورةً جوهر هذه المدينة الفريدة، أبحر قاربك صاعداً بحر البوسفور بحداثته وغاباته ومساجده المترامية مثل "خزانة عرض تحف زخرفتها أمهر الأيدي"، ووصفك للزيارات التي قمت بها إلى قصر طوب قابي "الباب العالي" وآيا صوفيا وجامع السلجية وجامع السلطان أحمد والهيوودروم "ساحة الألعاب البيزنطية" ومولوي خانه "مقر الدراويش المولويين" ما زال سارياً حتى اليوم.

استمتعت مثلك بمباهج كثيرة خلال رحلاتي في تركيا، وسبحت مثل كليوباترا في سيدة في ظل مسرح بيزنطي قديم، وشاهدت عروضاً في نفس المدرجات التي جلس فيها الأباطرة اليونان، وخرجت أستكشف العالم من نفس المدينة التي خرج منها الجغرافي الشهير سترابو.

من بين الأمور التي أستمتع بها في تركيا بوجه خاص استكشاف الأشجار القديمة، فكثيراً ما استظللت بالأشجار العتيقة التي زرعها السلاطين في السهول، وظلت صامدة في وجه الأعاصير والمجاعات والحروب، ويبلغ عمر أغلبها ٥٠٠-٦٠٠ عام، ما زالت هذه الأشجار تقف شامخة حتى الآن؛ لتضرب لنا المثل في المرونة، أصبحت أدرك الآن معنى قول الأتراك "لكل شجرة روح"، وسبب توقفهم أثناء حفلات الزفاف لتعليق شريط زينة على الأشجار، انطبع عدد من هذه الأشجار المهمة في ذاكرتي، فصرت أتذكرها بوضوح كما أتذكر تفاصيل المساجد التاريخية من الداخل، ومن أهمها: الأشجار الضخمة في مقابر المرادية الصوفية في بورصة، وشجرتا ساحة نزل "تاش خان" في مدينة مرزيفون ومجمع بايزيد الثاني في أماسيا، والشجرة التي تقف كأنها حرس خارج "تشيلي خان" في كرامان، والشجرة القديمة في بورصة التي تفرش الطريق المؤدي إلى جبال أولوداغ، والشجرة التي زرعها سنان في ساحة جامع "آتيك واليدة" في أوسكودار، وذات مرة تناولت الطعام في مطعم فندق في منطقة أغيردير مشيد حول شجرة، وكلما رأيت روحاً ضخمة من هذه الأرواح فكرت كيف نبتت وشهدت أحداث تاريخ تركيا منذ أيام السلطان سليمان القانوني وصولاً إلى أتاتورك وحتى عصرنا الحالي، وكيف تحرص الغابات التركية الوطنية ببرامجها الرائعة على حماية هذه الأشجار والحفاظ عليها للأجيال القادمة.

تجولت في بلدان كثيرة، معروفة وغير معروفة، في مدن كبيرة مزدحمة وفي قرى صغيرة مكونة من عشرة بيوت، وزرت قرى وبلدانا كنت فيها المرأة الوحيدة التي لا تغطي رأسها، ومن المستحيل أن أسرد انطباعاتي الشخصية الخاصة بأكثر من ٢٥٠ مدينة وبلدة وقرية زرتها في تركيا، فقائمة ما أسرّ لبي طويلة جداً، لكنني أقر أنني اكتسبت ثروة من الخبرات

والممتع والمباهج المرئية التي تشبع كل الحواس، مثلك يا سيدة ماري. بقدر استمتاعي بقراءة وصفك لرحلاتك أحرزني عدم تمكنك من خوض التجارب الممتعة "المخية للآمال" المرتبطة بالسفر وحدك، سافرتُ داخل تركيا في سيارات أجرة وحافلات بين المدن، ولكل منها مزاياها وعيوبها، إن شبكة الحافلات الممتازة التي تربط مختلف أجزاء تركيا اليوم ينبغي أن تكون مثالا للكفاءة تحتذي بها كل أنظمة المواصلات في العالم، غير أن الأمور لم تكن بنفس الكفاءة منذ عدة أعوام؛ تضمنت طقوس السفر في الماضي مواقف حافلات تعمها الفوضى والهرج والمرج، ومواعيد وصول ومغادرة غير محددة، وباعة جائلين، وتغيير أماكن الجلوس باستمرار -كمن يلعب لعبة الكراسي الموسيقية- لضمان عدم جلوس امرأة بجوار رجل غريب، وتوقف الحافلة كل حين لالتقاط ثلاثة ركاب وعشر ذبابات من الطريق، والحر الرهيب، والمسافرين الذين يحملون صناديق كرتونية مربوطة بخيوط أو حقائب خيش أو حقائب رياضية مزودة بالمؤن من كل أنواع الأطعمة الخفيفة الممكنة من أجل الرحلة الطويلة؛ باختصار كانت تجربة السفر تجسد الطبيعة البشرية في ذروة نشاطها، وعلى صعيد آخر فالسفر بالسيارة يمنح المرء حرية كبيرة لمشاهدة المواقع البعيدة عن الطريق الرئيسة التي لا سبيل للوصول إليها، غير أن الطرق في تركيا تشتهر بالسائقين المتهورين؛ فقد ارتعبت ذات مرة حينما أجبرني جندي يحمل بندقية آلية أن أقف على جانب الطريق ليتسّم في وجهي ويقول: "أتمنى أن يكون طريقك ميسراً وسالماً يا ضيفتنا الكريمة".

هناك تجارب أخرى مخيبة للآمال لم تمرّ بها يا سيدة ماري؛ نظراً لأنك نعمت دائماً بصحبة المرشدين والمترجمين و٥٠٠ جندي إنكشاري؛ فعلى سبيل المثال كان "مكتب السياحة" مصدرًا مستمرًا

للحيرة والارتباك؛ إذ كانت مكاتب السياحة منذ ثلاثين عامًا ضعيفة المستوى إلى حد بعيد، فكانت أماكن متربة مغبرة ذات مقاعد بلاستيكية بالية ومائدة قهوة منخفضة تتناثر عليها بعض أدلة السفر الغريبة المطبوعة باللغة الأجنبية الوحيدة التي لا يمكن للمرء قراءتها، وحينما يدخل السائح يجد نفسه دائمًا العميل الوحيد في المكان، وبالرغم من رغبة المكاتب الصادقة في خدمة العميل فإن الموظفين لم يتمكنوا من تقديم خدمات ذات قيمة، بل قد يكون طلب المساعدة من الصيدليات المجاورة أكثر نفعًا لأنها كانت مصادر ممتازة للمعلومات والاتجاهات.

مما زاد الوضع سوءًا بالنسبة لسائح مسافر بمفرده باعة السجاد الذين يلاحقونه طوال اليوم، ويتبعون كل خطواته، ويباغثونه من الخلف كلما استدار، ويجبرونه في كثير من الأحيان على الفرار من الشارع والاحتماء بغرفة الفندق للهرب من مضايقاتهم، حتى إنني أشك في قدرة جنودك الإنكشاريين الخمسمائة على تفريق هذا الجمع القاسي من الباعة، في الماضي قبل اختراع ماكينات صرف النقود الآلية كان صرف العملة من المصرف عملية تستغرق نصف النهار، مع الحاجة إلى ملء عدة نماذج والوقوف في صفوف طويلة والإجابة على عدة أسئلة.

وأيضًا فبعض الأمور البسيطة قد تكون خطيرة أثناء التجول في تركيا؛ فأرصفت الشوارع الرخامية الجميلة قد تكون زلقة إلى حد التسبب في موتك، ومن جانب آخر فالأرصفت الإسمنتية مليئة بالحفر والبلاط غير المثبت الذي قد يتسبب في تعثرك، ونادرًا ما توجد حواجز جانبية على المنحدرات، أما أشد الأخطار فتكمن في مجموعات الأطفال الصغار الذين يحومون حولك كسرب من الحيتان التي تشتم رائحة دماء، زرت مدينة سيرت في أحد الأعوام فبدأ الأطفال يتبعوني بأعداد هائلة،

وحينما شعرت بالضيق وسألت رجلاً عن الاتجاهات أشفق عليّ وقرر أن يصاحبني لمساعدتي في العثور على المسجد الذي أبحث عنه، كان المسجد يقع في حي فقير من أحياء المدينة، وعندما وصلنا إليه كنا محاطين بأكثر من ٦٠ طفلاً أغلبهم من الصبيان بين سن الرابعة والتاسعة، زادت خطورة الأطفال المحتشدين الذين ظلوا يصرخون ويتقاذفون ويتدافعون ويمسكون بالأغراض ويتجاذبونها ويقذفونها، وللمرة الأولى في حياتي خشيت أن تقطع أطرافي من شدة الجذب، وكان الرجل أكثر خوفاً مني على حياتي ما زاد من رعبِي، في تلك اللحظة قررت أن أجعل من نفسي لنفسِي حارساً إنكشاريّاً خاصّاً، وصرخت بأعلى صوت "هذا يكفي!" ونجحت الخطة، وتمكنا من شق طريقنا عبر هذا الحشد، أخشى أن تكون تلك آخر مرة يقدم فيها هذا الرجل العون لأي سائح يحتاج المساعدة، أليس أمراً ساخراً أن تكون المرة الوحيدة التي أشعر فيها بالخطر وأنا في تركيا سببها الأطفال!

هناك خطر آخر شائع جداً للأسف في تركيا؛ لا يمكنني أن أنسى مطلقاً الهزتين الأرضيتين اللتين شعرت بهما في جنوب تركيا، تركت أولاهما ١١٠ قتلى عام ١٩٩٨م وكانت بمنزلة نذير للمأساة التي وقعت في العام التالي.

بالرغم من كل التجارب المخيبة للآمال في السفر، فإن مشاهدة الريف التركي المذهل تعوض كل شيء، إن الطريق الترابي القادم من إنجيسو إلى أوجوب مثير إلى حد بعيد؛ فهو طريق ملتف يصعد إلى أعلى التل ليكشف فجأة عن مشهد آسر شامل لوادي جوريم في كابادوكيا، أما رحلة السيارة من نيدي إلى تشيفتيهان مروراً بسلسلة جبال آداغلار وبولكار عبر ممر صقلية الشهير الذي عبره الصليبيون ويعد من أندر ممرات جبال طوروس فقد أتاحت لي فرصة لرؤية بعض من أجمل المشاهد التي رأيتها

في تركيا وفي العالم كله، وفي الطريق إلى أرتفين الذي يمر عبر حقول أرداهان المكسوة بالعشب الأخضر والأزهار البرية شاهدت الأفراس البرية تعدو بحرية، ومهورها تتراقص خلفها، ومن أحب الرحلات إلى قلبي الرحلة المذهلة للصعود من توقات إلى سيواس عبر طريق تشاملوبيل، الذي يتميز بتقديم مشهد بانورامي للبلد كله من أعلى، وربما أمكنك أن ترى كلاب الكانجال تحرس الغنم في الحقول الطينية بالأسفل إذا أنعمت النظر، أستمتع بالفعل بتلك الساعات التي أقضيها في هذه الطرق، ولا يكسر الصمت سوى صوت الريح تداعب نافذة السيارة، وأعود من تلك الرحلات محملة بكثير من الذكريات عن السكون والتناغم، فاستعيد هذه اللحظات المضيئة في ليالي المدينة القاتمة التي تحبسني جدرانها الإسمتية، وأتذكر هذه الرحلات المثالية بالسيارة وتلك العزلة الخلابة التي تشكل جزءاً عزيزاً خالداً من ذكرياتي أثناء السفر.

سيدة ماري، يمكنني استشعار مدى سعادتك بالحياة في تركيا، وكما قلتُ في رسالة سابقة وسأظل أقول: لا يمكنني أن أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن إحساس السعادة الفطرية والرضا اللذين أشعر بهما وأنا في تركيا، تتجلى حقيقة شعورك بوضوح في رسائلك الأخيرة من إسطنبول التي يشوبها حزن دفين لاضطرارك للرحيل، "أستعد حاليًا لمغادرة القسطنطينية، ويؤسفني ذلك؛ فقد اعتدت على الهواء هنا وتعلمت اللغة، أشعر بالراحة هنا"، وعدت إلى وطنك محملة بنبع من الذكريات الخالدة مثلما أفعل كل مرة، يمكنك أن تنهلي منه متى شئت، أما أنا فقد بكيت في المطار، وبكى الآخرون لرحيلي مع أنني لم أبق معهم سوى أيام قليلة، وأنا أيضًا شاهدت بعض النساء تسكين الماء على عتبة بابهن تيمناً بأن تسير رحلتي بسلاسة، وأنا أيضًا طمأنني وكيل سفري لدى رؤية دموعي قائلاً: "ستعودين إلينا مرة أخرى، أعدك بذلك!"

لكنك اضطررت للرحيل، ولدى عودتك إلى وطنك عرفت مرة أخرى معنى أن تكوني مسافرة، ومع هذا سعدت بالعودة إلى الوطن؛ فبالرغم من حبنا للسفر واعتزازنا بالبلدان الأجنبية لا يوجد مكان يضاهي الوطن، إن إدراك ذلك والسعادة بالعودة للوطن من أمتع مزايا عبور الجسور، أشعر أن بمقدوري تذوق المشروبات الباردة التي تناولتها كما تصفينها في إحدى أكثر رسائلك تأثيراً:

”لا يسعني أن أنظر بحيادية إلى وطني؛ لا بد أن الانحياز سمة أضفتها علينا الطبيعة لتفادي الحيرة، وهي التأثير الناتج عن التعطش الطموح للمعرفة الذي يمنعنا تكويننا من الاستمتاع به، كل ما نحصل عليه منها هو رغبة عقيمة في دمج المباهج ووسائل الراحة المختلفة المتوفرة في أجزاء متباينة من العالم لا يمكن لها أن تجتمع في مكان واحد.

بعد أن قرأت كل ما تتيحه اللغات التي أتقنها، وبعد أن أفنيت بصري في الدراسة منتصف الليل، أتمنى راحة البال التي تنعم بها خادمة تحلب الأبقار، وردية الخدين، لا يداخلها شك وهي تنصت بخشوع إلى المواعظ؛ فشعورها تجاه واجبها في الحياة لم تربكه التساؤلات التافهة التي يطرحها العلماء، الذين قد يكونون أكثر منها علماء، لكنهم يظلون في النهاية جاهلين.

عقب أن تجولت في أجزاء من آسيا وأفريقيا وأغلب أوروبا، اعتقد أن النييل الإنجليزي الحقيقي هو من يجد أن مذاق الثمار الإفريقية لا يضاهي مذاق التفاح الذهبي، وأن طعم اللحم الإيطالي لا يوازي طعم قطعة من اللحم البقري المحلي، وباختصار لا توجد متعة كاملة في الحياة خارج إنجلترا العريقة، عسى

أن يظل هذا هو رأيي فيما بقي من حياتي، ونظرًا لأنني مضطرة للرضا بالقدر الضئيل من ضوء الشمس الذي يصلنا فليتي أنسى شمس القسطنطينية المفعمة بالحياة“.

إنَّ العودة إلى الوطن تخفف بالفعل من حدة الحزن لفراق تركيا، غير أن هذا البلد قد غدا بمنزلة وطن لكِ ولي، ونحن ممتنون لذلك، لا أهتم بالانطلاق في رحلات حول العالم لاكتشاف ملايين البلاد، ولا أظن أن القيام بذلك سيثري شخصيتي، فأنا لا أسعى للمباهاة بعدد الدول والقارات التي زرتها، بل أحلم بأن أستمتع بالسفر على طريقتي، وأريد أن أكون سعيدة جدًا في مكان اعتبرته وطني، مكان يجعلني ممتنة للعودة إلى وطني الحقيقي، وقد منحني السفر إلى تركيا هذه المتعة.

في النهاية كيف أجيب على السؤال حول سبب سفري إلى تركيا مرارًا وتكرارًا! ماذا يجذبني إليها كل عام كأنني حاجٌ يؤدي شعائر مقدسة؟ لأكون صادقة لا أظن الأمر يتعلق فقط بالأحجار المعبرة، والجسور، والأشجار البالغة ٥٠٠ عام، والطريق المفتوح؛ بل ببساطة لأن تركيا مليئة بالأتراك.

صديقتكم

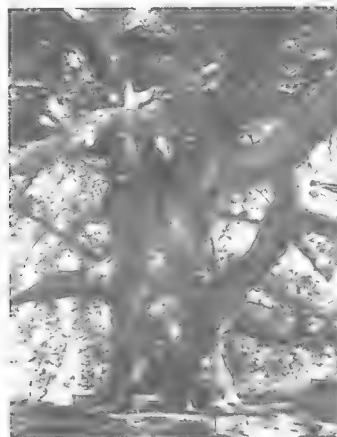
كاثرين براننج



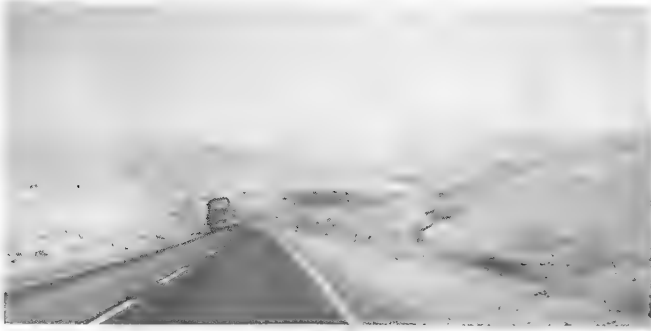
خريطة مرسومة باليد لمدينة أفين عام ١٩٨٣



خبر صحفي حول شجرة تبلغ
ألف عام بالقرب من أرزينجان



شجرة على طريق أولوداغ في بورصة



في الطريق بالقرب من أرضروم



شجرة الدلب في بورصة



قطار "الترام" في قونيا

İLLER

01 Adana	26 Eskişehir	51 Niğde
02 Adıyaman	27 Gaziantep	52 Ordu
03 Afyon	28 Giresun	53 Rize
04 Ağrı	29 Gümüşhane	54 Sakarya
05 Amasya	30 Hakkari	55 Samsun
06 Ankara	31 Hatay	56 Siirt
07 Antalya	32 Isparta	57 Sivas
08 Artvin	33 İçel	58 Sivas
09 Aydın	34 İstanbul	59 Tekirdağ
10 Balıkesir	35 İzmir	60 Tokat
11 Bilecik	36 Kars	61 Trabzon
12 Bingöl	37 Kastamonu	62 Tunceli
13 Bitlis	38 Kayseri	63 Şanlı Urfa
14 Bolu	39 Kırklareli	64 Uşak
15 Burdur	40 Kırşehir	65 Van
16 Bursa	41 Kocaeli	66 Yozgat
17 Çanakkale	42 Konya	67 Zonguldak
18 Çankırı	43 Kütahya	68 Aksaray
19 Çorum	44 Malatya	69 Bayburt
20 Denizli	45 Manisa	70 KARAMAN
21 Diyarbakır	46 K. Maraş	71 Kırıkkale
22 Edirne	47 Mardin	72 Bitünan
23 Elazığ	48 Muğla	73 Şırnak
24 Erzurum	49 Muş	74 Bartın
25 Erzurum	50 Nevşehir	75

أرقام اللوحات المعدنية في المقاطعات التركية



منطقة تسجيل الدخول، الخطوط الجوية التركية في مطار "جون إف كينيدي"
في نيويورك



مرفأ سينوب



ترسانة سفن هاليتش (الخليج)



مكتب تذاكر محطة الحافلات، مالاطيا



فندق أونيه على البحر الأسود



أغيردير



قرامان



قوس قزح بالقرب من أرزينجان

الجزء الثالث

شعب

الرسالة الثانية عشرة

سعيد من قال: أنا تركي

عزيزتي السيدة ماري،

لاحظتُ أنك لا تقضين وقتًا كبيرًا في تحليل الشخصية التركية أو إصدار أحكام على سلوكياتها، بل تصفين الأحداث دون تحليل، ويعجبني أنك تفعلين ذلك لأنني أحاول القيام بالشيء ذاته في حياتي المهنية والشخصية.

إن أعظم ميراث تركته رسائلك هو رفضك التصرف بتعالٍ ونقد للأتراك؛ إذ أدركت أن أسوأ صور العجرفة تتمثل في أن يأتي شخص أجنبي ويشرع في تصنيف مواطني أي بلد ويقع فريسة التعميمات والقوالب الشائعة.

من جانب آخر، قضيت وقتًا طويلاً في محاولة تحليل شخصيتك ومزلتك الاجتماعية بدلاً من تحليل الأتراك؛ أعتقد أن التعليق الوحيد الذي قرأته لك حول الشخصية التركية هو أنها لا تكذب: "من مراتب الجود أن تقول الصدق، ومن النادر جدًا أن تسمع كذبًا من أي تركي".

وقلت كذلك للقس كونتي: "يمكنني أن أخبرك بصدق يا سيدي أن الأتراك ليسوا جهلاء - كما نتصور - بشؤون السياسة والفلسفة حتى الشهامة".

في الواقع نحن -الغربيين- جهلاء بشؤون السياسة، ولا سيما ما يتعلق بالأتراك؛ فبعد مرور أعوام من ترسخ صورة "الأتراك المرعبين" الذين يدقون أبواب فيينا والتأثير المشين الذي تركه فيلم "ميدنايت إكسبريس"، ما زالت هناك حتى اليوم شكوك وإساءة فهم لطبيعية تركيا وشعبها.

على مدار أعوام من السفر إلى تركيا لاحظت بعض التوجهات التركية التي تختلف عن توجهات ثقافتي، وحاولت قدر استطاعتي أن أتحدى بالموضوعية مثلك أثناء مراقبتي لهذه التوجهات؛ فلا أنظر إليها عبر نظارة وردية أو نظارة سوداء، غير أنك تدركين أنني أنظر من ركن نافذة ملطخة بمعتقداتي الشخصية الكثيرة المتأثرة بأيام نشأتي وثقافتي، وكما تقولين بوضوح تام: "إن الإدراك الإنساني قاصر قصور القدرة الإنسانية أو القوة الإنسانية".

ذكرتُ منذ قليل أن هناك أفكارًا خاطئة كثيرة منتشرة حول الأتراك، سواء بحسن نية أو بسوء نية حتى يومنا هذا، ومن الصعب تصديق أن الأشخاص في عالمنا المفتوح الواسع ما زالوا يتشبثون بتلك الأفكار الرجعية الموروثة التي استمدت قوتها من مشاعر التحيز والخوف.

تركيا ليست في الشرق الأوسط، والأتراك يتحدثون التركية لا العربية، ولغتهم تُكتب بالأحرف اللاتينية.

صحيح أن الإسلام هو الدين الغالب على أهل البلد، لكن أصحاب كل الديانات الأخرى يمارسون أديانهم منذ أيام السلاجقة؛ ودليل ذلك انتشار الكنائس والمعابد اليهودية في أنحاء تركيا، فتمتع تركيا بحرية العبادة، تمامًا كما كان الوضع أثناء وجودك يا سيدة ماري.

وفي عالم اليوم الذي ما زالت النساء يواجهن فيه نفس تحديات عصركِ الخاصة بقضايا المساواة والاستقلالية، تتمتع نساء تركيا بالحرية القانونية ذاتها التي يتمتع بها الرجال، كما لا يُجبرهن أحد على تغطية رؤوسهن.

في حين يتبنى البعض معتقدات زائفة حول الأتراك، فإنني أنساء كثيراً: كيف يرى الأتراك أنفسهم؛ فربما لا يكون من المستغرب أن تضم تركيا طوائف مختلفة من الناس، وسيكون من العسير حصر تنوع الأعراق والأديان والأصول والطبقات والمنازل الاجتماعية في هذا البلد.

يتمتع الأتراك بالتنوع الثقافي الخاص بهم مثلهم في ذلك مثل الأمريكان الذين يضربون للعالم أجمع مثلاً يبين أن تعدد الثقافات قد يفرز قوة اجتماعية هائلة إذا سُمح له أن يستمر وينمو، وهو ما حدث في تركيا؛ فليست هناك معايير عرقية تركية محددة لأن سكان تركيا متنوعون بين اللاز والأكراد والعرب ونسل القبائل التركية في آسيا الوسطى الذين بدؤوا يتوافدون على تركيا في القرن العاشر الميلادي.

تقدم كل هذه الأعراق تنوعاً مذهلاً في بنية الشعب التركي؛ فتجد أتراكا بأنوف كبيرة راجعة إلى منطقة البحر الأسود، وأتراكا طوال القامة بشعر أشقر، وأتراكا آسيويين قصار القامة أقوياء البنية يتميزون بعظام وجنة مرتفعة وأعين مائلة تعود بكل وضوح إلى الفرس، وتجد أتراكا بشرتهم بيضاء وشعرهم أشقر أو أصهب من نسل الشراكسة الذين عاشوا بين حريم السلطان، وهناك أتراك بشرتهم بلون زيت الزيتون وبنيتهم بنية البحر الأبيض المتوسط النحيلة، وأكراد بأنوف كبيرة وأعين أخاذة نابضة بالحياة، إلى جانب الفلاح الأناضولي القوي المكتنز مدبب الرأس القسمات الحادة.

أما في النساء، فتجد نساء بلامح رقيقة يمكن نسبتها إلى الشرق الأقصى، ونساء بوجوه عريضة سلافية، وهناك أطفال حُمر الشعر من نسل الصليبيين بمنطقة البحر الأسود، وأطفال اللاز ذوو الأنوف المعقوفة، وأطفال العرب ذوو البشرة اللامعة بإقليم هاطاي.

وينطوي هذا التنوع على أزياء مختلفة، بدءًا من أزياء المصممين الرائجة في إسطنبول، إلى الأحزمة العريضة والسترات الطويلة وأغطية الرأس ذات النقوش المربعة في منطقة الجنوب الشرقي، إلى السراويل الواسعة التي يرتديها الرجال والنساء في وسط الأناضول، وصولاً إلى الملابس البراقة الزاهية الألوان التي ترتديها النساء الكرديات وتتميز بحبات الترتير والأشرطة المثبتة على ظهورهن.

يرتدي الرجال الأتراك قبعات مسطحة أو قبعات بيضاء، والنساء أوشحة حريرية ملونة أو أوشحة قطنية بسيطة تزين حوافها أزهار كُرَيْشَة صغيرة حيكّت بدقة.

لعل أغلب هذه الأزياء تشبه ما رأيته يا سيدة ماري، غير أن العولمة بدأت تمحو آثار هذا التنوع لصالح القمصان وسراويل الجينز والأحذية الرياضية التي أصبحت شائعة جدًا بين شباب تركيا.

كنتُ متنبهة منذ لحظة وصولي إلى تركيا ألا أقع فريسة القوالب الشائعة التي كونتها من انطباعات الآخرين، وقد كنت محقة في ذلك؛ فعندما يوصف شخص بأنه عنيد في اللغة الفرنسية يُقال: "إنه عنيد" كالأتراك! لكنني لن أصف الأتراك بالعناد بقدر ما أصفهم بالانضباط وصعوبة المراس؛ فالأتراك حازمون ويقررون دائماً ما فيه مصلحتك، حتى إن لم يكن ذلك ما تتوقعه؛ فلا يمكنك طلب طبق من قائمة الطعا إذا رأى النادل أنه ليس في مصلحتك، وسيقدم لك أطباقاً لم ت

ولا تثير اهتمامك، لأنه يرى أنها الأطباق التي يجدر بك تناولها، ولن يسمح لك صاحب المتجر مثلاً بشراء سترة برتقالية إذا ظن أن اللون لا يناسبك، مهما عرضت من نقود.

يتمتع الأتراك بنظام رادار شخصي داخلي بالغ التعقيد؛ فيدركون كل شيء يحدث حولهم، ولا شيء يفوتهم؛ لذا يحرصون على الانتباه لشؤونك، لأن عيونهم في كل مكان.

إنهم لا يغفلون عن أدنى حركة ولا يفوتهم شيء؛ فإياك أن تحاول ارتكاب شيء أمامهم، غير أنهم ليسوا جواسيس للشرطة، بل إنهم يفعلون ذلك لحرصهم الشديد أن تتلقى الرعاية الكاملة، وألا يقع الأطفال من أعلى السلالم، وأن يتم توفير مقعد لامرأة توشك أن تفقد الوعي، على سبيل المثال.

يميل الأتراك لحماية من حولهم، ولا يريدون أن يتعرض ذوهم أو من يلون أمرهم لأيّة مشكلة أو مأزق؛ قد يتخذ الأمر صورة رسمية تتمثل في نقاط التفتيش المرورية على طريق ملاطيا، يقوم الأتراك بذلك بحذر وسرية، فيفاجئك الأمر تماماً عندما تكتشفه؛ فثمة تركي خلف كل شجرة وفي كل زاوية يراقب ما يحدث، مستعد للتصرف في أي لحظة إذا لزم الأمر؛ إنه موظف استقبال الفندق بمدينة وان الذي اتصل بزميله -في الفندق الذي سافرت إليه في المدينة التالية- ليطمئن على سلامة وصولي، لأنه شعر أنني لم أبدأ على ما يرام؛ إنه صاحب المتجر في مدينة قيصري الذي يبادرني بقوله: "صباح الخير يا آنسة كيتي" كلما دخلت إلى متجره، (كيف عرف اسمي؟)؛ إنه البقال في مدينة سيواس خلال أيام المحن السياسية، كان يترك بندقيته ليقدم لي عصير الكرز، ويقرب لي مقعداً، ثم يمسك بندقيته مرة أخرى ليقف بجوار الباب؛ إنه النجار

في مدينة وان شرق تركيا الذي حيّاني بحماس قائلاً: ”مرحباً، كنت أنتظر قدومك“ وحين سألته كيف عرف أمري، أجاب ”أعرف كل شيء عنك! بلغني أنك في المدينة وكنت أنتظرُك؛ فالمدينة كلها تتحدث عنك!“.

يعشق الأتراك الزهور، وهذه العاطفة منتشرة على الصعيد الوطني؛ فتجد نقوش الزهور على كل الستائر وأغطية رأس السيدات وأباريق الشاي، ويقضي باعة الأزهار ساعات في صنع أكاليل كبيرة مزركشة لحفلات الزفاف، ويصنع الأتراك باقات مركبة من أزهار بلاستيكية تعلوها قطرات ندى صمغية اصطناعية، ويكون الإقبال على شرائها أكبر من الأزهار الطبيعية، ويضعون بتائل الأزهار فوق أطباق السلطة وينثرونها على موائد العشاء، ويستغلون الصفائح الفارغة لزيت الزيتون في زراعة الأزهار ويضعونها في كل مكان ملائم.

الأتراك مولعون بالزهور عموماً لكن ثمة زهرة ذات أهمية خاصة في قلوبهم: إنها زهرة التوليب، سأحدث بالتفصيل في رسالة أخرى عن حدائق الجنة في إزنك، لكن القصة التالية ستعكس مدى الولع التركي بالتوليب، والقصة تدور حول ”مسجد لآله“ في قيرشهير الذي بُني عام ١٢٧٢هـ، واسم المسجد مقتبس من اسم زهرة توليب رائعة الجمال أهداها طالب في ”مدرسة جاجابي“ الدينية المجاورة إلى بُناة المسجد، ثم بيعت الزهرة لتمويل عملية ترميم المبنى ليكون مسجداً، لكن لا داعي لأن أحدثك يا سيدة ماري عن ولع الأتراك بالزهور، أليس كذلك؟ فالسلطان أحمد الثالث الذي تولى الحكم أثناء وجودك في تركيا ترك بصمته التاريخية بتشكيل ”عهد لآله (التوليب)“، وهي فترة من البهجة والتنوير ركزت على الولع بزهرة التوليب في الفنون والأدب والحياة الاجتماعية.

غير أن زهرة التوليب كانت محبوبة قبل الموجة الجنونية التي اجتاحت تركيا؛ كتب بوسبيك الذي كان سفير الإمبراطور النمساوي في بلاط السلطان سليمان الكبير عام ١٥٥٤م في رسائله: "شاهدنا في كل مكان أزهاراً وفيرة... الأتراك مولعون جداً بالزهور حتى إن فرق المشاة تلقت الأوامر بعدم الوطء عليها"؛ وقد أحضر زهرة التوليب إلى أوروبا، وبحلول عام ١٦٣٠م اجتاحت "شغف التوليب" هولندا.

يستمتع الأتراك بكل موسم من مواسم العام لأقصى حد، وترمز زهور التوليب للميلاد من جديد وسعادة الحياة، واليوم نرى التوليب في كل مكان، في أصص على طاولات الخطوط الجوية التركية، وفي كل كتيب أدعية منشور، وفي سلاسل المفاتيح، بل قد أصبحت الرمز شبه الرسمي لدولة تركيا، حتى إن الآلاف من أكواب الشاي التي تُقدم في تركيا تتخذ شكل زهرة التوليب.

غير أن زهرة التوليب تواجه منافساً قوياً، وهو الورد؛ ففي أكثر قرى تركيا المتربة المتواضعة هناك دائماً محاولات لإنشاء صورة من صور الحداثة العامة المزروعة بشجيرات الورد، قد تكون رقعة من الأعشاب في منتصف ميدان، وغالباً ما تنتشر حدائق الورد المزهرة حول مساجد الأحياء ويعتني بها بستاني مقيم.

أرى أن أجمل ورد في تركيا هو الورد القرنفلي الذي ينبت على ضفاف النهر الأخضر في توقات؛ ذات مرة كنت في متجر مع صديقة أرادت شراء إبريق للشاي، وظل صاحب المتجر يعرض عليها تصميمًا تلو الآخر ولم يعجبها أيّ منها، وأخيراً عرض عليها إبريقاً مزيناً بورود حمراء مشرقة، فصاحت مجموعة من النسوة الواقفات حولنا وهن يراقبن ما يحدث: "نعم، إنه أجملها! لا بد أن تشتري هذا الإبريقا"

لكن صديقتي غادرت دون أن تشتري شيئاً؛ وشعرت أنني ملزمة بالبقاء لأوضح لصاحب المتجر أن إحجامها عن الشراء لا ينطوي على أية إهانة له أو انتقاص من جودة بضاعته، وإنما يرجع السبب إلى أنها -في الواقع- لا تحب الأزهار، لن أنسى تعبير الاستنكار الذي علا وجوه الجميع؛ لأن هذا السبب غير معقول في تركيا.

بالإضافة إلى حب الأتراك للزهور يحبون الطبيعة أيضاً أكثر من أي شعب آخر؛ فالطبيعة الخضراء تحمل قدسية خاصة في أعينهم، وتنعكس حيويتها وخضرتها في أطر الأبواب والنوافذ وأعالى القباب والسجاجيد وأصص الرياحان.

وثمة شبكة واسعة من الغابات الوطنية التي تغطي أراضي تركيا، ومن أحبها إلى النفس المتنزه الوطني لجبال إلغاز.

لا شيء أحب إلى الأتراك من تسلق الجبال الشاهقة والتنزه فيها، وإذا تعذر ذلك فيمكن إيقاف السيارة على جانب الطريق، والجلوس تحت الأشجار، وتناول الفاكهة الطازجة أو أكواب الشاي أو الشواء على الشواية.

لقد منّ الله على تركيا بيئة طبيعية مميزة يقدرها الأتراك الذين يوقرون بحارهم وجبالهم وغاباتهم وبحيراتهم ويستمتعون بها، ويحبون الطيور ويحتفظون بها في أقفاص في الحدائق، كما فعل السلاطين الأتراك من قبل حينما أمروا ببناء بيوت حجرية للطيور في الجدران الخارجية للمساجد.

كذلك يحرص الأتراك على البقاء بالقرب من المزارع والأراضي، ويستمتعون بقدوم الربيع إذ تفتتح أزهار التوليب البرية، ويقدرّون خيرات الأرض، سواء كانت محاصيل وفيرة أو عسل النحل.

من أشهر قصائد الشاعر التركي الشعبي العظيم عاشق فيسيل قصيدة بعنوان "تراب الأرض" يقول فيها: "حبيتي المخلصة هي الأرض، رغم أنني جرحتها بمعولي ومجرفتي، ابتسمت لي وأهدتني وروداً حمراء؛ حبيتي المخلصة هي الأرض..." وما زالت الخيول الغالية تعدو في الأراضي الجبلية بشرق تركيا، وهي تلقب -احتراماً- باسم "أجنة الأتراك" المقدسة.

يتجلى حبّ الأتراك للطبيعة في المكانة الخاصة التي يمنحونها للماء؛ فلا يضيعون أي فرصة للشرب من سُبُل المياه العامة الكثيرة في المدينة، أو الشرب مباشرة من الينابيع العذبة المتدفقة بجوار الطرق؛ فمن المعروف أن إتاحة سبيل ماء من أفضل وأتقى الأعمال الدينية.

يحب الأتراك الماء كما يحب الفرنسيون النبيذ، ويمكنهم التمييز بين مياه الينابيع المختلفة بنفس الدقة التي يميز بها أحد سكان بوردو بين أنواع الخمر التي يمتلكها.

الأتراك يحترمون ينابيعهم، وعلى رأسها نبعاً نكسار وأيفاز؛ ولا تجدهم يقودون سياراتهم في الطريق بجوار نبع دون التوقف لملء الزجاجات وحافظات المياه، بل إنهم يحتفظون في صندوق السيارة بأوعية وزجاجات بلاستيكية لهذا الغرض بالتحديد.

يحب الأتراك الموسيقى وكل ما يتعلق بها، الاستماع إليها حية أو مسجلة، وتأليفها، والغناء معها، ويتمتعون بمواهب موسيقية متعددة، شأنهم في ذلك شأن الأمريكيان؛ ففي تركيا تسمع الموسيقى الصاخبة المتواصلة في كل مكان: في الحفلات والمنتزهات والمطاعم ونواصي الشوارع والمتاجر؛ يبدو أنهم يعانون مما يعرف باسم الخوف من الصمت؛ في بعض الأحيان يكون الأمر مرهقاً، لأنك لا تنعم بدقيقة من الصمت

تنصت فيها إلى فكرِكَ أو إلى تغريد الطيور في الصباح، غير أنك لن تشعر مطلقاً بالحزن أو الوحدة وسط هذه الموسيقى المفعمة بالحياة.

ويتذوق الأتراك كل أنواع الموسيقى، من الأغنيات الشعبية إلى المقطوعات العثمانية الكلاسيكية وموسيقى البوب المعاصرة، وبالرغم مما يقال فإن عددًا كبيرًا من الأشخاص يقرون باستمتاعهم الآثم بموسيقى الأرابيسك وعواطفها المبالغ فيها؛ وبالطبع فإن النجوم في تركيا يلقون معاملة خاصة، وخاصة الموسيقيين والمغنين، يكادون يُعاملون بتقديس.

تحدثت بالفعل في رسالة سابقة عن مكانة الأسرة، لكن فكرة الأسرة في تركيا تتجاوز كيان الأسرة المفردة؛ فالأتراك يربطهم التزام مشترك تجاه غيرهم من البشر، وينظرون إلى المجتمع كله أنه امتداد لأسرتهم الصغيرة، يضعون الأسرة فوق أي اعتبارات أخرى؛ فمن الضروري في رأيهم أن تكون الحياة في المجتمع متناغمة؛ فلا يلقون بالأل للقيود ومبادئ الخصوصية التي تفرضها في الغرب على أنفسنا، بل إنهم يتناولون المقبلات معاً ويشربون الشاي من نفس الإبريق، ولا تجد تركيًا يأكل وحده، أو يموت وحده، أو يخرج في رحلة وحده، أو يسير في الطريق وحده.

ويتسم الأتراك أيضاً بالعاطفية والانفعالية؛ يميلون بطبيعتهم للمبالغة والتأثر الشديد والإفراط في الانفعالات؛ إنهم أشخاص مبالغون للعناق، وعواطفهم رقيقة، ومشاعرهم فياضة، وأحاسيسهم مبالغ فيها مثل أهالي تكساس؛ فكثيراً ما تكون أغانيهم حزينة وكثيرة.

في أحيان كثيرة يكون الوجه الهزلي المبتهج للشخصية التركية ذا طبيعة كثيفة؛ لذا فإن موضوع الاستياء من الاغتراب يظهر بقوة في الأعمال السينمائية والأدبية والموسيقية؛ تعتبر المآسي جزءاً طبيعياً من الحياة، ويمكن رؤيتها في الأفلام القديمة التي تُعرض باستمرار في التلفزيون،

وفي الأغنيات، وفي الصفحات الأولى للصحائف التي تمتلئ بجرائم الشرف والمآسي العائلية وغيرها من الحوادث الشخصية المفجعة المصحوبة بصور ملونة عالية الجودة.

يتعامل الأتراك بعضهم مع بعض بلطف محبب؛ فيتبادلون دائما اللمسات واللكزات والابتسامات والملاحظات الساخرة، ويضعون أيديهم على صدورهم ويرددون اسمك كثيرا أثناء حديثهم معك، ولا يمكنهم رؤية طفل دون أن يقوموا غريزيا بالتربيت عليه، أو قرص وجتيه، أو حمله وقذفه في الهواء، أو تقييله.

والجميع يعلي قدر الشعر، وما زال تقليد إلقائه موجودا بقوة؛ إذ يستطيع أغلب الأتراك إلقاء قصيدة واحدة على الأقل لشاعرهم يونس أمرة أو لمولانا، ويمكنهم أيضا التغني بكلمات كل أغانيهم العاطفية المفضلة، حتى إن السلاطين العثمانيين نظموا الشعر عند الفراغ من الحملات الحربية. من أهم سمات الأتراك الفضول؛ إذ يراقبون كل شيء، من باعة أدوات المطبخ الراكبين على المراكب، إلى المشاجرات بالأيدي، إلى حوادث تصادم السيارات، إلى حفلات الزفاف، إلى الأشخاص الذين يقرؤون الكتب؛ فلا يريدون أن يفوتهم شيء.

في البداية ظننت أن كل حركاتي ولفطاتي تحيرهم لأنني أجنبية، ثم اكتشفت أنهم يفعلون ذلك مع الجميع؛ ذات مرة حاول صديقي الشاعر أن يحدثني عن مولانا الشيخ الصوفي برهان الدين معلم ونحن نقف أمام قبره في قيصري، وخلال خمس دقائق كان قد جذب حشدا من اثني عشر شخصا التفوا حوله للاستماع إلى "محاضرته".

وفي مناسبة أخرى كنت أستمع بقيادة السيارة من بويابت إلى سينوب، ثم أوقفت السيارة بعد ممر تشينجل مباشرة للاستمتاع بالمشهد من أعلى

وتناول ثمرة إجاص، وخلال دقيقتين توقفت سيارتان وخرج عشرة أتراك وأحاطوا بي، وهم يتحدثون ويعرضون عليّ الماء وفاكهة أخرى؛ بما أنني توقفت فلا بد أن يكون هناك سبب، ولم يرغبوا أن يفوتهم ذلك.

ومرة أخرى ذهبت لزيارة سوق في أزيينا وهي قرية خالية تمامًا إلا من متجر حلاق وبقال وخباز، ترجلت عن الحافلة لا ألقى بالاً لشيء، وسرت تجاه السوق وبدأت ألتقط الصور، وكما حدث معي في ممر تشينجل ظهر تسعة رجال من حيث لا أدري، كانوا يقودون سياراتهم ثم قرروا التوقف لمراقبة ما أفعل؛ وتحولت زيارتي البسيطة للسوق إلى مهرجان عام بفضل ثرثرتهم وتدافعهم والتحديق إلى الكاميرا وطرح مختلف الأسئلة عليّ، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ فعقب الزيارة اقترب مني جندي يحمل مدفعاً رشاشاً، وأخبرني أن العمدة -الذي كان يراقب كل ما يحدث من نافذته في مبنى مجلس المدينة المجاور- يدعوني لتناول الشاي في مكتبه؛ فتحولت زيارتي البسيطة لسوق قديم إلى لقاء دبلوماسي كامل استمر أكثر من أربع ساعات.

الأتراك مهتمون بالعالم من حولهم، وهم مستعدون دائماً للانفتاح على أفكار جديدة، وعلى الأخص يريدون أن يعرفوا الطريقة التي يفكر بها الأجانب؛ فذات شتاء بعد أن تناولت غداءً مذهلاً عبارة عن يخنة لحم الحَمَل "هونكار بيندي" في مطعمي المفضل "هافوزلو" في السوق المغطى كابالي تشارشي بإسطنبول، قررت أن أتجرأ وأطلب معروفاً من رئيس العاملين وأنا خارجة؛ سألته عن إمكانية أن أشتري أحد أطباق المطعم، وبالطبع فاجأه السؤال، ثم نظر إليّ شزراً وقال: "سيدتي، ماذا ستفعلين به؟ لماذا ترغين في شراء أطباقي؟" أدركت أنني أول شخص يطلب منه هذا الطلب، ولأنه تركي فهو فضولي بطبعه فأراد أن يعرف السبب.

حينما شعرت بقلقه من العملية برمتها، علمت أنني يجب أن أتوصل إلى سبب مثير ومطمئن، أو سأخرج من المطعم صِفْرَ اليدين؛ فوضحتُ له أنني ”أجمع قوائم الطعام والأطباق من مطاعمي المفضلة حول العالم“، وأضفت بابتسامة عريضة على أمل أن أنال مرادي: ”ومطعمك من أفضل المطاعم في العالم في نظري“، لكنه لم يبادلني الابتسامة، فأكملت كلامي قائلة: ”أقوم ببروزة قوائم الطعام وتعليقها في مطبخي لتلهمني وأنا أطبخ؛ فعندما أنظر إليها أتذكر الوجبة التي استمتعت بها والمكان والصحبة التي كنت فيها، أما الأطباق فعندما أتناول الطعام فيها أتمنى أن يستمد لذته من ذكريات طعام قدمه طهاة ممتازون، وهدفي من ذلك أن أكرّم مهارتهم وقدرتهم؛ أستخدم هذه الأطباق وكلي أمل أن يكون الطعام الذي أعده في مثل لذة الطعام الذي تناولته فيها من قبل، وعندما يأكل ضيوفي في هذه الأطباق أتمنى أن يشعروا بنفس السعادة التي شعرت بها وأنا أكل فيها، كما شعرت اليوم وأنا أتناول طبقك الرائع ”هونكار بيغيندي“، سكتُ لحظة لألتقط نفساً عميقاً، بينما واصل رئيس العاملين التحديق إليّ، ثم أجابني في النهاية قائلاً: ”حسنًا، يا سيدتي، هذا كلام رائع، لكنني ما زلت لا أفهم ماذا ستفعلين بأطباقك!“.

ومن السمات الأخرى للأتراك أنهم لا يتقيدون بأي قيود، ولعلها أهم سمة تحتاج للاعتياد، لأنها غالبًا ما تبدو للأجانب أمرًا مهينًا وعدوانيًا؛ يفعل الأتراك بك ما يحلو لهم ببراعة بصورة تلقائية؛ فقد يجذبون الصحيفة من يديك أو يلكزونك أو يجلسون بجوارك مباشرة -ليس بالقرب منك بل ملاصقًا لك- على مقاعد المتزهات أو يرتبون على كتفك أو يطرحون عليك أسئلة مباشرة جدًا ”يبدو أنك تبلغين خمسة وأربعين عامًا، هل هذا صحيح؟ لماذا ترتدين نظارات شمسية قديمة الطراز كهذه؟“؛ يفعلون كل ذلك دون أدنى قصد لإزعاجك، بل بدافع فضولهم بما حولهم؛ يستحيل

أن تستطيع الجلوس في هدوء على مقعد متنزه أو في مقهى أو أن تُترك وحدك لتستمتع بزيارة مكان ما أو أن تتمتع بفطور هادئ دون أن يأتي شخص ويقرب مقعداً ليجلس معك.

والأتراك يحدقون إليك مباشرة ولا يعدون هذا التصرف إساءة، بينما تنظر ثقافتنا الغربية إلى التصرف باعتباره فظاً لا يحترم خصوصية الآخرين، أما الأتراك فيعدون ذلك وسيلة لإبداء المودة، هل تذكرين -يا سيدة ماري- كيف حدثت إليك النسوة ولكزنك عندما زرت مكاناً عاماً؟ هذا بالضبط ما أتحدث عنه.

كذلك يهتم الأتراك بمعرفة ما يثير اهتمامك؛ فذات مرة وأنا في قيصري ظل حارس المتحف يلاحقني -باهتمام- من غرفة إلى غرفة، ويقف بجواري وأنا أدون ملحوظاتي وأرسم، حتى إنه كان يمد رقبته ليراقب ما أفعل، وعندما لم يتمكن من الرؤية بوضوح اقترب مني بشدة، وفجأة لم أستطع تحمل المزيد، فأغلقت الكتاب بقوة وقلت له: "يكفي هذا!"; فارتسمت أمارات الألم على وجهه، حينها أدركت أنه لم يكن يتصرف بدافع الفضول، بل كان يبدي اهتمامه بما أفعل لأنني أفق في نطاق سلطاته.

يتحلى الأتراك بروح وطنية عالية، ويشعرون بالفخر ذاته الذي يشعر به الأمريكيان عند رفع علمهم، ويطلقون على طائراتهم أسماء مدنهم وأنهارهم المفضلة، ويفتخرون بشدة أنهم أتراك تجمعهم اللغة والثقافة.

تنبع كثير من عادات الأتراك من مبادئ وتعاليم الإسلام، مع عدد من العادات المثيرة للاهتمام من عصر الجاهلية؛ يتمسك بعض الأتراك بالقيم التقليدية لأسلافهم القبليين؛ فتجد بعضهم يعلقون خرزة زرقاء في متاجرهم أو سياراتهم، وهي عادة يعتبرها البعض وسيلة لتأمين الحياة

بينما يراها الآخرون أداة للزينة ليس إلا، وبعض الأتراك لا يمرون على شجرة مقدسة دون ربط شريط النذر.

يكره الأتراك أن يعارضهم أحد، وربما هذا ما أشار إليه الفرنسيون عندما وصفوهم بالعناد؛ ذات مرة طلبت من ماسح أحذية تلميع حذائي المفضل المصنوع من الجلد الأزرق الأدكن، وأكدت أن لون الحذاء أزرق أدكن وليس أسود، وطلبت منه ألا يستخدم ملمعاً أسود، فأوماً برأسه وأخرج علبة وفتحها، فأدركت من فوري أنها ملمع أسود، فطلبت منه التوقف، فغضب بشدة وقال: "سيدتي الأجنبية، هل تظنين حقاً أنني غير قادر على التمييز بين اللونين! هذا هو اللون الصحيح!"، بالطبع كان الملمع أسود، وتدمر حذائي الأزرق الرائع للأبد بسبب عناد هذا التركي الذي رفض الإقرار بأنه لا يحمل معه ملمعاً أزرق أدكن.

يتمتع الأتراك بحس الدعابة، ولا يأخذون الأمور الخاصة بهم بجدية تامة؛ فيمكنهم السخرية من أنفسهم، ويمكنهم انتقاد أنفسهم بسهولة، ويتقبلون مصائب الحياة بنظرة قدرية رحبة المدى؛ فلا يتوقعون كل شيء أن يكون على ما يرام لأنهم يؤمنون أن الحياة نفسها ليست كاملة أو خالية من النقائص، لكنهم متفائلون ويعلمون كيف يضحكون من أعماقهم؛ قد يجلسون بصبر ساعتين عند انقطاع التيار الكهربائي، ويتظنون ساعات أن تأتي الحافلة دون أي شكوى.

لن يقر تركي مطلقاً أنه لا يعرف إجابة سؤال وجه إليه، أو أنه لا يعرف ما يفعله، فإذا لم يعلم الطلب الذي طلبته في المطعم سيحضر لك طبقاً من كل صنف حتى يضمن إرضاءك، وإذا وظفت سائقاً خاصاً ليوصلك إلى مكان معين، فلن يعترف -من البداية قبل الانطلاق- أنه لا يعرف المكان الذي تبحث عنه، الأتراك لا يكذبون؛ أنت محقة في ذلك يا سيدة

ماري، لكنهم يخفون جهلهم بسرد قصص طويلة أو تقديم ذرائع تكون مسلية غالبًا.

الأتراك رجال أعمال ألمعيون مغامرون، حاضرو البديهة في مشاجراتهم، قادرون على تحقيق الأشياء وإنجازها؛ فهم يذكرونني جدًا بالأمريكان.

كما يتمتع الأتراك بحس عالٍ بالمبادرة الفردية يصاحبه إحساس بالالتزام لضمان التماسك الاجتماعي، وهذا ما يجعلهم يدًا واحدة في أوقات الصعاب والأزمات، كما أنهم تواقون للتقدم، ماهرون عندما يتعلق الأمر بالنقود، ويتمتعون بقدر هائل من الشجاعة الشخصية؛ الأتراك أشداء الشكيمة ولديهم قدرة على مواجهة الحمقى، باختصار إنهم قادرون على الصمود.

وفي النهاية أختتم ببعض ملاحظاتي المتفرقة:

الأتراك كلهم حيوية وحماسة، يطلقون بنادقهم في مباريات كرة القدم ويصفقون عندما تهبط الطائرات بسلام.

لا يحتقرون الشحاذين بل يرونهم أشخاصًا مستحقين للزكاة؛ يساعدونهم على تأدية تلك الفريضة.

الأتراك لا يجيدون السباحة لإنقاذ أنفسهم، ولا يقرؤون الكتب على الملأ، ويفخرون جدًا بروحهم الرياضية خاصة عندما يتنافسون على ملاعب أوروبا، وفوق ذلك يمكن قراءة وجوههم بسهولة بالغة.

سأتحدث عن سخاء الأتراك ولطفهم المشهود في رسالة أخرى، وكما أعُدُّ البلد وطني الأم "تركي" أعُدُّ الأتراك أبناء وطني الأم "أتراكي"؛

هذه رؤيتي لهم، وأتمنى ألا تبخسهم رؤيتي حقهم وألا تجور عليهم؛ فهل لاحظت إحدى هذه السمات في معلمك أحمد أو في صديقاتك أو خدمك أو في أحد الجنود الإنكشاريين خمس المئة؟

لعل أشهر مقولة لأتاتورك، مكتوبة على لوحات الإعلانات، ومنقوشة على قواعد تماثيله المنتشرة في ميدان كل قرية، ومطبوعة على أبواب مجلس المدينة، ومكتوبة في أروقة أغلب المباني العامة، ومرسومة على جوانب الجبال، هي العبارة الخالدة: "سعيد من قال أنا تركي"؛ إذا كانت الشخصية التركية تتمتع بكل السمات الشخصية التي تمكنت من ملاحظتها، فإن أتاتورك معه كل الحق في التوعية بهذا المورد الوطني الطبيعي الغني؛ لا تعكس هذه العبارة فخراً زائفاً، بل حان الوقت أن يعلن كل تركي هذه الحقيقة بأعلى صوته ليسمعها العالم كله.

صديقتكم

قدريّة براننج



ديار بكر مدينة البطيخ، وأسوار المدينة التي يمكن رؤيتها من الفضاء



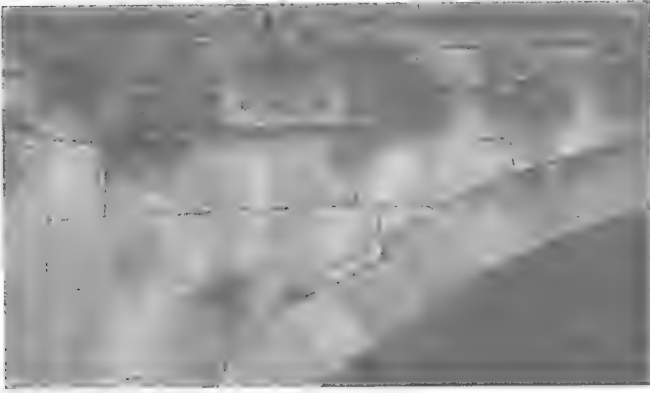
تمثال لعاشق التُوليب السلطان أحمد الثالث من كتاب في لندن نُشر عام ١٧٤١م



تذكرة اليانصيب التي تحمل التفاؤل دائماً



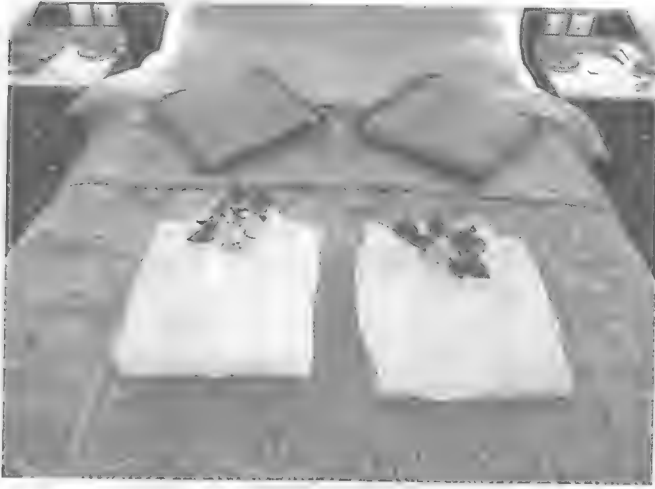
حديقة أزهار في بورصة



بيت طيور حجري عثماني، مجمع بايزيد الثاني في أماسيا



سوق للأزهار البلاستيكية في قيصري



ورود من أجلك



إبراهيم كوتلوأي، نجم المباريات نصف النهائية لبطولة كرة السلة الأوروبية

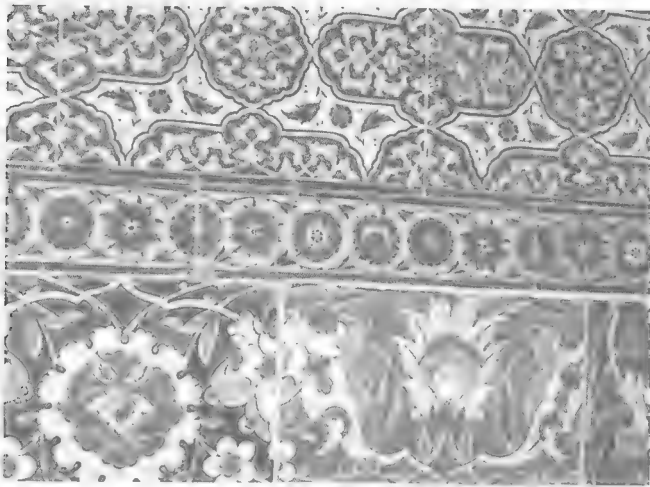
عام ٢٠٠١م



“أجنحة الأتراك” المقدسة



حديقة مزهرة لأزهار زيت الزيتون في مانيسا



لوحة غرفة الختان في قصر طوب قابي



وردة مثالية في توقات



فلنكن أصدقاء الطبيعة



ورود على إبريق الشاي



SINOPSPOR

-YARDIM PULU-
250.000 (İKİYÜZELLİBİN) TL

Ser./A

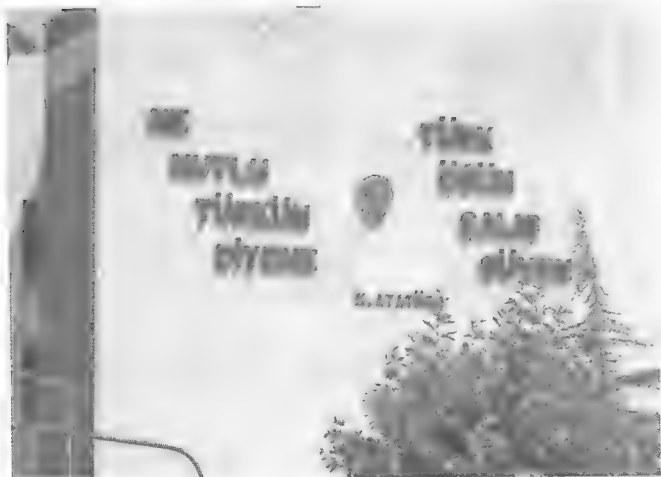
№ 063282

Sinop Valilik makamının 12 10 2000 tarih ve B 05.
1. EGM.4.5700. 12/5.14411-1360 sayılı onayıyla

إيصال تبرع لأحد الأندية الرياضية



زخرفة ملونة على إحدى الحافلات



مدينة توقات



قونيا: "ممنوع الجلوس"

الرسالة الثالثة عشرة

ضجّة في العالم

عزيزتي السيدة ماري،

تصفين النساء في رسائلك وصفًا دقيقًا للغاية، وسواء كنت في راتيسبون أو فيينا أو "أدرنه" أو باريس لم تتواني عن رسم صور حية ومذهلة للنساء الأوروبيات اللاتي قابلتهن بأدق التفاصيل لموضوعاتهن المفضلة.

وبعد أن وصلت إلى تركيا واصلت مراقبة النساء التركيات بعينيك الحادتين، وكانت ملاحظاتك عنهن بمنزلة معلومات مهمة للمؤرخين ودعاة المساواة بين الجنسين في شؤون الحياة اليومية في تلك الفترة، وكانت لقاءاتك بالنساء -أثناء رحلتك عبر أوروبا- بمنزلة محك مهم لقياس لقاءاتك بالنساء في تركيا؛ فقد تركت لنا -يا سيدة ماري- أربع رسائل بارزة خالدة تصفين فيها زياراتك لسيدات تركيات، تقدمين فيها رؤية نافذة لا لشخصية النساء فحسب بل لشخصيتك أنت أيضًا.

بخلاف تلك الرسائل الأربع، ثمة رسالة قد تكون الأشهر بين كل "رسائل السفارة"؛ لأنها ألهمت حركة الاستشراق في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، وفيها تسردين وقائع زيارتك لحمام عام تركي في صوفيا؛ فقد اعتمد محبو الغرائب على هذه الرسالة بشكل خاص لجمع كل التفاصيل المثيرة الخاصة بعادات حمام البخار التركي، وأثار الأمر اهتمام الرسام الفرنسي آنجر؛ فاستعان بألوانه الزيتية وفرشاته وأعمل

مخيلته الواسعة لتمثيل أوصافك الدقيقة لطقوس الاستحمام وعمارة الغرف، مبتكرًا اللوحة الاستشراقية الشهيرة "الحمام التركي".

في الواقع هذه الرسالة من أقرب الرسائل إلى قلبي؛ لأنها تصف النساء التركيات بكل صدق وحب؛ لقد قررت -يا سيدة ماري- أن تذهبي إلى الحمام متخفية، واستأجرت عربية تركية لتوصلك إلى الحمام في الصباح الباكر؛ فهل ظننت حقًا أن دخولك إلى حمام به أكثر من مائتي سيدة لن يكون ملاحظًا؟ لو كنت مكانك لعدت أدراجي، لكنك حافظت على رباطة جأشك وخضت التجربة؛ ها هي العبارات الدقيقة التي تصفين بها أربعمائة العين التي وُجِّهت إليك:

"كنت أرتمي ملابس السفر، وهي فستان لركوب الخيل، وبدا لهن بلا شك زئًا غير معتاد، لكن أيًا منهن لم تبد أدنى دهشة أو تنظر بفضول غير لائق، بل استقبلني بكل لطف وكياسة ممكنة؛ فلا أعرف أي بلاط أوروبي تتصرف فيه السيدات بهذا اللطف تجاه شخص غريب، أعتقد أن المكان ضم في المجمع مثني سيدة، ومع ذلك لم أر ابتسامة ازدياء أو أسمع همسًا ساخرًا كما يحدث دائمًا في تجمعاتنا عندما يدخل شخص لا يرتدي ملابسها وفقًا لأحدث صيحة، وظلت النساء ترددن مرارًا وتكرارًا: «ساحرا هذا ساحرا» وجدت الكثيرات منهن يتمتعن بقوام متناسق متناسب كأجمل آلهة رسمها جويدو أوتيتيان، وبشرتهن تبدو... كأحسن تمثيل لآلهة الجمال والسحر والسعادة... طلبت مني السيدة التي بدت أعلاهن شأنًا أن أجلس بجوارها، وكانت على أتم استعداد لمساعدتي، لكنني اعتذرت بصعوبة؛ لقد افتتنت بلطفهن وجمالهن".

أما الرسائل الأربع الأخرى فتصف بالتفصيل زيارتك الشخصية لمنازل سيدات تركيات، فكانت الزيارة الأولى لمنزل سيدة تجاوزت

الخمسين من عمرها هي "حرم رئيس الوزراء العثماني"، زوجة أرناؤد خالد باشا؛ إذ تلقيت دعوة لتناول العشاء في منزلها في أدرينوبل "أدرنة اليوم"، واصطحبت معك مترجمك اليوناني، تم استقبالك بلطف كبير واحتفاء، وقدم لك خدماً كمية هائلة من الأطباق قاموا بتعطيرها بعد العشاء، بالرغم من طيبة السيدة وجدت شخصيتها فاترة؛ لأنها تكرر أغلب وقتها للأعمال الخيرية والصلاة.

لكن زيارتك الثانية تجلت في واحدة من أروع رسائلك؛ فبعد مغادرتك للعشاء الفاتر مع حرم رئيس الوزراء العثماني، أقنعت مترجمك اليوناني بزيارة فاطمة زوجة الضابط الثاني، فوجدتها أكثر حيوية من العجوز المتدينة؛ استقبلتك فاطمة بأدب جم، وأقامت لك حفلاً موسيقي، وأهدتك مجموعة من المناديل المطرزة وأنت خارجة؛ يا له من وصف أسطوري الذي كتبه عن هذه المرأة الأسرة:

"فاطمة الزهراء، هذا اسمها، تفوق هذا القدر من الجمال على كل شيء رأيته وعدده جميلًا سواء في إنجلترا أم في ألمانيا، ولا بد أن أعترف أنني لم أر شيئاً بهذا الجمال الباهر، ولا يمكنني التفكير في وجه يقترب من جمال وجهها.

وقفت تستقبلي، وحيّني بطريقتهم الخاصة، بأن وضعت يدها على صدرها برقة تمتلئ عظمة لا يمكن أن تفرزها التربة في أي بلاط، ثم أعطت أوامرها بتوفير الوسائد لي، وحرصت على إجلاسي في الركن، وهو مكان شرف مميز...؛ عقد الانهيار لساني حتى أنني لم أتمكن من الحديث معها؛ فقد كنت مأخوذة تمامًا بما رأيته؛ ما هذا التناغم الرائع بين قسماتها! ما أجملها كلها! ما هذا القوام المشقوق المتناسب بدقة! ما أحلى تورد بشرتها المثالية! ما أبدع ابتسامتها التي لا توصف! ناهيك عن عينيها، إنهما عينان واسعتان سوداوان يشوبهما حزن دفين! يكشف وجهها عن سحر

جديد مع كل لفطة! ومع هذا تتصرف بكياسة وعذوبة، وحركاتها رشيقة تغلفها العظمة، لكنها بعيدة كل البعد عن جمود المشاعر الذي أؤمن به، ولو أنها اعتلت فجأة أرفع عرش في أوروبا فسيظن الجميع أنها وُلدت وتربت ملكة، مع أنها تعلمت في بلد نعهه بربريًا؛ باختصار: ستواري أجمل جميلات إنجلترا عن الأنظار إذا وقفت إلى جوارها، أما أنا فلا أخشى أن أعترف أن متعة النظر إلى فاطمة الجميلة أكبر بكثير من مشاهدة أجمل تحفة“.

قلت لها وأنت تودعينها يا سيدة ماري: ”لم أستطع منع نفسي من تخيل أنني كنت في الجنة، وأن ما رأيته فيها أسرني“.

أما ثالثة الزيارات التي تحدث عنها، فكانت للسيدة حفصة -حظية السلطان مصطفى الثاني، الذي خلعه السلطان أحمد الثالث، وتوفي عقب أسابيع قليلة بالتسمم- تصفين ملابسها ومصاغها بالتفصيل، مع الإشارة إلى زمردة بحجم بيضة الدجاج الرومي، وإلى القرط المرصع بجواهر في حجم ثمار البندق الكبيرة، وإلى أكبر الخواتم الماسية التي رأيته في حياتك: ”أنا واثقة أن ملكة أوروبية لا تقتني نصف هذه الكمية، ومع روعة مجوهرات الإمبراطورة فإنها ستبدو هزيلة بجوار هذه المجوهرات“.

قدمت لك العشاء على مناديل في مائدة فاخرة مخيطة بخيوط الذهب، وبعد انتهاء العشاء تجولت في حديقة السيدة حفصة، واصطحبتهك إلى غرفة نومها حيث كل قطع فرائها ملقاة دون اهتمام على الفراش، لم تنظّل عليك الخدعة؛ وسرعان ما أدركت أنها تحاول التباهي أمامك بمجموعتها.

زيارتك الرابعة -يا سيدة ماري- كانت أيضًا إلى منزل فاطمة الجميلة في القسطنطينية بعد مرور عام، وتضمنت كالمعتاد رؤية مهجعها ومشاهدة عرض موسيقيّ يؤديه خدّمها، إلا أنك تمكنت هذه المرة من التحدث

معها باللغة التركية؛ ولهذا وجدت "ذكاءها أخاذا تمامًا كجمالها"، ومرة أخرى أذهلتك هذه المرأة "الجميلة كالملاك"، وحين قلت لها: "سيثير جمال وجهك ضجة في باريس!" أجابتك قائلة: "لا أصدقك، لو كان الجمال عالي الشأن في بلدك كما تقولين لما تركوك ترحلين"، لا يمكننا مقاومة سحر هذه المرأة، فنحن مثلك تمامًا.

أثناء إقامتك في تركيا يا سيدة ماري، أتيت لك الفرصة في مناسبات أخرى لإبداء آرائك في النساء التركيات، خاصة جمالهن وزيتتهن وأزياءهن والحرية التي يتمتعن بها؛ لا خلاف أن جمال النساء التركيات سلب لبك؛ تقولين في رسالة أرسلتها إلى أختك السيدة ماري في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م: "لم أر في حياتي كل هؤلاء النسوة الجميلات، لا بد من الإقرار أن الجمال شائع هنا أكثر مما هو شائع عندنا؛ من المستبعد أن تجدي امرأة غير جميلة؛ فهن يتمتعن بأجمل بشرة في العالم وبأعين سوداء واسعة عادة".

علاوة على تعليقك يا سيدة ماري على جمال وأناقة النساء التركيات، فمن التعليقات المهمة التي أبديتها موضوع حريتهن؛ فأنت تصرين على أن النساء المحتجبات هن أكثر النساء حرية في الحقيقة: "يمنحن هذا الرداء التنكري الدائم الحرية التامة" ثم اختتمت تعليقك قائلة: "أنا أعد النساء التركيات بوجه عام الأشخاص الأحرار وحدهم في الإمبراطورية".

حظيت أنا أيضًا بفرص كثيرة لمراقبة النساء التركيات، وأظن أنني كنت أوفر منك حظًا لأنني شاهدت نساء من مختلف المستويات، ليس فقط سيدات البلاط الأرستقراطيات ذوات الأقرات الماسية بحجم ثمار البندق اللاتي يقضين أوقاتهن في اللهو الدائم ويفسدن أزواجهن بتلبية كل رغباتهن؛ فثمة الكثير لنعرفه عن النساء التركيات خارج طبقة الحريم الأرستقراطية.

قابلتُ مجموعة واسعة من النساء التركيات، وتحدثت في موضوعات متخصصة مع نساء يدرن مكاتب، وتلقيت العلاج على يد طبيبات، وجمعت ثمار البندق مع زوجات المزارعين، وناقشت السياسة مع محاميات، وتعلمت طريقة تحضير الكباب على يد ربات بيوت، واشترت مصوغات ذهبية مع نساء من إسطنبول وأوعية بلاستيكية من قونيا، وقرأت رسائل نصية على هاتف محمول لامرأة قروية غير متعلمة، وجلست مع نساء ريفيات في مقاعدهن بالقرب من النافذة نراقب الطريق.

كثيراً ما يقال: "إن تركيا بلد التناقضات والصراعات المحتمدة بين عوامل متعددة"؛ أعتقد أن هذه المقولة صحيحة خاصة عندما يتعلق الأمر بالنساء؛ فمن جانب تقف النساء على أعتاب عصر جديد من المهنية؛ فنسبة الطبيبات والأستاذات الجامعيات في تركيا تزيد عن نسبتهن في أمريكا وأوروبا، ومن جانب آخر ما زالت النساء في القرى يتعرضن للقتل على أيدي أقاربهن إذا لطمحن شرف العائلة، وهي حوادث ترد بتفاصيلها في الصفحات الأولى للصحف موضحة بصور ملونة.

شاهدت نساء متشحات بالسواد من قمة رأسهن لأخمص أقدامهن، ونساء سوى ذلك، ورأيت نساء يمنعهن الحياء من رفع رؤوسهن لأعلى، ونساء جريئات وقحات استحييت من جرأتهن مع الرجال.

لطالما وُجد هذا التناقض في الثقافة التركية؛ ففي عصر الدولة العثمانية أدارت البلاد مجموعة من الملكات الأمهات القويات على مدار أكثر من مائة وثلاثين عاماً، وسادت "سلطنة النساء" الشهيرة خلال القرنين السادس والسابع عشر.

من بين النساء اللاتي هيمن على الحكم نقشيديل فرنسية المولد ذات النفوذ والدة السلطان محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩م)، شجعت ابنها على

إجراء مجموعة إصلاحات غربية شاملة، كما منح أتاتورك النساء حق الاقتراع عام ١٩٣٤م قبل أن تفعل فرنسا ذلك عام ١٩٤٤م، وكان يعلن دائماً أن العالم يمكنه الحكم على أية دولة بالنظر إلى طريقة تعاملها مع النساء؛ أجد هذه المقولة من بين كل آرائه السياسية الأقرب إلى نفسي.

حدثتك يا سيدتي عن الاختلافات الجسدية المتفاوتة بين الرجال الأتراك، وبالطبع ينطبق ذلك على النساء أيضاً؛ فتجدين بينهن ربات البيوت ذوات أغطية الرأس الحريرية ومعاطف المطر، والقرويات متغضنات الوجه كالأشجار العتيقة وأعينهن مشرقة باسمه تطل من وسط أغطية رؤوسهن، وتجدين فتيات يرتدين مثل ملابسنا يمشين بثقة ممسكات بأيدي أمهاتهن المتشحات بمعاطف طويلة فضفاضة تصل إلى الأرض وأغطية رأس تكسوها الزهور.

أذهلتني عدة سمات سائدة بين النساء التركيات، ومن أبرز هذه السمات فطنتهن وشجاعتهن وسعة حيلتهن؛ فهذا النوع من النساء لا يقبل الترهات ويعمل بجِد وينجز المطلوب، إنه النوع الذي يدير المزارع والأعمال والعائلات؛ فتركيا اليوم متماسكة بفضل النموذج العصري لسلطنة النساء ليست النساء المتآمرات اللاتي رأيتهن في جناح الحريم، بل النساء اللاتي يدرن عجلات المهن الحرة ويحرثن الأرض؛ إنهن سيدات يتميزن بالحياة العملية ويفخرن جداً بمنزلهن، ويؤمن أن المنزل المرتب بعناية حسن التأثير دليل على الحب؛ يتمتعن بأيدي سريعة نشطة، تربط الشرائط وتحضر فطائر اللحم وترفع الصحون وتطرز المفارش؛ إنهن نساء عازمات قويات الإرادة يغلبن العقل والمنطق.

لا تعد فكرة "المرأة العاملة" فكرة حديثة على النساء التركيات، بل ظلت النساء مئات السنين يعملن في أرض الأناضول، ويحملن السلاح

أثناء حرب الاستقلال، ويجمعن المحاصيل من حقول القطن والقمح والتبغ، ويعتنين بالماشية والدواجن، ويحملن الحطب والماء، ويفرزن الفواكه والبصل، ويعتنين بالمنازل، ويربين أطفالا كثيرين، ويحكن السجاجيد البديعة.

توجد اليوم أكثر من خمسة ملايين امرأة تعمل في الأراضي التركية؛ تجز صوف الأغنام وترص الفاكهة وثمار البندق لتجف وتحيك الجوارب والسترات وتصنع العجن والزبد، هؤلاء النساء يعملن في الشمس الحارقة في حدائق الخضراوات وبساتين الزيتون الساحلية وفي الحقول الحارة في السهول؛ يمكنك رؤيتهن راكبات العربات التي تجرها الحمير، أو جالسات في السوق بجوار صرهن، أو حاملات حزم ضخمة من العلف على ظهورهن، أو يجمعن القش بالشوكة.

أما على الصعيد الاحترافي، فقد شاهدت إحصارًا من النساء يجتاح سوق العمل؛ فرأيت نساء يدرن صيدليات أو مكتب البريد الكبير في إسطنبول، ويعتنين بكل العملاء، كالمرضات الممرضات في غرفة الطوارئ، ويصدرن الأوامر للعاملين بسرعة وكفاءة، ويحيين الجميع، ويستقبلن الكل بابتسامة أو لمسة حانية أو كوب شاي.

تحدث النساء التركيات بأسلوب مباشر جريء مثلهن في ذلك مثل الرجال، لكنك على الأقل قد تتقبلين السؤال عن عمرك من امرأة أفضل مما تتقبلينه من رجل.

النساء التركيات بالغات الود؛ تلقيت ذات مرة دعوة لحضور حفل للحناء في أفين من عروس لم أقابلها قط لكنها رأيتني جالسة وحدي، وفي مناسبة أخرى اعتنت بي مديرة مكتب فندق في ألبستان وقامت بأمور تتجاوز نطاق واجباتها المهنية وفعلت كل ما بوسعها لتصاحبني.

قلت يا سيدة ماري في رسالتك عن زيارة الحمام: "لا أعرف أي بلاط أوروبي تتصرف فيه السيدات بهذا اللطف تجاه شخص غريب"، أضيف أيضًا أنهن محافظات جدًا ويبدن الاحترام لمن هن أكبر سنًا؛ لقد شاهدت الابنة البالغة في أسرة قيصري تخضّر القهوة بأدب شديد إلى مكتب والدها في الطابق الثالث على صينية ذهبية تعلوها الأواني الخزفية الفاخرة ومناديل المائدة، وتضعها أمامه في هدوء.

صحيح أنني لم أنبهر بجمال النساء التركيات بقدر انبهارك به، لكنني أقر أنهن أنيقات ورقاقات لأقصى حد، سواء كن يرتدين الحجاب أو النقبة القصيرة، ويفضّلن الأشياء البرّاقة والذهب والأزهار المطرزة على أغطية رؤوسهن والمعاطف الأرجوانية أو الزهرية مع حافظات صغيرة بنفس اللون، ويفضّلن ارتداء الأحذية الأنيقة والحلي العصرية، وقد ظهرت مؤخرًا كتابات كثيرة حول أزياء المحجبات التي تُقام لها عروض أزياء خاصة، والغرض من هذه الأزياء هو أن تحافظ المرأة على حجابها وتظل أنيقة في ذات الوقت، بالإضافة إلى نشر فكرة أن الملابس الساترة قد تكون أجمل وأكثر أناقة من الملابس "الحاسرة"؛ بالفعل بعد أن قضيت الوقت مع فتيات قونيا الأنوقات اللاتي يرتدين أغطية رأس ومعاطف ملونة وحليًا مميزة، تبدو نساء إسطنبول بلازائهن غير أنيقات.

تعد الرابطة بين النساء التركيات من أقوى الروابط؛ فهن معًا دائمًا سواء في أقسام العائلات في المطاعم أو في غرف معيشتهم أو في الحافلات أو في المساجد، ولا يختلطن بالرجال في المناسبات الاجتماعية، بل يفضلن الجلوس في أحد الجوانب في حين يجلس الرجال في الجانب الآخر؛ لهذا لن تكون إقامة حفل مختلط فكرة قابلة للتطبيق هنا.

تعداد الأمهات وبناتهن السير في الطرقات مشى مشى، وقد يحالفك الحظ وتشاهدن مجموعة من ثلاثة أجيال: أم وابنتها وحفيدتها.

إذا واجهتني مشكلة في الطريق، كنت واثقة أنني أستطيع الاقتراب من أية امرأة تركية لأطلب مساعدتها، وفي غضون لحظات أجد نفسي في كنف منزلها، بين يديها الرقيقتين القادرتين على علاج أي مرض أو حل أي مشكلة.

وهذه الرابطة الأخوية تسمو فوق فوارق المستويات والطبقات الاجتماعية؛ ذات مرة كنت في محطة حافلات قونيا أنتظر حافلتي إلى بيشهير، فلاحظت تنوعاً هائلاً في الشكل والمستوى بين الركبات التركيات، مع أن أغلبهن قرويات مغبرات يحملن غرائر الحبوب وعبوات زيت الزيتون والصناديق المربوطة بالحبال، كانت هناك امرأة قروية ترتدي الشلوار (اسم سروال تركي فضفاض) وتحمل طفلاً يصرخ، وفجأة ظهرت امرأة متحضرة من إسطنبول ترتدي قُرْطاً ذهبياً حملت عنها طفلها، ومدت ذراعها في حقيبتها بحثاً عن قطعة حلوى لإسكاته.

حينما حضرت إلى تركيا في البداية عام ١٩٧٨م قَدَرْتُ في ذلك الوقت في مذكراتي أن ٩٥٪ من النساء اللاتي رأيتهن محجبات، وينقسمن إلى مجموعتين مميزتين: مرتديات العباءة السوداء أو أزياء المحجبات، لم أر امرأة تقود سيارة وحدها أو امرأة تعمل نادلة أو تعمل في مجال الخدمات، ورأيت القليل من النساء يسافرن بالحافلات.

أما الآن فالنساء يغزون كل المجالات بسرعة؛ ففي عام ٢٠٠١م ضخت لي البنزين في السيارة فتاة في مدينة سيدا على البحر الأسود، وهي سابقة من نوعها، وفي عام ٢٠٠٢م تناولت الطعام في مطعم شواشت تديره النساء تماماً دون وجود رجل واحد، وهو أمر لم يحدث من قبل،

والآن أرى النساء يقدن السيارات في كل مكان ويجلسن في المطاعم وفي اجتماعات الأعمال؛ إن الحكم على سلوك المرأة بناءً على ظهورها في الأماكن العامة نظرة قديمة بدأت تتلاشى بالفعل.

تشارك كل نساء العالم في مجموعة قيم عامة: دعم المجتمع، التمسك بالأمل، الإيمان بأهمية الفرد، الاهتمام بالمشاعر الشخصية، التضحية بالذات، العطاء بسخاء، وفوق كل ذلك ستظل النساء يفضلن القيم المجتمعية على القيم المادية.

تشارك كل نساء العالم في نفس مكونات الحياة الرئيسية: العمل، الأسرة، الحياة العاطفية، الروحانيات، الصحة، الأنوثة، الهوايات؛ فالنساء التركيات لا يختلفن عن كل نساء العالم.

ذات مرة أخبرني كاتب جزائري أن النساء هن "الرجال" الحقيقيون في هذا العالم، والأمر عائد إلى النساء لتعليم الرجال كيف يصبحون رجالاً بحق؛ من هذا المنظور ستظل النساء التركيات عاملاً قوياً في بناء تركيا الحديثة، لأنهن يعلمن أكثر من غيرهن كيف تسير الأمور للأفضل في منازلهن ومع أبنائهن؛ إنهن لبنات الأساس الحقيقية لأي مجتمع ناجح؛ إذا فعلن ذلك فسيثرن ضجة تجعل صوت تركيا مسمعا في جميع أنحاء العالم.

صديقتكم

قدريّة براننج



عيادة صحية في أيوب



ساندكلي



الراقصات الشعبيات في سوغوت



أيوب



فرز البصل في سوق إسيز، أبوليان



أرضروم



إعداد الرقاق

الرسالة الرابعة عشرة

امراة وحيدة

عزيرتي السيدة ماري،

حدثتك في رسالتي السابقة عن النساء، لكنني أشعر برغبة في إضافة عدة نقاط أخرى، تتعلق بكوني امرأة أجنبية في تركيا، ولا سيما أنني أسافر وحدي.

أشعر بالتآلف معك يا سيدة ماري، وبالرغم من القرون التي تفصلنا، فإن رؤيتنا للنساء متشابهة جدًا؛ أنا قمت بتعليم نفسي مثلك، وأهتم بالأشياء نفسها التي اهتممت بها، مثل المساجد والآثار القديمة، والمناظر الطبيعية، والمباني، والحياة الاجتماعية، والتاريخ، وملابس النساء، والدين، والزواج والطلاق، والمساواة بين الجنسين، والشعر.

أشعر برغبة في فهم منزلة النساء ومكانتهن في العالم الذي يعشن فيه؛ فمثلك تعلمت اللغة التركية والشعر، وانشغلت بالحياة الاجتماعية والإسلام وشككت في عقيدتي بمقارنتها بغيرها؛ استطعنا -نحن الاثنتين- فهم موضوعات عدة بحكم أننا غريبتان تنتميان لطبقة اجتماعية معينة، وكم يحزنني فراق القسطنطينية، مثلك تمامًا!

غير أن أهم قاسم مشترك بيننا أننا اختبرنا الشعور بمكث سيدة في مجتمع تركي من دون زوجها؛ مكث زوجك في معسكر للجيش التركي بالقرب من "أدرنه" منذ سبتمبر/أيلول ١٧١٧م حتى مايو/أيار ١٧١٨م، إذ كان مسؤولاً عن إجراء مفاوضات دبلوماسية؛ مما اضطرّك للبقاء وحدك في القسطنطينية نحو عشرة أشهر، خاصة طوال فترة إقامتك في إسطنبول؛ وها أنا ذا هنا من دون زوجي؛ لأنني اخترت السفر وحدي.

يصعب على الأتراك استيعاب أو تقبل فكرة أن تسافر امرأة وحدها باختيارها؛ لأن النساء يتعلمن منذ سن مبكرة رفقة الرجال (الأب أو الأخ أو الزوج)؛ فمن الصعب أن تجدي امرأة بلا مرافق؛ إذ تنص القواعد الإسلامية على حُرمة السفر للمرأة أكثر من ثلاثة أيام إلا مع زوج أو محرّم؛ ذات مرة بالقرب من مدينة كنجال جلست إلى جوارى في الحافلة فتاة عصرية، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث، وبالرغم من حذائهما البرتقالي العصري، فقد صُدمت عندما علمت أنني أسافر وحدي، وأكدت على استحالة أن تفعل ذلك؛ لأنه أمر غير وارد.

تحدثت إليك من قبل يا سيدة ماري عن طبيعة هذا المجتمع المترابط الجماعي، وأخبرتكَ كيف يعيش الأتراك في مجتمع متماسك؛ أعتقد أن هذا يصعب عليهم إدراك الفرق بين أن يكون المرء وحده وأن يكون وحيداً؛ فمن الممكن جداً أن يكون المرء وحده ولا يكون وحيداً؛ إن ما نعهده -نحن الغربيين- استقلالاً مرغوباً يراه الأتراك وحدة؛ أعتقد أنك -مثلي- أدركت الفرق بين الحاليتين، وقدّرت العزلة والخصوصية وفضلتهما، مع شعورك بالامتنان للصحبة الجيدة والترفيه.

بالرغم من تعرضي لنظرات استهجان في الطريق، ما زلت مواظبة على السفر وحدي إلى تركيا؛ حدثتكَ سابقاً عن متع السفر، غير أن السفر

منفردًا يمنحني شعورًا مختلفًا بالسعادة؛ فهو يتيح لي فرصة القيام بأمر ما كنت لأفعلها لو كنت في صحبة؛ إذ يمكنني زيارة المكتبات وقراءة أشياء، ويمكنني الانفراد بنفسني لكتابة قرابة ثلاثمائة وخمسين كلمة يوميًا، ويمكنني تناول الطعام الذي أشاء وقراءة أشياء، ومن الأسباب الأخرى التي تدفعني للسفر وحدي أن أعزز قوتي وأثبت لنفسي أنني امرأة قادرة على الاعتماد على نفسها، وأني امرأة شجاعة، واسعة الحيلة، ولا تحتاج إلى أحد للاعتناء بها.

تمنحني هذه الرحلات شعورًا بالقوة، يمكنني منحه للآخرين فور عودتي، إذا أمكنني التغلب على التحديات اللغوية والاجتماعية والدينية والثقافية في تركيا، فلا شك أن تحديات عملي وحياتي في مدينة التنوع العرقي الشاسع ستصبح أسهل.

من مزايا السفر وحدي أنني أمر بتجارب لم أكن لأمر بها مطلقًا لو كنت مسافرة بصحبة زوجي أو أية مجموعة؛ فالأتراك يغدقون على المرأة المنفردة في تركيا كل أنواع الاهتمام والعطف لأنهم لا يريدونها أن تشعر بالوحدة؛ لهذا فلن أستمتع باللقاءات والمحادثات وأتلقى الأزهار وأكواب الشاي لو كنت بصحبة رجل.

وأجمل ما في السفر منفردًا إمكانية السفر بأمان لأن تركيا بلد آمن جدًا؛ فلا أشعر بالخوف فيه مطلقًا، وأجد نفسي أعهد بحياتي لعناية اثنتين وسبعين مليون يد حانية تمتد لخدمتي، وأحتل منزلة سيدة راقية في تركيا -أتذكرين حينما أخبرتك بذلك؟- ويحرص الجميع على معاملتي بأعلى درجات الاحترام والمراعاة.

لا تصدقي كل القصص التي تُروى عن سوء معاملة الأتراك للنساء؛ فكلها كاذبة، بالطبع لا بد أن تأخذ امرأة تسافر وحدها الحيطة أينما

كانت؛ إذ تتعلمين اختيار المطاعم بحذر، ولا بد أن تلتزمي بتناول الطعام في مطعم الفندق إن وُجد، وأن تذهبي إليه مبكرًا، وألا تعاقري الخمر لأن ذلك يعكس مستوى أخلاقيًا مشينًا، إياك وفتح محادثة مع أحد، أو طرح أسئلة بجراءة، أو النظر للرجال في أعينهم مباشرة، أو ارتداء ملابس كاشفة والتجول بها؛ لم يعاملني أي رجل خلال ثلاثين عامًا من السفر إلى تركيا بقلّة احترام، ولم أشعر بالارتباك من أي موقف، وهو ما لا يحدث عندما أسافر إلى دول أخرى، بما فيها بلدي.

تظل تلك العيون التركية الشهيرة مثبتة عليك لضمان سلامتك؛ فتصبحين جزءًا من المجتمع الواجب الحفاظ عليه؛ من أبسط التجارب التي مررت بها في هذا الصدد تجربة غنية، لخصت عدة سمات اجتماعية في تركيا مثل الترابط والأخوة وحسن الضيافة واللفظ الرقيق؛ دخلت المدرسة الخاتونية في قيصري لزيارة القبر في الركن، وعقب خروجي قررت التوقف عند المقهى الصغير المقام في الفناء لشرب الماء، وقفت خمس دقائق قبل أن تقترب مني امرأة وتقول: ”مرحبًا، عذرًا على الإزعاج! أتودين الانضمام إليّ أنا وصديقتي على مائدتنا؛ بما أنك وحيدة تمامًا؟“ لم تكن تعرفني، لكنها لم تشأ أن تتركني وحيدة.

ومرة أخرى وضعت امرأة رضيعها في حجري طوال رحلة الحافلة القروية، لم يكن السبب أنها تريد التخلص منه، بل لأنها تريدني أن أحظى بالصحة.

وفي مناسبة أخرى كنت أتناول الطعام وحدي في أغيردير، فمر بي زوجان في منتصف العمر في طريقهما إلى مائدتهما، وانحنى الرجل أمامي برقة وقال: ”أتمنى أن تستمتعي بوجبتك، وإذا احتجت إلى أي شيء، فسنكون جالسين على المائدة المجاورة“.

ترك المرأة المنفردة أثرًا في نفوس الناس ويتذكرونها؛ العام الماضي تناولت في قيصري واحدة من أفضل وجبات إسكندر كباب في تركيا في مطعم إسكندر في وسط المدينة، كنت قد تناولت هذا الطبق منذ أكثر من عشرين عامًا ولا يمكن نسيانه؛ في ذلك اليوم ظل رئيس النُدُل يحوم حولي باهتمام، وأخيرًا اقترب مني وقال: "لقد حضرت إلى المطعم من قبل، أليس كذلك؟ أنا أذكرك، كيف حالك؟"، إما أنه يتمتع بذاكرة خارقة أو أن مظهري مميز بدرجة لا تُنسى، لكن السبب لم يكن أيًا من الأمرين، بل إن حضور امرأة وحدها حدث نادر يظل المرء يتذكره بعد مرور عشرين عامًا.

تكرر نفس الموقف في مطعم آخر في قونيا بعد مرور خمسة عشر عامًا هذه المرة، وفي أرضروم إذ ركض بائع السجاد خلفي في الشارع، ولم يكن يذكر زيارتي لمتجره منذ اثني عشر عامًا فحسب، بل تذكر نوع السجادة التي اشتريتها وثمانها.

هناك أمر آخر يتعلق بكوني وحدي، وقد شعرتِ أنتِ أيضًا به يا سيدة ماري؛ فالمرأة المنفردة ليس لديها أطفال، وقد أشرت في الكثير من رسائلك إلى انزعاجك من تسلط الأطفال على فكر الأتراك، واعتقادهم أن عدم الإنجاب جرم لا يغتفر؛ ما زالت النساء الأتراك يُعرفن بعدد أطفالهن، والسؤال الأول الأكثر تكرارًا على أية امرأة: "هل أنت متزوجة؟"، يليه السؤال عن عدد أطفالها.

تحدثت -يا سيدة ماري- فيما لا يقل عن ست رسائل عن عادات الإنجاب الكثيرة لدى التركيات، وعن أهمية الإنجاب من حيث المكانة الاجتماعية، وعن مأساة النساء الفقيرات المحرومات من الأزواج والأطفال، وذكرت كيف تعشق الأسر التركية الأطفال، وتعتبرهم ثمرات حياتها.

لقد عايشَت إحساس الأمومة في تركيا مباشرة يا سيدة ماري؛ إذ كنت جليى أغلب مدة إقامتك في تركيا، ثم أنجبت ابنتك ماري في ١٩ يناير/ كانون الثاني ١٧١٨م، وعلقت قائلة: ”نظر إلَيَّ الناس بازدراء شديد حتى أذعنت للنظام السائد وأنجبت مثل الآخرين“.

ما زال المجتمع يشفق على النساء اللاتي لم ينجبن، حتى اليوم يا سيدة ماري، لكنني على ثقة تامة أن الأتراك سيدركون أن ثمة طرقًا كثيرة لإنشاء منزل وأسرة؛ فالمرأة قد تكون أمًا بوسائل مختلفة، كأن تكون مسؤولة عن أسرة كبيرة أو عن مجتمع بأكمله.

أن تكون المرأة وحدها أو بلا أطفال لا يعني أنها ترفض مشاركة الحياة مع شخص آخر، ويبدو أن مفهوم الزواج من منظور تركي شغلك أنت أيضًا في رسائلِك؛ فأنت تحاولين بوصفك واحدة من دعاة المساواة بين الجنسين أن تفهمي المشكلات المعقدة الخاصة بمكانة المرأة في المجتمع ودورها أمًا وزوجة، ولو في ثقافة مختلفة.

وأنت تدعمين مبادئ المساواة مثل: الاستقلالية، الحياة بغض النظر عن الزواج والإنجاب، احترام الذات، المساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الاختيارات في الحياة، العدل تجاه الرجال، تكافؤ الفرص، إدانة دعاة الظلم، هدم نظام التسلسل الهرمي؛ هذه هي القضايا التي تواجه النساء يوميًا في الغرب وفي تركيا، فالنسوة ما زلن يبحثن عن المكان الذي يمنهن المهارات المطلوبة، مكان لا يعيرهن بالبقاء وحدهن، مكان لا يحكم عليهن بناءً على علاقاتهن بمنازلهن، مكان يمنهن مسؤولية اختياراتهن ومستقبلهن.

سيدة مونتاچيو، ثمة شخص واحد غاب ذكره في رسائلِك: إنه زوجك؛ فأنت لا تشيرين إليه في رسائلِك إلى أصدقائك، أو تتحدثين عن صحته

أو تقدم مفاوضاته، أما رسائلك إليه فهي قليلة ومتباعدة، لهجتها جافة مجردة من الحب، تختلف تمامًا عن اللهجة التي تستخدمها في فيض العبارات النابضة بالحياة المحملة بالانطباعات التي تزخر بها رسائلك إلى أصدقائك؛ أيًا كان السبب، فيبدو أن زواجك لم يكن على ما يرام، ويبدو أنك أصبحت لا تبالين به؛ لذا كنت امرأة وحيدة بالفعل في تركيا.

فور عودتك إلى إنجلترا، بدأت مرحلة جديدة في حياتك، وفيها لعب الرجال دورًا مهمًا؛ إذ قام أصدقاؤك الكتاب وابنك وشركاؤك في الأعمال وزوجك وأصحابك بتغيير مسار حياتك بلا ريب، لكن هذه القصة تخصك وحدك، وبالفعل سردتها في رسائلك الكثيرة التي أرسلتها من الخارج حيث اخترت قضاء بقية حياتك؛ لقد اخترت أن تعيشي وحدك دون زوجك وأطفالك، ومع هذا لم تكوني وحيدة مطلقًا؛ فقد أصبح قلمك وأوراقك أسخى وأعز أصدقائك.

صديقتكم

كاثرين براننج

الرسالة الخامسة عشرة

احترام الكتب من احترام البشر

عزيزتي السيدة ماري،

كلتانا امرأتان محظوظتان؛ لأننا اخترنا أعمالاً ترتبط بالكلمة؛ فأنت اخترت الكتابة وفيها تسجلين خواطرك على الورق لتصبح أدبيات، وقد استخدمت كتابتك لتقديم الكثير من القيم التي تؤمنين بها، كالتى تتعلق بتعليم النساء والمشكلات الصحية؛ أنا أيضاً كرسيت حياتي للكلمة ولكن بصورة مختلفة، بوصفي معلمة للغات علّمت الآخرين الكلمات وكيفية استخدامها بمهارة في التواصل، وبوصفي أمينة مكتبة أحرص على جمع الكلمات وحفظها وتقديمها لأيدي الآخرين وقلوبهم وعقولهم.

كلتانا محظوظتان بالفعل؛ لأننا نعيش في عالم الكلمات، هل تجولت يوماً في سوق الصحفيين النادر للمكتب المستعملة في إسطنبول؟ إنها مكتبة مقامة في الهواء الطلق تزخر بأروع الكنوز التي يحلم محبو الكتب باستكشافها.

في رسالة أرسلتها إلى صديقك أليكساندر بوب في ١٢ فبراير/شباط عام ١٧١٧م تتحدثين عن تقديرك للشعر العربي الذي تعلمته من صديقك أحمد أفندي في بلجراد ومكتبته الغنية:

”شرح لي أبياتاً كثيرة من الشعر العربي، ولاحظت أن أوزانها تختلف عن أوزان أشعارنا؛ فهي أبيات متعاقبة بوجه عام، ذات جرس موسيقي ملحوظ، أما عبارات الحب فهي متقدمة العاطفة ومفعمة بالحياة؛ أنا معجبة جداً بها، وأشعر بضرورة أن أتعلم اللغة العربية إذا كنت سأملك هنا بضعة أشهر، إن لديه مكتبة جيدة جداً تضم كتباً من كل الأنواع، وقد أخبرني أنه يقضي معظم وقته في المكتبة.“

من أجمل اللحظات التي مرت بي في تركيا وقت أن التقيت بأشخاص يشاركونني المهنة؛ فأمناء المكتبات يشكلون مجموعة مترابطة متقاربة بوجه عام، تجمعهم قيم مشتركة، وتشابه تلك القيم سواء كنت في باريس أو نيويورك أو أماسيا؛ حيثما ذهبت أحرص على زيارة المكتبات للثناء على طريقة عملها، ودائماً ما أجد خطوة تتم بطريقة مختلفة أحملها معي إلى وطني لأطبقها في مكتبي.

تُعرف المكتبة باللغة التركية باسم (Kütüphane) وترجمتها الحرفية ”بيت الكتب“، وقد أسعدني الحظ بإجراء أفضل المقابلات مع زمرة من أفضل الأمناء في بعض أفضل المكتبات في تركيا، من بينها لقاء مع أمين مكتبة أماسيا الذي أسعده أن يريني نسخة نادرة من القرآن ترجع إلى القرن الخامس عشر، وهي أقدم نسخة في تركيا، نقشها الخطاط العثماني الشهير شيخ حمد الله، وحينما أخبرته أنه أقدم كتاب ألمسه أو أحمله علمني مقولة تركية هي (Kitaba saygı, insana saygıdır) (احترام الكتب من احترام البشر)؛ هذا مثال آخر على شمولية مفهوم

الاحترام لدى الأتراك؛ لم أسمع قبلُ عبارة بسيطة تلخص الدافع وراء عملي أمينة مكتبة؛ فأمناء المكتبات يعاملون البشر بأقصى درجات الاحترام.

أذكر أنني قابلت شيرين نكالي مؤسسة "مكتبة المرأة" في إسطنبول عقب الافتتاح مباشرة عام ١٩٩٠م، وقد ألهمني وحفزني فخرها بما كانت تحاول تحقيقه؛ تحدثت إليّ بعبارة فرنسية وإنجليزية لا تشوبهما شائبة، وأرثني المجموعة المكونة من خمسة آلاف مجلد محفوظة في مدرسة تم تجديدها بأسلوب فني، وشرحت لي كيف ابتكر أمناء المكتبة نظام التصنيف الخاص بهم لتيسير الوصول إلى هذه المجموعات باللغة التخصص؛ جعلتني هذه الزيارة والمحادثة أعيد النظر في الأماكن التقليدية لتصنيف مجموعات الكتب وتقديم المعلومات للجمهور؛ وهذا ما دفعني لإتمام مهمة عظيمة على الصعيد المهني، غير أنني لم أسمح في مكتبي بالتدخين الكثيف الذي سمح به العاملون والقراء!

كذلك حفزتني زيارة لمكتبة أخرى في إسطنبول بطرق شتى، حيث قابلت أمناء مكتبات ألهمتني حماسهم وإيمانهم برسالتهم، توجد هذه المكتبة العامة الصغيرة خلف مجمع ميهرماه سلطنة في أسكودار في أحد المباني الملحقة بالمجمع الذي بناه سنان عام ١٥٤٣م، ورغم أن المكتبة كانت مغلقة دعيتني أمينة المكتبة للدخول لأنني كنت "أختاً لها في حب الكتب"، وقضت فترة ما بعد الظهيرة تخبرني كيف أن المكتبات المماثلة لمكتبتها مهمة لأطفال الأحياء الفقيرة، وأوضحت لي أن هؤلاء الأطفال هم السبب وراء حماسها في فعل كل شيء، بدءاً من تجديد المبنى، وتنظيف الرفوف، وشراء أثاث جديد، وغسل الأرضيات، وانتهاءً باختيار وفهرسة كل الكتب شخصياً.

كانت المكتبة متواضعة ورثة قليلاً، لكن الأمانة تصرفت كأنها تصحبنى إلى جولة في قصر دولما بهجة، تعلمت منها أيضاً أن أهم شيء في هذا العمل هو خدمة القراء، وليس كمية الكتب وحالتها على الأرفف. لطالما كان أمناء المكتبات في تركيا على استعداد لفتح أبواب مكتباتهم وقلوبهم لي فور أن أخبرهم أنني أمانة مكتبة أيضاً؛ فهذه هي كلمة المرور السحرية لدخول الكثير من المكتبات والمحفوظات والمجموعات؛ أجمل ذكريات رائعة عن زيارات مع أمناء المكتبات، فعلى سبيل المثال أهداني رئيس أمناء مكتبة شمسي باشا العامة في أسكودار - التي تضم خمساً وعشرين ألف مجلد - نسخة من جداول تصنيف ديوي مترجمة إلى اللغة التركية.

وزرت أيضاً مكتبة عامة صغيرة في أوجوب تفخر بامتلاكها ثلاثين ألف مجلد، وأحد عشر فرعاً تتبادل أكثر من عشرة آلاف كتاب كل عام لخدمة القرى المجاورة، تضم هذه المكتبة ركنًا خاصًا في قسم الأطفال به خزانة مليئة بكتب الشباب صغار السن التي تتحدث عن أتاتورك، وقد عثرت على مجموعة استثنائية من الكتب النادرة في مكتبة البغدادى نجيب باشا التي أنشئت عام ١٣٩٧م في تيرة.

أعاد وزير الحرية في عهد السلطان محمود الثاني بعض الكتب من بغداد في خزانات من الجلد الأحمر المصنوع لها خاصة، ووجدت كتبًا نادرة أخرى في مكتبة رشيد أفندي في قيصري بجوار المسجد الكبير، إلا أن أكثر ما بهرني هو العناية الخاصة التي يوليها أمناء المكتبات الأتراك لجمهورهم.

أما في المكتبة العامة في أكساراي فقد تلقيت دعوة للتجول في مكتبة بها ثلاثون ألف مجلد، وطلب مني حضور اجتماع للعاملين اختتم بتناول

الشاي والكعك، وشاركت في مناقشة حيوية، حتى إنني خرجت في جولة في المكتبة المتجولة.

وقد دُعيت للتوقيع في كتاب الزوار في مكتبة إيناجول، التي أقيمت في مدرسة مجمع إسحاق باشا عام ١٤٨٢م، ومكتبة جسر إسطنبول كما لو أنني شخصية خاصة ذات مقام رفيع.

ذات مرة وأنا أزور مكتبة جامعة بايزيد في إسطنبول، التقط رادار الأتراك الشهير وجودي، فحياني الموظف وأمسيني واصطحبني إلى مكتب المدير قائلاً: "بلى، علمنا أنك أمينة مكتبة من الطريقة التي دقت بها في فهرس البطاقات!" كانت النتيجة استمرار الزيارة ساعتين، مع استدعاء مجموعة من أمناء المكتبات للترحيب بي، وعرض عليّ أحدهم مجموعة كتب نادرة ومخطوطة لجلال الدين الرومي ترجع إلى عام ١٦٩٠م.

من عمل أمين مكتبة فسيظل أمين مكتبة! بعد زيارة سوق كارااي، ظهر فجأة حقي بك -أمين مكتبة متقاعد مصاب بالصمم لكنه شخص محبوب- وأخذ على عاتقه مهمة أن يكون مرشدي الرسمي، لأنه كما أخبرني "لديه المعرفة"، فعليه طبعاً أن ينقلها لغيره.

لكن أعظم حدث شهدته في كل المكتبات التي زرتها في تركيا هو المؤتمر السنوي للاتحاد الدولي لجمعية ومؤسسات المكتبات (IFLA) في إسطنبول الذي أقيم في أغسطس/آب عام ١٩٩٥م، قامت أمينة مكتبة تشتعل حماساً تدعى ألتن أي سرنكلي (أحد الأسماء التركية العظيمة ويعني "القمر الذهبي") بتنظيم مؤتمر للاتحاد لم يشهد العالم له مثيلاً حتى الآن، تضمنت فعاليات الافتتاح التي أقيمت في مركز أتاتورك الثقافي في منطقة تقسيم خطباً ألقاها كل من محافظ إسطنبول وممثل منظمة

اليونسكو ورئيس الاتحاد الدولي، وتضمنت الباقة الختامية عرضاً لأول وزير ثقافة تركي ومعلمي المحبوب طلعت سعيد هلمان، وقد أسر لب الحضور بحديثه الممتع الذي ضم ما لا يقل عن ستة عشر تلاحباً لفظياً مما اشتهر به، وأقيمت مأدبة سلطانية تلك الليلة في قصر عثمانى سابق هو فندق تشيراغان، تضمنت احتفالات الليلة حفلاً للرقص الشعبي على مسرح في الهواء الطلق أسفل هيلتون، تلاه عشاء خفيف مجهز في صناديق الرحلات يتكون من شطائر الجبن والأذ ثمار كمثرى تذوقتها في حياتي.

خرجنا في اليوم التالي في جولة حول عدة مكاتب في إسطنبول (مجموعة مخطوطات قصر طوب قابي ومخطوطات المتحف الأثري ومكتبة السلطان أحمد الثالث في طوب قابي)، واختتمت أحداث اليوم بحفل موسيقي للموسيقى الكلاسيكية في مركز أتاتورك في تقسيم.

ربما لا يبدو الأمر مثيراً في رأيك، لكنني وجدته رائعاً؛ حينما اعتلت ألتن أي هانم المسرح لافتتاح مراسم الحفل الأول، فتحت ذراعيها وصاحت بصوت رنان: "مرحباً بكم في بلدي!" وكلها فخر وطني وإحساس بحسن الضيافة الذي لا يصدر إلا عن تركي، وبالطبع دب الحماس في الحضور.

التقيت ذات مرة برفيق في حب المكاتب رحل منذ وقت طويل هو إبراهيم باشا، وقد التقيت به في مخيلتي أثناء سيرى في مجمع نفشهير الذي بناه عام ١٧٢٦م ويضم مسجداً ومكتبة ومدرسة، في الواقع أظن أنك ربما قابلته بالفعل يا سيدة ماري.

إبراهيم باشا هو صهر السلطان أحمد الثالث ورئيس وزرائه، وقد خطط مدينة نفشهير في وسط الأناضول على ضواحي كبادوكيا بوصفها "مدينة جديدة"؛ إذ كان رجلاً مستنيراً تبنى رؤية فرنجة الإمبراطورية

العثمانية بمساعدة معارفه في فرنسا، ويعود له الفضل في إثارة اهتمام السلطان أحمد الثالث بالعمارة؛ الأمر الذي أدى إلى تشييد مكتبة قصر طوب قابي وشقق "غرفة الفاكهة" المترفة للحريم.

لقي إبراهيم باشا نهاية محزنة على يد الإنكشاريين الذين قتلوه، لكنه ما زال خالدًا في هذا المجمع الذي تم تشييده في موقع مرتفع بالحجر الأصفر المميز لمنطقة كبادوكيا.

الغريب في الأمر أن المدرسة في المجمع هي التي تستخدم حاليًا مكتبة عامة، بوجود تمثال أتاتورك في منتصفها كما يجب، أما المكتبة الأصلية فتستخدم الآن مطعمًا للفقراء؛ وما زالت فكرة خدمة العامة مهيمنة على المكان بكل وضوح.

غير أن زيارة مكتبة عامة صغيرة في أكشهير تفوقت على كل ما سواها؛ في فترة ما بعد الظهيرة الدافئة، حملت أمينة مكتبة شابة لطيفة على ذراعها سلة مليئة بالحلويات المغلفة، وانتقلت من قارئ إلى قارئ تهديه ابتسامة وقطعة حلوى لتصاحبه وهو يقرأ، إنها لمسة صغيرة عذبة كعذوبة الحلوى، لمسة بسيطة تنم عن الاحترام وحب، حتى في "بيت الكتب".

المخلصة لك وللكلمات

قدريّة براننج



المكتبة المتجولة في أكساراي



وصل مؤتمر الاتحاد الدولي لجمعية ومؤسسات المكتبات لركوب الحافلات مجاناً
في إسطنبول عام ١٩٩٥م



مكتبة أطفال ميهرماه في أسكودار



مكتبة شمسي باشا في إسطنبول: "إنهم بانتظارك في المكتبة"



سوق الصحفيين للكتب المستعملة في إسطنبول عام ١٩٨٠م



مكتبة إبراهيم باشا في نفشهير



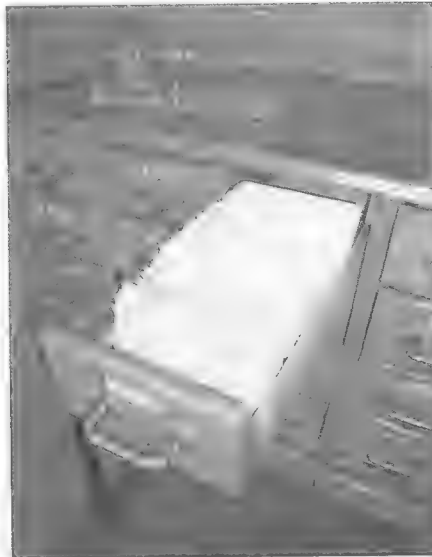
مكتبة السلطان أحمد الثالث في قصر طوب قابي



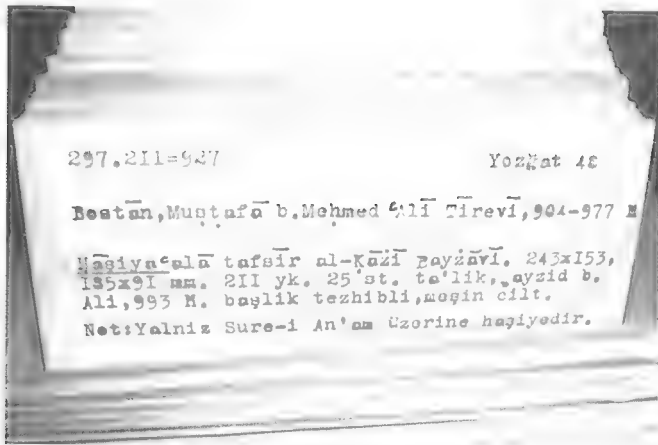
فصل بمدرسة المسجد الكبير في مانيسا



مكتبة إيناجول العامة في مدرسة إسحاق باشا عام ١٤٨٢م



دليل البطاقات لمخطوطات كلية بايزيد الثاني في أماسيا



دليل بطاقات المخطوطات المحفوظة في المكتبة السليمانية بإسطنبول، أكبر مجموعة
مخطوطات في العالم

الجزء الرابع

أسلوب حياة

الرسالة السادسة عشرة

صينيّة بقلّاة من غازي عنتاب

إلى السيدة المبدّلة جول أكا

عزيزتي السيدة ماري،

في رسائلك تصفين زيارتك لبعض النساء في حريم الدار، ولا تكتفين بتقديم التفاصيل الغنيّة عن الحياة اليوميّة وفهم شخصيّة النساء فحسب، بل تلقين لنا الضوء على ما اشتهر به الأتراك من حسن الضيافة في العالم.

اطمئني يا سيدة ماري؛ فلا شيء تغير منذ أن استقبلوك بالترحاب في منازلهم، صحيح أن تركيا لم تعد إمبراطوريّة يحكمها السلاطين، وقد بسقت على أرضها ناطحات السحاب هنا وهناك وسط السحب المترائيّة من نافذة قصرك بمنطقة بير، لكن حسن الضيافة التركيّة لم يتغير أو يتبدّل.

يحظى الكرم التركيّ بشهرة عالميّة، ويستحق هذه الشهرة عن جدارة؛ ظللتُ مدة طويلة أحاول أن أفهم سبب تحليّ هذا البلد بالكرم وحسن الضيافة أكثر من أيّ بلد آخر في العالم، وتوصلت إلى عدة أسباب:

- قد يكون أولها راجعاً إلى الأصول البدوية للأتراك؛ إذ منحتهم شعوراً عميقاً بالتعاطف مع المسافرين؛ فقد أنشأ السلاطين السلاجقة فنادق وأنزلاً للمسافرين توفر المأوى والمطعم المجاني ثلاثة أيام على نفقة الدولة للتجار المسافرين؛ وسار العثمانيون على نهج السلاجقة؛ فأقاموا أعداداً كبيرة من المطاعم توزع الطعام على المحتاجين والمسافرين؛ فلن تجد مسافراً لا يلقي الرعاية أو الحماية من الخطر.

- والسبب الثاني لكرم الأتراك نابع من ثقافتهم الإسلامية؛ فحسن الضيافة سمة شائعة بين المسلمين في أنحاء العالم كافة؛ وبوجه عام ينبغي على كل مسلم أن يكون في عون الآخرين دليلاً على طاعته لله، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم الأساسية في الحياة، ويعبر الأتراك عن طاعتهم لله في صورة حسن الضيافة والكرم الجاري منهم مجرى الدم من العروق؛ فيشكل هذا المفهوم الواضح أساساً لأسلوب الحياة الاجتماعية التركية المشتركة؛ فيعكس احتياجهم الدائم لإرشادهم للآخر وقيادته وحمايته؛ يقول النبي -صل الله عليه وسلم-: "كلوا جميعاً ولا تفرقوا؛ فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة، كلوا جميعاً ولا تفرقوا؛ فإن البركة في الجماعة"^(١)؛ ولعل أوضح عبارة تبين فلسفة الأتراك تجاه الضيف المفاجئ وصفه بأنه زائر من عند الله؛ لهذا يتعامل الأتراك مع المسافرين بسخاء وكرم لا ينتظرون مقابلاً، بل إن العائلات تقيم نفسها بمدى كرمها تجاه ضيوفها؛ وقد تحدث الرحالة الشهير ابن بطوطة عام ١٣٣٠م عن ترحاب طائفة سلجوقية دينية به هناك قائلاً: "لا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج".

ربما يوضح هذا السبب الأخير رؤية الأتراك الخاصة للقاعدة الإسلامية الأساسية: فَمَنْ يَعْمَلْ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة: ٧/٩٩-٨) ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة الأعلى: ١٧/٨٧)، عمومًا أيًا كان السبب، فإن كرم الأتراك يتسم بالدفء والبشاشة والهدايا والمشاعر الطيبة الرقيقة وبالأصالة والسرية والصدق؛ حينما قرأت رسائلك يا سيدة ماري، أدركت أنك استشعرت الرقة نفسها، ولعلها السبب وراء السماحة في تعليقاتك؛ فلم تشعرني بالغبية هناك، بل شعرت بالراحة، وتقبلت الاختلافات الثقافية وسمحت لها أن تغمرك كالماء الفياض؛ عندما أكون في تركيا أعامل بلطف ولو مرة يوميًا، ما بين إيماءة خفية إلى عمل عظيم يذهلك ما فيه من مشاعر.

إن كلمة الأناضول باليونانية تعني «مشرق الشمس»، ويبدو أن كل تركي يستمد جزءًا من ضياء هذه الشمس، ثم يشع منه نور للعالم مرة أخرى؛ يلقي كل زوار تركيا الحفاوة نفسها، إلا أنني كنت محظوظة جدًا -مثلك يا سيدة ماري- لأحظى بكرم أكثر من جلّ السائحين.

لا يتحلى الأتراك بحسن الضيافة والكرم مع الأغراب والأجانب فقط، بل أصبحت هذه السمة أسلوبًا سائدًا في الحياة؛ فأناء الحديث، كثيرًا ما يردّدون كلمة (بويورون)، وهي كلمة جامعة رائعة في سهولتها، تحمل عدة معانٍ، مثل: «من فضلك! تفضل! على راحتك! من هنا لطفًا! على الرحب والسعة!» إنها لفظة مناسبة لكل موقف، ناهيك عن صدورها بأسلوب أخذ؛ فدائمًا ما تصاحبها ابتسامة ويد ممتدة؛ فهي في نفسها هدية!

حدثتك بالفعل عن حسن ضيافة الأسرة التي تبشّني وعن سخائها، غير أن أهون الأمور يوميًا في الطرقات تنم عن الكرم التركي، كأن تتلقي قدحًا من القهوة على صينية ذهبية، أو أن يفتح الباب أمامك تلقائيًا -أكثر

الأمر شيوعاً في تركيا تقديم أكواب الشاي-، علاوة على ذلك لا يسمح الأتراك لي أن أدفع ثمن أي شيء أو أن أتكفل بنفقاتي، بل يعدونها إساءة بالغة أن أحاول دفع النقود، وإياك أن تُعرِضي دفع نفقاتك وبصحبك رجل؛ فهذه إهانة بالغة لشرف رجل تركي مضيف سخي.

غالباً ما ينصبّ حسن الضيافة التركي على تقديم الطعام والشاي، ولا بد أن تقبلي كلّ ما يُعرض عليك، فالأتراك لن يتوقفوا عن المحاولة حتى تستسلمي؛ فبينما نسأل شخصاً في بلادنا إن كان يريد شيئاً مكتفين بإجابة الضيف نعم أو لا من أول مرة، فالحال مختلف هنا؛ إذ السؤال يُطرح على الأقل ثلاث مرات؛ لأن الأتراك مقتنعون أننا نخجل أو نستحي من الموافقة من أول مرة.

في رسائلك يا سيدة ماري، وصفت «الخمسين طبقاً» المقدمة لك، ويمكنني أن أؤكد كلامك؛ فدائماً ما تُعدّ مائدة عامرة للضيوف؛ تضم ثمار الإجماع الصابحة والكباب يدويّ الصنع وفطائر اللحم والكبة؛ ذات مرة وصلتني على العشاء صينية قطرها قدمان ملأى ببقلاوة الفستق الشهيرة، أرسلت خِصيصي لخدمة التوصيل مسافة نحو مئة وخمسين ميلاً في حافلة من غازي عنتاب إلى قيصري.

ليس ثمة وسيلة في التعبير عن الكرم ألطف من تقديم أكواب صغيرة مزينة بأزهار توليب بها شاي ياقوتي ساخن؛ فمع كل رشفة يمكنك أن تستشعر دفء هذا الشعب وعذوبته؛ إنها لفئة صغيرة ترك أثراً كبيراً؛ إذ تضيضي على كل شيء لمسة إنسانية، بدءاً من تسجيل الوصول إلى الفندق حتى الاستمتاع بخضرة متنزه عام.

أيّما تذهب تفرّز بكوب الشاي: في المتاجر عقب الشراء، في الزيارات السريعة إلى منزل صديق- ويفرض العرف تناول ثلاثة أكواب-، في الصيدلية عندما تذهب لشراء أقراص الأسبرين لتخفيف الصداع،

عند المصوّر، وبالطبع عدة مرات أثناء المساومات لشراء سجّادة! فأصبح تناول الشاي من طقوس إبرام الأعمال، وعندما تصطك الملعقة بجانب الكوب الزجاجي تصدر جزّساً عذباً، تستجّد معها عرى صداقة وثيقة.

تتجلّى أبرز المظاهر لحسن الضيافة في معاملة الضيف في منزل تركي؛ فهي تجربة أشبه بسباق يركض فيه كلّ أفراد الأسرة والجيران المضيفون؛ إذ يسارعون لمنحه أفضل فراش في المنزل، ويعملون على تغيير نظامهم اليومي كلّ ليتوافق معه، وكأنهم لا همّ لهم في الحياة سوى الاهتمام به؛ يتوقون دائماً للتعرف إليه حتى يعرفوا طريقة ربط حذائه وتمليح طعامه، ولا بد أن يكون الضيف مستعدّاً لتقبل التدقيق الشديد في كلّ ما يفعله.

ذات مرة نزلت ضيفةً في إزمير على منزل لوالدي صديقتي الأمريكية، ولا بدّ أن أقرّ أنهما اعتنيا بكلّ شيء، وظلّت المضيضة تقطع المنزل جيئةً وذهاباً لضمان راحتي؛ فذات ليلة، أثناء تناول العشاء في الشرفة، اتكأت على السياج، وحينما حاولت الابتعاد عنه، أدركت أنني ملتصقة به بطريقة ما، حاولت إخفاء ورطتي قدر استطاعتي، وأخيراً انتهزت فرصة تغيير الأطباق على المائدة وتمكنت أن أنتزع نفسي بعيداً عن السياج، فوجدت أن ذاك الجانب من فستاني قد تلوّخ بطلاء أبيض، وفي وقت متأخّر من الليلة نفسها حاولت فتح النافذة في غرفة نومي قبل أن أدخل إلى الفراش لكن دون جدوى؛ إذ كانت عالقة بشدة، حاولت عدة مرّات قبل أن ألاحظ أن يديّ ملطختان بالطلاء نفسه، وما أدركت الأمر إلا حينئذ؛ فهذا الطلاء الطريّ دليل على استعداد الأسرة لزيارتي، بدءاً من لحظة اتصالي قبل يومين لأعلمهم بقدومي حتى صباح اليوم.

أثناء زيارتي لأسرة في قيصري، تم ترتيب حفلٍ للتعارف بعد تناول العشاء، ودُعيت ثلّة من الجيران للسّمر، واحتساء الشاي، وتناول الفاكهة، والجوز، والاستمتاع بنسيم الليل، حضر كل هؤلاء للترحيب بي، فشعرت بشعور السلطان الذي يستقبل السفراء -أمثال زوجك يا سيدة ماري-؛ وعندما أوشك الحفل أن ينتهي، أعلن أحد الضيوف -ويُدعى مُظفراً- رغبته في إلقاء كلمة؛ فسكتنا جميعاً؛ بدأ يتحدث ببطء شديد وبكلمات سهلة لأفهم كلامه: «سيدة قدرية! نشكر لك زيارتك، نحن سعداء بالتعرف إليك، ونتظرك مرة أخرى العام القادم، ونتمنى أن يحضر معك زوجك حينئذ، نتمنى أن تكون رحلتك موفقة وآمنة، بارك الله فيك»، ولما انتهى نهضنا جميعاً، وتبادلنا التّحايا، ثم غادروا؛ لن تجدي أيّ سفير مبعوث إلى بلاط السلطان أحمد أكثر كياسة أو لطفاً.

يعاملك الأتراك في كل مكان كما لو كنتِ ضيفتهم؛ ذات مرة كنت في مطعم في أفيون، ووصلت مجموعة عشرون شخصاً تقريباً ليقيموا احتفالاً عائلياً، وعندما رأوني دَعَوني؛ ويلقى المرء معاملة الضيوف الكريمة نفسها في المكاتب أو في أماكن العمل؛ فمكان العمل ليس إلا امتداداً للمنزل، وعندما تدخله تسري عليك قواعد الحياة الرائعة نفسها؛ أخبرتك سابقاً كيف تحولت زيارتي إلى أحد الأسواق إلى زيارة لمكتب العمدة بقرية إزينا بازار؛ حينما وصلت إلى ذلك المبنى الحكومي الخرسانيّ المطلّ على الميدان، صعد معي مساعد العمدة إلى المكتب في الطابق الثاني، فمررنا على لوحات ملونة بارزة للسلطين العثمانيين والسلجوقيين المشهورين جميعاً، ثمّ توقفنا لحظة أمام خزانة عرض زجاجيّة تضم نصباً تذكاريّاً يدعى «ركن الشهداء»، به صور باللونين الأسود والأبيض لجنود محلّيين استشهدوا في الاشتباكات الأخيرة مع إرهابيّ حزب العمال الكردستانيّ، وتمثال نصفيّ ذهبيّ كبير لأتاتورك، وزهرية

كبيرة تحتوي على أزهار حمراء بلاستيكية، وهي لفنة بسيطة تثير المشاعر، ذكرّني بالنصب التذكاريّ لمحاربي فيتنام في واشنطن العاصمة.

لدى وصولي إلى مكتب العمدة لم أجده مثل مكاتب رجال الأعمال في الغرب؛ إذ كان يضم طاولة عظيمة أكبر من طاولة أيّ وزير فرنسيّ، عليها قلم جبر ونشّافة، وهاتف، ولافتة ذهبية كبيرة كُتب عليها اسم المحافظ ومنصبه، ومجموعة الصحف اليومية، وثلاثة أعلام تركيّة مثبتة على حامل صغير، ليس هذا فحسب، بل ضم المكتب أريكتين وستة مقاعد بمسندين، ومطافئ بلوريّة للفائف، وشاشة تلفاز ملون مسطّحة هائلة، ورفوف للمكتب، وحاسوب، ومائدة حولها ثمانية مقاعد، وصورة ثلاثية الأبعاد لأتاتورك، علاوة على صور مألوفة لمشاهد جبليّة معلقة كلّها على الحائط، وزهريّات، وثلاثة أقفاص بها طيور الكناري الصفراء المغرّدة، وأؤكد لك أنّي استقبلت بحفاوة وأبهة أكبر مما تلقيتهما أثناء زيارتك لحريم الدار يا سيدة ماري.

حاورني العمدة حوارًا مفعّمًا بالحيويّة ثلاث ساعات، وراح يعرض عليّ أوراقًا على مكتبه أو على رفوف كتبه، وأغراضًا في أدراجة وملفاته، ونادى مساعده وأعطاه كومة من هذه الوثائق -وهي تقارير عن المحاصيل، وإحصاءات محلّية، ومقالات عن السوق- وأمره أن ينسخها لي، ثم شغل العمدة المكثف بالحاكوم على مكتبه، وسرعان ما قدّم لي الشاي والصودا والماء والمياه الغازيّة دفعة واحدة بينما قدّمت للعمدة قهوة تركيّة، ثم شاهدنا عرض فيديو لاحتفالات الختان المحليّة العامّة التي أقيمت قبل أسابيع قليلة في الميدان المقابل للسوق، ثم طلب العمدة من مساعده أن يصنع لي نسخة من تسجيل الفيديو، فلاحظت على رفوف الكتب صحنًا خزفيًا حديثًا من إزنك صنّع خصيصيّ لحمل صورة العمدة وخلفه

سوق، فتشجعت وسألته من أين يمكنني شراء مثل هذه التحفة؟ وبسرعة البرق استدعى المساعد ليلفّ الصحن لآخذه معي! وبينما لا أكاد أجد الوقت في عملي لاستقبال ضيف مفاجئ ولو عشر دقائق، اقتطع العمدة من وقته أكثر من ثلاث ساعات، وقدم لي المشروبات والوثائق والهدايا!

أعتقد أن السفر يمنح الأتراك فرصاً لا نهائية لإظهار حسن ضيافتهم بوسائل مبتكرة؛ ولأنني امرأة أجنبية، فدائماً ما تُبذل الجهود لإعادة ترتيب الركاب في الحافلة بحيث أحصل على المقعد المرغوب ذي رقم واحد خلف السائق مباشرة، وحينما أصل إلى أحد الفنادق أستقبل دائماً بالاحترام، ويحتشد الخدم لحمل أمتعتي؛ ذات مرة تحمّل رُبان مركب بنفسه مسؤولية إرشادي في جولة إلى جزيرة أكدامار في بحيرة فان، أما في أماسيا، فقد تنهني أحد المارة أنني أنتظر الحافلة المتجهة إلى إزينا بازار في المكان الخطأ - كيف علم وجهتي! - وسار معي نصف ميل إلى مكان الانتظار الصحيح، وفي أنطاليا قَدّم لي صاحب مطعم ذي إطلالة - للأسف لم يعد موجوداً الآن - المثلجات وشراب النعناع المسكّر اعتذاراً عن بعض المزعجين في المائدة المجاورة، وعادة تمرّ عارضات الترفيه في المطاعم على جميع الطاولات لإلقاء التحية، واعتدن أن يتوقفن عند طاولتي لتحيّتي والسؤال عن اسمي والترحيب بي أنا الضيفة المميّزة عندهم، أما في ركن الأرز التركيّ في القرى الصغيرة، فغالباً ما أحصل على طعام إضافي لم أطلبه؛ لسعادة العاملين الشديدة باستقبال ضيف أجنبيّ في ركنهم المتواضع، وحينما استأجرت سائقاً ليوصلني إلى أطلال قصر كوباد آباد القريب من بيشهير، كان يتوقّف كلّ خمس دقائق ليقطف لي ثمرة مختلفة من الشجيرات الغنيّة المحيطة بالبحيرة، مثل: التفاح، الكمثرى، الخوخ، البرقوق، الكرز، التوت، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، دعاني إلى متزّه بجوار الحديقة لأشاهد غروب الشمس على البحيرة وأحتسي الشاي مع أسرته.

وللأتراك -الفخورين جداً ببلدهم ذي التاريخ العريق- فعالٌ في كرم الضيافة تتضمن لفتات ظريفة يظهرونها أمام الأجنبي، وكأنّها أسلوب للتعبير عن سعادتهم بالانتماء لهذا البلد، فهذا رجل من أدرنة كان قد نقل مصنعه خلف الخان الذي شيّده إميكتشي أوغلو أحمد باشا عام ١٦٠٩م، اصطحبني وحدي لجولة في السوق؛ وآخر شيخ احدودب ظهره يتوكأ على عكازه في مقبرة السلاجقة بقرية جيفاس، سار معي ليطمئن على مشاهدتي مقبرة الشريفة حليلة «قارا قيونلو هانم أفندي» السيدة صاحبة الخرفان السوداء؛ وفي نكسار عند زيارتي المسجد الكبير اصطحبني إمام المسجد لأعلى القلعة، وظلّ معي طوال اليوم من بعد الظهر، وأخبرني أنه فعل ذلك؛ لأنني أول أجنبي يحضر لزيارة مسجده؛ فظنّ أنّ الله أرسلني إليه لحكمة، واعتنى بي جيداً ويظهر حسن ضيافة الأتراك أيضاً في جولة خاصة اصطحبني فيها مدير مدرسة جوهر في قيصري ساعتين، وجعلني أوقّع في سجل الزوار، ويظهر كذلك لدى الشيوخ الجالسين في ميدان قرية هورتو أمام النصب التذكاري الصغير للبطل الشعبي نصر الدين خوجا (جحا)؛ وجدتهم يفسحون الطريق لأتمكن من التقاط صورة ما زالت معروضة على مكتبي حتى اليوم بوصفها رمزاً للفتة طيبة قادني لاكتشف واحداً من أجمل الجسور السلجوقية في تركيا؛ ويظهر كذلك فيما فعله الرجال في متجر البقالة المقابل للمسجد السلجوقي في بيرجي؛ إذ أخرجوا أكبر مفتاح حديدي رأيت في حياتي؛ ليفتحوا باب المسجد لأشاهد مصراعيه الأصليين المنحوتين من الخشب ومثذنته.

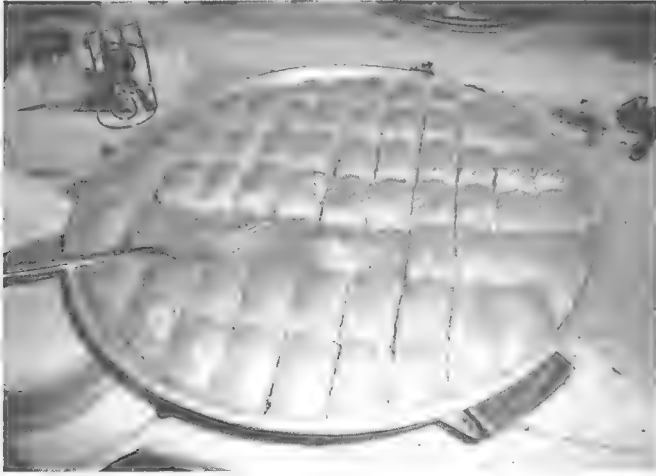
ذات مرة ركبت سيارة أجرة بعد الظهر في سيواس؛ لأزور قبر الشيخ حسن، ثم استأذنتني السائق بحياء في أن يصطحبني إلى مكان ما قائلاً: «أعرف مكاناً أشعر أنه سيعجبك كثيراً»؛ عادة ينبغي أن يحذر المرء من مثل هذه الاقتراحات، لكن لم الحذر! أنا في تركيا لم أخش

شيئاً؛ فاصطحبني لمشاهدة جسر «أير» المميز بتقوسه كأنه حرف اللام، وما زال صامداً فوق النهر الأحمر رغم الهزات الأرضية العنيفة عامي ١٩٣٩م و١٩٤٢م التي دمرت كل شيء تقريباً في المنطقة.

كل ما أخشاه يا سيدة ماري أن يتلاشى حسن ضيافة الأتراك؛ فأخاف أن تستنفد أفواج الأجانب المتدفقة على تركيا الصبر السرمدي للأتراك وتمحو شعورهم بأن هؤلاء الوافدين -غير المحترمين عادة- زوار من عند الله، لكنني عندما أفكر أن هذه السمة -حسن معاملة الأتراك لضيوفهم- منذ أيام ابن بطوطة عام ١٣٣٠م حتى ذهابك عام ١٧١٨م، أطمئن أن مخاوفي لا أساس لها من الصحة، كل ما ينبغي علي فعله هو تذكر الغرف حديثة الطلاء وصواني البقلاوة من غازي عتاب؛ ليطمئن قلبي، نعم، ثم نعم، ثم نعم، أريد كوباً آخر من الشاي!

صديقتكم

قدريّة برانشج



صينية بقلّوة أرسلت من غازي عتاب تكريماً لي



اجتماع الجيران لشرب الشاي في قيصري



جسر أير في سيواس



قبر الشريفة حليلة في جفاس

الرسالة السابعة عشرة

وسائد وكعك

عزيزتي السيدة ماري،

أفرد في كل دفتر ليوميات سفري قسمًا خاصًا بعنوان: "أمور لامست شغاف قلبي"، وفيه أسجل كل الأمور الاستثنائية المفاجئة خلال الرحلة، وهي لا تقتصر على العجائب المعمارية والفنية والطبيعية، بل تضم أيضًا اللمسات الإنسانية واللقاءات المؤثرة التي تترك بصمتها في نفسي كما تفعل المواقع التاريخية والجغرافية؛ فالأترك لا يكتفون بكونهم أكرم شعب في العالم، بل يتجاوزون هذه السمة الجديرة بالتقدير، ويبادرون بأعمال مذهلة لا تُصدق تنم عن طيب العنصر، أعمال تتفق مع أدبهم الجَمّ وسمو أخلاقهم الفطري، قد تكون هيئة جدًا، كتقديم كوب شاي، أو المصافحة، أو كلمة "تفضل" بابتسامة دافئة، أو رشّة عطر، وقد تكون قيمة جدًا ومفعمة بالطيبة والعفوية كإهدائك قصيدة أو صينية بقلادة من غازي عتاب، لكن المذهل أنك تُفاجأ دائمًا لما في ذلك من لطف ويسر وعفوية دون تحفّظ حتى إنها تبدو أسلوب حياة، وأنا أعتقد أنها من أهم الدلائل المشيرة إلى إنسانية الشعب التركيّ الأصيلة؛ يتصرفون كأنهم ملائكة تسير على الأرض؛ فهم يراعونك ويساعدونك دائمًا كي يكون يومك أجمل وأقيم.

كيف يمكنني أن أشرح لك هذه اللفتات يا سيدة ماري؟ كان أغلبها أثناء مغامراتي في الطرقات؛ ولأنك نادرًا ما بقيت وحدك لم تقابلي منفردة أيّ تركيّ، وفاتك -في رأيي- أن تستكشفي بعض أغنى الكنوز في هذا البلد.

ربّما لا يبدو متميزًا ما ساقصّه عليك من أحداث، لكن في البيّنة المدنيّة الصعبة حيث عشتُ لا يتاح لك الوقت لتكتشف الأمور كما يحدث في تركيا؛ إذ تُبنى جدران الخصوصية الحذرة ساقمة حول الناس جميعًا، أمّا الأشياء المميّزة خلال سنوات سفري الطويلة فهي إمّا تقدير بالغ أو إطراء رقيق وإمّا لفظة متواضعة أو هدية قيّمة.

أخبرتكَ من قبل أن الأتراك يتمتعون بأدب جمّ، ويكثرون من كلمة ”تفضل“، ومن تقديم الشاي، واستقبال كلّ من يقابلونه في حياتهم اليوميّة بكلمة رقيقة، حتى إنّ نهاية رسائلهم توجز اهتمامهم الشديد بالكيّاسة؛ فلا يكتبون عبارة ”صديقك المخلص“ المملّة، بل يكتبون ”مع احترامي وتقديري“، وقبل أن يطلبوا شيئًا يقولون دائمًا ”بعد إذنك“، وتعلّمت منهم أنّ أسرع طريقة للتخلص من أيّ مشكلة تؤثر على أمانيّ أو سلامتي أن أهْمِس أو أصرُخ بكلمة ”عيب!“ المزلزلة لصورة التركيّ سبب المشكلة؛ فيهرب سريعًا، ورغم ذلك لم يحدث خلال ثلاثين عامًا من السفر أن تحدّث إليّ شخص بغلظة أو بسوء أدب سوى مرتين، كانتا ردّ فعل نُجاه المواقف المؤسفة لقادتي السياسيّين، وليس غضبًا من شخصي.

قل لي عدة مرات: إن من أسباب تعامل الأتراك معي بطيبة ولطف أنني أسعى جاهدة لاحترامهم، من خلال ارتداء الملابس الملائمة والتصرف بأسلوب يتماشى مع عاداتهم وآدابهم، والأهمّ من كلّ ذلك أنني أتحدّث لغتهم؛ قد يكون ذلك صحيحًا، لكنّ الأتراك يحترمون كلّ الزوّار الأجانب دون تكلف، بل بأريحيّة وتلقائيّة كما هو الحال فيما بينهم.

يولي الأتراك عناية خاصة بضعفاء القرية سواءً أكانوا مُعاقين أم فقراء، ويعاملونهم باحترام؛ خلال زيارتي الأولى إلى تركيا كنت أسير في حيّ هادئ، فاقترب مني رجل كفيف يحمل في يده بطاقة بريدية شاحبة مطوية الطرف؛ لم أفهم الأمر في البداية، ثم أدركت أنه يعرض عليّ أن أشاهد صورة الهرة الصغيرة المطبوعة على البطاقة مقابل عملة نقدية؛ لم يكن متسوّلاً بالمعنى المفهوم، بل كان يعرض عليّ خدمة؛ حينها جاء رجل كان واقفاً على مقربة منّا وقال: ”يا عمّ -نداء احترام لكبار السن- دُعها وشأنها، فإنها أجنبية ولن تفهمك“، ثم اقترب الرجل وأمسك السائل من ذراعه ليبعده عني، وفي الوقت نفسه دسّ سرّاً في يده عملة نقدية؛ فلم تُجرح كرامة السائل، ولم يتسبب أحد في إزعاجي، وعلمني الرجل درساً مهماً عن طريقة السؤال والعطاء في تركيا!

يتجلى الشعور بالشفقة نفسه تُجاه السائِلين في موقف آخر حدث في قونيا، حيث خرجت من صيدلية بعد شراء الدواء، وجلست في حديقة شاي مجاورة لأستريح وأتناول الدواء؛ فأدرك رئيس الخدم التركيّ الحاذق -وقد لاحظ خروجي من الصيدلية وإمساكي ببعض الأقراص- أنني لست على ما يرام، وقبل أن أطلب الشاي ظهرت سائلة وجلست إلى مائدتي تطلب نقوداً؛ فأسرع النادل بالتدخل قائلاً: ”من فضلك اتركها يا عمّة؛ فهي ليست على ما يرام“، وأخذها من يدها، وأجلسها إلى مائدة أخرى وقدم لها كوباً من الماء محافظاً بذلك على ماء وجوهنا نحن الثلاثة، وحينما أردت أن أدفع ثمن الشاي، أخبرني أنه تشرف بتقديمه لي اعتذاراً عمّا تعرضت له من إزعاج في مكان عمله.

وها هي ذي قصتي مع أبله القرية! فصبّحة يوم أحد، وبينما كنت أستمع بالتجول في هدوء حول بلدة أغيردير، وأشهد الآثار السلجوقية

الرائعة، أدركت فجأة أن ثمة رجلاً يراقبني دون أن يفعل شيئاً آخر؛ فلم أكتثر للأمر ومضيت لما انتويت؛ إذ قررت الانتفاع بمزايا العصر الحديث، وقمت المرة الأولى بنقل الصور من مصوّرتي الرقمية إلى قرص بيانات؛ لأن المصوّرة حديثة ولست معتادة على التعامل معها، وخشيت أن ألقى هذه التبعة الكبيرة على عاتق متجر تصوير في هذه البلدة الصغيرة، وقد ضمت المصوّرة ما التقطته من صور طوال الصيف، وستكون كارثة لو فقدتها في عملية النقل؛ استشعر صاحب المتجر قلقي حيال العملية، وحاول طمأنتي بكل الوسائل الممكنة؛ فأحضر من الخلف التقنيّة الشابة المحبّبة لتريني أن فتاة مثلي يمكنها فعل ذلك، وبينما أخذت الفتاة الرقاقة الثمينة إلى الغرفة الخلفية وربّبت على يديّ هداً صاحب المتجر من روعي بأن أجلسني، وقدم لي الشاي، وعرض عليّ مجموعة صور للمنطقة، وأهداني مجموعة صور أخرى لمنطقة البحيرة الجميلة تذكّاراً، وما إن هدأت نفسي حتى دخل المتجر فجأة متعقبي طوال الصباح، وجلس في المقعد المجاور محدّقاً بي، ثم بدأ يهمهم، فما أدركت أنه ضعيف العقل إلا حيثنّذ، وسرعان ما دخل في أعقابه رجل آخر، وأخبر صاحب المتجر أنه ظلّ يراقب متعقبي طوال الصباح عندما لاحظ أنه يلاحقني؛ لم أشعر مطلقاً أن هناك شخصاً آخر يلاحقني طوال تلك الفترة، شخصاً طيِّباً يحاول الحفاظ على سلامتي سرّاً.

قيّم صاحب المتجر الموقف، واقتاد المعتوه إلى الخارج، ثم أجلسه تحت شجرة على الجانب الآخر من المتجر وقدم له الشاي؛ فأسرع الحراس بالخروج خلفهما ونصّحوا الأبلّة بهدوء أن يترك السيدة الأجنبية وشأنها، ثم بقي معي حتى استلمت الرقاقة والأسطوانة المنسوخة من الشابة المبتسمة، خرجت من المتجر وأنا أعلم أنني لست معرّضة لأيّ خطر، وأن متعقبي -الأبلّة- لم تكن لديه أدنى فكرة أنه أخطأ في شيء.

كانت لقاءاتي مع السلطات تتسم بالوقار والاحترام ولو كنت مخطئة؛ ففي إحدى المناسبات كنت أركب السيارة شرق الأناضول مع صديقة انتقلت إليها -وأأسفاه- عدوى القيادة السريعة أعلى التلال، ولطالما شعرت بعدم الراحة إزاء ذلك -خاصة وأنا أجلس في المقعد الأمامي بجوارها- لكن لا أحد يفضل سماع التعليقات وهو يقود.

و ذات ظهيرة قامت صديقتي بهذا السلوك المتهور، ولسوء حظها كانت هناك سيارة شرطة ترتبص بأي مخالف في الجانب الآخر من التل؛ فأمرها الشرطي بالتوقف وجاء يتهادى حاملاً مسدسه ومرتبياً نظارة الشمس القاسية! فلما اقترب منا نفحص محتويات السيارة بدقة، ثم طلب منها رخصتها وأوراق تسجيل السيارة بصوت أجش، ليدقق فيهما بجديّة حازمة؛ لا شك أن صديقتي المرتعدة تملكها الخوف، لكنني شعرت سراً بالسعادة؛ لأنها ستلقّي أخيراً العقاب على هذا التصرف الخطير... رغم أنني لم أعلم كيف سأخبر والدتها المسكينة في سان فرانسيسكو أن ابنتها محتجزة في سجن تركي! أعاد الشرطي الأوراق إليها ومال نحوها ثم قال ببطء وجديّة وحزم: إياك أن تفعلي ذلك مرة أخرى؛ هل تفهمين ما أقول؟ إياك وتكرار ذلك! ثم استدار وسمح لنا بالذهاب.

إن هذا الاعتراض الحازم -الوقوف في الوقت نفسه- عكس الاحترام للأشخاص المعنيين جميعاً؛ وبالفعل لم تكرر صديقتي فعلتها مرة أخرى؛ وأيضاً لما قبض عليّ وأنا أصوّر منطقة عسكرية بحسن نية، لم أعامل إلا باحترام من المسؤولين جميعاً، بدءاً من الجنود حاملِي المدافع الرشاشة في المقعد الخلفي للسيارة إلى الضباط في قسم الشرطة، بل بادروا جميعاً بتوفير سبل الراحة لي.

الغريب في الأمر أن الأتراك لا يقبلون أن يُعاملوا بالطريقة نفسها، ويجدون صعوبة بالغة في تقبّل التصرفات الطيبة من الآخرين؛ ففي أحد الأعوام قررت أنا وصديقتي أن نقدّم هدية لمدير فندق في أنطاليا؛ لنشكره على كل ما قدّمه لنا على مدار السنين، وقبل أن نغادر نيويورك اخترنا الهدية بعناية، وهي مجموعة أقلام قيمة، ولدى وصولنا إلى الفندق تركنا الهدية سرّاً على مكتب الاستقبال ومعها بطاقة، وبعد مرور خمس دقائق سمعنا طرّقاً على باب الغرفة، ووجدنا الحاجب يعيد إلينا الهدية؛ فشرعنا بالانزعاج ولم نفهم سبب إعادتها إلينا، وخرجنا لتناول العشاء، ولدى عودتنا وجدنا غرفتنا قد تغيّرت تماماً؛ فثمة مناشف جديدة وملاءات مطوية وزجاجات عطر في الحمام وبرانس قطنية جديدة ملقاة على الفراش وأزهار في زهرّيات وسلّة فواكه ضخمة وبطاقة شكر... كلّ هذا في مقابل الهدية التي لم تُقبّل! ربّما شعر المدير بالحرَج من طريقتنا -التركيّة- في التعبير عن امتناننا، لكنه قدّر جهودنا فرد الصنيع بالطريقة التركيّة المعتادة.

من الوسائل الأخرى لتألّق الأتراك في التعبير عن طيبتهنّ المجاملات المتنوعة العذبة الصريحة المبتكرة؛ ولأنهم لا يخلجون مطلقاً من التعبير عن أنفسهم؛ فقد تجدهم في أغلب الأحيان صرحاء جدّاً في عواطفهم، رغم أنّ هذه الرقة الصريحة نادراً ما تظهر بحرية في ثقافتنا الغربية، وقد ذكرت -يا سيدة ماري- مجاملة مؤثرة جدّاً قدمتها لكِ صديقتك فاطمة: ”بدأت أخبرها (فاطمة) عن الضجّة التي قد يثيرها جمال وجهها في لندن أو باريس! فأجابت بلطف: لا أصدقك، لو كان الجمال عالي الشأن في بلدك كما تقولين لما تركوك ترحلين“.

بعض هذه الإطراءات تمسّ شغاف القلب بالفعل، إنّ المجاملات

المصحوبة بالورود أو الآتية من خاطب طموح تكون رائعة بالطبع، إلا أن إطرء النساء لي أحب إلى قلبي، كإطرء فاطمة لك يا سيدي!

ذات مرة كنت أتجول في متجر بقال في قيصري لاختيار بعض الأصناف ومشاهدة صفوف السلع المعروضة للبيع، وهي تسلية تمتعني دائماً في أسفاري، شعرت أن هناك من يتعقبني، ويلمح البصر التفت فوجدت شابة تعمل في المتجر؛ فمن الشائع جداً أن يُتَعَب المرء في متاجر البقالة الصغيرة والصيدليات في نيويورك، لكن هذا يعني دائماً شك حارس الأمن في قيامك بالسرقة، لكن تلك الشابة بدت مختلفة، وبدأت تقترب مني مع كل ممر أقطعه، أخيراً دنت مني وابتسمت لي ابتسامة عريضة، ثم أخذتني من يدي إلى قسم الفاكهة، وشجعتني أن أنفخ ثمار الخوخ لديها قائلة: "إنها صابحة جداً!" وظلت تأخذني من رفاً إلى آخر، وتعرض عليّ بضاعتها بحماس كطفل يعرض لعبه المفضلة لأحد الضيوف، وأخيراً نظرت إليّ وقالت: "أنا معجبة بك، فلديك عيناں جميلتان؛ أنت جميلة! من فضلك عودي مرة أخرى عسى أن نصبح صديقتين!" بالفعل كنّا سنصبح صديقتين مقربتين كصداقتك أنت وفاطمة؛ فهذه المرأة المحببة لا تُقاوم، مثلها مثل الفتاة ذات الاثني عشر ربيعاً التي كانت تساعد والدها في أحد مطاعم أكتشابات لنقص العاملين تلك الليلة؛ فقدّمت لنا الطعام باحترافية كاملة تتوقعها من كبير نُذْل مخضرم في مطعم ذي نجوم أربعة؛ تصرفت الفتاة بطريقة فتاة المتجر نفسها؛ فلم تتركني لحظة، بل ظلت إلى جوارِي عندما ذهبت إلى الحمام، وفتحت لي صنبور الماء، وقدمت لي منشفة، وفتحت لي الباب لأخرج، وعلى المائدة ظلت تحوم حولي؛ لتضع المَلّاحة أمامي، وتصب لي الماء، وتطوي منديلي استجابة لأي حركة من حركاتي؛ وحينما استفسرت من صديقي التركي عن سبب اهتمامها بي ضحك قائلاً: إنها معجبة بك!

فقد أخبرتني أنها تجدك جميلة جداً؛ بالطبع عندما حان وقت الرحيل، اقتربت الفتاة ولوّحت لي مودّعة، ولما وصلت باب المطعم نادى بأعلى صوتها حتى سمعها من في المطعم جميعاً: أنا معجبة بك جداً!

أخبرتكم سابقاً يا سيدة ماري، أن تركيا بلد اللغات الصغيرة المؤثر بعضها بدرجة هائلة، واللغة التركية المفضّلة لدي هي ما أطلق عليه "اليد السحرية": فإذا كان بمقدور الشخص التركي أن يمدّ يد العون في أي موقف، فسيتمدها؛ فتلك الأيدي لن تكف عن المساعدة؛ يدرك الأتراك سلفاً ما يجب عمله، ويسارعون بتنفيذه كأنما يحملون في أيديهم العصي السحرية.

وصلت متأخرة ذات ليلة إلى محطة حافلات توقّات لأجد المكان يعمّه الهرج، واكتشفت أن السبب عطلة الجنود، كانوا عائددين إلى منازلهم وأسرهم الكبيرة في استقبالهم، نزلت من الحافلة وتركت حقبتي على الأرض لحظات كي أضع شيئاً في محفظتي، وعندما نظرت ثانية كانت قد اختفت! نظرت حولي بعد أن تملّكني الرعب، فرأيت رجلاً تركياً قصيراً قويّ البنية يركض ممسكاً بحقيبتي تحت إبطه؛ فانطلقت أجري خلفه ورأيت من بعيد يضعها عند بداية موقف سيارات الأجرة، لم يكن يعرفني، لكنّه عرف أنني نزلت من تلك الحافلة وحدي، وليس لي عائلة تنتظرني، وأنني سأحتاج إلى سيارة أجرة، وعلى الفور امتدت يد المساعدة السحرية الخفية فطرياً لتحمل الحقبة، وبعد أن وضعها، عاد مسرعاً ليساعد الأسرة التي حضر معها دون أن يوجه إليّ كلمة واحدة أو يدعني أشكره.

وفي مناسبة أخرى في قصري، كنت أنتظر الحافلة ومعى حقيبة ثقيلة وإلى جوارى فلاحه ترتدي سروالاً فضفاضاً وتحمل طفلاً بين ذراعيها، حينما انفتح باب الحافلة بمثل لمح البصر، احتضنت المرأة فوراً رضيعها

بذراعيها ثم وضعته على فخذها، وأمسكت مقبض حقيبتى بيدها الأخرى، ثم بدأت ترفعها على السلالم؛ لقد امتدت يدها تلقائياً، ومنحتني في لحظة خاطفة الدفعة الأولى؛ لتجعل تحدي صعودي السلم سهلاً.

أخبرتكَ قَبْلاً أَنَّ هناك تركباً خلف كل شجرة يراقب ما يحدث، لا يمكنني أن أحصى عدد العيون والأيدي الخفية التي تعتنى بي كأنها ملاك يحرسني، مثل ذلك الرجل في أيردر؛ فهم جميعاً دائماً يحرسوني، ليتأكدوا أنني ركبت الحافلة الصحيحة، أو دخلت من الباب الصحيح، أو اخترت أفضل ثمرة خووخ، لا تكلف هذه اللفتات شيئاً ويمكن لأي شخص أن يقدمها، لكنها أضمن في عفويتها من الخمسين صنفاً التي قدمت لك يا سيدة ماري!

سبق أن حدثتك عن بساتين الورد التي عُرضت عليّ على مدار السنين، لكن الأمر أكبر من ذلك؛ فعندما تتعثرين، يرفعونك ويقدمون لك مقعداً بمنتهى الحنان، وعندما تشعرين بدوار نتيجة الحر الشديد يقدمون لك كوباً من الماء لينعشك؛ وهم مستعدون لمنحك تذاكر للحافلات، وعندما تكونين واقفة على جانب الطريق في انتظار الحافلة يعرضون توصيلك إلى المدينة في عربة المزرعة، وعندما تدخلين إلى صيدلية لشراء الأسبرين، يقدمون لك مقعداً لتستريحى وكوب ماء، وهم مستعدون لغلق متاجرهم وأماكن عملهم لاصطحابك إلى أماكن مختلفة، والأغراض التي تنسينها في سيارة الأجرة يعيدها السائق إلى فندقك، ويقدمون لك ثمار الفاكهة وأكواب الشاي كلما سنحت لهم الفرصة، تتجلى هذه الطيبة في أحمد موظف استقبال الفندق في توقات يختم برقيقته لي بوجه مبتسم وعبرة "حفظك الله".

ذات مرة كنت في زيارة لمدينة كرامان ذات الواحة، وأردت زيارة خان الولي الشيخ علاء الدين كراباش، لكنني لم أتمكن من الوصول إليه؛ كنت أشعر بالحرارة الشديدة والإحباط لكنني عقدت العزم على العثور عليه؛ لهذا دخلت متجر حلاق وطلبت مساعدته في معرفة الاتجاه الصحيح؛ بدأ الحلاق يُشاور زبوناً أمامه، ثم أجنبي: "لا توجد مشكلة!" وترك الرجل جالساً في المقعد ووجهه مغطى بالرغوة، واصطحبني إلى المجمع وكان بعيداً!

أما في مدينة قيصري، فقد ذهبت صباح أحد أيام الأحاد مبكراً لأزور أطلال قصر كيقوبادية على أرض مصنع السكر والمياه، ولمكانة دليلي المؤرخ محسن إلياس صوباشي -فضلاً عن قدرته الهائلة على الإقناع-؛ استطعنا إقناع الحارس المناوب أن يسمح لنا بالدخول، لكنه وافق بشرط أن يظل ملازمنا لأسباب أمنية؛ وفور انطلاقنا في الطريق صاح فجأة: توقف! كاد قلبي يتوقف خشية أن يكون قد غير رأيه بشأن السماح لنا بالدخول، لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد دخل أحد المباني وعاد مسرعاً إلى السيارة حاملاً بين ذراعيه الكثير من زجاجات المياه والصودا الباردة لنأخذها معنا، واتضح لنا أنه لم يكن يعرف أنه لا يحرس مصنعاً فحسب، بل قصر أعظم السلاطين السلجوقيين علاء الدين كيقوباد؛ سيظل للأبد يتذكر درس التاريخ المذهل الذي تلقاه ذلك اليوم من هذا المؤرخ الشهير، وسأظل أتذكر زجاجات المياه التي أهداها لنا!

ومن أمثلة اللفتات الصغيرة الأخرى ما قام به عامل بناء يعمل في مستشفى مدينة أماسيا، عندما اصطحبني إلى موقع الترميمات المغلق وأخذني في جولة حول المكان؛ لأنه شعر بفضولي واهتمامي بما يفعل.

تلقيت لفظة أخرى صغيرة في حيّ سافرانبولو في متجر مَلَبَن رائع يرجع إلى عام ١٩٤٢م، ويتميّز بسلامة زجاجه الأصليّ المصقول وزينته الخشبيّة المنحوتة، رأيي صاحب المتجر من المدخل، وشعر أنني سيغشى عليّ في الشارع؛ فخرج، وأمسكني من ذراعي، وأدخلني إلى متجره، وقرب لي مقعداً لأستريح عليه.

تعرضت لموقف آخر في توقات في متجر لبيع الفاكهة، فقد شعرت أيضاً أنني سأفقد الوعي بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وسرعان ما قُدِّم لي قفص خوخ لأجلس عليه، وفي اللحظة عينها دخل صبيّ صغير إلى المتجر لتسليم الغداء لصاحب المتجر -خبز تركيّ بالجبن مخبوز في الفرن-، فوضع المالك اللفافة الدافئة على حجري وكلّه جديّة، وقال: تفضلي، لا بدّ أن تأكلي هذا كي تحسني! ولم تفلح كلّ اعتذاراتي في تغيير رأيه أو إقناعه بأن يأكل معي على الأقلّ.

لا يقتصر الأمر على الخبز التركيّ والشاي والزهور التي يغرقني بها الأتراك، بل كلّ أنواع الفاكهة أيضاً؛ كنت في أماسيا ذات مرة، وكنت قد قضيت أربعين دقيقة في حمام السباحة، وحينما خرجت وجدت على الطاولة الصغيرة بالقرب من مقعدي صحنًا لم أطلبه، فيه ثمرة خوخ مقشرة ومقطعة ويجوارها كوب من العصير الصابح، وكذلك عندما كنت أزور مسجد الإمام عمر بك في بورصة، كنت مأخوذة بمشاهدة حجر الأساس العائد إلى عام ١٤٥٤م المعلق بجوار الباب على لوحين منفصلين من الرخام، حتى إنني لم أنتبه للصبيّ الذي اقترب منّي، ثمّ قام ببطء ماداً كفيه المضمومتين إليّ، بدت بداخلهما حبّات من اللؤلؤ الثمين؛ كانت في الواقع حبّات التوت الأبيض الصابحة، جمعتها لي من الشجرة في ساحة المسجد؛ إنها المرة الأولى في حياتي أذوق هذه الثمار الغضة عسلية المذاق.

أما في قونيا، فقد قطف لي حارس مدرسة قاراتاي ثمار المشمش الصابحة من الحديقة، وكان ذلك موقعاً آخر أتاح لي فرصة الاستمتاع باللفتات الصغيرة المذهلة، كذلك تلقيت دعوة لزيارة دير الشيخ تورسان على قمة أحد الجبال النائية في الطريق بين قيصري وأورجوب، وقبل الذهاب إلى هناك بالسيارة "الجيب" توقف مضيفي شعيب توركر عند متجر بقالة لشراء الفاكهة الصابحة ليهدئها للبواب وأسرتة، وحينما عرضت الإسهام في ثمنها، قُوبل عرضي بالرفض طبعاً، بل وأشعروني مضيفي أنني ارتكبت ذنباً فادحاً في حقّه.

ما إن وصلنا إلى الدير وأنزلنا حقائب البطيخ والخوخ والمشمش والعنب الكثيرة من السيارة حتى وضعها شعيب كلّها بين يديّ، وفور خروج البواب وأولاده للترحيب بنا، دفعني شعيب برقة وقال لي: "تفضلي! لا تخجلي، قدمي لهم الفاكهة!" كانت هذه طريقته في مساعدتي على التعرف إلى الأسرة وإقامة صداقة معهم، كأنما كان إحضار الفاكهة لهم ودفع ثمنها مني أنا!

غير أن أكثر اللفتات الصغيرة تأثيراً في النفس تلك التي يقدّمها لك الفقراء الذين لا يملكون شيئاً لتقديمه سوى طيبة قلوبهم، فتسمو بهم لفتاتهم إلى مكانة من النبل أعلى من مكانة السلاطين؛ ذات مرة وأنا في توقات جلست على الجدار المنخفض المحيط بمسجد هاتونية أنتظر انتهاء شعائر الصلاة كي أتمكن من دخول المسجد والتجول فيه، فذبّ نحوي رجل محدودب الظهر يتعلّ حذاء لامعاً وأعطاني غرارة لأجلس عليها، كانت متسخة أكثر من المكان، لكنّ المهمّ أنه قدّم لي شيئاً، ورغم فقره استطاع أن يقدّم لي شيئاً مفيداً.

اتضح لي فيما بعد أن أهالي توقات يسعدون بتقديم الوسائد؛ ففي مناسبة أخرى كنت خارج مسجد جاريبلر أنتظر انتهاء الصلاة لأدخل، رأني عجوز من نافذة منزلها المجاور، فخرجت حاملة سجادة كليم ملونة لأجلس عليها.

سيدة ماري، هل سبق وقمت بعمل هين يراعي الآخرين بصدق؟ لا أعتقد أنني فعلت، وقد مررت مرتين مختلفين بتجارِب لا تُنسى تعكس كرمًا لأشخاص فقراء؛ حينما كنت أزور أحد أحب المساجد في تركيا إلى قلبي: مسجد مراد الأول خودافاندجار على قمة تل تشيكيرجيه في بورصة، يرقد في هذا المجمع الروحاني الهادي جثمان السلطان مراد الأول -أحد أشهر السلاطين العثمانيين- في ضريح بالجهة المقابلة لمسجده الهائل، وثمة حديقة شاي تحيط بالضريح، وقد اعتدت التوقف للاستمتاع بالأشجار والأزهار هناك، والاستماع إلى حفيف الأشجار في هذه البقعة المرتفعة فوق المدينة، ومراقبة المسجد المهيّب من الجهة المقابلة للشارع، والتفكر في حياة هذا السلطان المأساوية المنتهية بمقتله في معركة كوسوفا على يد صربيّ غاضب... وأنا جالسة هناك ذات مرّة، اقترب منّي شيخ مُعْدِم ومدّ إليّ يده -المتسخة جدًّا- بإحدى ثمار الخوخ البورصيّ الشهير، وعندما نهضت لدفع ثمن الشاي أخبرني النادل أن ثمنه قد دُفع؛ كان الشيخ فقيرًا ويده متسختان، ورغم ذلك منحني ثمرة خوخ صابحة وكوبًا من الشاي كما لو أنّه دعاني إلى وليمة.

وفي مناسبة أخرى بعد زيارة طويلة للمسجد كنت متعبة في نهاية اليوم حتى إنني لم أتمكن من هبوط التل؛ لذا قررت أن أستقلّ سيارة أجرة إلى الفندق، وقبل أن أركب، اصطحبني السائق إلى مؤخرة السيارة، وفتح حقيبتها، وتناول رغيفًا من أكثر من عشرة أرغفة ساخنة

اشترأها لأسرته على مائدة العشاء، كانت رائحة الخبز شهية كما لو كانت حقية السيارة مخبزاً صغيراً! ثم وضعه بين يدي قائلاً: "تفضلي! هذا لعشائك!" لقد فعل مثل ذلك الشيخ في حديقة الشاي، أهداني ما توفر لديه، الأمر الذي أضفى على الهدية سخاء وجوداً.

غالباً ما يقدم سائق سيارة الأجرة أكثر من مجرد توصيلة، كما أوضحت سابقاً؛ وأنا في طريقي إلى مطار توقات لأستقل الطائرة العائدة إلى إسطنبول حاورت السائق، فأخبرته عن مدى إعجابي بالمدينة أكثر من كل مدن تركيا؛ فسألني عن الأسباب، وكلما أخبرته بسبب أوما برأسه وابتسم، وفجأة توقفنا على جانب الطريق وخرج من السيارة واختفى! وعندما بدأت أسأل نفسي عما يفعل وخشيت أن تفوتني الطائرة، عاد مسرعاً وفتح باب السيارة ووضع في حجري كيساً بلاستيكياً به ثلاثة أكياس من ثمار الخوخ الناضجة، وقال: هذه لك، إنها هدية صغيرة لتذكري بها توقات؛ كي لا تنسينا في المدينة الكبيرة إسطنبول، فرغم حاله المتواضع، منحني هدية ثمينة، ولا داعي لأن أؤكد أنها كانت اللذ ثمار خوخ تناولتها في حياتي.

أرق لفظة تلقيتها كانت من مجموعة مرأهقات في سيواس؛ ذات ظهيرة عزجت على حديقة شاي رائعة في ميدان كوناك الرئيس بوسط المدينة لأستريح قليلاً، لاحظت وأنا أحتسي الشاي ست مرأهقات جالسات على الطاولة المجاورة يحتسين الشاي ويتحدثن ويضحكن ومعهن لفظة بها قالب كعك منزلي الصنع، ربما كن يحتفلن بيوم ميلاد إحداهن أو بانتهاء العام المدرسي أو ربما يستمتعن بصداقتهن، كنت مستغرقة جداً في أفكارتي وفي كتاب أقرؤه حتى إنني لم أنتبه للفتاة القريبة من طاولتي، كانت تحمل في يدها قالب الكعك المنزلي مقطّعاً شرائح، قربت الصحن

مَنِي وقالت: تفضلي! يسعدنا أن نقَدِّم لك شريحة من كعكتنا، أتمنى أن تعجبك؛ فقد صنعتها بنفسِي! تأثرت كثيرًا بمنحي الشريحة الأولى، والأهم من ذلك والغريب في الوقت ذاته أن ذلك اليوم صادف يوم ميلادي، وكأنَّ الفتاة علمت ذلك! ومن بين كلِّ الكعك بالقشدة اللذيذ المزيّن في احتفالات يوم ميلادي، لم أذق كعكة ألدَّ من هذا القالب المجرد؛ إذ قدّمته فتاة لا أعرفها تعلو وجهها ابتسامة عريضة.

يتمتع الأتراك بشخصيات قويّة تتوافق مع جوهرهم الحنون الرقيق، ويمكنهم تقديم لفئات كبيرة بخلاف تلك اللّفات المتواضعة، فعلى سبيل المثال: أزلت عدساتي اللاصقة في بداية رحلة من نيويورك إلى إسطنبول، فطارت العدسة -وا أسفاه- في الهواء، ولم يحدث هذا من قبل، ولم أعلم أين وقعت؛ ظلمت أبحث حول مقعدي لكنّ العثور عليها في منطقة مغلقة ومزدحمة كالطائرة كان ميثوسًا منه، وبعد أن حطّت الطائرة وعبر الجميع الممر المجاور لي، قرّرت أن أبحث مرّة أخيرة في المنطقة المحيطة بمقعدي، وسرعان ما انضمت إليّ أربع مضيفات وهنّ عازمات على العثور على العدسة، ورغم إرهاقهنّ عقب رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة ولهفتهنّ أكثر مَنِي على مغادرة الطائرة الحارّة، لم تبدُ عليهنّ أدنى أمارّة للاستسلام، وظللن يزحفن على أيديهنّ وأرجلهنّ كأطفال صغار يبحثون عن كتر، وفجأة صاحت إحداهنّ: وجدتها! ما زلت لا أعلم كيف عثرت تلك الشابة على شيء بهذا الحجم! وكيف ظلت العدسة سليمة طوال الوقت! لكنّ الفتاة آمنت أنّها تستطيع أن تعثر عليها، ولأنّها تركيّة تتميز بالمثابرة والعناد فقد تمكنت من تحقيق معجزة.

تكون اللّفتة الطيبة الكبيرة سرّية أيضًا؛ حينما كنت في متجر لبيع الكتب في قيصري أراد صاحبه أن يمنحني هديّة، ووضع كتابًا بين يديّ،

لم يكن كتاباً عادياً، بل كان مجلّداً بجلد أحمر زُينت حروفه وحوائفه بالذهب، تفحصت الغلاف، فوجدت الكتاب نسخة فاخرة من الترجمة الإنجليزِيّة الجديدة لمعاني القرآن الكريم؛ كلّ سورة مترجمة تسبقها صفحة من التنبيهات التوضيحيّة مع صورة للنصّ العربيّ الأصليّ في هامش جانبيّ صغير؛ بوصفي أمينة مكتبة انبهرت بالمستوى الرفيع للطباعة، وبوصفي ضيفة تأثرت لمحاولة هذا الرجل فتح باب هائل في حياتي عبر هذه الهدية.

كثيراً ما يمكن محو الحوادث المؤسفة بتلك اللفظات الكريمة؛ ذات مرة ركبت الحافلة من أغيردير إلى قونيا، وأول مرّة منذ ثلاثين عاماً من السفر أجلس في آخر الحافلة في الصفّ الأخير وبجوار رجل، كان الموقف مفاجئاً، ولا بد أن أعترف أنني انزعجت، لكنني راجعت نفسي وتذكرت جلوسي كلّ صباح في قطار الأنفاق بجوار رجل، إذا ما سبب انزعاجي؟ لم أنتبه للرجل بجواري، ولم ألحظ سوى أنه كهل ضخّم اليدين، وفجأة بدأ يهمهم؛ فوقع في نفسي حينها أنه يتصرف برواقحة، ورغم أنني تعرضت لهذا الموقف عدّة مرات في قطار الأنفاق في نيويورك وباريس، فلم أتصوّر أن أتعرّض له في تركيا، أول مرة أجالس رجلاً في المواصلات العامّة؛ وهذا ما ضايقني بشدة، فأخذت حقيتي ووقفت فجأة واندفعت نحو السائق ومساعدته، وطلبت تغيير مقعدي فوراً، ورغم أنني لم أوضح السبب، فعلى الأرجح أدركا ما حدث، وفي الصباح التالي استيقظت فجأة الساعة الخامسة صباحاً من نوم عميق واندفعت من الفراش أصرخ: المصوِّرة! أين ذهبت؟ كيف علمت أنها لم تكن في حقيتي! وكيف جاءني هذا الخاطر في تلك اللحظة بالذات أثناء نومي! لن أعرف إجابة هذين السؤالين أبداً! قلبت الغرفة رأساً على عقب، لكنني لم أجد شيئاً كما أخبرني الحلم الذي راودني، وتذكرت الفوضى وموقف

الحافلة أمس قبل وقوع المصوِّرة من حقييتي، فأحضرتُ عُقْبَ التذكِّرة وانطلقت إلى محطة الحافلات، وتوجَّهت إلى مكتب شركة الحافلات وسردت قصَّتي؛ قام الموظف بإجراء بعض الاتصالات وقال لي بعد خمس دقائق: تفضلي بالجلوس يا سيدتي، سيحضرها أحدهم الآن، فقد عثروا على شيء ما؛ وفورًا ظهر كوب من الشاي أمامي، تمنيت بشدة أن ما عُثِرَ عليه هو المصوِّرة؛ ففيها صور الصيف كلِّه، وضياعها يعني ضياع رحلة كاملة وذهاب الوقت والنقود سُدى، بعد مرور خمس عشرة دقيقة ظهر ستة شبَّان فيهم مساعد السائق في حافلة أمس، وكانت مصوِّرتي معهم، بدأت أبكي من الإحباط وألوم نفسي على إهمالي الشديد وإضاعه تلك المصوِّرة القيِّمة، وشعرت بالحزن كلِّما تذكرت الموقف، كما أدركت أنها الذكِّرى الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر المؤلمة لأهالي نيويورك جميعًا؛ لم أتمكن من التوقف عن البكاء، رغم أنني بدأت أشعر بالراحة والقليل من الخجل، وأخيرًا همهمت للرجال ببعض كلمات الشكر وخرجت، ثمَّ أدركت مدى فظاظتي؛ فمسحت دموعي وعدت للموظف وأخبرته أنني أريد أن أقدم لهم جميعًا شيئًا صغيرًا تعبيرًا عن امتناني، فأجابني: كلاً يا سيدتي، نحن الذين نود أن نشكرك على منحنا هذه الفرصة لنخدمك؛ وأعادت ابتسامته كلَّ الأمور إلى نصابها.

كما أشرت من قبل، فإن الأتراك يتمتعون بنظام رادار داخليّ يتيح لهم التقاط كلِّ ما يحدث حولهم، فلا شيء يفوتهم ألْبته؛ في أحد الأعوام قررت في عطلة عيد الميلاد أن أصطحب زوجي إلى إسطنبول، وراسلت فندق "أرينا" أطلب منه حجز غرفة مميَّزة لنا؛ لأنَّ هذه الرحلة هدية مِنِّي لزوجي في عيد ميلاده، وبالفعل عندما وصلنا وجدنا الفندق قد خصَّص لنا أفضل غرفة تطلُّ على جامع سوكوْلُو محمد باشا؛ أهمَّ جوامع المعماريِّ سِنان، وفي ليلة رأس السنة الموافقة ذكرى ميلاد زوجي عدنا إلى الفندق

متأخرين بعد الظهيرة نشعر بيرد تغلفه السعادة بعد رحلة طويلة بمركب شراعي في البوسفور، وعقب وصولنا بدقائق سمعنا طرّقاً على الباب، وعندما فتحت وجدت نادلاً يحمل صينية عليها أطباق ومناديل وكعكة فاخرة غالية تزيّنها الشموع بجوارها بطاقة من العاملين في الفندق يتمنون لزوجي عيد ميلاد سعيد! لا بدّ أنّهم لاحظوا تاريخ ميلاده في جواز سفره، وتذكروا طلبي في البداية، فأخذوا على عاتقهم مهمة إضفاء لمستهم الخاصّة على عيد ميلاده، ورغم أنّ الكعكة كانت مزينة ومزخرفة أكثر من الكعكة الرخيصة التي تلقيتها في سيواس، فقد شعر زوجي بشعوري نفسه؛ شعر أنّه لم يتذوق في حياته كعكة عيد ميلاد ألذّ منها.

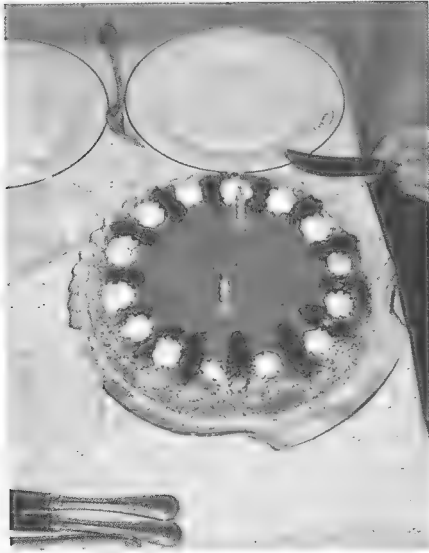
لا تقتصر هذه اللفات الكريمة على تركيا فقط؛ فالأتراك يحملون هذه السمة في تكوينهم أينما ذهبوا، ويتصرفون وفقاً لها أينما حلّوا، عندما كنت أعيش في باريس اعتدت تناول الطعام في مطعم تركي صغير، ونشأت بيني وبين العاملين هناك صداقة، وذات مساء أبلغتهم أنّي سأنقل إلى شقة جديدة غداً، وأخبرتهم كم أنا سعيدة بالانتقال إلى حيّ أرقى! وسألني ميتن رئيس النُدُل: "أين تقطنين الآن؟ وإلى أين ستنتقلين؟" فأجبت دون انتباه، وكان عليّ أن أنتبه! في تمام الساعة الثامنة صباح اليوم التالي بينما بدأت أنقل أمتعتي من الشقة إلى سيارتي الصغيرة، وقفت شاحنة صغيرة بيضاء أمام منزلي، وترجل عنها ستّة أترك مفتولو العضلات لا يتحدث أيّ منهم الفرنسية، قال لي أحدهم: "أرسلنا ميتن لنساعدك في الانتقال اليوم كي نضمن أنّ كلّ شيء على ما يرام، فأصابني الدهول، واندفعوا أعلى السلالم كما تصعد السناجب الشجرة بسرعة، وفي وقت قصير كانت أيديهم السريعة وعضلاتهم القويّة قد وضعت كلّ شيء في الشاحنة، وقادت الشاحنة إلى عنواني الجديد، وحملت كلّ شيء إلى الأعلى مرّة أخرى عبر ستّة ممرات طويلة ضيقة وصولاً إلى شقتي

الجديدة تحت ظِلَّة سَقَف بَارِيسِيّ، أتموا المهمة كُلِّها في أقلّ من ساعتين ثُمَّ اختفوا في لَمَح البَصَر دون أن تُتاح لي الفرصة أن أقدم لهم كوب ماء أو وجبة غداء أو هدية أو أن أشكرهم، قاموا بذلك؛ لأنّ ميّتن علم أنّ امرأة بمفردها تحتاج إلى المساعدة، فطلب مساعدتهم، قاموا بذلك؛ لأنّهم رجال يَجُودون بوقتهم وقوّتهم؛ لم أشعر بالسعادة في أيّ منزل آخر طَوَالَ حياتي كما شعرت بها في ذلك المنزل المرتفع في الطبقة السادسة في بَارِيس، وأنا مقتنعة أنّ السبب يرجع إلى البداية المَبْشُرة لحياتي فيه بفضل طيبة هؤلاء الأتراك وكرمهم.

سيدة ماري، هذا ما عَيَّنْتُهُ عندما أشرت في بداية رسالتي إلى الأمور التي لامست شِغاف قلبي، فهذه اللفتات الكريمة -المتواضعة العظيمة- من أقيم الهدايا في حياتي، ولن أقبل التنازل عن أيّ منها مقابل أيّ شيء في الدنيا، لن أتنازل عن شريحة قالب الكعك، ولن أتنازل عن دقيقة قضيتها على الوسادة المَتَرَّبة، ولن أنسى يداً امتدّت لمساعدتي، لقد زادت هذه اللفتات الرائعة من ثراء تجربتي في حياتي.

صديقتكم

قدريّة براننج



كعكة عيد الميلاد التي أهداها فندق "أرينا" إلى ستيفن إي جوتليب، إسطنبول في
الثالث من ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٥م

الرسالة الثامنة عشرة

مكنونات نفيسة

عزيزتي السيدة ماري،

وُلدت في أحد أرقى المنازل في إنجلترا: قصر ثورسبي هول المهيّب في ريف نوتنجهامشير المخضّر على الدوام، المشيّد بهندسة المعماريّ الإيطاليّ بالاديو، ويضمّ مئتين وخمسة وسبعين غرفة، على ضيعة من مئات الأفدنة تنتهي بأرض لصيد الغزلان، وبحيرة مساحتها خمسة وستون فداناً، وقناة تمتد رُبع ميل لتعبر الحدائق الرسميّة وتغذي عدّة فوّارات؛ كلّ هذا أهّلك للموازنة بين منزل أسلافك للمصمّم الإيطاليّ بالاديو ومنزل الشريف التركيّ حيث أقمت في أدرنة، وكالعادة لم تغفل عينك الثاقبة عن أيّ شيء؛ فقدمت لنا وصفاً مفصّلاً لأدقّ التفاصيل المعماريّة والأثاث:

”ينقسم المنزل -كبيراً كان أم صغيراً- إلى قسمين منفصلين يربطهما ممزّ ضيق؛ أمام الأول ساحة كبيرة، وحوله شُرف مفتوحة، وهو أمر أجده ملائماً جداً؛ تؤدي هذه الشُرف إلى الغُرف كلّها الواسعة في الأغلب ذات الصّفين من النوافذ، أحدهما من الزجاج الملون... يخصّ الشريف، بينما يُطلق على المنزل المجاور اسم حريم الدار، أي: شقّة السيّدات... وهي أكثر بهجة وروعة سواءً في ألوان الطلاء أم نوع الأثاث؛ أمّا ثاني الصّفين، فمنخفض

جدًا تغطيه قضبان متوازية تشبه قضبان الأديرة... لا توجد ستائر البتة؛ لأن الجدران الداخلية للغرف مغطاة بخشب الأرض المزين بمسامير فضية أو المزخرف بنقوش الأزهار، وفيه عدة أبواب مصاريعها قابلة للطّي يمكن استخدامها خزانات، أجدها في رأيي أكثر نفعًا مما لدينا، تتصل النوافذ بقناطر صغيرة لوضع جرار العطر أو سلال الزهور، لكن أكثر ما يسعدني الفوارات الرخامية أسفل الغرفة؛ إذ تبتق منها عدة فوهات معًا، فتضفي برودة رائعة وتصدر خريزًا ممتعًا... ويحتوي كل منزل على حمام من غرفتين صغيرتين أو ثلاث...

إن وصفك يشبه كثيرًا المنازل العثمانية المرممة التي زرتها في تركيا، وقد حوّل أكثرها إلى متاحف في مدن مثل: كوتاهيا، وبيرجي، وسيواس، وتوقات، وديار بكر؛ ساعدتني هذه المتاحف على تخيل حياة أصحابها، كما شغلتك حياة الناس في منزل "الشريف التركي" في أدرنة؛ علمت منها أن الجدران كانت تُبيض بالجبس، وأن الأرضيات كانت تغطى بكليم أخضر شاحب، ولاحظت الاعتناء الشديد بتفاصيل المشاهد البهيجة على الجدران والأسقف الخشبية، وكيف أن الخزانات المحفورة في الجدران امتلأت بأنواع المنسوجات كلّها اللازمة للحياة، مثل: مناديل المائدة، والمناشف بالإضافة إلى القدور النحاسية، والزهرات التي رأيت مثلها في أدرنة.

أثناء النهار تظّل الملاءات والدُّرُ الخاصة بأفراد الأسرة في هذه الخزانات أيضًا، فيوفر ذلك مساحة واسعة جيّدة التهوية تشبه الأريكة على الأرضيات؛ لتمارس الأسرة كلّ أنشطة حياتها الاجتماعية، مثل: استقبال الضيوف، وتناول الطعام، وملاعبة الأطفال، وتأدية الصلاة، والقيام بالأشغال اليدوية، تمامًا كما يحدث في المنازل القروية حتى يومنا هذا.

كان الأثاث أهم ما استرعى انتباهك، وحاز إعجابك في المنازل التركية؛ وهي أرائك تقليدية منخفضة منضودة بطول جدار النافذة، بالإضافة إلى تجويفات الجدران الناتئة من الأدوار العليا:

”كلّ الغرف مفروشة بسجاجيد فارسية ترتفع مقدار قدمين في أحد أطراف الغرفة فيما يُعرف بالأريكة، وهي مغطاة بنوع أثمن من السجاجيد، ويحيطها مصطبة مرتفعة مقدار نصف قدم مغطاة بالحرير الثمين... ويتراصّ حول ذلك كلّ صفّان من الوسائد المستندة إلى الجدار، الصفّ الأول للوسائد الكبيرة والثاني للصغيرة، وهنا تتجلّى عظمة الأتراك وأبهتهم... توفر هذه المجالس الراحة والرغد حتى ظننت أنني لن أتحمّل الجلوس على مقاعد ما حييت“.

من بين متع الحياة السهلة الرائعة في تركيا أن تجلس القرفصاء على المصطبة المنخفضة متكئاً على أريكة بين وسائد ملوّنة، وحولك أصدقاؤك يثرثرون، ويحتسون الشاي، أو تجلس في تجويف النافذة لتشاهد المارة.

رغم أنّ تلك القصور العثمانية المرمّمة تثير الإعجاب حقاً، إلا أنني أفضل في تركيا المنازل العادية المتواضعة التي حظيتُ بشرف النزول ضيفة عليها؛ تعدّ المنازل التركية موئلاً للسكينة، ومركزاً للسعادة الأسرية وعماداً للمجتمع كلّ، وتسمّ بأنها دائماً مليئة بالضوء والهواء والراحة والودّ، قد تكون مكتظة بأثاث عصر الباروك المترف المفضّل لدى أبناء المدينة المعاصرين، وقد تكون مؤنّثة بمصاطب وأرائك عادية منخفضة مغطاة بالكليم، أيّا كان ذوق الأثاث، فإنّ العامل المشترك بين المنازل التركية الحديثة والتقليدية هو السجاجيد المذهلة؛ إذ يبدو أنّ الأتراك يتمسّكون بشدة بأصولهم البدوية، وستظلّ تلك السجاجيد -سواءً آلية الصنع أم يدوية- أروع دليل على ذلك، فضلاً عن الأزهار في أرجاء

المنزل كلّه، ستجد طاقة ورد صناعيّة على مائدة جانبيّة أو زهورًا في أوعية على النافذة أو في المدخل بصفائح زيت الزيتون أو زهورًا مرسومة على الستائر والسجاجيد والصور وأباريق الشاي أو زهورًا منحوتة في أقواس القباب التي أشربت إليها يا سيدة ماري؛ في المنازل التركيّة ترمز الأزهار إلى الحياة والخير، وهبأت الله المتمثلة في زهرة مبهجة الألوان عطرة الرائحة نبتت بفضل الأمطار الهاطلة من السماء، وتفتحت كأنها الأسرة التركيّة الضاربة بجذورها في تربة المنازل التركيّة المباركة.

الملحوظة الأخرى أنّ المنازل كلّها بدءًا من القصور المترفة إلى الأكواخ القرويّة تشعّ نظافة، تجديد المنازل التركيّة نظيفة طاهرة على عكس الطرقات الموحلة والفوضى العامّة بالخارج؛ معك كلّ الحقّ -يا سيدة ماري- في قولك: "إنّها الحقيقة؛ لا يهتمون ألبتة بتجميل خارج منازلهم..." أندھش دائمًا؛ فبالرغم من سداجة المباني من الخارج، وقذارة الشارع المواجه لها وصخبه وعنفه، فإنّ مجرد الدخول إلى أيّ منزل تركي يغمرك إحساس بالسكينة في مكان يشعّ نظافة ونظامًا؛ لا يدخل أحد منزلًا تركيًا دون أن يخلع نعليه أولاً، كي لا تدنّس قذارة الشارع حرمة المنزل ونظافته؛ لاحظت ذلك أنت أيضًا يا سيدة ماري: "يحافظ على نظافة منازل السيّدات النيبيلات في تركيا بالقدر نفسه في المنازل الهولنديّة".

ثمّة منزلان زرتُهما في تركيا ولم يفارقا مخيلتي، وصفت لك من قبل شعور أن يستقبلك أهل منزل تركي ويتبنوك؛ في كلّ مرة أدخل فيها منزلًا تركيًا -مهما قصرت الزيارة- تشعرني الأسرة أنها تبتني بطريقة أو بأخرى، وهذا ما حدث لي في قرية يوروك قرب سافرانبولو؛ قرية ساحرة ومعرض حيّ للمنازل العثمانيّة الخشبيّة الرائعة الراجعة

إلى القرن الثامن عشر الميلاديّ، قضيت فترة بعد الظهر أكسر قشر البندق في الساحة الخارجيّة لأحد المنازل الضخمة بصحبة ربّ البيت، بعدها دُعينا للدخول وتناول الشاي، كان هذا المنزل العثمانيّ التقليديّ الضخم مصمّمًا ليسع أربع عوائل كبيرة، قد تغير طابعه ومال للحدائثة؛ إذ ظهرت فيه دورات مياه إفرنجيّة، وانتصبت الثّلاجة شامخة في منتصف ساحة الجلوس، كانت العجوز والدة ربّ البيت تراقب كلّ ما يحدث من موقعها في جلسة تجويف النافذة؛ إذ جلست هناك لتستمع بالنسيم البارد وتتأمل جمال الريف المحيط وتتابع الحوار الدائر بيننا؛ قبيل الغروب خرجت مع حفيدتها إلى المرعى القريب لتعيد الأبقار إلى المنزل حيث مبيتها في ساحة الدار فيما يُعرف باسم "الحياة"، والحياة: عبارة عن ساحة ممّهدة في الطبقة الأرضيّة يدخلها الهواء بفضل التعريشات الخشبيّة، بدا لي بوصفي قادمة من الغرب الأوسط أنّ الاحتفاظ بالماشية وسِلال البندق المقشور بالقرب من قلب المنزل والنوم بالأعلى أمر طبعيّ مألوف.

أمّا المنزل الثاني، فكان يتألّف من غرفة واحدة، لحارس دير الشيخ تورّسان خارج قيصري، سُيّد المنزل لجماعة هذا الشيخ العظيم التي عاشت في تلك المنطقة خلال القرن الثالث عشر، ودير الدرويش: منزل صوفيّ على قمة جبل رائع تأتيه الرياح من كل مكان، ويطلّ على سهل ترابيّ شاسع اجتاحه ذات يوم جنود تانكريد للوصول إلى الأرض المقدسة - فلسطين - خلال الحملة الصليبيّة الأولى عام ١٠٩٧م، ربّما امتزج جمال الريف، وهدوء العزلة، وعبق التاريخ، وذكرى الدرويش، لتضفي كلها على تلك البقعة جوًّا فريدًا من الروحانيّة.

عقب زيارة دير الدراويش دعاني الحارس لشرب الشاي في منزله، وبينما انهمكت زوجته في تحضير الشاي، تفحصت المنزل ذا الغرفة

الواحدة؛ كانت غرفة كبيرة جداً مزينة بسجادة فيروزية بلون البلاط السلجوقي، جدرانها مطلية بالجص الأبيض تستند إليها وسائد كليم، لم تكن هناك أية صور على الجدران، أو مذياع أو تلفاز مدوّ، أو قطع أثاث متناثرة، لا شيء سوى موقد التدفئة المستدير القابع في وسط الغرفة.

ساد صمت مذهل حتى إنني كدت أسمع أصداء ذكرى صيحات الجنود الصليبيين القادمة من السهل بالأسفل في صوت الرياح التي تعصف بالأشجار، وصوت قعقة دروعهم في زقزقة الطيور، وصدى قرع الطبول في طنين النحل الخافت في الخلايا القريبة، لم أجد ثقباً واحداً في السجادة أو بقعة جافة تلتطّخها أو تلتطّخ الجدران، كان أهمّ ما في الغرفة الأشخاص الجالسين فيها وأحاديثهم.

لا شكّ أنني أول أجنبيّ يطأ تلك الغرفة؛ فقد عُوِّملت بجلال ومهابة كالسلطان السلجوقي المنتصر كلّش أرسلان؛ دخلت ربة المنزل وفي يدها صينية عليها الشاي والفاكهة الصابحة، ثمّ انحنّت برقة ووقار لتضعها على الأرض أمامنا، وابتسمت لي في خجل قبل أن تصبّ الشاي بالرقّي الفطريّ نفسه لأيّ سيدة حسنة التريبة، نشأت في قصر ثورسبي هول؛ وهكذا يمكنك أن تدركي يا سيدة ماري، كيف يصبح المنزل التركيّ من غرفة واحدة في مستوى جمال قصر من مئتين وخمس وسبعين غرفة أو في مستوى قصر "الشريف التركيّ"، وكيف تتجلّى عظمة الأتراك الحقيقيّة في منازلهم.

صديقتكم

قدريّة براننج



منزل حارس زاوية الشيخ تورسان



وجبة عشاء على أريكة، في مطعم
"بانديلي" بإسطنبول



منزل عثمانيّ من الداخل في سافرانبولو



منزل خشبي قديم، في أوسكودار



وسيلة الاتصال قبل ظهور
هواتف الجيب



منزل فريد من نوعه في بشيكتاش



منزل عثماني من الداخل
في سافرانبولو



حيّ السليمانية في إسطنبول



منزل فوق قبر سلجوقيّ في توقات



منازل خشبيّة قديمة في أوسكودار

الرسالة التاسعة عشرة

رؤية ثاقبة

عزيزتي السيدة ماري،

يبدو أن الأحداث المثيرة المهمة تحدث دائماً في تركيا بغض النظر عن العصر، ولعلك لم تشعري كم أنت محظوظة لأنك عشت في تركيا في واحد من أشهر عصورها؛ فهذه الحقبة سُميت باسم تلك الزهرة الزاهية ذات الأوراق الخنجريّة النامية طبيعيّاً في غابات تركيا، والرمز غير الرسمي للبلاد: إنها زهرة التيوليب!

يعدّ عهد لاله (التيوليب) إبان حكم السلطان أحمد الثالث أحد أهمّ عصور الإبداع الفنّي على مدار تاريخ الإمبراطوريّة العثمانية؛ لعلّ هذا العصر لم يبلغ المستوى الرفيع لعصور أخرى انتشرت فيها المصانع الفنيّة العظيمة، رعاها بلاط سلاطين، مثل: سليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث، لكن لا داعي لأن ننسى أنّ قلّة من العصور ذات التراث الفنّي العالميّ يمكن موازنتها بتلك السنوات الذهبيّة؛ إذ تمثّلت أهميّة عصر السلطان أحمد في إشرافه أكثر من اكتشافاته الثقافيّة الجديدة؛ إذ كان "عهد لاله" عهد المرح.

عقب ما يربو عن أربعة قرون من الحرب والنصر والهزيمة، قرّر العثمانيون فجأة أن يستريحوا ويستمتعوا قليلاً بوقتهم، وهكذا كان عهد لاله في عصر السلطان أحمد الثالث وقت السلام والمتعة المفرطة والإبداع الأدبي؛ بدأ هذا العهد في شهر رحيلك عن تركيا يا سيدة ماري، عقب توقيع معاهدة بياروفجة في يوليو عام ١٧١٨م، التي وضعت حدًا للحرب مع النمسا، وقد أمضى زوجك قبلُ عمرًا يتفاوض لإنهاءها لكن دون جدوى!

انتشرت زهرة التوليب انتشارًا واسعًا أثناء فترة حكم السلطان البالغة اثني عشر عامًا، فصارت هذه الزهرة المقبّعة رمزًا لمتعة الفنون الإبداعية، وتحوّلت فكرة الحياة الرغيدة السعيدة إلى نوع من أنواع الفنون؛ فانتشرت احتفالات موسيقية، واستعراضات ضخمة في حلبات السباق، وحفلات راقصة، ونُزّه خلويّة، وحدائق ممتعة، ورِحلات في البوسفور السعيد؛ لم تُزرع زهور التوليب في حدائق المدينة كلّها فحسب، بل نبضت بالحياة في أعمال التطريز والخزف والمنمنمات.

علاوة على انتشار زهور التوليب في الحدائق والأعمال الفنية، فقد خلق "عهد لاله" وجهةً وأبعادًا جديدةً للمجتمع العثماني؛ فتوثّقت علاقات تركيا بأوربّا خلال تلك الفترة، وازدهر العلم والاستكشافات الفكرية بعد إنشاء المكتبات، والبدء في الترجمة، ووصول أول آلة طباعة لطباعة الكتب باللغة التركية.

تمتع إبراهيم باشا -صهر السلطان أحمد الثالث ورئيس وزرائه- بنفوذ واسع في الإمبراطورية، إذ أرسل بعثةً سفاريةً ثقافيةً إلى فرنسا لمراقبة أنظمة الحضارة والفنّ والتعليم والهندسة والتقنية؛ كان من نتائجها انتشار حركة تبادل تجاريّ واسعة بين أوربّا والإمبراطورية العثمانية، شملت

الأزياء والخزف والساعات، بالإضافة إلى استيراد الأفكار الجديدة، كما يحدث الآن في تركيا.

اهتمَّ السلطان أحمد الثالث أيضًا بالبناء والتشييد؛ فأهدى المدينة فؤارة رائعة أمام مدخل قصر طوب قابي عام ١٧٢٨م؛ ومن المؤسف رحيلك قبل بنائها يا سيده ماري، أتذكرك كلما مررت من أمامها، وشيّد السلطان أيضًا فؤارة مذهلة على رصيف ميناء أوسكودار، واستغل إبراهيم باشا -المُعَيّن رئيسًا للوزراء في الشهر التالي لرحيلك- نفوذه لبناء فؤارتين في مسجدي شهزادا باشي وأورتاكوي؛ ولكن وأسفاه شُيِّدت كلّها عقب رحيلك، غير أنك شهدت طفرة بناء القصور الخشبيّة على ضفاف البوسفور، بدأت في تلك الفترة وعُرفت باسم ”يالي“؛ كتبت في رسالة إلى القس كونتي: ”لا شيء أجمل من القناة، والأتراك على دراية تامة بمواطن جمالها؛ إذ يشيّدون استراحاتهم على ضفافها... فتتراصّ واحدة تلو الأخرى في مئات القصور الرائعة“، وفور رحيلك عن تركيا عام ١٧٢١م شيّد السلطان أحمد الثالث قصره الشهير ”سعد آباد“ -أي موطن السعادة- وسط مروج كاغيتهانه قريبًا من أيوب، وحُول مجرى النهر ليصبّ في المجاري الرخاميّة التي استعارتها البعثة الثقافيّة في فرنسا من رسوم قصر فرساي.

انعكست روح العصر في اللوحات الشهيرة لفنان البلاط ”لونلي“، المصوّرة لاحتفالات ختان أبناء السلطان أحمد، وفي أشعار الشاعر نديم: ”دعونا نحتفل، دعونا نرقص ونلعب جميعًا، فقد بدأ عصر لاله!“ لكن وأسفاه جاءت ثورة شعبيةٍ لُتْنهى عصر عدم المبالاة والانغماس في اللذات والإفراط في الحفلات رغم ندرة الخبز والقوت، وأُطيح بالسلطان أحمد الثالث، وانتهى ”عهد لاله“ على حين غرة عام ١٧٣٠م.

رغم أنك لم تشهدي ذروة أيام "عهد لاله"، فلا بد أنك أدركت بالملاحظة المباشرة مقدار المتعة والمرح الذي تتضمنه حياة الأتراك فطرياً؛ فاناؤكد لك أن الأتراك لم "يستمتعوا ويرقصوا ويلعبوا" في أيامك فقط، بل إنهم يفعلون ذلك كل يوم وبالطرق الممكنة كلها؛ أعتقد أن الأتراك يعيشون لأربعة أشياء: الأسرة، الأصدقاء، الطعام، الطبيعة الجميلة، على اختلاف ترتيبها أو طريقة اجتماعها؛ أتقنوا مهارة الاستمتاع بوقتهم لأقصى درجة، بل كانت لديهم كلمات تعبر عن السعادة في المهرجانات الرسمية الشعبية؛ بالرغم من كل المشكلات والصعاب في حياتهم اليومية وافتانهم بالمآسي، فإنهم يتمكنون من الحفاظ على وجهة نظر تتسم بالسعادة الدائمة وارتفاع المعنويات؛ إنها ثقافة تنصير فيها النظرة الإيجابية على المعاناة والسلية.

من الصعب ألا تستمتعي بوقتك وسط الأتراك، سواء كنتم تحتسون الشاي أم تستمتعون بشواء شرائح اللحم أم تتضحكون أم تشمون الأزهار أم تنصتون إلى عازف ساز أم ترقصون في ملهى على شاطئ البحر أم تحضرون حفل زفاف قروي، كما أنك لا تكفين عن الابتسام والضحك مع شخص تركي، وتحظين بمتعة خالصة، وكما تقولين في رسالتك إلى القس كونتي:

"كما ترى يا سيدي، فإن هؤلاء الأشخاص ليسوا جهلاء كما نصورهم؛ فطبيعتهم مختلفة عن طبيعتنا، قد تكون أفضل؛ أكاد أعتقد أن رؤيتهم للحياة صحيحة؛ فبينما يقضون حياتهم بين الموسيقى، والحدائق، والطعام الفاخر، نعذب أنفسنا، ونشغل عقولنا بمخططات السياسة أو بدراسة علم لا يمكننا إتقانه، ولو أتقناه فلن نتمكن من إقناع الآخرين... يمكنك أن تسخر مني عندما أعلن أن الشخص لأن يكون سيّداً تركياً ثرياً بجعله كله خير له من أن يكون السيد إسحق نيوتن بعلمه كله".

هذه الرؤية الصحيحة للحياة تبدأ من مهام الحياة اليومية الاعتيادية التي ترقى بطريقة ما لترقى درجة أعلى من الرتبة، سواء كانت لفئة كريمة أم كلمة أم إيماءة عذبة؛ فليس ثمة جانب من جوانب الحياة رتيب ممل، بل كل شيء قابل للتحسين.

تزخر الحياة في الشارع والأسواق بألوان من السعادة والمفاجآت في كل لحظة، ومن شأنها جميعاً أن تثير حواسك، مثل: العرض اللافت للمواد الغذائية في الأسواق؛ إذ يتحول تاجر الخضراوات العادي إلى متخصص في الفن المرئي يراعي أشكال بضاعته وألوانها أثناء ترتيبها، ويختتم العرض بحركة مذهلة؛ يقطع ثمرة ناضجة كثيرة العصارة ويضعها على قمة هرم الفاكهة المشيد بعناية؛ ويولي تاجر الجواهر لبضاعتهم اهتماماً لا يقل عن هذا، فيعلقون صفوفاً متتالية من الأساور الذهبية مختلفة الدرجات، لتألق في الأضواء اللامعة كأزهار دوّار الشمس الراقصة تحت أشعة شمس الأناضول، يظهر الاهتمام نفسه في عرض السلع في المتاجر المؤقتة والصغيرة المقامة في الأسواق أو في الشوارع، بغض النظر عن مدى أهمية السلعة؛ فيصبح ترتيب المفكات أشبه بلوحة متفجرة بالأشكال والألوان للرسم جاكسون بولاك، وتحوّل البضائع الغريبة المتنوعة إلى عروض جانبية كالمقدمة في مسرح الحيوانات، وتشمل هذه البضائع القبعات، والكُفوف (القُفَازات)، والمراوح، ومقاشر الخضراوات، وملابس الشعار، والقَدَاحات، والبطاقات البريدية القديمة بصور الزهور، والأقفال، وطلاء الأظافر، والعطور غير الأصلية، والمقالي زهرية اللون، وأباريق الشاي، وقطع الصابون الصفراء والزهراء، والأحذية المقلدة لمشاهير المصممين، والمُحافظ، والمِشَآت ومنافض الأتربة، وكلها مرتبة بدقة وعناية في استعراض صاحب للألوان، ووسط هذا كله لا يسعنا أن ننسى الصبيان الصغار والمُعَدِّمين بائعي عبوات

المناديل والجوارب واللفائف المفردة بمهارة وإتقان، فهم أفضل من بائع في متجر باريسيّ متعدد الأقسام.

تتجسّد الأفعال الخارقة في تلك اللفات الرقيقة الصادرة عن ماسح الأحذية؛ إذ يُخرج بخفّة كساحر متمرّس قطعة نسيج بيضاء، ويضعها على جوربك حتى لا يلطّخه الملمّع؛ وتتجلّى أيضًا في مجموعة المناشف الملّونة المنشورة خارج متاجر الحلاقين، ترفرف في الهواء كالأعلام المرفرفة على السفن، وتتجلّى في عناية الأتراك بتغليف السلع بالورق أو الخيط مهما كانت زهيدة السعر، بدءًا من المنتجات النسائيّة وصولًا إلى حقّاضات الأطفال، لضمان قدر من الخصوصية في مواجهة أعين المتطفّلين في الشارع، وتتجسّد في عطر الليمون العذب يُرشّ على يديك عندما تدخلين مكتبًا أو تغادرين مطعمًا.

في عالم الأعمال يتصرف الأتراك بدمائيّة؛ فتصبح متعة الشراء العاديّة مغامرة مثيرة، ووسيلة للتعرف إلى أصدقاء جدد وفرصة للتفاعل مع الآخرين والتعلم منهم، عندما تبدأ مفاوضات الشراء تظهر أكواب الشاي، معلنة بدء علاقة جديدة إلى جانب التجارة.

الأتراك لا يوصدون المتاجر، وإذا أراد صاحب المتجر أن يخرج لشراء الطعام، يضع كرسيًّا في المدخل إشارة إلى خروجه، ولا يجروّ أحد على عبور العتبة حتى يُزاح الكرسيّ، ورغم أنّ الموسيقى صاخبة في كلّ مكان من المتاجر، وقد تكون مزعجة أحيانًا، فإنّها وسيلة للحياة والتفauّل في الشارع.

لا تختلف الحياة في الفندق كثيرًا، فلا يضيع أحد فرصة لتقديم المساعدة أو لإبداء الاهتمام الشديد، ومن أمثلة اللمسات الرقيقة المنتشرة في كلّ مكان: الانحناء لك كما لو كنت سفيرًا في الأمم المتّحدة،

وفتح الأبواب لك بابتسامة عريضة وغمزة عين، وشرائح الجزر أعلى شرائح جبن الفيتا كأوجه صغيرة باسمه تقدم لك تحية الصباح، والأزهار البلاستيكية المثبتة في طية الصدر لبرنس الحمام تشعرك أنها مهداة من معجب مجهول.

من مظاهر الذوق العالي في شوارع تركيا فن إبراز المشاهد؛ إذ يحرص الأتراك على اختيار مواقع منازلهم ومساجدهم وآثارهم بدقة شديدة، ويتمتعون بمهارة فطرية في اختيار أفضل الأماكن لوضع آثارهم من منظور استراتيجي درامي؛ ففي مقصورة مسجدي مراد الأول وبايزيد "الصاعقة" أعلى جبال بورصة تعزف الريح المداعبة للأشجار أنشودة خالدة تحكي النهاية المأساوية لهذين السلطانين، ولا يمكننا نسيان المنازل العثمانية المترصة أعلى التلّ في سافرانبولو التي تشبه قطع الشطرنج المصفوفة بتناسب لتحافظ على منظر جيرانها.

أعتقد أن تناول الطعام في الخارج من أمتع مباحج الحياة لدى الأتراك؛ فقد يأكلون في ساحة مطعم فاخر على السطح، أو في حديقة شاي في المتنزه وسط المدينة، أو في نزهة عارضة إلى جوار فوّارة أو جدول منساب، أو يتناولون وجبة عشاء في الهواء الطلق في مدخل منزل، أو يأكلون ثمرة خو

خ في ظلّ دوحة على جانب الطريق؛ إذ يعرفون أنّ الهواء النقيّ من أفضل المقيّلات.

ترعرعت على حبّ تناول الطعام في الخارج أيضًا؛ إذ اعتاد والدي أن ينظّم نَزْهاً أثناء تساقط الثلوج، ووجبات إفطار في الممتزّحات، ورحلات قصيرة إلى حقول الطماطم المثمرة مع أخذ الملاحّة، واحتفالات عائليّة في غابات الوديان؛ لهذا يرتبط تناول الطعام في الخارج في مخيلتي بالتلقائيّة والسعادة والأخوة، وعندما اكتشفت هذا الشعب المستمتع بتناول الطعام في الهواء الطلق، شعرت على الفور أنّي في وطني.

يعشق الأتراك التزّه الصيفيّة في البساتين، والحدائق، والممتزّحات الوطنيّة، والمروج المرتفعة، وفي ظلال الأشجار، وفي أيّة بقعة تجسّد جمال الطبيعة، وقد تكون وجباتهم خفيفة وسريعة كالفاكهة الصابحة أو العسل والخبز أو وجبات متقنة من اللحم المشويّ، ومن عاداتهم الممتعة تناول الطعام صابحًا، وهي عادة منتشرة في الكثير من المطاعم والاستراحات على جانب الطريق، إذ يتم إحضار شَوَاية قابلة للحمل إلى مائدتك لتكون مسؤولاً عن شيء اللحم أو السمك وتناوله، ويقدر حبّ الأتراك لتناول الطعام في الخارج، فإنهم يكرهون المقاهي على الطُرق؛ لأنّها تترك شوارع المدينة متسخة جدًّا.

تحدّثت يا سيّدة ماري، في رسالة من أدرنة إلى أليكساندر بوب، عن حبّ الأتراك للحدائق المليئة بأشجار السرو الباسقة تعلوها أعشاش طيور القماريّ:

”الأرض كلّها مغطّاة بالحدائق، وبمحاذاة ضفاف الأنهار
تصطفّ أشجار الفاكهة يجلس تحتها الأتراك كلّ مساء للاستمتاع
بوقتهم، ولا يتمشون تحتها؛ فهذا ليس من وسائل الأتراك

للاستمتاع، بل يختارون بقعة خضراء وارفة الظلال، وتبسط فيها سجادة ليجلس الجميع عليها يحتسون القهوة...“.

وليس ثمة مكان أفضل للاستمتاع بما أشرت إليه من ”موسيقى، وحدائق، وطعام فاخر من المروج العالية، أي: مرتفعات الجبال الصيفية، يعدّها الأتراك مزارات وطنية حقيقية؛ فالمراعي المرتفعة جنة على الأرض في العقل التركيّ الفطريّ؛ فهو يميل لتصميم السجاجيد لتمثال ألوانها الكثيرة أزهار المروج المزركشة.

عادة نقل المواشي من مرعى إلى آخر تجري في دماء السلالة التركمانية التي سكنت آسيا الوسطى وجاءت إلى الأناضول بداية من القرن الحادي عشر، واعتمد بقاؤها على السعي الدائم للعثور على مراعي جديدة للماعز والغنم حسب الموسم، صحيح أنّ الغالبية العظمى من الأتراك لم تعد تعيش وفقًا لهذا الأسلوب البدائيّ، لكنّه ما زال يسري في دماها وأرواحها؛ فمع بداية فصل الربيع ترنو قلوب الأتراك إلى جمال تلك المراعي الجبلية البهيجة، ويتوجهون إلى التلال للاسترخاء والاستمتاع بالاندماج في الطبيعة؛ لهذا تصبح الجداول المتدفقة، والضباب الأبيض في فترة ما بعد الظهر، والغنم، أهم أبطال القصص الشعبية الغنائية؛ يركض الأطفال بحرية على العشب ويتسلقون الأشجار والصخور، وتجتمع العوائل مساء في الأكواخ الصغيرة ملاجئ الصيف، ولا تضاهي نضارة أطعمتهم سوى نقاء الهواء في تلك الأيام الدافئة والليالي الباردة؛ يأكلون الزبد، والجبن، والحليب، والخبز، واللبن الخثير؛ سواء كانت المروج العالية في منطقة البحر الأسود أم في جبال طوروس أم كاتشكار أم أسفل جبل أرجيز، المهم أن يشعر المرء بالحرية، وأن يشارك أسرته الطعام، وأن يحيا في تناغم مع الطبيعة والفصول المختلفة، وأن يستمتع

بحسّ المغامرة، وفوق كلّ شيء أن يتحرّر من قيود الزمن؛ ورغم أنّك لم تنعمي بزيارة المروج العالية فقد ثملت من حلاوة المناخ التركي والطبيعة:

”الجو رائع جدًّا؛ أجلس الآن -في الرابع من يناير/كانون

الثاني- والنوافذ مفتوحة، أستمتع بأشعة الشمس الدافئة، وغرقتي

مزيّنة بأزهار القرنفل، والورد، والرجس المقتطف من حديقتي“.

سيدة ماري، كم سيكون من الرائع الجلوس معك على سجادة في حديقة قُبالة الماء في أحد مئات القصور الرائعة أو في المروج العالية، للانخراط في محادثة لبقة مع شخص نحترم، ولإلقاء أبيات علّمك إياها معلّمك أحمد، ولتناول بعض ثمار الخوخ الصابحة، وشرب الشاي معًا؛ يمكننا أن نضحك ونحظى بسعادة مفعمة بالحيوية كما يفعل الأتراك في كلّ لحظة من حياتهم، يمكننا أن نترك سير إسحاق نيوتن ونتجنّب قوانين الحركة قليلًا كي نحتفل، ونرقص، ونلعب كالندماء، يمكننا أن نصبح صديقتين بمفهوم الصداقة العذب الرقيق الرائق الذي عشناه في تلك اللحظات في تركيا؛ هذا هو الرقي الحقيقي، والرؤية الثاقبة للحياة.

صديقتكم

قدريّة براننج



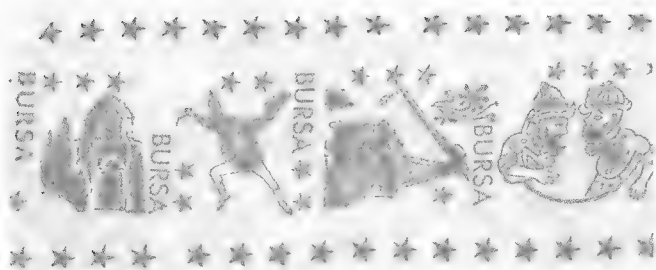
مجموعة مقاعد لتناول العشاء تحت الأشجار في بيشهير



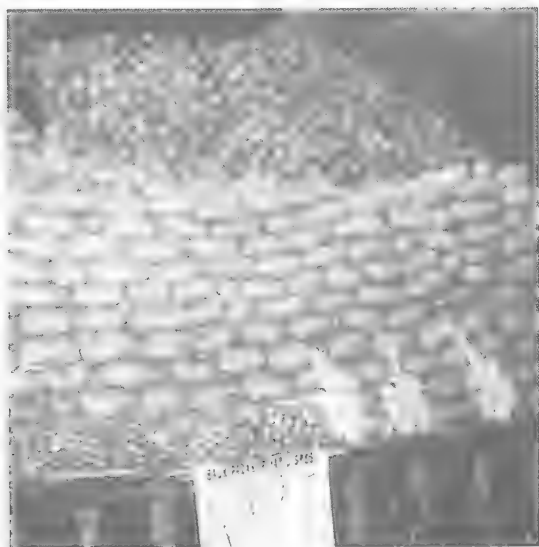
(اخدم نفسك بنفسك) في فتحية



مطافئ الحريق مستعدة في أدرنة



ورق التغليف في إحدى الصيدليات في بورصة



بطاطس في سوق بشيكتاش



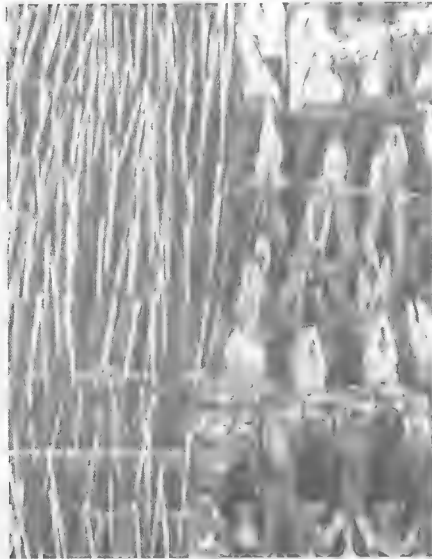
بازنجان معروض للبيع، سوق الخاتونية في قونيا



لوحة حيّة لثمار الطماطم، والفلفل، وزجاجات المياه المعدنية في تاتفان



متعة القطة "غفوة في السوق"



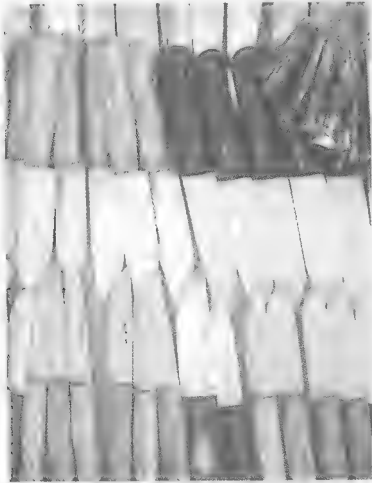
أدوات معروضة للبيع في إسطنبول



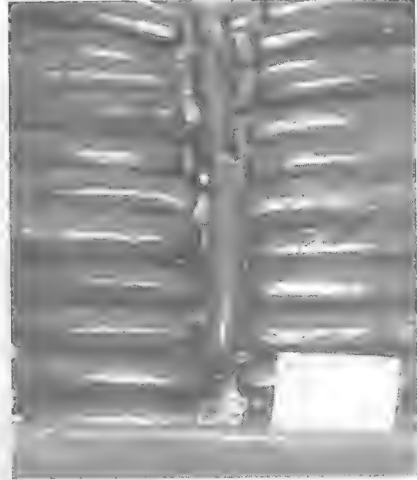
أدوات معروضة للبيع في إسطنبول



بضائع ملونة في كاديرجا



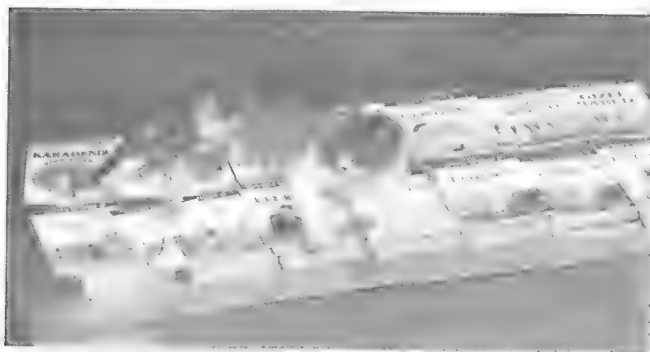
في أفشين



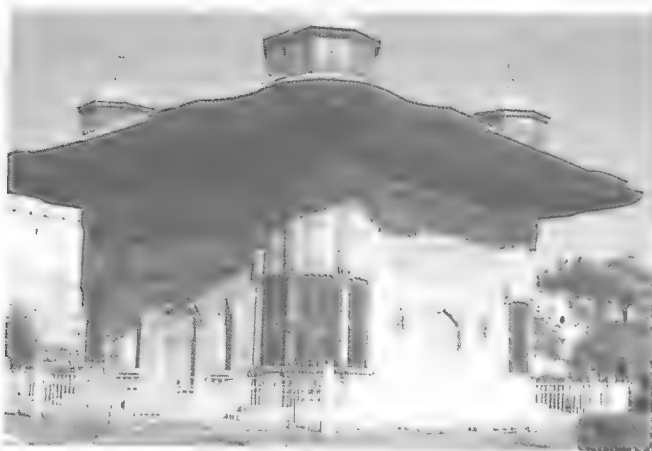
قرع صيفي للبيع، سوق الخاتونية
في قونيا



مشهد من الشارع في قونيا



متعة القطة، سوق الصحفيين في إسطنبول



فؤارة السلطان أحمد الثالث عام ١٧٢٨م

الرسالة العشرون

كنت جائعة

عزيزتي السيدة ماري،

لا أختلف معك إلا في مسألة واحدة، وهي تقديرك للثقافة التركية؛ ففي الرسالة التي تتحدثين فيها عن عشائك مع زوجة رئيس الوزراء، تقولين منزعجة:

”لقد ضيقتني بكلّ لطف وكياسة، ثمّ حان موعد تناول العشاء، فقدّمت أطباق كثيرة واحدًا تلو الآخر... وأنا خبيرة جيّدة في أطعمتهم؛ إذ أقمت ثلاثة أسابيع في منزل سيّد تركي في بلغراد، اعتاد أن يقدّم لنا وجبات عشاء رائعة من إعداد طهاته؛ أمتعتني هذه الوجبات جدًّا خلال الأسبوع الأوّل، لكنني بدأت أملّ منها وتمنيت أن يُعدّ طاهينا طبقًا أو طبقين من أطعمتنا...“.

هلا تمنحيني هذه الأطباق الكثيرة يا سيّدة ماري، إذا لم ترغبني في تناولها! أختلف عنك في هذا؛ فأنا لا أملّ أبدًا أصناف الأطعمة المتنوّعة المتوفّرة في تركيا؛ أقرّ أنّي سمعت آخرين يبدون ملاحظتك نفسها

عن الرتبة في الأطعمة؛ في زيارة لي إلى أنطاليا التقيت سيّدة راقية من أتالانتا، كانت حسناء من الجنوب تشعّ جمالاً؛ تحدّثت بلهجة الجنوب الثقيلة ثقل الشاي المحلي، وقالت بحسرة: "طماطم، طماطم، طماطم! لقد سئمت منها! يتناولونها على الإفطار، والغداء، والعشاء، والطعام المعدّ هنا كلّ فيه طماطم! أتوق للعودة إلى الوطن؛ لأتناول وجبة رائعة من اللحم بالمرق، وجريش القمح!" لم أحاول إقناعها برأيي؛ إذ أظنّ بصدق أنّ النعيم هو المكان الذي يستطيع فيه المرء تناول الطماطم من الصباح إلى المساء؛ لذا لم أعلّق على قولها.

ورغم أنّ الأطعمة التركيّة لا تخلو من الطماطم، إلا أنّني أجد المطبخ التركيّ متنوّعاً، وهذه من أمتع المزايا في تركيا؛ لا أحاول في رسالتي هذه تغيير رأيك في الطعام التركيّ، ولا أريد أن أسهب في الحديث بلا توقف عن ملذّات المائدة التركيّة، أو أن أصف مذاق كلّ طبق على حدة؛ فسأترك هذه المهمّة للكُتّاب هواة الحديث عن الطعام؛ إنّما أريد أن أطلعك على بعض اللحظات السعيدة التي مررت بها وأنا أستمتع بأطباق أعجبتني خلال رحلاتي.

يحمل الطعام التركيّ كثيرًا من صفات الأتراك أنفسهم؛ فهو صريح، سهل، مباشر، شهيّ، غنيّ، مثلما تسهل قراءة الوجوه التركيّة، ينطبق الشيء نفسه على طعامهم؛ فليس فيه شيء خفيّ أو سريّ، ولا يحتاج إلى خبرة فائقة أو صلصات كثيفة معقّدة، بل هو طعام واضح، مباشر، تعرفين تمامًا طريقة تحضيره ومكوّناته، غير أنّ وضوحه لا يعني بالضرورة أنّه مملّ؛ فبعض هذه الأطباق من الدّ ما تذوّقت في حياتي، وأنا أعُدّ نفسي ذوّاقة في أشهر المطابخ العالميّة، ألا وهو المطبخ الفرنسيّ؛ فيمكنني عقد هذه الموازنات.

لا بدّ أن تكوني من محبّي لحم الضأن، بل من المكثّرين منه، لتستمتعي بالمطبخ التركي؛ فهو شائع هنا، لأنّ لحم الخنزير محرّم، ولحم البقر غير منتشر، أمّا إن كنت غير ذلك، فستتظرك في كلّ مكان وجبات من دجاج المزارع الغضّ، والسّمك الصّباح من أحد البحار الثلاثة المحيطة بتركيا: البحر الأسود، وبحر إيجه، والبحر الأبيض المتوسط.

رغم أنّ تركيا بلد يكثر فيه تناول اللحم، إلّا أنّه جنة للنباتيين، وهنا تكمن أهمّ مزايا المائدة التركيّة؛ فلا أعرف بلداً آخر يراعي تلك الفئة؛ لن تجدي مثيلاً لأنواع الفاكهة والخضر المتوفّرة في تركيا في أيّ مكان آخر، ولو فرنسا؛ إنّ طريقة تحمير الخضراوات في زيت الزيتون، وتقديمها طبقاً مُشهيّاً يشعر النباتيّ أنّه في الجنة؛ يُقال على سبيل الدّعابة: إنّ الرجل التركيّ قد يطلّق زوجته إذا أعدّت له الباذنجان بالطريقة نفسها مرّتين خلال شهر واحد؛ إشارة إلى غزارة الطرق والأفكار الخاصّة بتحضير الخضراوات في المطبخ التركي!

أجد كثيراً ممّا أشتهيه هنا؛ فأنا شخصيّاً أستمتع بالأطعمة السهلة غير المعقّدة، فطبق متواضع من أرز بالحِمص، مع شيء من اللبن الخثير الدّسم بنكهة محبّبة في أكثر الأماكن تواضعاً مثل مواقف الشاحنات، من أفضل الأطباق لديّ في العالم، أمّا الرّائب -شراب اللبن الخثير المفضّل لديهم جميعاً- فتناوله مع أغلب الوجبات يذكرني بإبريق لبن خثير مُخوّض، شربته وأنا طفلة على مائدة عشائنا في الغرب الأوسط، ما هو طعام الثاني المفضّل في تركيا؟ إنّها ثمرة خوخ مثاليّة مزعّبة كروية، مثل: كرة البيسبول؛ لن تعرفي مذاق الخوخ الطبعيّ الحقيقيّ حتى تذوّقي ثمرة خوخ في تركيا؛ فهي ناضجة كلّ النضج، مكتنزة، تداعب حلاوتها لسانك، وتتدفّق عصارتها؛ لتغمر مسامّ التذوق كلّها في فيك.

علاوة على الطعام بالغ السهولة، يستطيع المرء أن يجد لمحات من الأطباق المعقّدة، كانت تُعدّ في مطابخ قصر طوب قابي الراقية رقي السلطان المعدّة له؛ يوثق مؤرّخو الأطعمة المرموقون هذه الأطباق، وطرق إعدادها كي لا يغمرها النسيان، ولا شك أنّ الطرق الأقلّ تعقيداً لإعداد هذه الأطباق المتسرّبة إلى المطبخ التركيّ الحاليّ تمنح مستوى المتعة نفسه لعشرة ملايين أسرة في جمهورية تركيا، مثلما منحتها لكلّ بلاط سلطانيّ خلال إقامتك في تركيا العثمانيّة.

كلّ شيء صابح في هذا البلد، ثمرةً كان أم طيّحاً؛ إذ يمكنك أن تشعري بدفء الشجر في ثمار المشمش، وبقوالب طوب المخبز في قشرة رغيف الخبز؛ وطعام الأتراك متنوّع تنوّع الريف وسكّانه، يضمّ مجموعة واسعة من الأطباق المحليّة المنتشرة المعدّة بزهو، وهو طعام ذو نكهة قويّة، بدءاً من العسل حادّ الطعم، والجبن بالشوم نفاذ الرائحة، والبُسْطِرْمَة قويّة النكهة، وصولاً إلى الرائب الحامض اللاذع.

أخبرتكَ من قبل عن الطيّبات على مائدة الإفطار التركيّ، لكنّ الأتراك يتألّقون غالباً في موائد العشاء، وأقوى شاهد على ذلك مقبّلاتهم التقليديّة، وكثير من الأطباق الصغيرة في بداية الوجبات؛ فهذه الأطباق بمنزلة صورة فوتوغرافيّة صغيرة للبلاد بأسرها، أطعمة شهية متنوّعة تغريك دوماً لتناول المزيد.

يعجبني اشتراك الأتراك في تناول مقبّلاتهم؛ إذ يأكلون من الطبق نفسه، يُوضع كثير من أطباق المقبّلات على المائدة، قد تصل أحياناً إلى اثني عشر صنفاً، يتشاركون فيها جميعها؛ الأمر الذي يغرس حسّاً فطريّاً تربويّاً بأهميّة روح الجماعة.

الأتراك يحبّون الطعام، ويأكلون بشهية كبيرة، ويضعون كثيرًا من الملح في طعامهم؛ بعضهم قد يضع تلقائيًا عشر رشّات من الملائحة لأيّ طبق أمامه دون تذوّق أو تردّد، ويتمتع الأتراك بحماسة وطنية، لا تبدّى لدى رؤية علّمهم الخفّاق ذي الهلال فحسب، بل تظهر أيضًا على المائدة؛ كان لي صديق تركي لم يسافر خارج البلاد قطّ، وكنت مقيمة في فرنسا وقتئذٍ، فأضيت وقتًا طويلًا أصف له جمال فرنسا ومباهجها، وأغلب هذه المباهج يتجلّى طبعًا في المائدة الفرنسيّة، وكنت أحلم بالوجبة التي سأعدها له إذا حضر لزيارتي في باريس؛ وفي أحد الأيام بدأت أصف له مدى سعادتي عندما سأطهو له أوّل وجباته الفرنسيّة، ثمّ مضيت أتحدّث عن الأصناف في قائمة الطعام: "سأعدّ لك صنفًا خاصًا... سنبدأ بسوفليه بالجبن، تليه شرائح السلمون مع السبانخ، والطبق الرئيس شرائح الدجاج مع الصلصة، تليها سلطة الخسّ الصابح، وطبق الجبن المشكّل، والحلو شوكولاتة، هذه هي القائمة!" حقًا كاد لعابي يسيل لمجرّد التفكير في القائمة وسعادتي وأنا أعدها له، وهي من أهمّ علامات الحبّ التي أعرفها؛ بدت على وجهه نظرة انزعاج، وصاح: "دعيك من هذا! لا أريد هذه الأطعمة! أريد أطعمة تركيّة فقط! فهي الأفضل، والأطباق الأخرى كلّها لا ترقى إلى مستواها!"; تعلمت من هذا الدرس المؤلم أنّ بعض الأتراك لا يحدوهم الفضول للتعرف إلى أطعمة الثقافات الأخرى، ويعدّون مائدتهم مقدّسة؛ فرجل لا يرغب في أن أطهو له وجبة فرنسيّة، لم يكن بالطبع جديرًا بأن أحرص على حبّه؛ فيبدو أنّ الدجاج بالكريمة لا يمكنه التفوّق على الكباب؛ فانتهت قصّة حبّ بسبب الطعام التركيّ.

يُقال: إنّ أعظم موارد تركيا الطبيعيّة هي قدرتها على كفاية شعبها، وعدم حاجتها للاعتماد على أيّة أغذية مستوردة، وهذا الاحتياطيّ قد يتضح

في نهاية المطاف أنه أهم من البتروكيماويات أو الفحم، فضلاً عن ذلك، فالطعام يمنح الأتراك فرصة جيدة للزهو بما يشتهرون به من حسن الضيافة.

وصفت -يا سيّدة ماري- طقوس العشاء خلال زيارتك للسيّدة حفصة: "قدّمت لي وجبة عشاء من خمسين طبقاً من اللحوم، وُضعت على الطاولة واحداً تلو الآخر تبعاً لتقاليدهم..."؛ ولا تزال هذه الأطباق تقدّم حتى اليوم واحداً تلو الآخر، لا في شكل حصص مثلما يحدث في أوربا، بل من خلال طقوس طويلة تمهيداً للصنف التالي.

حينما نزلتُ ضيفة على عائلة حدّثتك عنها في رسالة سابقة، اعتقد أنني عُولمت معاملة لا تقلّ فخامة عمّا تلقّيته من معاملة في منزل السيّدة حفصة؛ ففي جوّ الحديقة المنعش تحت التعريشة قدّم لي "فطائر اللحم" المعدّة منزلياً، مع الخبز الصابح، تلتها سلطة شرائح الطماطم الصابحة والقّاء، بالإضافة إلى فاصوليا بيضاء بالصلصة، ثم ظهر الطبق الرئيس من شرائح لحم الضأن الدقيقة، في سَمَاكة الورق، مشوية مع الفلفل الأخضر إلى جانب الأرز، مع مشروب صودا البرتقال، تلا ذلك طبق الحلو من كعك الشوكولاتة المرشوش بالبندق والفسق الجريش، لكنّ الوجبة لم تنتهِ بعد؛ فقد رُفِعت المائدة وأعدّ الشاي؛ وإذا بإناء ضخّم لإعداد الشاي بالإضافة إلى عشرة أطباق فيها مختلف أنواع المكسّرات، والفواكه المجفّفة، والمشمش، ثم زارنا بعض الجيران، وسرعان ما ظهرت صوانٍ ضخمة من الفواكه الصابحة، وقدّم لكلّ ضيف طبق فيه قطع شَمَام، وبطيخ، وعنب، وكُمشري، وتفاح! ربّما هذا ليس كالخمسين طبقاً التي قدّمتها لك السيّدة حفصة، لكنني أوكد لك أن حسن الضيافة لم ينقص عمّا وصفته.

كثيراً ما تكون الخدمة في المطاعم بالغة الرقيّ، تتضمّن استعراضاً مبهرًا لخفّة يد النادل خلال تبديل الأطباق وأدوات المائدة مع تنابع

تقديم الأصناف، وإذا نهضت لحاجة أثناء الوجبة، فستعودين دائماً لتجدي مندليك مطويًا، والكراسي منسقة، والمائدة خالية من فئات الطعام، وكأسك مترعة.

لدى الأتراك عادة تتطلب الاعتياد عليها، لكنّها نابعة من الاهتمام الأصل؛ إذ لا يليق في الثقافة التركيّة ترك الطبق فارغاً أمام الضيف؛ لذا سوف تلاحظين كثيرًا رفع طبقك من أمامك وأنت على وشك تناول اللقمة الأخيرة، وشوكتك أو ملعقتك في الهواء، وكثيرًا ما تقدّم لك الأطباق مرتبة على غير ما طلبت، مع استبدال بعض الأطباق، وتقديم أطباق لم تطلبيها، كما حدث معي من قبل؛ فالنادل يعرف دومًا الأفضل لك بغض النظر عما طلبت! عندما يفتح النادل زجاجة مشروبات غازية، يعيد السدادة على الفور إلى مكانها، أو يسد عنق الزجاجة بمنديل مائدة ملفوف على شكل مروحة رائعة، ومهما حاولت إقناعهم، سيؤكدون لك أن ترك الزجاجة مفتوحة لا يليق.

تزعم فرنسا أنّ لديها ستّ مئة نوع من الجبن، وهذا صحيح إلى حدّ ما، لكنّ الأتراك أيضًا يمكنهم أن يفتخروا بما لديهم من تشكيلة واسعة من أنواع الكفتة والكباب؛ فهم مهرة بالفطرة في الشّيّ بالسفايد، والسّلق، والشّيّ على الفحم؛ فثمة ما يزيد على مئتين وواحد وتسعين نوعًا مختلفًا مذهلاً من أطباق اللحوم، مثل: اللحوم المشوية، أو المسلوقة، أو المقلية، أو المطهية على مهل أو المحمّرة أو النيئة، ويحمل كثير من أنواع الكباب والكفتة اسم المنطقة التي يعدّ فيها، وهذا دليل آخر على تفاخر الأتراك بالأمّاكن: (إزمير، أكتشابات، إينا جول، تكيرداغ، هاربوت، توقات، أضنة، بّيتي)، بينما تشير أسماء لأنواع أخرى إلى طريقة طهوها، أو مخترعها (الصلصة، كُبيّة مشوية على الفحم، مدوّرة "لحم الشاورمة"، ساطور

من تراقيا، كباب إسكندر، بيتي، تشاغ من إرضرورم، فرن التندور، كباب علي نازك من وان)، وتحمل أسماء أخرى بعض المكوّنات الخاصّة (سردين، أنشوفة)، أو تحمل أسماء تتضمّن تشبيهات، مثل: "الصغيرة"، و"الأفخاذ المكتنزة"، و"رؤوس الطيور"، وفي الختام لا بدّ أن أستوضح مسألة لغويّة تتعلّق بالطعام؛ إذا أراد أحدهم أن يقول: "أنا جائع"، فلماذا تُصاغ الجملة دائماً بالزمن الماضي؟

كلّما شعرت بالقليل من التعب، أو الحزن، أو الكآبة، أو اعتلال المزاج في موطني بمدينة نيويورك، أدركت تماماً ما يجب عليّ فعله؛ فأحضر لحم الحَمَل، وباذنجانة، وبصلة، وبعض حبّات الطماطم، ثمّ أشرع في العمل؛ فأثار الكباب العلاجيّة مذهلة؛ حينما أقشّر ثمرة الباذنجان الأرجوانيّة، أفكر في الشمس الحارّة فوق سهول الأناضول تلفح قشرتها، وحينما أقلي قطع اللحم وشرائح البصل في الزُبْد حتى تنبعث منها رائحة شهية، ترتفع معنوياتي مع تصاعد البخار، وهكذا يا سيّدة ماري، حينما أطهو وجبة تركيّة، أفكر في وفرة الأطعمة المميّزة للمائدة التركيّة، لا سيّما وفرة الحبّ المنتشر حولها؛ لم أشعر، ولا أشعر، ولن أشعر أبداً بالجوع في تركيا.

صديقتكم

قدريّة براننج



مخبز في كارس



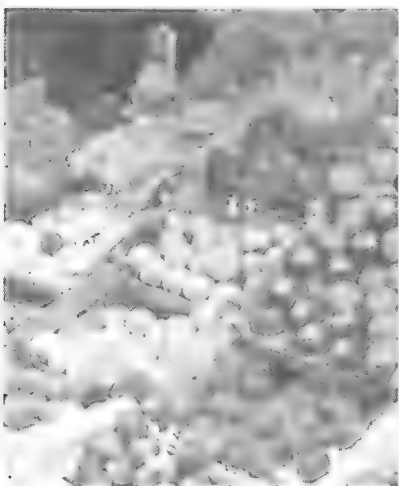
فواكه مجففة، سوق ساماتيا في أنقرة



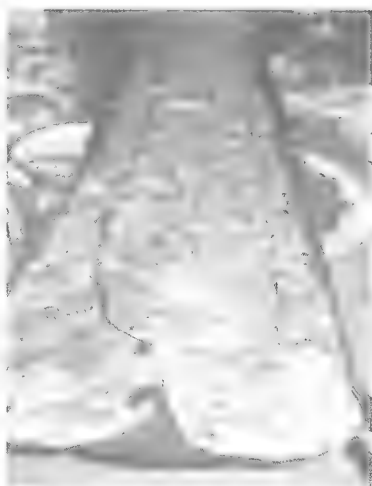
قالب نقش الخبز في إسطنبول



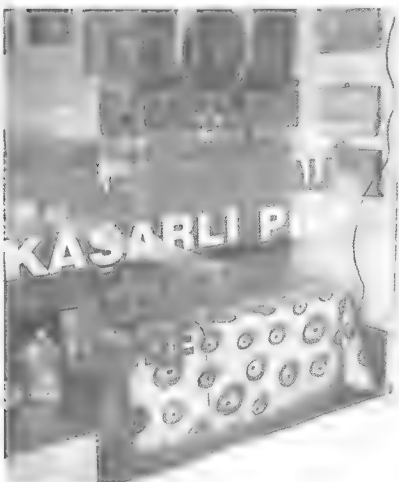
بطيخ ديار بكر



الخضراوات الشتوية في سوق أورتاكوي



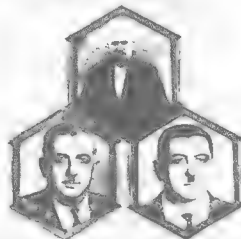
وجبة الخبز باللحم المشهورة بها قونيا



استراحة لتناول الإفطار في نيكوي

KEBAPÇI İSKENDER

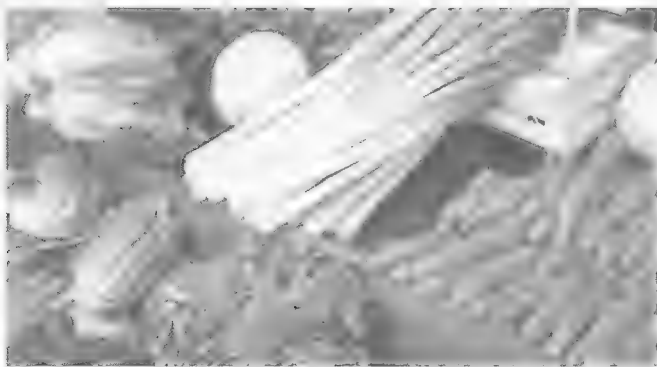
Kuruluş Tarihi: 1867
Kurucumuz



Ünlü Cad. No: 7 Bursa-Türkiye
Tel: (24) 21 46 15 - 22 37 79

أهم مطعم يعدّ كباب إسكندر المشهورة

به بورصة



الخضراوات الشتوية في سوق أورتاكوي



فواكه محفوظة في مطعم الحاج عبد الله في إسطنبول



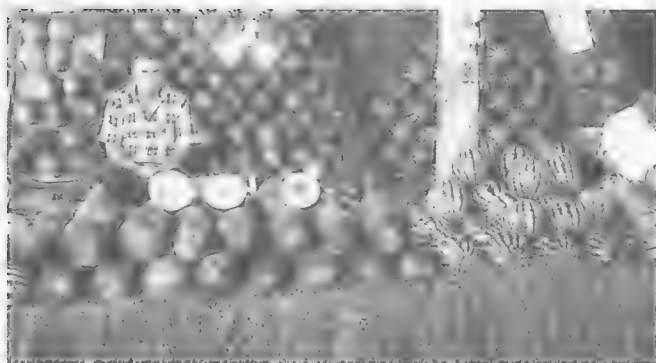
أضلاع لحم الحمل في قرية كافاك



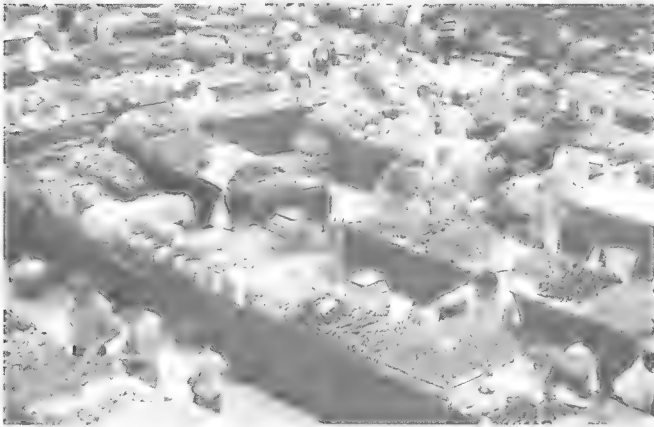
سوق السمك في أنقرة



تاجر المنتجات الجافة في تشوروم



تجار البطيخ والشمام في سوق بشيكتاش



سوق منتجات الملكة خاتون في قونيا



صالون حلاقة باتشا في أفشين

BOĞAZIÇI

Döner, Kebap ve Pide Salonu

Tel : 213 60 90

Yeni Çarşı Şadırvan Karşısı No : 29

NİĞDE



بائع معجنات متجول في أمين أنو



Mesurlat / Soft drinks	
Corba / Soup	
Iskender kebab / Foods with meat and onion	12
Sebzeli yemekleri / Foods with vegetables	
Zeytinyaglı / Foods with olive oil	12
Yaprak / Salads	
Mezeler / Appetizers	12
Special food / Special specialties	12
Yemek Yekunu / Eat TOTAL	
İÇKİLER — DRINKS	
	12
	12
İÇKİ YEKUNU / DRINK TOTAL	12
KDV DAHİL YEKUN — TOTAL	12
İSKONTÖ — DISCOUNT (%)	12
Yalnız Bu Yekunu Ödediniz PAY ONLY THIS TOTAL	
GARSON MARCHUZU — WAITERS RECEIPT	

k Mat. GB. 3807d
 11 : 1990 11 Kodu : 05

Anlaşma Ta. : 25.12.1999

فاتورة من نادي مدينة أماسيا

الرسالة الحادية والعشرون

البصمة التركيّة

عزيرتي السيّدة ماري،

تؤكدين دائماً في رسائلك على ذوق الأتراك بالغ الرقيّ، على الرغم من اختلافه عن ذوقنا؛ إنّه ذوق يتغلغل في جوانب حياتهم كلّها، ويتمحور حول تلك العناصر الأربعة الشهيرة: الأسرة، الأصدقاء، الطعام، البيّنة الجميلة، ويؤثر فينا جميعاً بلا استثناء، وأنت قطعاً محقّة في قولك: "هؤلاء الأشخاص ليسوا جهلاء كما تصوّرهـم؛ فطبيعتهم مختلفة عن طبيعتنا..." لكنّ ثمة أمراً واحداً صغيراً في الثقافة التركيّة يبدو أنّه تسلّل من هذا الرقيّ الفائق، أطلق عليه اسم "البصمة التركيّة".

ثمة "بصمة" أخرى شهيرة أعرفها جيّداً، تسمّى "البصمة الفرنسيّة"؛ تشير إلى طابع الأناقة والتميز اللذين يضيفهما الشعب الفرنسي على منتجاته وإبداعاته كلّها من طراز الملابس إلى المطبخ، وأصبحت تعني أيضاً الأسلوب المتميّز الرفيع في لعب الرجي، لكنّ مفهوم "البصمة" في تركيا شيء مختلف تماماً؛ فالبصمة التركيّة في رأيي: طريقة تركيّة خاصّة لإضفاء نوع من القصور الطفيف -عن قصد أو غير

قصد - على ما يفعله الأتراك كلّهُ؛ فدائمًا ما تجددين شيئًا ناقصًا، أو يعوزه التناسب، أو خاطئًا تمامًا أحيانًا، وليس هذا بالأمر الجلل، فكلّ شيء يسير على ما يرام، لكنّ هناك دائمًا خللاً طفيفًا، أو نقصًا، أو نقطة ضعف، أو غرابة، أو التباسًا؛ الأمر أشبه ببيت شعر مكسور أو كلمة غريبة مفاجئة تلفت نظرك، وتجعلك تفكرين على نحو مختلف فيما يحاول الشاعر أن يقوله؛ يخبرني أغلب الأتراك أنّ هذا الأمر ليس متعمّدًا، لكنّه قد يكون كذلك بدرجة ما؛ فالأتراك يصابون بالانزعاج حينما يبدو كلّ شيء شديد المثاليّة، والحياة ليست مثاليّة، وكذلك ينبغي أن يكون ما حولنا كلّهُ؛ الكمال لله وحده؛ فيجب ألاّ نغفل عن ذلك، ومن ثمّ علينا أن نظّل متواضعين، وألاّ يتأبنا الكبر؛ هكذا أفهم طريقة عمل البصمة التركيّة؛ فكانها صلاة سهلة لتمجيد عظمة الخالق.

نشأت في ثقافة تسعى جاهدة لتحرّي المثاليّة فيما تفعله كلّهُ، سواءً في الرعاية الطيّبة، أو طراز الملابس، أو خدمة العملاء، أو إرسال أشخاص إلى القمر، أو إجراء عمليّات لأطفال الأنابيب؛ لهذا يسهل عليّ اكتشاف هذه البصمات التركيّة؛ فهي بارزة بروز مصابيح متوهّجة حينما تراها عين غربيّة دقيقة، لكنني سرعان ما تعلّمت ألاّ أطلق عليهم الأحكام، أو أزدريهم؛ لأنّ السبب لا يرجع إلى نقص في المهارة، أو الاهتمام، أو الدقّة في المنتج النهائي؛ فأية حضارة تستطيع أن تنجب مهندسًا معماريًا مثل سنان وغيره من أبرع الحرفيّين، يمكنها بلا شكّ أن تميّز بين الخطأ والصواب، غير أنّ المرء لا بدّ أن يظّل متواضعًا، مخلصًا إنسانًا؛ فنحن جميعًا نرتكب الأخطاء، أليس كذلك؟ إذاً ها هي ذي الأخطاء تُرتكب كلّ يوم في كلّ شيء، ظاهرة للعيان كي تذكّرهم بذلك؛ هذه هي الحياة على كوكبنا، وحولنا، في منازلنا، في قلوبنا.

تتجلّى أكثر الأمثلة تقليديّة وقدمًا على البصمة التركيّة في السجاجيد؛ إذ يتعمّد النساجون ارتكاب أخطاء بالغة الصغر في عملهم؛ كحياكة

غرزة من لون مغاير، أو تعمّد تعرّج الحافة، أو الإبقاء على كتلة صغيرة من العقد الغريبة، وهذه تذكرة خفيفة بأننا نعيش في العالم الحسيّ، لا العالم الروحانيّ المثاليّ للخيالات والأحلام.

تظهر أوضح البصمات التركيّة في الترجمة الخاطئة المضحكة كثيرًا، المنتشرة في الإشارات وقوائم الطعام، والكتب المدرسيّة؛ فربّما يَفْزَع المرء ويرفض تناول بعض ما تحويه قوائم الطعام بسبب المكتوب فيها، على سبيل المثال: سأذكر لك ترجمة السطر الأول من أفضل كتب تاريخ الفنّ التي قرأتها في حياتي - لن أخبرك بعنوان الكتاب حتى لا أجرح مشاعر الكاتب، أو المحرّر: - "إنّ حضارة أسلاف الأتراك جعلت فنّ العمارة متواصلًا، مؤلّمًا؛ عبارة كهذه تصرفك بالطبع عن قراءة ثلاث المئة والخمسين صفحة الباقية، وبعد مرور عشر سنوات طويلة، مكلفة من ترميم مسجد بايزيد باشا في مدينة أماسيا، ما زالت لوحة بيانات المسجد المكتوبة باللغة الإنجليزيّة تعجّ بأخطاء فادحة؛ ما قولك في هذه العبارة في كتيّب السيّاح التركيّ، الرسميّ، الصادر عن حكومة مدينة قهرمانماراش، تصف طيب مذاق مثلجاتهم الشهيرة بالكلمات التالية: "السحلب يجعل الحليب متماسكًا، وعملية خفق المثلجات تجعلها صلبة؛ هل يبدو هذا الوصف شهياّ!

من المثير للسخرية أن تظهر بعض أغرب الأخطاء في بعض أشهر الأماكن وأهمّها، من قصر طوب قابي إلى فندق الهيلتون، وعلى ضوء خبرتي السابقة في الترجمة، استأذنت ذات مرة أحد موظفي الشؤون الثقافيّة التركيّة أن أقدم خدماتي بوصفي محرّر أو مراجعة للكتيّات والمطبوعات الرسميّة، وأخبرته أنّ الدولة تنفق أموالًا طائلة لإصدار هذه الدعاية، المصمّمة لجذب الأجانب لزيارة تركيا؛ لذا سيكون من الأفضل أن تصدر بلغة إنجليزيّة صحيحة راقية، فحملق إليّ مندهشًا، وأجاب قائلاً: "أنت لا تفهمين! نحن الأتراك لا نريد للأشياء

أن تكون مثاليّة! هذا ليس من شِيمِنَا!؛ حاولت أن أوضح له أنّ الجمهور الذي يستهدفه ربّما لا يتفق معه بالضرورة في الرأي، لكنني لاحظت أنّ حديثي أزعجَه، فلم أسهب في الكلام؛ بالفعل يبدو أنّ الأتراك لا يريدون أن تكون الأشياء مثاليّة؛ لأنّ هذا يتعبهم، ويزعجهم، تمامًا مثلما تسببت حماقتي في إزعاج ذلك الموظف.

يحمل عالم العمارة أمثلة جليّة تعكس البصمة التركيّة في أوضح صورها؛ فطريقة التركيب للوحات مفاتيح الإضاءة في تركيا خير مثال على ذلك؛ إذ نادرًا ما تكون اللوحات رأسيّة تمامًا، بل دائمًا ما تجدها تتحرّك في مكانها بمقدار عشر درجات إلى اثنتين وعشرين درجة، ويمكن أيضًا رؤية البصمات التركيّة في طريقة تركيب البلاط المعوّج، أو المقلوب أحيانًا - رأيت بلاطًا مزخرفًا بعناقيد عنب تتدلّى بالمقلوب -، وتظهر البصمات التركيّة في الشقوق الظاهرة بين عشيّة وضحاها في أرضيّة رخاميّة حديثة، أو في جدار مجصّص، وتظهر في شدة ميل الممرات المنحدرة المخصّصة للمعاقين، حتى إنّها قد تسبب في موتهم، وفي أنظمة الأساقيل المربعة المستخدمة في مشاريع البناء أو الترميم، وفي صندوق طرد المرحاض المتعطّل حينما تريده أن يعمل، ثمّ يُصدر في منتصف الليل هديرًا صاخبًا من تلقاء نفسه، فيوقظك، ويغمر أرضيّة المنزل بالماء، ويفسد حذاءك.

يمكنك رؤية البصمة التركيّة في أرجل الطاولة مختلفة الأطوال دائمًا، وفي الرخام المقلّد للمحراب المطليّ بالأرجوانيّ، والأزرق السماويّ، والوردّي، في مسجد حاجي أوزبك في مدينة إزنك، أو في أنابيب الفلورسنت المبهرة المحيطة بمسجد إيلي كجي في مدينة قونيا، فهي تشبه أضواء ممر مهبط الطائرات، وفي الحافلات الواجب تحركها في وقت محدّد، ولا يهتم أحد بمرور ساعتين دون أي إشارة تدلّ على أنّ الحافلة ستتحرك، وكلّ ما يفعلونه جميعًا هو طلب عدد لا نهائيّ من أدوار الشاي.

تظهر كذلك في رحلات الخطوط الجوية التركية؛ كانت في الماضي تلغى دون سابق إنذار، ودون أن ينزعج أحد؛ لأنه لن يلحق بالطائرة من محطة تالية إلى باريس.

تظهر تلك البصمة في القمصان القطنية تنكمش بعد غسلها أول مرة، فضلاً عن أن أصباغها تنطبع على جسمك، وتنفوخ من الجلد رائحة الحيوانات؛ وفي الأحذية البلاستيكية الرخيصة اليابسة جداً حتى إنها تتشقق بعد ارتدائها مرة واحدة، وفي الكلاب الهجينة الجرباء تجوب المنطقة الرائعة المحيطة بقلعة سيتا في قونيا، وفي القطعة تدخل أرقى المطاعم، وتتمسح بأرجل رؤاها، وفي الدلاء البلاستيكية على السلم الضخم تحت أكبر ثريا في العالم في قصر دولما بهجة كي تتجمع فيها قطرات المطر المتساقطة من السقف، وفي البقرة المتجولة حول مسبح لأحد الفنادق ذات النجوم الخمسة كي تلوك النباتات المزروعة في أضص الزهور، دون أن يهتم أحد بإبعادها عن مقاعد رؤاد المسيح.

عالم السياحة والفنادق غني بالبصمات التركية، قد يكون عادياً أن ترى إحدى البصمات التركية في الفنادق الصغيرة المتواضعة في المناطق الريفية، لكن المفاجآت كثيراً ما تكون مخبأة في المنشآت الفاخرة ذات النجوم الخمسة؛ ففي تلك الفنادق في الأناضول لا يتحدث موظف الاستقبال أي لغة أجنبية، ولا يعرض التلفاز سوى قناة واحدة فقط، وترى البصمات التركية أيضاً في فندق مصاعده كلها معطلة في الوقت نفسه، ولا يبدو أن أحداً منزعج أو يشتكي، وفي أجنحة فندقية مزودة بمناشف وملاءات تركية فخمة مثقبة، وحذار ثم حذار من تلك الطيات الخطرة في سجادة حجرة الطعام، فهي تعرقل شخصاً واحداً على الأقل يومياً، وتظهر البصمات التركية كذلك في رقم الحجرة المكتوب يدوياً الملصق بشريطة لاصقة شفافة على مفتاح الباب، وفي المسمار الضخم المثبت في الجدار لتعليق مجفف الشعر في غرفة الملابس بمنتجع أحد

الفنادق الراقية، وفي شاشة المصعد تعرض الرقم ثلاثة عند الوصول إلى الطبقة الثانية، وفي مكالمات التنبيه في حجرتك عند الخامسة صباحًا، رغم أنك لم تطلب إيقاظك، وفي أنصال السكاكين المثلمة وبرادات الحجرات الحارة، وفي شجرة عيد الميلاد البالية، الملتوية، المزينة بكرات ثلج اصطناعية في بهو الفندق شهر يوليو/تموز!

تنتشر البصمات التركيّة بوفرة في الشوارع؛ تجدها في الأسلاك الكهربائية المتدلّية من بناية إلى أخرى، وتكاد تلامس رأسك -سجلّت محافظة كارس رقمًا قياسيًّا في هذا المشهد خاصّة-، وفي مكّنات الصرّاف الآليّ المعلّقة عاليًا على الجدار، حتى إنّها تجعل شخصًا مثلي طوله ستّ أقدام مضطرًّا للوقوف على كرسيّ -يُوضع إلى جوار المكّنات تفضّلًا-، وفي نخلة صناعيّة تتلألأ بأضواء النيون في مواقف سيّارات المدينة أثناء العواصف الثلجيّة، وفي بساتين الزهور أمام المتاحف الوطنيّة في صفائح زيت الزيتون المعاد استخدامها.

تظهر البصمات التركيّة المفضّلة لديّ في الخرائط المبتكرة توزّعها المكاتب السياحيّة الرسميّة، مرسومة يدويًّا بطريقة محبّبة، لكنّها غير واضحة إلى درجة مزعجة، وغالبًا تكون معكوسة تمامًا؛ فتجعل تجربة اكتشافك للشوارع في المدينة أقرب إلى رحلة "أليس في بلاد العجائب"؛ ذات مرة تلقّيت إحدى هذه الخرائط الشاحبة في مكتب للسياحة في بورصة؛ فتشجّعت، وسألت الموظّف إذا كانت لديه خريطة أخرى أفضل حالًا كي أضعها في حقّيتي؛ لتساعدني في معرفة طريقي، فأشرق وجهه، واختفى بسرعة في سعادة، ثمّ عاد بعد دقائق يترنّح بخريطة مساحة أبعاد إطارها سبع أقدام طولًا وخمس أقدام عرضًا، رفعها من على جدار مكتب المدير، ووضعها بمشقة أمامي، وقال: "هل تفيدك هذه؟"

قد تظهر البصمة التركية أيضاً في اللمسات الرقيقة اللطيفة يديها الأتراك، وفي الزهور الصناعية المرصعة بقطرات ندى راتنجية (صمغية) في زهریات على طاوولات المطاعم كي تبدو كمائدة السلطان، وفي الملاعق والشوك الملفوفة بعناية في مناديل ورقية مربوطة بشريطة، وفي صور جبال الألب السويسرية المعلقة في المطاعم وسط السهول المترية، وفي ثمار البطيخ المنحوتة بجَعاً رائعاً، وفي بلاط الحمام المزخرف بورود زرقاء يزين الجزء الداخلي من الجامع الكبير بمدينة سirt.

قد تكون البصمة التركية متفاوتة ومذهلة، مثل: سماع الأذان في الرابعة وتسع دقائق صباحاً بمدينة كارس؛ لتسلّل إلى نفسي لذة موسيقية لا تزال تعتريني حتى الآن، أو مثل الأرصفة الرخامية الفخمة على جانبي شوارع مدينة أفيون الريفية المترية؛ وأخيراً تعلّمت أن هذه النقائص تمنح الأشياء والعالم من حولنا حياة نابضة، وصرت مثل الأتراك أشاركهم ولعهم بها؛ علّمني أن أكون أقلّ تدقيقاً، وتذمّراً، ونقدًا، وحينما أرى بصمة تركية غالباً ما أبتسم؛ لأنها مضحكة جداً أحياناً، لكنها دائماً ما تثلج صدري؛ إذ أستشعر يد الإنسان وراءها، إنه شخص تركي يعرف مكانه في النظام الكوني للأشياء؛ وهي تعلّمني ألا أبالغ في تقدير نفسي، أتعرفين لماذا؟ لأنه لا أحد كامل؛ لا أحد سوى ربنا العظيم.

صديقتكم

قدريّة براننج



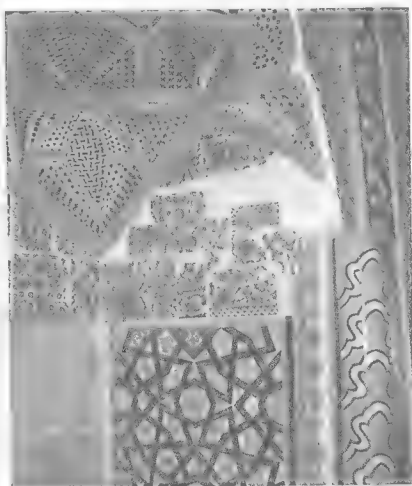
مطعم في سيلفان



لافتة بجوار المسبح في فندق فخم



قصر دولما بهجة



أعمال ترميم في قونيا



قاسطموني



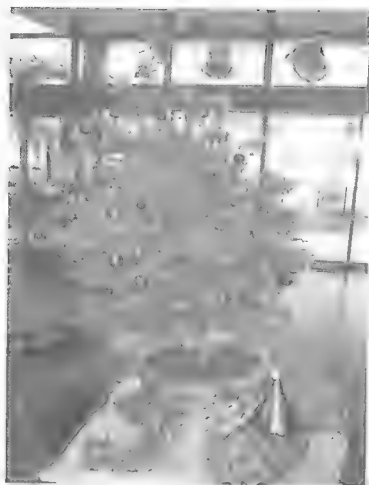
قاسطموني



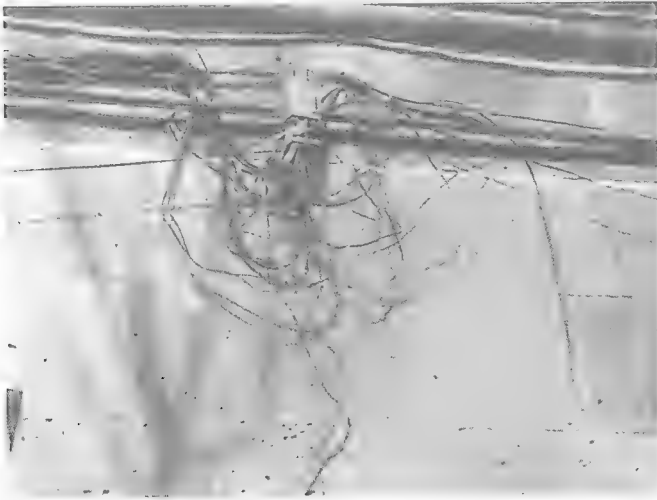
افسحوا الطريق



ممر للمعاقين



احتفالات عيد الميلاد في يوليو/تموز



كارس

coprunun kuzeydogusundaır Çelebi Mehmet Devrinde Amasya Valisi Beyazit
in 1414 yılında yaptırılmıştır.

plan şemasına sahip Zaviyeli camilerdendir. Son cemaat mahalindeki kemer
ve geometrik süslemeler ilgi çekmektedir.

BEYAZIT PAŞA MOSQUE

located northeast of the Künc bridge. At the reign of the Çelebi Mehmet it had
by the Amasya governor.

one of the mosque that reverse T shape corner. The archs, which are placed
rity, draw attention because of the geometric adorns and handworks.



إضافات، وأعمال يدوية

الرسالة الثانية والعشرون

سجادة من سبعين مليون عقدة

عزيزتي السيدة ماري،

كم أود أن نخرج معًا في نزهة بعد الظهر، ونركب زورقًا في البوسفور! نستطيع أن نرسو في أيّ مكان على ضفافه، ونبسط سجادة تركيّة نجلس عليها، ونستمتع باحتساء الشاي وتناول المعجنات والبَطِيخ، ونمتّع أعيننا بالمنظر الخلّاب، وعقولنا بحديث شائق؛ في الواقع لسنا بحاجة إلى زورق، أو إلى البوسفور كي نحظى بجلسة ممتعة؛ فأيّ مكان تبسطين فيه سجادة تركيّة، يتحوّل إلى روضة صغيرة تفيض بهجة.

تخبريننا في رسائلك بتفاصيل كثيرة عن الحياة اليوميّة في مختلف الفترات، منها طراز الملابس، والأثاث، والجواهر، والأطعمة، والعادات، والرقص، والموسيقى؛ هذا الاهتمام بالتفاصيل جعلك أحد الرواد لتأريخ الثقافة الحسيّة لحياة البلاط التركيّ في القرن الثامن عشر ولتدوينها؛ فإحساسك بالطراز رفيع جدًّا؛ تصفين سترات السلطان عند ذهابه إلى المسجد، والزيّ المزخرف لرئيسة حريم القصر، وزخارف الحواشي

في ملابس الحرس، والفساتين كلها لسيّدات البلاط اللائي زرتِهَن؛ بالطبع لا يمكننا أن نصفك بأنك كنت عالمة أجناس بشرية بالمعنى الحالي للكلمة، لكنك ولا شك مهّدت الطريق لعلماء الأجناس بإدراكك أهمية أن تدوّني تفاصيل الحياة كلها مهما كانت صغيرة فلا تمرّ دون ملاحظة؛ فراقبت بعناية، وأصغيت، ودوّنت، وبفضل رؤيتك للتفاصيل الدقيقة ألقيت لنا الضوء على صورة أوسع.

ذكرت -يا سيّدة ماري- ملاحظات عن فنّ العمارة والفنون أقلّ ممّا ذكرت عن الأنماط والأساليب السائدة؛ وربّما لأنني فتّانة، فهذه أول الأمور التي تلفت انتباهي، كلّما مشيتُ في شارع، أو دخلت حجرة، أو سافرت، لكنك حينما تتحدّثين بالتفصيل عن الجوانب الفنية، يكون نظرك ثاقباً كشأنك دومًا، أمّا عشاؤك مع السيدة حفصة، فقد وصفت مناديل المائدة الشاشيّة، الرقيقة، المطرزة بزهور ذهبيّة: "... شعرت بالأسف الشديد عندما استخدمت هذه المناديل النفيسة، المشغولة كأروع ما أنتج هذا البلد من مناديل على الإطلاق؛" ومضيت تصفين الأوعية الخزفيّة ذات الأغصان الذهبيّة الصلبة، والسكاكين الذهبيّة ذات المقابض المرصّعة بالألماس، وحوض الاستحمام الذهبيّ والمناشف المطرّزة، تصفين في إحدى رسائلك الأخيرة القصور الخشبيّة المبنية على ضفاف البوسفور وزخارفها:

"أرصفة بيضاء، وأسقف مذهّبة، وجدران مكسوّة بالخزف اليابانيّ، وألواح الخشب المصدّف المرصّعة بالزمرّد على شكل مسامير، وكلّ شيء مزخرف بقدر كبير من المرمّر، وأطباق الخزف من الأنواع كلّها، والجصّ الملون، وقدر الزهور، وإطارات النوافذ من أرقى أنواع البلّور مزينة بأروع رسوم الفواكه والزهور".

هناك رسالة من أكثر رسائلك حيويّة تركّز على فنّ العمارة أيضًا، تلك الرسالة تصفين فيها زيارتك لجامع السليميّة في أدرنة، بناء المعماريّ

الشهير سنان للسلطان سليم الثاني عام ١٥٦٩م؛ كنت محقة في قولك: "إن هذا المبنى جدير بالفعل بكل ذرة اهتمام يوليها له السائحون؛ إذ يعد بحق تحفة سنان الفنية، وقد اضطررت لارتداء زي تركي كي تتمكني من الدخول، ثم وصفت الجامع بتفاصيل دقيقة تتفوق على أوصاف لاحقة كتبها مؤرخو عمارة مُحَدَثُونَ؛ لم تغفلي عن معلّم واحد في هذه الرسالة الطويلة، بدءاً من ساحة الجامع إلى القباب، والرواق بأعمدته الرخامية الزبرجدية العتيقة، والارتفاع الشديد بفضل نظام القبة الواحدة، والأسوار الرُخامية، والسجاجيد الفارسية، والمنبر العظيم المصنوع من الخشب المذهب المنحوت، وبهو العبادة الخاص بالسلطان، والشموع البيضاء، والمآذن الأربع الشاهقة، ودفعك الفضول لصعودها! قد يتفق معك كثيرون في العصر الحاضر؛ فهذا أعرق بناء رأيتَه على الإطلاق، وقد أسعدني إعجابك بزخرفته خاصة، بدت لي الحوائط مطعمة بأحجار ألوانها في منتهى الحيوة على هيئة زهور صغيرة، لم أستطع تخمين الأحجار المستخدمة، لكنني لما اقتربت وجدتها مكسوة بخزف ياباني، يُضفي تأثيراً رائعاً، اندهشت لظنك الطلاء الثخين المزجج على بلاط إزنيك أحجاراً، وبهرني أنك استطعت تمييز الأثر الآسيوي فيها.

تصويرك لجامع السليمانية والقصور الخشبية دقيق جداً، ومفعم بالحياة حتى جعلني أشعر كأنني أشاهدها، وهو وصف أكثر إثارة من أي صورة فوتوغرافية، غير أن ما يدهشني قلة حديثك عن السجاجيد؛ فهل السبب أن السجاجيد التركية كانت مألوفة حتى إنك لم تشعر بالحاجة لوصفها؟ فالسجاجيد الراجعة إلى القرن السادس عشر المبسوطة في القاعة الكبرى -تلك السجاجيد العملاقة بحجم الغرفة كلها المنسوجة في مشغل بلاط السلاطين سليمان الأول، والثاني، ومراد الثالث- كانت قد انتشرت في إنجلترا منذ وقت طويل لتزين أرقى القصور الريفية، ولا شك أن بيت عائلتك "ثورسبي هول" ضمّ واحدة منها، رغم أنها مصنوعة

في المشاغل، إلا أنها رائعة، غير أنني أفضل السجاجيد الأصغر حجمًا، كالتي قد نأخذها معنا؛ لنجلس عليها في حفل شاي سنقيمه على ضفاف البوسفور؛ إنها سجاجيد تغزلها امرأة نساجة تجلس وحدها أمام نولها.

ينتج الأتراك بعضًا من أروع السجاجيد في العالم، ونادرًا ما يعود أحد زوّار تركيا من رحلته دون سجادة معه في حقييته، لكنّ السجادة للشخص التركي أكثر من بساط جميل يوضع على الأرضية؛ إنها قطعة فنية.

حينما نتحدّث عن الفنّ في الغرب، تتبادر إلى أذهاننا سلال الفاكهة، والسيدات العرايا، والمناظر الطبيعية المعلّقة على جدران المتاحف أو اللوحات المتهافت بعض الناس على اقتنائها بملايين الدولارات في سوق فنية محمومة، ويتبادر إلى أذهاننا جامعو القطع الفنية رفيعو الشأن المتعجرفون، أو المثقفون المتذوّقون للجمال، أو نجوم الفنّ، مثل: بيكاسو وماتيس، ويرتبط الفنّ في ذهن الغربيّ العاديّ بأنّه مدنيّ، دينيّ، تجريديّ، ثقافيّ، ذكوريّ، ينتمي للطبقة الراقية، يرتبط بوجه عام باللوحات الزيتية، لكنّ الفكرة مختلفة في تركيا، ومفهوم الفنّ لدى الأتراك يعني أيّ شيء يُصنع بمهارة عالية مع الاهتمام الشديد بالتفاصيل؛ لهذا فالمهارة التقنية والنظام لا يقلّان أهمية عن الإلهام والحدس.

الفنّ في تركيا مشاع؛ للشخص العاديّ، والقرويّ، والمدنيّ على حدّ سواء، والآتراك عمليون، وفنونهم عملية أيضًا؛ فيستخدمون العناصر المتوفرة حولهم، مثل: الجوز من الغابات الشمالية، والرخام من المحاجر القريبة في أفيون، والصوف المنسوج يدويًا من الغنم الحية، وأصباغ الخضروات والأعشاب، والصلصال الجافّ، ولا مجال للترف في الأعمال الفنية التركية؛ فمقدار الانتفاع هو الفيصل؛ إذ لا بدّ أن يكون الغرض عمليًا مفيدًا لا زينة فقط؛ فيصنعون قطعًا فنية أبدعها مجتهدون، يستخدمون الأدوات والإبر، ويجلسون أمام النيران والأنوال.

تشكل الحرف اليدوية أساس الفن التركي، وتتضمن فن الخط، وأشغال الصدف، وفن ترخيم الأوراق، والنسيج، وصناعة الجلد لعمل المعاطف والسروج، وتطوير الحوائف، وصنع اللباد، والحياكة، والتقطيب، والفخار، ومشغولات النحاس، وصناعة السلال، والتجارة.

يبنى الأتراك بيوتاً من الخشب والصخر وألواح البلاط، وينسجون الملابس والمنسوجات المنزلية، ويستخدمون حبيبات الخرز الزجاجي لزينتهم أو تزيين سروج دوابهم، وينقشون الملاعق الخشبية؛ ليأكلوا بها أصناف اليخنة والحساء الشهية؛ والعناصر الزخرفية عندهم مستمدة إما من عالم الطبيعة -وأحبها إليهم الزهور والطيور- أو من الرموز الحسائية والفكرية لعلم الهندسة.

يكن الأتراك مشاعر قوية لبلادهم، وعوائلهم، ودينهم، وحرفهم، ويعتقدون أن البراعة والمهارة عنصران رئيسان للفن، ويقدرّون الأهمية الدينية والتاريخية للزخارف التي يستخدمونها، ويحاولون أيضاً إضفاء نوع من القداسة على فنهم من خلال جعله أروع ما صنع بشر وأكمّله؛ لأن المهارة تمجيد لله، ومن الملاحظ أنهم يتسمون بالجرأة والصراحة في عملهم؛ لذا تجد فنهم أشبه بطعامهم: مباشر، يخلو من التفاهات، مستمد من تراثهم ودينهم وثقافتهم الإقليمية، وهو تراث بالغ الأهمية حتى إنهم يفخرون بإعادة تقديمه مراراً وتكراراً؛ وهدف الفنان التركي في الواقع واضح جداً؛ إذ يريد صنع قطعة جميلة باستخدام أفضل مهاراته، قطعة تعكس حبه لله ولعائلته، وتنفع الآخرين؛ الأمر بهذه السهولة.

لماذا اختار الأتراك السجاجيد، واختار الفرنسيون الطعام والطراز، واختار الأمريكيون الموسيقى، واختار الإيطاليون السينما، واختار البريطانيون الحدائق؛ ليعبروا من خلالها عن هويتهم الثقافية؟ لا أدري! لكن الفن تعبير عن الإنسان، ويظهر على نحو مختلف في كل ثقافة؛

إنّه تعبير عن الثقافة الحسيّة لعصره، وانعكاس لزمان بعينه، ومكان بعينه، وثقافة بعينها، ورؤية الفنّان المبتكر؛ يمكنك أن تكتشفي كثيرًا عن تركيا بالنظر إلى مصنوعات الأتراك، وفي اللحظات الحزينة التي أظنّ فيها أنني لن أفهم أبدًا لغتهم المنطوقة، تكون لغة أعمالهم، لا سيّما السجاجيد، مفهومة تمامًا، وتجعلني أكثر قربًا منهم.

كم يعجبني فنّهم الجامع بين احترام التقاليد والسعي إلى التغيير والنموّ في الوقت نفسه؛ لطالما جعلتني الطريقة التركيّة السلسلة في مزج القديم بالحديث في أمور الحياة اليوميّة أشعر بالراحة هناك؛ فالأطلال الرومانيّة جوار المدارس السلجوقيّة والأسوار البيزنطيّة والفوّارات العثمانيّة، والحدائق والأزهار تزدهر جانب الجدران الخرسانيّة، والطرق السريعة تزاحم الجسور والقنوات القديمة؛ مزيج يتناقض فيه ضجيج الشوارع مع سكّون المنازل، وتقع فيه الأماكن التجاريّة والأضرحة جنبًا إلى جنب، والمجال واسع هنا لسماع الأصوات الفنيّة المختلفة كلّها واحترامها، تمامًا كما يحدث وقت الصلاة، فالجزء من الثانية الفارق بين بداية أذان وآخر، واختلاف طبقات أصوات المؤذنين تمتزج ل تمنح العبارة الواحدة أصواتًا مختلفة؛ فيكون كصدى صيحات طيور النورس المحلّقة في سماء ميناء أمين أنو؛ ينطبق هذا الاحترام للقديم والحديث على حرفهم؛ فهي تمثّل فنّ الأتراك؛ فكلّيات الفنون الجميلة التي تعلّم النحت والرسم في الغرب لم تترك في الأغلب أثرًا يُذكر في تعبيرها الفنيّ.

الأتراك يقدّرون جدًّا من يعملون بالخشب، ويجدلون السّلال، وينسجون الصوف؛ فلا فرق بين الفنّ والحرف هنا؛ فالحرف كلّها فنون؛ ثقة الأتراك في رسالتهم الفنيّة - بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى - من أقوى عوامل جذب تركيا لي شخصيًّا بوصفي فنانة حرفيّة.

احتدم الصراع في الغرب بين الفنون والحِرَف على مدار الثلاثين عامًا الماضية، ولم يبدأ في الخمود إلّا في الوقت الحاضر؛ كان "الفن" يُعرَف عادة بأنّه أيّ شيء يُبتكر للتأمل الجماليّ خصيصاً، بينما اعتمد تعريف "الحرفة" على وظيفتها النفعيّة في المقام الأوّل، وظلّ علماء الفنّ ومؤرخوه يناقشون طويلاً هذا الفرق، حتى تمكنوا في النهاية من التوصل إلى قاعدة مشتركة مريحة، والمتاحف الفنّية الكثيرة المنشأة في الغرب خلال العشرين عامًا الأخيرة والمخصصة للفنون القديمة خير دليل على ذلك، لكن ما زالت هناك آثار للتمييز بين الاثنين، وبوصفي من فنّاني صناعة الزجاج، يجب أن أستخدم يديّ في التعبير بقوة وبراعة، وحينما أحذق في قطعة مصنوعة بيديّ فنّان تركي، أستطيع أن أرى آثار يديه القويّتين أيضاً؛ ولعلّ هذا سبب انجذابي لتركيا؛ فهي أرض غنيّة بالفنّانين الحرفيّين البارعين المدركين أنّ التفوّق الفنّي يكمن في المزج بين الجمال والمنفعة، وحينما تُصنع قطعة بموهبة، ومهارة، وإخلاص، وحبّ، فإنّها تصبح قطعة "فنّية".

عندما أصنع زهرية أو كوباً من الزجاج، تتاح لي فرصة للتعبير عن الإبداع والمهارة والعمل الجادّ، والأترك أيضاً يفكرون بهذه الطريقة؛ فأعمالهم مصنوعة بعناية وحبّ، وهذا ما يميّزها عن المنتجات جملة؛ فهناك عين تزن القطعة، ويد تلمسها، فتعكس الإرادة والروح الفرديّة، وأحياناً تحمل البصمة التركيّة بالغة التميّز، ويعتقد الأتراك أنّ الفنّ ينبغي أن يظهر في الأنشطة اليوميّة جميعها، من صبّ الماء إلى نقل الخضراوات وتقليب محتويات القدور؛ فيضفون جلالاً على أنشطة الحياة اليوميّة، ويملؤونها سموّاً، وجمالاً، وروعة.

نجد في نهاية المطاف أنّ مسعى فنّاني "المشغولات" وفنّاني الفنون الجميلة واحد؛ نسعى جميعاً إلى الإبداع، ونبذل من أنفسنا في فنّنا من خلال تنمية مهارتنا، ونحن فضوليّون نتحدّى الحالة الراهنة؛ لنتجرأ،

ونحلّم، ونحاول أن نتعلّم من أعمالنا، ونعتقد أنّ عملية الإبداع أهمّ من المنتج النهائي، ونحاول أن نفهم الفنّ العميق الكامن فينا، ونعطي أهميّة خاصّة للعين الثالثة بداخلنا؛ يمكننا أن أرى انعكاسات هذه المساعي كلّها، حينما أنظر إلى سجّادة أو ملعقة خشبيّة تركيّة، وأشعر في كلّ زهرة ساحرة مرسومة على طبق من إزنيك بمشاعر حبّ الطبيعة وعناصرها الغنيّة المتمترجة بالألوان التي يشعر بها الأتراك كلّهم، وأشعر مع كلّ انحناءة للخطّ العربيّ بقلب يتّجه إلى الله، وأرى في كلّ عقدة منسوجة وجه امرأة تركيّة، وأشعر بدفء مشاعرها وابتهاجها بالحياة.

يا لها من عقد! من بين الفنون التركية كلّها أجدني منجذبة انجذاباً خاصّاً إلى هذه السجاجيد الغنيّة بالألوان؛ فالعقد في السجاجيد تتحدّث إليّ بقوة الكلمات، تماماً، مثل تلك الأحجار الذهبيّة التي حدّثك عنها من قبل، وأخبرتني في بداية هذه الرسالة يا سيّدة ماري أنّي أميل بوجه خاصّ إلى القرى الصغيرة والسجاجيد البدويّة، يمكن أن نأخذها معنا لنجلس عليها على ضفاف البوسفور في نزهتنا؛ لا أتحدّث عن السجاجيد الضخمة في القاعات الكبرى العائدة إلى القرن السادس عشر؛ إذ تختلف اختلافاً تامّاً عن سجاجيد القرى؛ فتلك من صنع الذكور تحت إشراف البلاط، وتأثّرت إلى حد بعيد بالعناصر الجماليّة الفارسيّة؛ إذ كان النّساجون ينفّذون رسومات متقنة رسمها فنّانو البلاط، لكنني أتحدّث عمّا أسميه "السجاجيد السحرية"؛ سجاجيد تُصنع في القرى الصغيرة أو القبائل البدويّة، وأغلب النماذج الرائعة الباقية حتى الآن كانت قد نُسجت في الفترة بين عامي (١٨٥٠م - ١٩٢٥م) باستخدام أصباغ طبيعيّة مستخرجة من الخضراوات، ولا تزال ألوان هذه السجاجيد تشعّ حياة كيوم نُسجت، ولا تزال ألوانها وأشكالها تُلهِم النّساجين اليوم، ومنذ القدم حتى اليوم تشارك مختلف الأيدي السحرية في صنع السجاجيد، كأيدي الرجال والنساء الذين رعوا الغنم، واعتنوا بها، وجزّوا أصوافها،

ومشطوها، وغزلوها خيوطاً، وجمعوا الأعشاب لصنع الأصباغ، وصبغوا الصوف، وصنعوا الأنوال، وعقدوا عقد السجاجيد بتصميم في ذاكرتهم البصريّة اليدويّة، وقد صنعت هذه السجاجيد النافعة لأغراض دينيّة، أو منزليّة، أو زراعيّة، أو لتوضع في صندوق العروس، أو لتباع في السوق، حملها القرويّون على كواهلهم، وأكلوا عليها، وناموا، أو التحفوا بها، وكانت تُستخدم أيضاً أبواباً للخيام، وحاويات للملح والطعام، ومهوداً للأطفال، وأحلاساً للدواب، وزينة للخيام، أو كانت هي نفسها جوانب خيام تُطوى وتُثنى؛ قد تكون السجاجيد السحريّة بساطاً من العقد أو كليهما رخيصة أو قطعة مطرزة، وقد تتخذ مجموعة واسعة من الأشكال وفقاً للغرض منها؛ فالسجادة جزء مهمّ من حياة المنزل التركيّ، شأنها شأن من يقيمون فيه.

أجد السجاجيد بالغة الروعة؛ لست خبيرة في صناعة السجّاد، ولا أنظر إليها بعين مؤرّخ فنّيّ، بل أنظر إليها بعين الفنان، وأنفاعل معها على المستوى البصريّ والحسيّ الخالص، فعندما أرى سجّادة لا أجثو على الأرض؛ لأعدّ عقدها، ولا أحلّل ألوانها؛ فالقطع الفنيّة والتصميمات المألوفة الموصوفة بسهولة، غالباً ما تكون عملاً رائعاً مدهشاً في مغزاه ورمزيّته، إذ يبتكر النساجون قطعاً جميلة تثير الروح وتشبع الفكر، شأنها في ذلك شأن أيّ عمل يوصف بأنه عمل فنّيّ عظيم.

علمتني السجاجيد التركيّة كيف أستخدم مبادئ التصميم نفسها التي تجذبني إليها في ممارستي فنّ صناعة الزجاج؛ فهذه السجاجيد غنيّة بالألوان، تعتمد على درجات ظلال تستخدم الألوان الشاحبة، والألوان الأساسيّة، وخليطاً من كل ما في قوس قزح من ألوان مع اختلاف درجات تلك الألوان، وغالباً ما يُنتقى لون دافئ خاطف للبصر؛ ليرز بوضوح؛ فهي سجاجيد صريحة عفوية مفعمة بالحويّة، جريئة من حيث التصميم واللون، لا تخشى نشوز الأشكال أو فوضى الألوان غير

المقبولة؛ بعض السجاجيد قد تذهلك قوتها وألوانها ووضوحها، وبعض القطع الأخرى ينبعث منها سكون تامّ مستمدّ من البصمة الناعمة الرقيقة ذات الارتباط بعنصري التصميم واللون؛ والصوف المستخدم كثيف لكنّه مرن؛ فيضفي على السجاجيد عمقاً؛ أشعر كأنّها سجاجيد حيّة؛ ربّما لأنّ صوفها يظلّ حيّاً بطريقة ما، وربّما لأنني أستطيع أن أشمّ رائحة الطبيعة في أصباغها الطبيعيّة اللّيّنة المستخلصة من النباتات، والمعادن، والعناصر الحيوانيّة المتوفّرة في الطبيعيّة حولنا؛ والسجاجيد القرويّة تتلألأ، وتنضّج بالحياة، وتغنّي كالأزهار، وأشعة الشمس، والطيور، والحيوانات، والنجوم، وأقواس قزح، والحقول الخضراء المرسومة عليها، ولا تستحيي من عيوبها، بل إنّها تسعى غالباً لتضمين البصمة التركيّة؛ لتبدو ساذجة متواضعة؛ تلك العيوب الصغيرة الظاهرة في الحرفة تشير إلى اليد البشريّة في المنتج النهائي، وكلّ ما تتمنّاه هذه السجاجيد المتواضعة أن تُقابل بالتقدير وهي كما هي؛ لهذه الأسباب وغيرها من أسباب عاطفيّة كثيرة، تبثّ في هذه السجاجيد سعادة وبهجة صادقة.

لا ينبع افتتاني بالسجاجيد من رؤية فنيّة فحسب، بل أيضاً لأنّها تحدث إليّ بوصفي امرأة؛ فلا شكّ أنّني منجذبة لهذه السجاجيد الريفيّة والبدويّة لأنّها تمثّل فنّاً أنثويّاً؛ لطالما كانت السجاجيد والمنسوجات في الأغلب فنوناً أنثويّة، تنمو وتزدهر بعيداً عن هيمنة المنظور الذكوريّ؛ فهي بمنزلة صور شخصيّة للنساء التركيّات؛ تمثل تعبيرهنّ الشخصيّ المفعم بمعانٍ خاصّة، لكنّها في الوقت نفسه تمثّل تصرّيحاً علنيّاً للعالم كلّ؛ إذ تمنح السجاجيد النّساجة شعوراً بارتباطها بما حولها، تاماً كرسائلك لأصدقائك يا سيدة ماري؛ تلعب المرأة التركيّة بالعقد، كما نلعب أنا وأنت بالفكر والكلمات.

السجّادة مستقلة استقلال من نسجها؛ فعندما أنظر إلى سجّادة، أفكر دائماً فيها؛ فلكلّ نساجة بصمة خاصّة خصوصيّة شعر صغيرها

أو بشرة زوجها؛ مثلاً قصيرة هي أم طويلة؟ كم عدد أطفالها؟ أتطيع زوجها أم تجادله؟ أجميلة هي؟ كيف ضحكتها؟ هل تحلم بما أحلم به؟ ما هي مشاعرها ورغباتها؟ وأحاول أن أخمن عمرها بناءً على مستوى حَرَافَتِها؛ صحيح أنّ هذه السجاجيد لا تحمل توقيع صانعتها، لكنها تفتح نافذة خاصّة جداً على روحها؛ فأشعر بالارتباط بالنساجة؛ إذ أرى بعض نفسي في السجادة كما ترك بعض نفسها فيها؛ فأثار لمستها وحبها واضحة فيها، كما تتضح في احتوائها زوجها وأطفالها، أتخيل أحياناً أنني أرى نساء حمرات الشعر في السجاجيد المربّعة الزاهية المنسوجة غرب تركيا، ونساء بَنَيَات الشعر في سجاجيد الصلاة الصفراء الدكناء المنسوجة أواسط الأناضول، ونساء سوداوات الشعر في جيوب السُرُج الدكناء المنسوجة شرقاً.

أعمل في صَهر الزجاج، وهو عنصر صعب يتطلّب جهداً كبيراً لإتقان صناعته؛ فأدرك ما تواجهه النساجة من صعوبات؛ فعمل عُقد السجاجيد لون من ألوان الفنون الصعبة أيضاً، وأحياناً أشعر كأنني أجلس إلى جوار النساجة أمام النول، وأستشعر تفاوت قوّة يديها وقوّة شدّ الخيط من يوم لآخر مع كلّ تغير في العُقد، وأشعر بخيبة أملها عندما تجد صعوبة في تنفيذ الشكل؛ فيخرج المنتج مخالفاً، أو عندما تغيب عن ناظرها نقطة المركز الحمراء التخيلية بثلاثي السجادة؛ فتراودني المخاوف نفسها، وأتمنى أن تصبح قطعتي صحيحة في النهاية؛ لأنّ صنع الأشياء الجميلة يتطلّب شجاعة يا سيّدة ماري.

أرى في هذه السجاجيد تعبيراً عن وجهة نظر امرأة ما في العالم، وأجد فيها مكوّنات حياتي نفسها بوصفي امرأة عصريّة غربيّة، وهي تشمل العمل، والأسرة، والحياة العاطفيّة، والمجتمع، والجانب الروحي؛ إذ تتمتع هذه السجاجيد بحياة خاصّة وقصّة فيها، تبدوان في ترتيب الألوان، وتنسيق الزخارف، وغيرها من رموز "السرد" الأخرى ذات

الأهمية السحرية؛ لذا أعدّ هذا البحث عن وسيلة للتعبير عن عالم المرأة المختبئة أمرًا في غاية الشجاعة؛ ليتني ألتقي النساء خلف هذه السجاجيد؛ إذ تمتعن بخصائص، أكافح للتخلي بها في حياتي؛ فكلّ منهنّ تبدو حادة الذهن، ذكية، ماهرة كريمة، مبدعة، صبورة، منظمة، قادرة على القيام بعدة أعمال جادة في الوقت نفسه؛ أنا معجبة بهنّ، وأتمنّاهنّ صديقات.

يؤمن الأتراك أنّ قدرَ المرأة مكتوب على جبينه، وأنّ الله حدّد مصائرنا قبل بدء الزمان، وأنّ إرادتنا الخاصة لا تتحكّم في العالم، لكنّ هذا لا يتعارض والإرادة الإنسانية الحرة؛ أعتقد أنّ النساجة يمكنها من خلال هذه السجاجيد أن تمارس تلك الحرية؛ فتقرّر كيف سيتعاون يداها وعيناها وعقلها للتعبير عن روحها، ويمكنها أن تختار ألوانها لسبب شخصي؛ فاللون الأحمر لون التفاح أو لون دمها أو حرارتها أو لون الغروب، والأزرق لون السماء التي تنظر إليها سعيدة، وتختار النساجة إطار السجادة؛ ليرسل رسالة من خلال رموزه؛ فيخبرنا إذا كانت قد أنهتها على عجل؛ لتعكس ألمها، وتختار الوحدات التي ستكرّرها، سواء كانت تصميمًا عتيقًا أم تصميمًا تبتكره أثناء عملها؛ لا يسعنا إلّا أن نخمّن دوافعها؛ فقصة كلّ امرأة، وعمل يديها، وجُلّ شخصيتها مسكوبة في هذه القطع؛ كأنها تقول: اليوم بمساعدة هذا النول، أنا المتحكّمة، وقراراتي بيدي وحدي؛ فلا شأن لأطفالي وزوجي بما سأفعله، هذه عقدي أنا، وهذه السجادة فرصتي للاتصال بالنساء الأخريات كلّهنّ، من خلال تراثي، ومستقبلي والتقاليد؛ إذ تسمح لي بالتعبير عن نفسي، وعن آمالي وتطلعاتي ومهارتي، وعن أهمّ شيء: حبي.

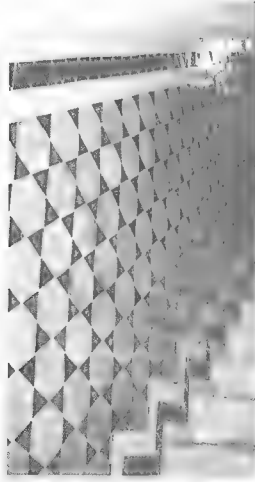
تلك العقد ليست مجرد خيوط متشابكة في نظر النساجة، بل خيوط تضمّ أحلامها، وردود أفعالها تجاه مباحج الحياة وأحزانها واضطراباتنا؛ فتستحيل السجادة إلى تعبير شخصي قويّ متاحة رؤيته للناس جميعًا؛ ليت نساء العالم كلّهنّ يستطعن إيجاد متنفس مبدع كهذا للتعبير عن أنفسهنّ.

أكثر ما يعجبني في هذه السجاجيد -بعيداً عن جمالها الفني والرباط الأثيوبي الذي يربطني بنساجتها- يتمثل في كيفية تعبيرها عن الحيوية والتميز اللذين يميزان المناطق الجغرافية المختلفة في تركيا؛ فهو بلد ذو تنوع طبيعي هائل، يظهر بوضوح في هذه السجاجيد؛ فالسجاجيد المربعة الثخينة المنسوجة في منطقة غرب بحر إيجه تعكس بساتين الزيتون وحقول القطن، بينما تبرز سجاجيد الصلاة المنسوجة في أواسط الأناضول زهور دوار الشمس الصفراء، أما السجاجيد الكردية المنسوجة في المنطقة الشرقية، فتعكس القوة الطبيعية للمناظر الجبلية، ويعجبني بشكل خاص الرابطة الاجتماعي بين هذه السجاجيد المتنوعة، وبين البلاد والشعب التركي الذي عرفته وأحبته على مدار ثلاثين عاماً مضت.

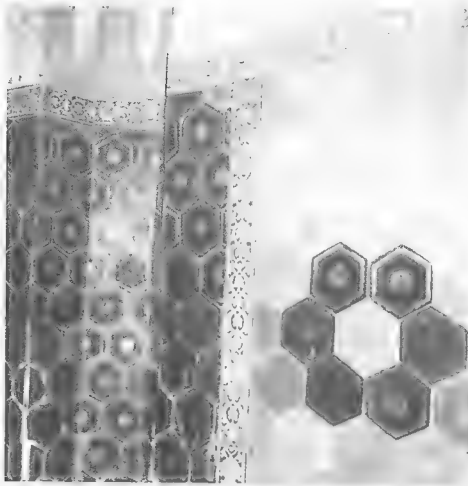
نسج السجاد حرفة قديمة قدم البشر، وتركيا بلد حضاري يضم ثقافات تعود إلى عشرة آلاف عام؛ فأعد هذه السجاجيد مرآة صادقة تعكس التراث الثقافي التاريخي المذهل الذي تشكل من هذه الأرض وشعبها، وأرى في مرآة السجاجيد القروية خاصة انعكاساً لكثير من صفات الأتراك التي تعجبني، مثل: السهولة، والاستقامة، والدفء، والحنان، والجدة، والاجتهاد، والكرم، والإخلاص، والاهتمام بما يصب في مصلحة الآخرين، والقناعة بأننا جميعاً في هذه الحياة أسرة واحدة على المستويين الضيق والواسع؛ حقاً إن تركيا سجادة غنية بالألوان صنع عقدها سبعون مليون شخص.

صديقتكم

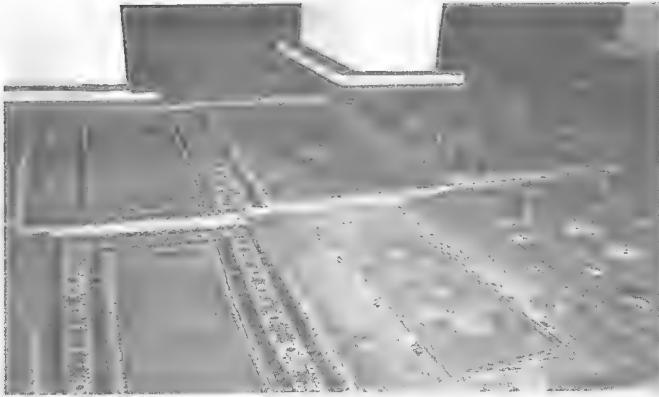
كاثرين براننج



درَج يؤدي إلى مطعم "بانديلي" في إسطنبول



الجزء الداخلي من ضريح السلطان جَم في بورصة



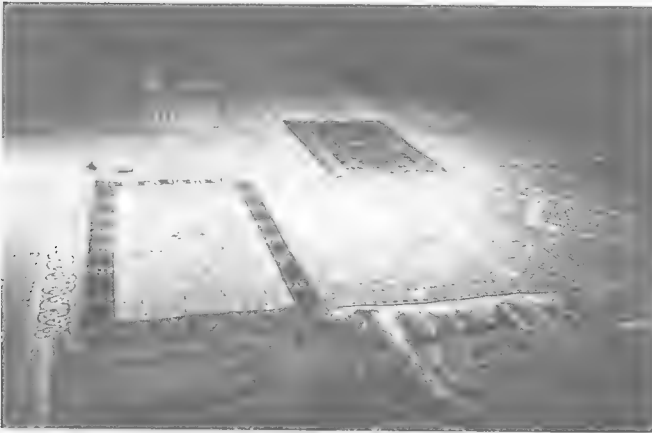
سجاجيد جامع إبلکجي في قونيا



مدخل في متحف علم الأجناس بقیصري



جلس الحصان، وعربة مزرعة مزينة في أرضروم



سجاجيد تليق بمصلى سلطان، مسجد علاء الدين في نيدة

الرسالة الثالثة والعشرون

عثرْتُ عليه في قلبي

عزیزتی السیلة ماری،

عندما أسافر إلى تركيا، أمكث عادة بضعة أيام في إسطنبول قبل أن أتوجّه إلى "تركيتي" وسط الأناضول وشرقها؛ تساعدني هذه الأيام القليلة أن أضبط إيقاعي، وأنتقل من الإيقاع الجنوني لمدينة نيويورك إلى الإيقاع الهادئ لتركيا، وأن أتأقلم مع مباحجها؛ فأضبط أذني على وقع اللغة التركية العذب، وأتذوّق أوّل ملعقة من اللبن الخثير، وأسمع أوّل كلمة "يوك: لا يوجد" وكلمة "وار: يوجد"، وأرى أوّل الوجوه المشرقة بالبسمة، وأتلقي أوّل لمسة حنونة، وألاحظ بصمة تركيّة جديدة، وأعيش التجربة الأولى لسماع الأذان؛ تُعدّني هذه الأيام القليلة لمزيد من الاستيعاب والتجاوب مع الاختلافات بين مجتمعي الغربيّ المتمدّن والأناضول.

بالمثل يا سيّدة ماري، فرحلتك عبر أوربا كانت تمهيداً مهماً قبل وصولك إلى تركيا؛ فكانت أوّل مواجهة حقيقيّة مع الاختلافات الثقافيّة؛ لا شك أنّ العادات الأوربيّة لم تشبه عادات إنجلترا، خاصّة فيما يتعلق بالدين، ورسائلك من أوربا حافلة بوصف التقاليد الدقيقة الممنّقة لدى تقليد المناصب في الكنائس الكاثوليكيّة، وعلى النقيض من

عقيدتك البروتستانتية السهلة، بدت لك الطقوس كلها تأليهاً مبالغاً فيه، وقد تفهمت رأيك تماماً؛ لأنني شعرت بأحاسيس مماثلة عندما ذهبت للعيش في المناطق الكاثوليكية من فرنسا؛ إذ تختلف الكاتدرائيات القوطية الفخمة كل الاختلاف عن المقصورات الساذجة والمذابح غير المزخرفة في كنيسة الميثودية بوطني.

عقب مشاهدة مظاهر "البابوية" كلها في طريقك، تغير كل شيء لدى وصولك إلى بلجراد وإقامتك في منزل معلمك أحمد أفندي؛ إذ منحك أول فرصة للتعرف إلى الإسلام، الذي وصفته بأنه أكثر تناسباً مع تعاليم البروتستانتية السهلة؛ لأننا نحن الاثنين نتبع المذهب البروتستانتية، فقد حضرنا إلى تركيا بعقلية منفتحة على هذا الدين الخالي من المناصب، والتماثيل، وملابس الطقوس الدينية المزخرفة، وفي سعيك لفهم العلاقات بين الثقافتين، تحدثت مراراً مع أحمد خلال الأسابيع الثلاثة التي أقمتها في منزله:

"منحني الحديث اليومي الودي مع أحمد أفندي الفرصة للتعرف إلى دينهم وأخلاقهم بتفاصيل أدق مما فعل أي مسيحي من قبل؛ شرحت له الفرق بين مذهبي إنجلترا وروما، وسرّ لدى سماعه أن هناك مسيحيين لا يتعبّدون للتماثيل ولا يؤلّهون السيدة مريم العذراء؛ شعر أن تحوّل الشكّين - تحوّل الخبز والنبذ إلى لحم المسيح ودمه في الطقوس الكنسية - فكرة حمقاء، وأكد أنني إذا أتقنت اللغة العربية، فسأسعد كثيراً بقراءة القرآن؛ فهو أفضل منهج أخلاق نزل بأفضل اللغات، وسبق أن سمعت بعض المسيحيين الموضوعيين يتحدّثون عن القرآن بالأسلوب نفسه..."

أكدت زيارتك لجامع السليمانية بأدرنة شعورك بالارتياح تجاه سهولة تعاليم الإسلام، وفي ذلك تقولين:

”في رأيي من أوجه الجمال الإضافية أن المسجد غير مقسم إلى مقصورات، ولا يعجج بالتماثيل والمقاعد الخشبية كما في كنائسنا، وأنه يخلو من الأعمدة المشوهة بتماثيل صغيرة مزخرفة، وصور تضيء على الكنائس الكاثوليكية طابع متاجر اللعاب“.

ذكرت الدين كثيرًا في رسائلِك، وتحدثت عن اليهود في أدرنة، وكيف تمكنوا من جعل أنفسهم جالية لا يمكن الاستغناء عنها لأعمال السلطان، وحاولت أن تصححي كثيرًا من المعتقدات الغربية السلبية عن تركيا ودينها، ودحضت الرؤية الغربية المنادية بعدم منطقية الدين الإسلامي، حتى إنك شككت في كون أوربا مهد المنطق والفكر، ورغم أنك انتقدت العقيدة الكاثوليكية الأوربية في رسائلِك، فإنك تحدثت عن الإسلام برقة ولطف، وتمكنت من التغاضي عن المذاهب والاختلافات، وما نتج عنهما من آثار مجتمعية، حاولت أن أفعل الشيء نفسه في تعاملتي مع الإسلام.

كم كان أحمد دليلًا رائعًا ومدهشًا ومقنعًا! إذ كتبت لصديقك القس كونتي رسالة بتاريخ الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م عقب وصولك إلى أدرنة، تطلعينه فيها على انطباعاتك عن الإسلام:

”لا شك أن معرفتنا بأخلاق هؤلاء الناس وعاداتهم قاصرة جدًا؛ فهذا الجزء من العالم لا يرتاده إلا التجار غير المبالين إلا بشؤونهم الخاصة، أو الرحالة المقيمون فترات أقصر من أن يتيح لهم تسجيل أي شيء بدقة؛ إذ إنهم يعتمدون على معلوماتهم الشخصية“.

ليس من المستغرب محاولتك استكشاف العادات التركية، فأنت امرأة على قدر كبير من الذكاء، والحساسية، والفضول، والأهم من ذلك أنك محظوظة؛ فلست مجرد مسافرة عابرة؛ ففي كل عام يزور تركيا ملايين السائحين، يأتي جلهم من بلدان غير إسلامية، يستمتعون بجمال الطبيعة

في الريف، ويزورون المواقع التاريخية لمختلف الحضارات، ويستجمون على الشواطئ، ويرحون عن أنفسهم في الملاهي، يزور أغلبهم أحد المساجد ضمن برنامج المجموعة السياحي، ودائمًا تكون الزيارة إلى مسجد السلطان أحمد الشهير "المسجد الأزرق" في الهيبودروم -ميدان سباق الخيل- في إسطنبول، غير أن هؤلاء السائحين قبل هذه الزيارة لاحظوا الأفق الحافل بمآذن على شكل القلم الرصاص، والنساء المحتجبات، وبالطبع تناهى إلى أسماعهم صوت الأذان المتردد في كل مكان خمس مرات يوميًا في أنحاء المدينة كلها عبر مكبرات الصوت، وعادة يوقظ السائحين المنهكين من الرقص في الملاهي وقت الفجر، وهذه النداءات المتكررة هي الإشارة الوحيدة غالبًا أن تركيا بلد يجهر بشعائره الدينية، أما أنت يا سيّدة ماري، فقد استغرقت وقتًا لفهم الإسلام كما يعيشه الأتراك ويشعرون به في الواقع.

تركيا بلد تقني يتجلى إيمانه اليومي في تصرفات لافتة للانتباه، غير أن أغلب السائحين لا يحضرون إلى تركيا لاكتشاف أو فهم طبيعة الشعائر الدينية، أو العادات والتقاليد المتعلقة بهذا الدين الحي، بل دائمًا يأتون برؤية مشوهة؛ والأمر يتطلب أكثر من مجرد الإعجاب بذلك البلاط الأزرق للوقوف على حقيقة هذا الدين؛ فيتطلب فهم ما يحدث في تلك المساجد، والسبب في ركوع المسلمين وسجودهم أثناء صلاتهم على تلك السجاجيد الملونة، وكيف يطبقون دروس المسجد على الحياة خارجة؛ أنا أيضًا معجبة بقباب مسجد سنان وبلاط مسجد إزنك، ويعجبني خاصة منظر التلال السبعة في إسطنبول تيجانًا على المساجد السلطانية، لكن زيارة تركيا دون محاولة فهم ما يمثل ذلك كله أشبه بتجاهل قيمة النوافذ ذات الزجاج الملون في كاتدرائية "شارتر"، أو إغفال مظاهر الصوم الكبير في روما؛ فمن الضروري فهم سبب استخدامهم جميعًا لحبات السَّبَح، وسبب وضع النعش في ساحة المسجد سافرًا، وسبب

ثراء اللغة التركيّة بكثير من التّحايا الإسلاميّة؛ لا بدّ أن نستوعب كيف يعيش المسلمون الجوّ الروحيّ في دور العبادة وفي منازلهم الخاصّة، وأن نفهم الرسالة التي أراد سنان أن يرسلها ببناء قباب عريضة، وبلاط فخم، ومِساحات مفتوحة للعبادة خالية من المقصورات والمقاعد.

جعلتني رحلاتي إلى تركيا أشكّ في معتقداتي المسيحيّة كما حدث معك يا سيّدة ماري، وأوصلتني إلى البحث عن أرضيّة روحية مشتركة بين المسيحيّة والإسلام، وهي موجودة بلا شكّ؛ كلّنا نبحت عن المغزى وراء وجودنا، وقد نسير في مختلف الطرق لاكتشاف هذه الحقيقة، أحدها طريق الدين؛ فكلّ شخص على وجه الأرض -الملحد، والتقيّ والجاهل- لديه نوع من الدوافع الروحية؛ ويبحثون عن إجابات للأسئلة نفسها المتعلّقة بسبب وجود البشر، وعن أهمّ الأشياء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وعن أهميّة الدور الذي يلعبه كلّ من الحبّ، والشعائر، والأخلاق في حياتنا؛ يتعلّم أغلبنا البحث عن هذه المعاني في التقاليد، والشخصيات البارزة، والنصوص المقدّسة، والقديسين، ورجال الدين، وأنبياء السماء؛ ومن ثمّ كلّما تعلّم الإنسان عادات تخالف عاداته وثقافة نشأ عليها، كان أقدر على الوصول إلى المغزى والحقيقة، يمكن في الحقيقة العثور على هذه المعاني في الدين، لكنّها أيضًا في الفنّ، والفلسفة، والطبيعة، والعمل، وحديث النفس الخاصّ الوديّ، وفي العلم، وفي خدمة الآخرين؛ ليس هناك طريق واحد، ولا صوت واحد، ولا نصّ واحد؛ فالعالم أكبر من ذلك.

علّمتني تجاربي في تركيا كيف أنّ هذا العالم شاسع جدًّا، وشجّعني على مواجهة أفكاري المدهشة، المؤثرة فيّ، المثيرة لغضبي، لكنّها في نهاية المطاف تعيد تجديد رؤيتي للأمور، وفي تركيا اليوم، كما هو الحال في بلادتي، نحاول إدراك دور الدين والأخلاق في كلّ شيء، ليس فقط في أماكن العبادة، أو في التعامل مع القضايا المهمّة

في الدنيا والآخرة، بل في التعامل أيضاً مع القضايا اليومية الخاصة بالزواج، والأسرة، والمجتمع، والأخلاق، والصعوبات العلمية، وضبط الغرائز، والمبادئ السياسية، والقواعد الحاكمة؛ وبدلاً من طرح إجابات جامدة للمشكلات التي تثيرها هذه القضايا، يمكننا تأملها من منظور حكمة أديان كثيرة؛ لتزداد فرص مشاركتنا لها، ومواجهتها، وإيجاد حلول عملية تحترم الأفكار كلها.

من أصعب القضايا الروحية اليومية قضايا الشرّ، وألم الموت والأحداث المأساوية، وضعف الحرية، والمعاناة، وأهمية الأديان النظامية؛ لا أستحي أن أقول: إنني أشكّ، وأناضل، وأغضب؛ لأنّ هذا كلّه يعينني على جعل هذه القضايا من أولويات وجودي، ويساعدني على استكشافها قدر استطاعتي، وتساعد أوقات الأزمات في بناء معنوياتي، وتساعدني أن أقرّر إذا ما كنت سأأخذ إلهاً أم لا، لكنها أيضاً تمنحني الشجاعة؛ لأحاول إصلاح ما أراه خطأ حولي، ورغم هذه الصراعات ولحظات الشكّ، لا أخجل أيضاً أن أقول: إنّ هناك معجزات لا أجد لها تفسيراً منطقياً، ولحظات سعادة وحبّ بالغة لا يمكن تفسيرها حتى إنني لا أصدق أنّها من قبيل الصدفة، وثمة لحظات غامضة أشعر فيها وكأنّ العناية الإلهية تصحّبي، ولا أستطيع تفسيرها بمساعدة الظواهر العلمية الحسية، كلقاء روح شقيقة، أو الوقوع في الحبّ، أو الانغماس في لحظة جمال طبيعيّ، أو الشفاء المعجز من مرض، أو النجاة من حادث أو مأساة، وهذه الأمور كلّها تشجّعني على استكشاف مشكلتين أصعب؛ هما الخوف والشرّ؛ فيدفعني هذا إلى الإيمان بأنّ ثمة كيّاناً يسمى: الربّ أو الإيمان الروحيّ.

بالرغم من إيماني، فكثيراً ما يصعب عليّ أن أتقبل أو أحتمل فظاعة عالمنا المعاصر ووحشيّته، غير أنّ معاشتي للإسلام منحني الشجاعة؛ إذ جعلتني أراجع ما أراه مهماً في تعاليم ديني، وفي الشراء الحقيقيّ لمنهجي المسيحيّ؛ فأراجع أنماط الشعائر الدينية بعين أخرى غير التي

كنتُ أراها بها، وأسعى إلى أشكال أخرى من التفكير في هذه القضايا المعقّدة، ولفهم هذه القضايا الشخصية، ولفهم صورة الإسلام الممارس في تركيا والتجديات الاجتماعية المعاصرة التي يفرضها الإسلام عليها؛ التقيت بأحد الصوفيّة المثقّفين، وهو أستاذ في علم مقارنة الأديان في قيصري، وقابلت نساء فقيرات في القرى، وضباطًا مخلصين في الجيش، وطلبة يتعلمون الرقص المولوي في قونيا، وشخصًا يساريًا ملحدًا متعصبًا في إسطنبول، وعجوزًا يونانية في بيرايوس، وموسيقيّين علويّين في ألبستان، وأشخاصًا من مختلف طرائق الحياة؛ لم يكن سهلاً عليّ البتة فهم صور الإيمان الكثيرة في تركيا؛ لأنّها تتسم بتعدّد الألوان والأشكال والموضوعات، وبقدر سهولة الإعجاب بالخزف اليابانيّ في بلاط إزنك رأيتُه في جامع السليمية بأدرنة يا سيّدة ماري، يصعب فهم المعاني الحقيقيّة لصور الإيمان كلّها في تركيا، لكن بقدر ما تبدو الحياة الإسلاميّة في تركيا الحديثة معقّدة، فثمة أمر واحد مؤكّد لي؛ فلطالما شعرت بالراحة في تركيا؛ لأنّه بلد يتجلّى في أركان شوارعه كلّها تاريخ المسيحيّة.

شهدت الأناضول، أرض تركيا الحديثة، طبقات كثيرة من الحضارات طوال عشرة آلاف سنة مضت، ومرّت عليها إمبراطوريّات عدّة تركت آثارها هنا: الأراطيون، والحيثيون، واللوقيون، والليديّون، والأرمن، واليونانيّون، والرومان، والبيزنطيّون، والسلاجقة، والعثمانيّون، وجمهورية تركيا الحديثة، ورغم الاختلاف بين هذه الحضارات في سياساتها ولغاتها وعاداتها ودياناتها، تشابهت قيمها العامّة، المتسرّبة بقاياها لمتمزج بالثقافة المعاصرة، وهي قيم إنسانيّة عامّة تشمل العواطف والمشاعر المتأصّلة في التجربة الإنسانيّة وتوحد البشر كلّهم على الأرض، رغم اختلافهم مكانًا وزمانًا، ولعلّ قيمة الإحسان من بين هذه القيم الإنسانيّة كلّها هي الأكثر قربًا لنفوس الأتراك، بدءًا من يونس امرأة، مرورًا بمولانا جلال الدين الروميّ، إلى يومنا هذا، فالبعبارة نفسها تتردّد: هذا مكان متسامح، يحقّ

للأشخاص فيه اختيار تعاليمهم الروحية وسلوك الطريق الذي يشاؤون.

وأنا كمسيحية، وجدت ثراءً هائلاً في هذا البلد الجامع بين آثار التاريخ والدين في سلاسة طبيعية، ليشكل ما يشبه الأرض المقدسة الخاصة بكل شخص، و(تركيتي) أرض إيمان؛ فقد كانت إسطنبول روما الجديدة؛ إذ وضع قنسطنطين الأول حداً لاضطهاد المسيحيين، أما عقيدة نيقية التي رددتها مراراً وتكراراً أثناء طفولتي في الكنيسة، فقد كُتبت هنا في إزنك، المدينة صانعة هذا البلاط كله في مساجد سنان، والخزف الياباني الذي أعجبك في جامع السليمية يا سيده ماري، ويُعتقد أن سفينة نوح استوت على قمة جبل أرارات شرق تركيا، حينما غيض ماء الطوفان العظيم، حيث أسس الأراراتيون مملكتهم قديماً، ويخبرنا العهد القديم أن النبي إبراهيم وُلد في مدينة أور قرب نهر الفرات، عُرفت لاحقاً باسم إديسا، وأصبحت مقر أول دولة صليبية عظمى خلال أولى الحملات الصليبية للملك بالدوين الثاني عام ١٠٩٦م، واليوم يطلق الأتراك على هذه المدينة اسم "شانلي أورفا" أي أورفا المجيدة، وهي مجيدة حقاً؛ إذ يصعب العثور على مكان مقدس يضم آثاراً للأديان الثلاثة سوى القدس؛ وفي مدينة حرّان المجاورة وُلد إسحاق وإسماعيل ولدا النبي إبراهيم، والتقى يعقوب زوجته راحيل وهي تحضر الماء من أحد الآبار في حرّان، ومنذ ذلك رُسِمَت خريطة العالم الأخيرة؛ فانهدر من نسل يعقوب بن إسحاق أنبياء الله: موسى وداوود والمسيح، وانهدر من نسل إسماعيل النبي محمد، نبي الإسلام؛ فالتجول في شوارع هذه المدينة رحلة حجّ حقيقة إلى جوهر أديان العالم التوحيدية الثلاثة وكل ما تمثله للإنسانية، وغبارها الدافع مفعم بذكرى أنبياء تلك الشرائع كلها؛ فيدفعك هذا للمشي بخشوع عبر شوارعها الخلفية الضيقة وأسواقها على أحجار صقلتها قرون من وقع الخطوات المقدسة!

ما يعنيني -وأنا المسيحية البروتستانتية- هو آثار خطوات بولس في تركيا، وُلد بولس في تركيا، في مدينة طرسوس، قرب مدينة مرسين في سهل شوكر وفا؛ ولأعشر عليه خرجت في حجّ خاصّ إلى أنطاكية العتيقة، كي أزور هذه المدينة مقرّ أوّل أنشطته، في هذا المكان نشأت حركة أتباع المسيح، وسمّوا أنفسهم: المسيحيّين، كان برنابا -أحد أتباع المسيح- قد دعا بولس إلى هذا المكان للعمل إلى جانب بطرس، ومرقس، ويوحنا، لدمج تعاليمه في تعاليم المسيح؛ أردت أن أكتشف بنفسي أنطاكية الشهيرة، فالجامعة المتميّزة قرب منزل الطفولة بأوهايو سُمّيت باسمها، وكان صدى اسمها يرنّ على المنبر في تلاوات رسائل بولس، كنت أسمعها في الكنائس خلال نشأتي، وهي مدينة تاريخية، أشيد بها في حصص التاريخ الفرنسي، حينما استولى عليها بوهيموند الصليبي؛ ليجعلها مملكة له، إنّها مكان أسطوريّ خطّت منه المسيحية أولى خطاها.

بينما كنت أجوب شوارع هذه المدينة النائية، تعذّر عليّ تصوّر أنها كانت في يوم ما من أكبر مدن الإمبراطورية الرومانية، ندًا للإسكندرية، وأنها كانت عامرة بالصروح العامة الرائعة، وحلائب الرياضة، وقنا المياه، والدور الخاصة المزينة بالفيسفساء الفخمة، حاولت أن أتخيّل شكل المدينة في ذلك الزمن، حينما كانت مفترقًا لطرق التجارة، وموضعًا لا يحوي الفخامة فقط، بل الزلازل والفساد أيضًا، كانت مدينة قويّة حتى إنها أغرت بولس أن يبعث منها أولى إرساليّاته على مدى سبع سنوات بداية من عام ٤٧م، وبينما كنت أمشي على شاطئ تشيفليك، -وهي القرية المجاورة لميناء أنطاكية، وساحلها الآن مهمل، وملوث، وقذر، على عكس تلك الأيام المجيدة- حاولت أن أتخيّل قوّة الإيمان الملهمة لبولس ليدفع زورقه الصغير؛ فيبحر عبر البحر المتوسط إلى أنطاليا لإلقاء أولى عظاته، وبينما كنت أحدّق غربًا عبر المياه، حاولت أن أتصوّر معدن هذا الرجل المشغوف بنقل الأخبار عن حبّ الربّ،

حينئذٍ أدركت أنني أنظر إلى الموضوع الذي غيّر للأبد مصير العالم المعروف؛ إذ نشأت الكنيسة المسيحية هنا تمامًا فوق الرمال التي أقف عليها، وسمعت صوت بولس يتردد في الأمواج المتلاطمة: "لَيْسَ يَهُودِيًّا وَلَا يُونَانِيًّا. لَيْسَ عَبْدًا وَلَا حُرًّا. لَيْسَ ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى، لَأَنْكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ."، ثم تبعت خطاه إلى أنطاليا، حيث ترجل عن الزورق؛ لينشر كلمة الحب، مسافرًا من هناك سيرًا على الأقدام، راكبًا عربة في طرق الأناضول المتربة الحارة؛ وزرت مدينة قاسطمونى، ويعدّها كثيرون مقرًا لجماعة أُوْحَت لبولس بكتابة إحدى أهم رسائله، رسالته إلى أهل غلاطية، كان غضبه من أعضاء الكنيسة هناك من دوافع كتابته هذه الرسالة، أنشأها، ثم حادت عن تعاليم المسيح الأصلية؛ حاولت أن أتخيله يضرب بقبضته الطويلة بغضب يجعله يكتب: "أَيُّهَا الْغَلَاطِيُّونَ الْأَغْيَاءُ!"، عبارة احتجاج اعتدت سماعها في عظات الأحد أثناء نشأتي، وأصبحت رمزًا لتداعيات العدول عن الطريق القويم للحب، أتذكر أيضًا أنني قرأت في سفر أعمال الرسل بالعهد الجديد جزءًا ألقى فيه بولس موعظته في معبد يهودي في قونيا؛ الآن حينما أتجول في الشوارع الخلفية الملتوية لهذه العاصمة السلجوقية المقدسة، أحاول أن أتخيل مكان هذا المعبد، ويتناهى إلى سمعي صدى صوت بولس مختلطًا بأصوات علاء الدين كيقوباد والرومي.

زرت مواقع الكنائس السبع المذكورة في رؤيا نهاية العالم -منها متهدّم ومنها مرمّم- وصفها يوحنا في سفر الرؤيا؛ يبدو أن المسيح أخبر يوحنا: "مَا تَرَاهُ اكْتُبْهُ إِلَى سَبْعِ الْكَنَائِسِ فِي أَسْيَا: أَفُسُسَ، وَسِمِيرَنَّا، وَبَرْغَامُسَ، وَثْيَاتِيرَا، وَسَارْدِسَ، وَفِيلَادَلْفِيَا، وَلَاوْدِكِيَّةَ" (سفر الرؤيا ١: ١١)؛ كان المقصود بذلك جماعات مسيحية أكثر منها كنائس مسيحية، لكنّها كانت تمثل مهدًا خرجت منه العقيدة المسيحية وانتشرت في بقية العالم، وتقع هذه الكنائس في مدن تركية فقدت أهميتها الآن بوصفها مواقع مسيحية، وهي إزمير (سميرنا)، وبرجاما (برغامس)، وأسكي حصار

(ثياتيرا)، وسارديس، والأشهير (فيلاديلفيا)، وإسكيهيسار (لاودكية)، وأكثر هذه الكنائس إثارة للمشاعر هي الواقعة في مدينة أفسس، كانت في الماضي مستعمرة يونانية؛ فهنا على مقربة من أهم المكتبات المشيدة في العصور الرومانية، أتى يوحنا بمريم والدة المسيح كي تقضي خريف عمرها؛ ويتشابه التأثير العاطفي لهذه المواقع كلها؛ إذ أشعر كأني أطوف في آيات الإنجيل!

زرت كنائس بيزنطية مهجورة متوارية خلف الضباب الأبيض الكثيف لجبال البحر الأسود الشاهقة، مثل: كنيسة بارهال وإشهان بالقرب من مدينة أرتفين، فضلاً عن السور الرائع لدير سوملا على الجرف الصخري، وتأثرت خاصة برؤية آيا صوفيا في طرابزون، يعود تاريخها للقرن الثالث عشر، ولا شك أن حرقين سلاجقة نقشوا أبوابها الحجرية الفخمة، وتجوّلت في أضرحة كنائس أرمنية مهجورة في حقول آني، لم يعد هناك من يتلو داخلها آيات الكتاب المقدس سوى أسراب الطيور، وأشرفت على سهول تقاطرت منها الحملات الصليبية على تركيا.

تقف بالطبع إلى جانب هذه المواقع المسيحية كلها آثار عصور وأديان أخرى؛ ككنائس حيثية، ومعابد رومانية، ومعابد يهودية، ومساجد سلجوقية وعثمانية؛ فالثراء الديني في تركيا يختلف عن أي بلد في العالم، وزرت أطلال معبد يهودي من العصر الروماني في مدينة سارديس، وقرأت الكتابات العبرية على أرضياته الفسيفسائية، أما المساجد العثمانية الكبرى، تلك الآثار العظيمة التي أبدعها سينان، فتقف شاهداً على عظمة إسطنبول، وتعلن جميعها أن الله فرد صمد، أما المدينة التي تعكس شهوات الإنسان فلا أشعر فيها بعقيدتي أو بأي عقائد أخرى، بل إن ذاك الشعور الجليل لا أشعر به إلا في قلب (تركيتي)، في تركيا السهل الأوسط؛ إذ ما زلت أسمع أتباع أديان كثيرة يجأرون بالتسبيح عبر مفترقات تلك السهول الذهبية؛ وجدت وسط هذا المزيج من الآثار الحقيقة العالمية الكاملة

للأديان كلها الممثلة في أرض تركيا المقدسة، وهكذا ترين يا سيّدة ماري، لم تساعدني تركيا على تعميق إرثي المسيحيّ فقط، بل فتحت أيضًا الباب لي لفهم أديان الآخرين؛ أنا واثقة أن معظم الأتراك لا يدركون الأثر النفسي لبلادهم على المسيحيين.

ما رأيته في تركيا تحت ذلك الخزف اليابانيّ، وما قرأت من القرآن، وما ناقشت من موضوعات مع عدد كبير من الأتراك، ذلك كلّه أكّد لي ما كنت أتوقّعه من البداية: أنّ المسيحيّة والإسلام قائمان على المبادئ نفسها، المكرّرة في نصوصهما المقدّسة، والأرضيّة المشتركة للأديان الثلاثة الكبرى - المسيحيّة واليهوديّة والإسلام - واحدة تنصّ على حبّ الله والجار؛ الأمر سهل جدًّا؛ فيتلو كلّ مسلم سورة الفاتحة، تمجيدًا لله، عشرين مرّة على الأقلّ في صلواته اليوميّة، وهي تذكّر المسلمين دائمًا بقوة الله، وأسمائه الحسنی، ورحمته في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وبقدرته على غفران ذنوبنا:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ (سورة الفاتحة: ١/٧-٧).

هذا التكرار الشعائريّ يذكرّ المسلم بضرورة التوجّه إلى الله بقلبه، وروحه، وعقله، وعواطفه، وإرادته، حينما أقرأ سورة الفاتحة أو أسمعها تُتلى في المساجد أثناء الصلاة، أسمع أصدااء من الكتاب المقدّس، مثل كلمات في العهد القديم الرسميّ لسفر التثنية: «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ»، وكلمات المسيح في إنجيل (متى ٢٢ وإنجيل مرقس ١٢)، وهو يتلو الوصايا العظمى: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ؛ هَذِهِ

هِيَ الْوَصِيَّةُ الْأُولَى الْمُعْظَمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيْبَكَ كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالْأَنْبِيَاءُ...؛ هَذَا مَا تَعَلَّمْتَهُ بِصِفَتِي مَسِيحِيَّةً: أَنْ أَحَبَّ اللَّهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي وَرُوحِي وَأَنْ أَكُونَ مُخْلِصَةً لَهُ؛ فِيمَاذَا يَخْتَلِفُ هَذَا عَمَّا يَشْعُرُ بِهِ الْمُسْلِمُ حِينَ يَتْلُو الْفَاتِحَةَ؟

فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ إِنْجِيلِ مَتَّى، يَعلَنُ الْمَسِيحُ بِوَضُوحٍ أَنَّ ثَانِيَ أَعْظَمِ الْوَصَايَا هِيَ أَنْ: «تُحِبُّ قَرِيْبَكَ كَنَفْسِكَ»، وَفِي الْإِسْلَامِ أَيْضًا هُنَاكَ تَعَالِيمٌ لَا تَحْصَى تُؤَكِّدُ عَلَى أَهْمِيَّةِ حُبِّ الْجَارِ وَتَحْضُّ عَلَى الرَّحْمَةِ بِهِ، وَهَذِهِ الْقِيَمَةُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، كَمَا هِيَ فِي الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ، فَالْمُسْلِمُ يَشْكَلُ إِبدَاءَ مَحَبَّتِهِ لِمَنْ حَوْلَهُ جُزْءًا مَهْمًا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَدُونَ إِبدَاءِ ذَلِكَ الْحَبِّ لِمَنْ حَوْلَهُ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ حَبٌّ حَقِيقِيَّ لِلَّهِ؛ يَقُولُ نَبِيُّ الْإِسْلَامِ (ﷺ) فِي أَحَدِ أَحَادِيثِهِ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"^(١)، وَفِي تَرْكِيا يَأْخُذُونَ مَسْأَلَةَ حُبِّ الْجَارِ بِكُلِّ جَدِيَّةٍ، وَلَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ عَلَى الْمَسْجِدِ فَقَطْ، بَلْ يَشْكَلُ أَسَاسُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا، إِذْ يُؤْمِنُ الْأَتْرَاكُ أَنَّ حُبَّنَا لِلَّهِ لَا يَكُونُ صَادِقًا دُونَ بَذْلِ الْعَطَاءِ لِلْآخَرِينَ بِكَرَمٍ وَتَضْحِيَةٍ بِمَا نَحِبُّ، وَقَدْ تَأْخُذُ هَذِهِ النَّزْعَةُ الْخَيْرِيَّةُ شَكْلَ إِحْدَى تِلْكَ اللَّفَاتَاتِ الْخَفِيَّةِ السَّهْلَةِ الْغَزِيرَةِ، تَحَدَّثَتْ عَنْهَا فِي رِسَالَةٍ سَابِقَةٍ؛ فَتِلْكَ اللَّفَاتَاتُ الْخَفِيَّةُ غَالِبًا، الْمُؤَكِّدَةُ عَلَى قُوَّةِ الْكَرَمِ التَّرْكِي، هِيَ بِحَقِّ صَلَوَاتٍ صَغِيرَةٍ، وَهُنَاكَ أَيْضًا صَدَقَاتُ شَعَائِرِيَّةٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، مِثْلُ: الْأَضْحِيَّةِ فِي عِيدِ الْأَضْحَى، أَوْ إِعْطَاءِ الصَّدَقَاتِ لِلْجِيرَانِ الْمَحْتَاجِينَ أَوْ لِلْمُؤَسَّسَاتِ الْخَيْرِيَّةِ؛ فَالْأَعْمَالُ الْخَيْرِيَّةُ أَقْوَى رَوَابِطِ اللَّحْمَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي تَرْكِيا، وَهِيَ إِدْرَاكُ تَامٍ لِكَيْفِيَّةِ تَطْبِيقِ الْإِسْلَامِ فِي الْحَيَاةِ، بَلْ هِيَ مِنْ أَوْضَحِ تَجَلِّيَّاتِ الْقَاعِدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ الْحَاضَةِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَرَغْمَ اشْتِرَاكِ الْمَسِيحِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ فِي الْقَاعِدَةِ الذَّهَبِيَّةِ نَفْسَهَا، فَإِنَّهَا تَبْرُزُ أَكْثَرَ فِي الْحَيَاةِ

اليومية في تركيا، فلا يشك أحد أنّ خدمة الناس عبادة، وأنّ ضرب المثل والقُدوة هي أقصر الطرق إلى الله.

أنا معجبة بهذا الجانب الاجتماعي للإسلام وبالأهمية التي يوليها الأتراك لعمل الخير والتصدّق لصالح المجتمع؛ فالإسلام يعدّ الفرد نحلة عسّالة في خلية النحل البشرية، حاملاً فكراً يرمي إلى فعل الأفضل للمجتمع كلّ، ورغم أنّ الإسلام والمسيحية دينان مختلفتان اختلافاً كبيراً ممارسة وتطبيقاً، فإنّ الأساس المشترك لتعاليمهما الرئيسة يتشابه تشابهاً لا مثيل له؛ فلماذا إذاً يشقّ علينا السير في طريق الإنسانيّة بدأً بيد لاستكشاف هذا التشابه بدلاً من محاولة التركيز على الاختلافات والافتتال بسببها؟ هناك ربّ واحد فقط، ويجب علينا أن نحبه وأن نحبّ من حولنا، سواءً كان ميثودياً من أوهايو أو سنياً من قونيا؛ فهذا الحبّ هو جوهر ديننا، مهما اختلفت طرائق ممارستهما، في صفوف الكنائس أو على سجاجيد الصلاة، بدقائق الأجراس أو بنداءات المؤذنين.

في تركيا هناك مأخذان بالغاً الخصوصية على تدين المسلمين، أحدهما يتماشى مع عالم التقنية المعاصرة والديمقراطية وحقوق المرأة، فضلاً عن آخر يحمل آثار أسلافهم الأتراك قبل دخول الإسلام؛ فالمرء يصادف كثيراً من الممارسات المتعارضة مع الإسلام، مثل: ارتداء عين أو خرزة زرقاء للدرء الحسد، وقراءة الطالع، والتنجيم، وتصديق المشعوذين، وتفسير الأحلام، والتضحية بالديوك والدجاج في أماكن مقدّسة لضمان الحصول على زوج أو أطفال، وزراعة أشجار عملاقة لتأدية طقوس تجلب الحظّ، والعادة التي تحمل تناقضاً غريباً؛ ألا وهي عدّ إبداء الإعجاب بجمال الأطفال شرّاً! لطالما ثار فضولي لدى رؤيتي قطع النسيج المربوطة في الأشجار والآجام للوفاء بالنذور، وإذا تأملت هذه الممارسات الشائعة الغريبة الشاذّة، فستجدينها لا تقلّ غرابة عن بعض الشعائر الأرثوذكسية في طقوس مسيحية قائمة، مثل: احتساء النبيذ وتلوين البيض في عيد الفصح.

ثمة أشياء كثيرة حازت إعجابي واحترامي في الدين الإسلامي كما عرفته في تركيا، كما حدث معك يا سيّدة ماري حينما كتبت تلك الرسالة إلى القس كونتي؛ بادئ ذي بدء، أفترض أنني مثلك، أحب سهولة الإسلام، وخلوّه من الطقوس والأيقونات السمجة والأبهة والاحتفالات الشعائريّة، وأتفق معك تحديداً بشأن الإلهام، تبعته الصروح المعماريّة الرائعة، زوّدت بالقباب الفسيحة المفردة الخالية من المقصورات، وحينما زرت الكنائس الصخريّة البيزنطيّة في وادي جوريم في كابادوكيا، وتأملت الأيقونات الغريبة الفخمة للقديسين، والثعابين، والقصص المربعة المصوّرة على جدرانها بأسلوب يشبه أسلوب الكتب الفكاهيّة، بدا لي ذلك كلّهُ تصرّفًا صبيانًا جدًّا بعد أن سمعت ذلك النداء المهيّب أمس يرفعه المؤذّن في المساجد السلجوقيّة الجرائنيّة الرماديّة الصلبة في مدينة قيصري القريبة، وكم تأثرت أيضًا بالوقوف أمام شجرة دلب عمرها خمس مئة عام في مدينة الموتى ببورصة، وتأمّل ضريح السلطان مراد الثاني الصوفيّ المؤثر ذي القبة المفتوحة، ومن قبيل السهولة أيضًا أنّ النطق بالشهادة هو أوّل ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي حوار شخصيّ يعكس الإيمان، وليس طقسًا مقدّسًا معقدًا؛ فالنطق بالشهادة أهمّ صلاة لله، وبسهولة هذا الحوار وخصوصيّة أحد أكثر جوانب هذا الدين إثارة للإعجاب.

الأمر الآخر الذي يعجبني في الإسلام هو تسامحه مع الأديان الأخرى، وأنّ كثيرًا من الأنبياء، مثل: موسى، وعيسى، وإبراهيم، وداود، وسليمان، وآدم، ويونس، وإسحق، ونوح، ويعقوب وغيرهم مذكورون في القرآن؛ قرأت في القرآن: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (سورة النساء: ١٧١/٤)، ويعجبني كذلك الحسن الأخلاقيّ الرفيع الذي يتحلّى به الأتراك، ويؤكدّه التمييز بين الخطأ والصواب كما يعلمهم القرآن الذي يرفض أشكال العنصريّة والإرهاب كلّها ويلعنهما؛

يقول القرآن: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: ٣٢/٦)، وتعجبني أيضًا الصفات المشتركة بين المسيحية والإسلام؛ فالمسجد كالكنيسة مكان لإقامة الشعائر، ومكان للأمن والسلام والالتجاء، والفكرة المسيحية الخاصة بخدمة الآخرين، والقيام على توزيع نعم الرب، والتسليم برسالة الرب ومشيبته، وغفران ذنوب الفرد والمجتمع، كلها أمور مهمة في الإسلام أيضًا.

رغم أنني أرى التوجه إلى المسجد خمس مرّات يوميًا للصلاة من الصعوبة بمكان في حياتي اليومية الحافلة، فإنني أستمتع بلحظة التأمل أن أنغمس فيها حينما أسمع الأذان في شوارع المدن الكبيرة والقرى الصغيرة؛ في هذه اللحظة أتوقّف تمامًا لأستجمع أفكاري الخاصة بيومي، وأبتهج؛ لأنني على قيد الحياة في هذه اللحظة، وعندما أتوقّف فإنني أشارك أيضًا في تطبيق النظام السلوكي الإلهامي الذي يعلنه الأذان؛ يقلّ النشاط في الشارع دقيقتين، ويتوقّف الناس عن فعل أيّ شيء، وتصمت الأحاديث، وتكفّ أبواق السيارات عن النفير، ويتوقّف الباعة الجائلون عن الصياح، ويخفت صوت أجهزة المذياع، وتهدأ الأرصفة، وتنزل بركة خفية على الجوار وأهله، وأنا أيضًا أتوقّف وأصغي إلى جمال الأذان، وأستغرق وقتًا لأتلو صلاتي الخاصة؛ إذ يذكّرني الأذان بواجبي نحو الآخرين، كما يفعل المسلمون؛ حينما أسمعهم أفكر في أخطاء ربّما ارتكبتها في ذلك اليوم في حقّ الآخرين؛ فيدفعني الأذان أن أسأل نفسي: «هل تفوّت بأيّ كلمة قاسية، أو خطرت لي خواطر شريرة؟ ألم يكن بوسعي أن أكون أكثر لطفًا مع فلان؟» لديّ ثلاثة أصدقاء مصوّرين ناجحين في قونيا منحوني من وقتهم يومًا كاملاً لاصطحابي لرؤية المزارات، وفي نهاية اليوم زرنا قرية سيلا القريبة، فتوقّفوا خلال الزيارة؛ ليدخلوا مسجدًا لأداء صلاة العصر، وفي وقت لاحق، حينما كنّا نحتسي الشاي، سألتهم عمّا تعنيه الصلاة لهم، وعن سبب اهتمامهم

بأدائها وسط يومهم المزدحم، وعن كيفية نجاحهم في توفير الوقت اللازم لأدائها خلال يومهم، فشرحوا لي بمتهى الصبر أنّ القضية لا تكمن في إيجاد الوقت اللازم لأدائها، وأنّ تلك الدقائق المعدودة تمنحهم شعوراً بالنشاط الجسماني والنفسي دائماً؛ فيعينهم على مواجهة تحدّيات يومهم الحافل، والتفت أحدهم، وهو فوزي شيمشك، وقال: «لو استطاع الناس كلّهم في العالم، لا المسلمون فقط أن يحفظوا بلحظات السلام هذه كلّ يوم، فقد تقلّ نسبة المشكلات في العالم»، كان رأيه بسيطاً واضحاً جدّاً، وفي لحظة من أجواء الصفاء تحت شمس الأصيل، شاطرته تفاؤله.

الإسلام أحد الجسور التي يجب أن أجتازها بين تركيا وبلادي، واعتقد أنّ دوري مهمّ بوصفي مترجمة داعمة للحوار بين الأديان، فإذا كنت أستطيع -وأنا المسيحية- أن أحدث عائلتي وأصدقائي عن الإسلام؛ لأساعدهم على فهم جماله وتميّزه، فسأكون قد أسديت خدمة لهم جميعاً؛ أتمنّى أن أعزّز روحانية أبناء بلادي، ولو بقدر يسير، مثلما تعزّزت روحانيتي، وتعمّقت من خلال استكشافي القيم المشتركة بيننا وبين الإسلام؛ ربّما يؤدي ذلك إلى نشر السلام؛ وهو الهدف الأسمى للأديان كلّها.

علّمتني تركيا وشعبها وأسلوب حياته وشكل إسلامه كثيراً من الأمور؛ أدركت أنّ مواجهة التعدّد الدينيّ ومختلف الممارسات الدينية يمكنها أن تزيد المرء قوة، واكتشفت أنّ حبّ الطبيعة جزء مهمّ من أرواحنا، وأنّه يغرس البهجة في نفوسنا، ورأيت كيف تستطيع الأسرة أن تصبح مركزاً للمجتمع بأسره وللحبّ، وكيف تخلق الأسرة مساحة مقدّسة آمنة بعيداً عن صخب الحياة اليومية، وأدركت قوّة يستطيع الفرد أن يمنحها لمن حوله، وكيف تستطيع لمسة حبّ واحدة أن تضيء ساعات من الصفاء، واكتشفت كيف يستطيع الأشخاص أن يكونوا سفراء للخير، وكيف يمكن أن تتحوّل لفتاتهم الكريمة إلى وسيلة لجعل العالم مكاناً

أكثر هناءً، وتعلّمت من دروس الحبّ المستقاة من الرومي والصوفية أنّ عوالم الإيمان الغامضة حقيقة واقعة يجدر تبجيلها؛ فتناولهم الصوفي للإيمان جعلني أرى أنّ بلوغ الروحانية يتأتّى بحبّ الناس كلّهم والأشياء كلّها، بهدف إضفاء الرقة على الحياة، وتعلّمت منهم أنّ ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب؛ هذه الدروس كلّها المتسلّلة إلى ديني وتقاليدي وآرائي، أقنعتني أنّ الحبّ بسهولة هو سلوك موجّه نحو خير الآخرين، وأنّ الربّ يتجلّى في الحياة والحبّ لكلّ واحد منّا، وفي أشكال جمال الطبيعة كلّها، وفي خوارق حياتنا اليومية، وأهم شيء عندي أنّني أصبحت أؤمن أنّ الربّ يمثل قناعة أنّه لا بد أن يسود النور والجمال والخير؛ فالإيمان بالربّ هو التحلي بالأمل.

لعلّ أعظم درس تعلّمته أنّ المستقبل لا يمكن مجابهته إلا بالأمل لا باليأس، وأنا أؤمن أنّ المسلمين قوم مسالمون، وأنّ الإسلام لا يسعى إلى تدمير من يخالفه؛ إذ كيف لدين يذكر المسيح في كتابه المقدّس بهذا التسامح كلّهُ أن يضمّر السوء للمسيحية! سيصنّفني المخالفون لي في الرأي بالسذاجة، لكنني أؤمن بذلك، لأنّه يشكّل أمل حياتي؛ فيمكن أن تظلّ هذه القناعة موضوعاً لحوارات ودية بين الأديان، ولتصريحات زعماء دينيين، أو هيئات عالمية متّحدة؛ فالعلاقة اليوم بين المجتمعات الدينية الإسلامية، والمسيحية، واليهودية، هي أهمّ عامل يسهم في إشاعة السلام في العالم؛ لأنّه بسهولة في حال انعدام السلام بين هذه المجتمعات، لن يعيش العالم في سلام؛ في هذا العالم الواسع المليء بالأسلحة الشريرة الفتاكة، لا يمكن استغلال الدين في لعبة القوّة بين الحكومات المتغطرسة أو بين المتعصبين الحمقى.

نحن نعيش في أمريكا على أرض لا مثل لها في العالم؛ إذ يشترك اليهود، والمسيحيون، والبوذيون، والسيخ، والهندوس، والمسلمون، والملحدون، في الاحتفال بعيد الشكر، ويتمتّعون بحريّة العبادة،

ويجب على أمريكا أن تظهر للعالم أنَّ التآلف والتعايش السلمي ممكن في الداخل ثم في الخارج، ويجب على تركيا أن تظهر للعالم إلى أي مدى يمكن أن يكون الإسلام دينًا مسالمًا جديرًا بالإعجاب والاتباع لا دينًا مشوهًا بالنوايا السيئة؛ فمستقبل سكان الأرض كلهم مسؤوليتنا جميعًا ورهن أيدينا جميعًا، وكما قال المسيح: «طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَام».

كانت كل رسالة من رسائلك يا سيّدة ماري صانعة سلام صغيرة، وأتمنى أن يستمرّ قلمك وأقلام أخرى في إلهام روح الإخاء، وفي ختام رسالتي سأتركك مع كلمات لأبلغ صنّاع السلام، جلال الدين الرومي؛ فالحكمة البالغة لهذا المتصوّف التركي تحوي جوهر الروحانية الذي ينبغي أن يرشد جهودنا جميعًا في هذا الاتجاه:

«حاولت أن أعثر عليه فوق الصليب، لكنّه لم يكن هناك، فذهبت إلى معبد الهندوس وإلى الباغودا القديمة، لكنني لم أعثر له على أثر، بحثت فوق الجبال وفي الأودية، لكنني لم أتمكن من العثور عليه لا في الأعالي ولا في الأعماق، ذهبت إلى الكعبة في مكّة، لكنّه لم يكن هناك أيضًا، سألت العلماء والفلاسفة، لكنّه كان أرفع وأسمى، وأعلى من فهمهم، ثم بحثت في قلبي، وهناك رأيته حيث كان مستقرًّا؛ ما كنت لأجده في أي مكان آخر».

صديقتكم

قدرية براننج



جامع السلیمانیة يملأ أفق إسطنبول

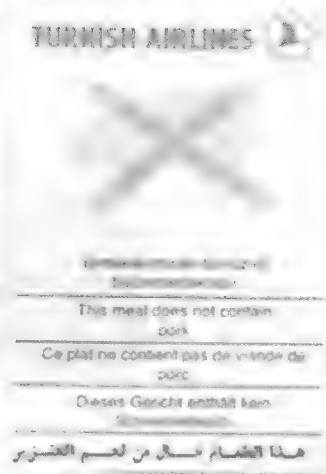


مسجد الخاتونية في قيصري



عش لقالق، المسجد الأخضر، في إزناك

صفحة من نسخة مصحف يرجع
إلى العصر السلجوقي ١٢٧٨م



تجهيز لموائد حلويات عيد الفطر (عيد السكر) في إسطنبول



زاوية أخى إفرين درويش فى قيسري



أرارات: جبل نوح



باب يُوْدِي إِلَى زَاوِيَةِ الشَّيْخِ تَوْرَسَانَ



شَرَايِطُ نَذْرِيَّةٍ مَرْبُوطَةٌ فِي مَوْقِعِ مَجْمَعِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، الْمَبْنِيِّ مَحَلَّ كَنِيسَةِ بِيْزَنْطِيَّةٍ



شرائط نذرية على شجرة توت عمرها خمس مئة عام، زاوية حاجي بكتاش

HİCRİ: 9 REBİÜLAHİR 1416

RUMİ: 22 AĞUSTOS 1411

Vakit:	İmsak	Güneş	Öğle	İkindi	Akşam	Yatsı
Vasati:	4.56	6.26	13.08	16.47	19.39	21.04

أوقات الصلاة المعلن عنها في الصحف اليومية

T.C. KÜLTÜR BAKANLIĞI

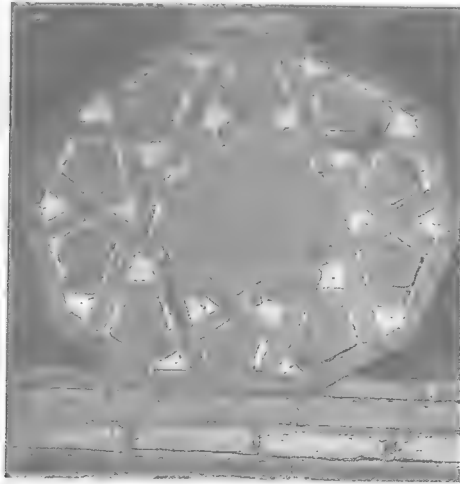
FİYATI : 100.000 TL.



KONYA MEVLANA MÜZESİ GİRİŞ BİLETİ

№ 22038

تذكرة الدخول لمتحف مولانا جلال الدين الرومي في قونيا



لوحة من البلاط على مئذنة الجامع الكبير في سيرت



جامع السليمانية في أدرنة عام ١٩٨٥م

الجزء الخامس

آفاق

الرسالة الرابعة والعشرون

سَلِمَ بَيْتَكَ مِنَ الْجُدَرِيِّ!

عزيزتي السَّيدة ماري،

اعتدت أن ألعب لعبة مع نفسي وأنا واقفة في قطار طويل في مكتب البريد، أو في رحلات كثيرة بالسيارة، أو أثناء انتظاري رحلات الطيران المتأخرة في المطارات، وأحياناً قُبيل نومي؛ أحب أن أفكر في نعم الله كلها التي حباني بها، وفي الأشياء الثمينة الرائعة كلها في حياتي، وأضع قوائم بما أقدره كله في مختلف جوانب حياتي، كأشخاص أحبهم، والحيوانات، والطبيعة، وهواية نفخ الزجاج، وعملي، ووطني، أمّا فيما يخصّ وطني، فأحبّ أن أضع قوائم تضمّ الأشياء كلها الغريبة، الساحرة، العجيبة، حتى السخيفة التي قدّمها بلادي للعالم، مثل: المغني بوب ديLAN، وموسيقى الجاز، والطب الحديث، والديمقراطية، والحرية الدينية، والمؤلف ويليام فوكنر، ألعب هذه اللعبة أيضاً مع فرنسا وتركيا.

ربّما لم تقدّم تركيا للعالم الإصلاح، أو التنوير، أو الثورة الصناعية، لكنّها كانت على مرّ التاريخ مشاركاً مهماً على الساحة العالميّة بدرجات متفاوتة؛ فعلى الصعيد الشخصيّ منحني تركيا كثيراً، وأتمنّى توضيح

ذلك في رسائلي هذه لك -يا سيّدة ماري-؛ لا تقتصر تلك العطايا على تقديري للفنّ، والعمارة، والأحجار المتحدّثة، والتفاعل مع ثقافة أخرى، وفرصة عبوري جسورًا حسّية ومعنوية، بل تضمّ أيضًا دفء العلاقات، والثقة في الإنسانية، وتعلّم درس الإصرار، والإيمان بصالح إخوتي في الإنسانية وبالإنسانية كلّها.

تتأثر الثقافات القويّة كلّها ببعضها ببعض؛ فمنحت تركيا باقي الدول عالمًا من الراحة والرفاهيّة، من خلال الأثاث، مثل: الأرائك بأنواعها، ومن خلال مفهوم النظافة المشاهد في المناشف التركيّة الثخينة وحمام البخار وفنّ التدليك، ومن خلال نمط الدُرّاعة والعِمّامة والنسيج المطرّز والقטיפيّة والعباءات، ومن خلال السمة الشرقيّة، ومفهوم الصدقة الجارية، وشاركت تركيا العالم ملذّات مطبخها؛ فلا يمكننا تصوّر الحياة الآن من دون القهوة أو اللبن الخثير أو البسطرمة أو الحلوى الطحينيّة أو الكباب أو الملبّن أو الكافيار؛ فهل يفكّر الفرنسيّون صباحًا عندما يرشّفون القهوة بالحليب مع مخبوزات الكرواسون أنّ إفطارهم من ابتكار الأتراك؟ بل إنّ مفردات لغتنا قد زادت ثراءً بفضل بعض المصطلحات الإداريّة، مثل: الباشا، والتابع، والسنجق وغيرها؛ وجلبت القوافل التركيّة كنوز الشرق الأقصى إلى مجالس البيوت الأوربيّة الراقية، ومنحت الثقافة التركيّة قاعدة الأدب العالميّ أشعارًا شجيّة بالغة التأثير للروميّ ويونس إمّره، وقدّمت للعالم الدروس المستقاة من مبدعيها الأقوياء، مثل: سنان وأتاتورك، وقدّمت لنا تركيا لعبة البريدج "السد"، والسجّادة التركيّة، والتوليب أروع الزهور!

ربّما كان أهمّ إرث منحته تركيا للعالم هو ما ساعدت في تحقيقه -يا سيّدة ماري-؛ فبفضلك استطاع العثمانيّون أن يتركوا أثرًا خالدًا

في العالم، ومما يدعو للدهشة أَنَّ ذلك الأثر يتمثل في انعدام الأثر؛ منحت تركيا للعالم وجنات أطفال ناعمة ليقبلوها؛ لا بدَّ أَنَّك تعرفين ما أتحدث عنه؛ حينما كنتِ في السادسة والعشرين من عمرك، تفتنين مجالس لندن ومحافلها بجمالك وذكاكك، تلقيت ضربة مدمرة قادرة على تدمير أية امرأة أخرى ممن حولك، لكن ليس أنت -يا سيّدة ماري-؛ فقبيل الاحتفالات بعيد الميلاد عام ١٧١٥م أصابك مرض الجُدْرِيّ؛ دام المرض قرابة عشرين يوماً فقط، لكنّ ندويه وآثار بشوره المروعة صاحبتك طيلة حياتك؛ صارت بشرتك مليئة بندوب عميقة، وفقدتِ حاجبيك وأهدابك؛ لم تذكرني ذلك في أيّ من رسائلك، لكنني أتصوّر أثر ذلك بلا شكّ على رؤيتك لذاتك، وما أضافه على علاقتك بزوجك من توتر، بل وكيف جعلك دون شكّ محلاً لشفقة الأوساط الاجتماعية في لندن؛ كنت قد رأيت أخاك يموت بأثر إصابته بهذا المرض، ورغم محاولتك إخفاء وجهك بمساحيق خاصّة، فلا شكّ أَنَّك تحلّيت بقدر هائل من الشجاعة لتواجهي حياتك، كما لو كان جمالك الشهير -الغابر- لا علاقة له بما صرت إليه، وبما كان الناس يرونه فيك، وبعد أربعة أشهر تلقى زوجك أنباء تعيينه سفيراً لدى البلاط العثمانيّ، وبحلول شهر يوليو/تموز، بعد مرور سبعة أشهر فقط على ذلك الحدث المصيريّ، كنت في طريقك إلى تركيا.

كانت رسائلك المبهجة الواصفة جمال النساء التركيات الساحر تخلو تمامًا من أيّ شعور بالرتاء للذات أو بالغيرة من الأخريات، لكنني أشعر أَنَّك كنت حساسة تجاه الموضوع؛ لأنّك فقدت جمالك، ولأنّ هؤلاء النساء يبدون فئات موازنة بما أصابك من تشوّه؛ فأية شجاعة تحلّيت بها كي تدخل في ذلك الحمام التركيّ على مرأى من منّي امرأة، وتظهري ندوبك أمام هؤلاء الجميلات كلهنّ ذوات البشرة ناصعة البياض؛ وأيّ ثبات تمتعت به كي تسيري أمام سيّدات من عليّة القوم ومن بلاط

السلطان، وأنت تشعرين أنهنَّ جميعاً يتهاوسن خلف ظهرك، مشفقات على هذه السيِّدة الإنجليزيَّة المسكينة ذات البشرة البشعة؟ لا عجب أنك كثيراً ما أشرت في رسائلك إلى البشرة ناصعة البياض للنساء التركيات؛ كانت بشرتك الإنجليزيَّة الوردية ذات يوم في بياض بشرتهنَّ، لكنَّ ضرراً رهيباً خلفه الجُدريّ نزع الخيلاء من داخلك!

أعرف أنك من ضحايا الجدريِّ، وفي بداية إقامتك بتركيا، كنت في أدرنة، فتعرَّضت لموقف أدهشك؛ كان ذلك في عصر قلَّ فيه التفاهم بين أوروبا والشرق، وأتسمت أنت بموضوعيتك في تشجيع ثقافة جديدة بدت وقتئذٍ أنها عادة غريبة؛ كتبت في رسالة طويلة إلى صديقتك سارة تشيويل في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م تقولين:

”على ذكر مرض الدرن، سأخبرك شيئاً أثق أنه سيجعلك تتميَّنين لو كنت هنا؛ تعرفين مرض الجُدريّ الفتاك المنتشر بيننا، لا ضرر منه مطلقاً هنا بفضل اختراع يطلقون عليه: (التطعيم)؛ تأخذ مجموعة من النسوة العجائز هذه المهمة على عاتقهنَّ؛ ففي كلِّ خريف في شهر سبتمبر/أيلول، حينما تقلَّ ذروة المرض، تراسل العوائل فيما بينها لمعرفة الراغب في التطعيم، وتُشكل مجموعات لهذا الغرض، وحينما تلتقي المجموعة -عادة ما تضم خمسة عشر شخصاً أو ستّة عشر-، تأتي العجوز حاملة صدفة جوز مليئة بأفضل أنواع الجُدريّ الميِّت، وتسال عن الوريد المُراد حقنه، وتثقب فوراً الأوردة المختارة بإبرة كبيرة -لا يسبب ذلك إلّا ألماً خفيفاً، كآلم الخدش العاديّ-، ثم تحقن الوريد بالسّم بقدر ما يحمل سنّ الإبرة، ثم تربط الجرح الصغير بجزء مجوّف من الصدفة، وبالطريقة نفسها تثقب أربعة أوردة أو خمسة، ويقضي الأطفال أو المرضى الصغار بقية اليوم في اللعب معاً، ويظلّون في أتمّ صحة حتى اليوم الثامن من الإصابة، ثمّ تصيهم حمى تُلزهم الفراش يومين، وفي أحوال نادرة جداً ثلاثة أيّام، ونادراً

ما تزيد البثور في وجوههم عن عشرين بثرة أو ثلاثين لا تخلف أي أثر، وفي غضون ثمانية أيام يستعيدون كامل عافيتهم“.

ما شاهدت لم تكن سوى التلقيح ضد الجدري بحقن جرثومة ميتة للمرض، كانت رؤية هذا الحدث في الأهمية نفسها لإصابتك بالمرض، وقد منحتك فرصة للتعبير عن صبرك على الحقيقة؛ فبدلاً من نبذ هذا الإجراء الذي قد يبدو همجياً، دفعك فضولك الفطري لتجربته، وقررت تلقيح ابنك في تركيا:

”كل عام يخضع الآلاف لهذه العملية، يقول السفير الفرنسي صاحكا: (إنهم يتلقون تطعيم الجدري هنا، مثلما يحصل الأشخاص على الماء في بلدان أخرى)، لم يحدث قط أن مات شخص جراء هذا الإجراء، ويمكن أن تتأكد لديك ثقتي كل الثقة من سلامة هذه العملية، لأنني قررت إخضاع ولدي العزيز لها“.

شجعتك طبيب في السفارة البريطانية على إخضاع طفلك البالغ خمس سنوات لهذه العملية، وقد ذكرت في رسالة إلى زوجك في مارس/آذار ١٧١٨م: ”طعم الطفل يوم الثلاثاء الماضي، وهو الآن يغني، ويلعب، ولا يطيق صبراً على تناول عشاءه؛ أدعو الله أن تحوي رسالتي القادمة أخباراً سارة عنه“.

نسينا اليوم رعباً أشاعه هذا المرض في العالم قديماً؛ فخلال القرن الثامن عشر وحده حصد المرض أرواح ما يزيد عن ستين مليون شخص، ولقيت الملكة ماري الثانية -التي وُلدت في عهدها- حتفها بهذا المرض المتسبب في مقتل خمسة ملوك أوربيين آخرين خلال ذلك القرن، وقضى الجدري على إمبراطورية الإنكا في بيرو وشعب الأزتك في المكسيك خلال القرن السادس عشر، وحصد أرواح ٩٠٪ من الهنود الحمر في القرن الثامن عشر، وكانت أفدح الخسائر في الأرواح من نصيب الأطفال دون الخامسة؛ إذ كان ثمانية من كل عشرة أطفال يموتون نتيجة

الإصابة به، وكان ثلث الناجين من الموت يفقدون أبصارهم، وقد ترك المرض ندوبه على أوجه ستالين، وهنري الثامن، والملكة إليزابيث الأولى، وإبراهيم لينكولن، وفي القرن العشرين لقي ما يزيد عن ثلاث مئة مليون شخص حتفهم نتيجة إصابتهم بالجُدريّ، ولا تزال هناك مخازن لجراثيم الجُدريّ في معامل سرّية في روسيا، وإنجلترا، والولايات المتّحدة جاهزة للاستخدام في أيّ حرب عضويّة سلاحًا أشدّ فتكًا من أيّة قنبلة نوويّة أو صاروخ.

رغم الاجتياح الهائل لهذا المرض، كان له علاج وقائيّ معروف منذ قرون، يُعرف باسم التلقيح، ويعتقد بعض الناس أنّه مُورس في الهند منذ عام ١٠٠٠ ق.م، ثمّ استخدمه الصينيّون، وكان الهنود يمسحون الجروح بصديد الجُدريّ، وكان الصينيّون يجعلون المريض يستنشق مسحوق القشور لبثور الجُدريّ، وفي الحاليتين كان المريض يصاب بطور ضعيف من أطوار المرض ثمّ يُشفى شفاء تامًّا، يُعتقد أيضًا أنّ الأطباء العرب عرفوا التلقيح في القرن السادس، وانتشرت هذه الأنواع من الطُعم حتى وصلت إلى تركيا العثمانيّة حيث شاع استخدامها، وكان هذا ما شاهدته في أدرنة، استخدم الأتراك الجوز لتهيئة مزرعة الجراثيم، من خلال حقن صديد الجُدريّ في لبّ الجوز وتركه ليتخمّر، وينمو في البيئة الدافئة لقشرة الجوز؛ وقد ختمت رسالتك إلى سارة تشيويل قائلة:

”ندفعني وطنيتي أن أحاول نشر هذا الاكتشاف المفيد في إنجلترا، ولا بدّ ألاّ أتردّد في الكتابة لبعض أطبائنا عن هذا الأمر تحديدًا، إذا شعرت أنّ أيّا منهم يتمتّع بالفضيلة والنضحية من أجل صالح البشريّة، لكنّ هذا الوباء يعود بنفع هائل على الأطباء؛ فلن يتمكن جسور يبحث عن القضاء على هذا المرض من مواجهة سخطهم؛ إذا بقيت حيّة حتى أعود، ربّما سأتحلّى بالشجاعة كي أحاربهم بالرغم من ذلك كلّه“.

قد حاربتهُم بالفعل؛ فبعد عودتك من تركيا إلى إنجلترا أطلقت حملة نشيطة لتشجيع هذه الممارسة، وتبين أن الطريق كان وعراً جداً، ربما لست أول ناقل معلومات إلى إنجلترا عن التطعيم، فأحد الأطباء الإيطاليين في القسطنطينية أعطى تقريراً عن ذلك قبل عودتك بأربع سنوات، لكنّ كلامك هو اللافت الانتباه؛ فقد طعّمت ابنتك علناً على يد طبيب السفارة نفسه الذي طعم ابنك في القسطنطينية، ويُعتقد أنّ ابنتك ماري هي أول من طعم في إنجلترا؛ فاثرت الاهتمام بهذه العملية في كلية طب لندن، فتحلّى بعض الجراحين بالشجاعة الكافية لإجراء تجارب ناجحة، ودخولك هذه التجربة، وتشجيعك الآخرين على خوضها دفع العائلة المالكة، والمترفين، والساسة المرموقين إلى تطعيم أطفالهم، الأمر الذي أذن بانتشار هذه الممارسة بين الطبقات الراقية في إنجلترا، غير أنّ ذلك الحماس لم يدم طويلاً للأسف! فرغم النجاح المبدئي المتحقق من عام ١٧٢١م إلى عام ١٧٢٣م، سرعان ما زادت حدة المعارضة الدينية للتطعيم؛ إذ كان الجدل الدائر حول هذه المسألة عنيفاً ومتطرفاً؛ فقد اعتقد بعض الموصوفين بأنهم "رجال الدين" أنّ هذه العملية ضدّ إرادة الربّ، لأنّه يرسل الجدري للبشر عقاباً على عمل شيطانيّ وللسيطرة على تزايد عدد الفقراء بوسيلة طبيعية!

طالت هذه الحماسة الأطباء أيضاً؛ إذ غضبوا، لأنّ هذه العملية الناجحة لم يكتشفها أطباء مثلهم، بل اكتشفها "الشامانيون" (الأتراك قبل الإسلام) في بلاد غير غربيّة، وفوق هذا كلّه؛ لأنّ من يروج لهذه العملية امرأة؛ كانت تلك المرأة أنت -يا سيّدة ماري-؛ فقام الأطباء بتزوير نتائج الحالات الخاضعة للتجربة، ونشروا الأبحاث المنددة بهذه العملية، وسعوا لإثبات أنّها تسفر عن متوسط وفاة أعلى ممّا كان يُعتقد من قبل، وأنّها تُسبّب انتشار أمراض أخرى، مثل: الزهريّ؛ فتمّ وأد عملية التطعيم في مهدها، وبدأت تندمين على نشر هذه الممارسة التركية

في بلادك؛ لأنها جلبت عليك وعلى عائلتك كثيرًا من الخزي والاضطهاد، لكنك ثابت، ولم تستسلمي لهذا الجدل الدائر، ونشرت دون إمضاء كتيبًا لاذعًا تستنكرين فيه احتيال الأطباء وجهلهم، وتلقين باللوم عليهم، لا على الجراثومة المضادة، ولو أنهم استمعوا إليك، لمنعوا عنك كثيرًا من الأسى؛ فقد تجاهلت أختك السيدة جاور عرضك تطعيم ابنها مع ابنتك ماري؛ فمات بعد عامين إثر إصابته بالجدرى، ووقعت أكثر المآسي إثارة للسخرية، حينما توفيت صديقتك سارة تشيول -التي كتبت إليها تلك الرسالة الحماسية القوية تصفين فيها عملية التطعيم في أدرنة- متأثرة بهذا المرض عام ١٧٢٦ م.

عقب خمود عاصفة حقد وجدل أثيرتها في إنجلترا، دار الفصل الثاني من قصّتك في بلادي؛ فقد نجحت جهودك في "نيو إنجلاند" (إنجلترا الجديدة) عندما أعلن مجموعة من الأطباء المرموقين دعمهم للحركة، على الرغم من عاصفة الجدل المثارة هناك أيضًا، وفي عام ١٧٢١ م وصل بوسطن عبّذ من باربادوس، وأوضح كيف تلقى التطعيم في وطنه الأم السودان بأسلوب الخدش نفسه المستخدم في أدرنة؛ فأكد النتائج النهائية المبدوءة بجهودك في إنجلترا، وشرع الأطباء الأمريكيون يستخدمون هذا الأسلوب؛ فلاقت عملية التطعيم قبولاً واسعاً بعد ما حققت نتائج ناجحة، عندما اجتاح الوباء بوسطن عام ١٧٢٢ م؛ إذ نجا كل من خضع للتطعيم، ولم يصب بأي أذى، وأمر جورج واشنطن بتطعيم جنود الحرب الثورية كلّهم ممّن لم تسبق إصابتهم بالمرض، وهكذا شاركت جهودك مشاركة غير مباشرة في الانتصار في حربنا لنيل الاستقلال من حكم ملكك جورج الثالث.

انتقلت أحداث قصّتك إلى إنجلترا مجددًا عبر المحيط الأطلسي؛ فقد بدأ شاب ذكي يدعى إدوارد جينر في جمع الخيوط كلّها معًا؛ لاحظ جينر حينما كان صبيًا أنّ العاملين في صناعة الحليب المحتكين

بجدريّ المواشي، أي: جدريّ الأبقار، لا يصابون بالمرض البتّة، وبعد أن صار طبيبًا، لم تغب هذه الملاحظة عن باله، وبعد الاستقصاء أعطى ملاحظاته في بحث للجمعية الطّبيّة في وطنه؛ انتشرت نظريّته في العالم الغربيّ بحلول عام ١٨٠٠م، وكان من الشّجاعة بحيث طعم ابنه، كما فعلت يا سيّدة ماري، لكنّه لم يطعمه بجرثومة الجدريّ، بل بجرثومة جدريّ الأبقار؛ إذ تمخّضت تجاربه وأبحاثه عن استخدام لقاح لجدريّ الأبقار يحصّن البشر ضدّه؛ وهكذا اكتشف لقاح الجدريّ؛ لم يطل عمرك لتري هذا النجاح، لكنّ شجاعتك على نشر هذه الممارسة، ومثابرتك، واستمرارك كنّ السبب في إنقاذ حياة الملايين منذ ذلك الحين في أنحاء العالم جميعًا!

هل كان جينر سيتمكّن من إنجاز ما أنجزه بعد مرور تسعة وسبعين عامًا لو لم تمهدي له الطريق؟ لو لم تكن لديك شجاعة -ازدادت قوّة نتيجة خوفك الشخصي من هذا المرض- لمواجهة المعارضين كلّهم ولريادة الطريق، أنا واثقة أنّ جينر وغيره من العلماء الحقيقيّين لم يكونوا ليعثروا على الطريق، ويكتشفوا وسيلة للقضاء نهائيًا على المرض؛ إذ كان دورك مهمًّا كدور أيّ عالم، وقويًّا كقوّة أيّ لقاح؛ لأنك تحلّيت بالشّجاعة المستنيرة لتحديّ الوسط الطّبيّ والرأي العامّ القاسيين قسوة الجدريّ غريمك.

بعد حملات تلقيح ناجحة استمرّت طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، أعلنت منظّمة الصّحة العالميّة رسميًا القضاء على مرض الجدريّ عام ١٩٧٧م، وإلى يومنا هذا لا يزال الجدريّ هو المرض البشريّ المعدّي الوحيد المقضيّ عليه نهائيًا من العالم؛ هذا هو إرثك للعالم -يا سيّدة ماري-، ناتج كلّ عن ملاحظة دقيقة لممارسة تجري في غرفة صغيرة في مدينة أدرنة العثمانية، وعن اقتناعك بفائدتها، وجرأتك على عبور الجسر بها ومنحك إيّاها بلادك؛ لن تُسمع أبدًا كلمات اللعنة الشهيرة: "عسى أن يدهم الجدري بيتك!" إلّا في مسرحيّات شكسبير، ولن تُضطرّ الأمّهات ثانية إلى مشاهدة أطفالهنّ يقعون فريسة للموت

أو للتشويه بسبب هذا الوباء؛ من الآن فصاعدًا ستنعم أمهات العالم بمتعة
تقبيلهنّ وجنات أطفالهنّ الوردية الناعمة الخالية من التدوب، هذا كلّ
بفضل هدية من بلد مميّز، جلبتها أنت؛ فأنت أكثر النساء شجاعة وتميّرًا!

وتفضلي بقبول عظيم احترامي
كاثرين براننج

على أريكتها استلقت فلافيا البائسة،
وزفرت العذاب من عقلها الجريح،
وأمام مرآة على يمينها تبرمت؛
لأنها تشيح الآن عن الوجه المنشود؛
كيف تغيرت! واحسرتها! إلام صرت!
هذا مشهد مروع لصورتي لا أعرفه!
أين بشرتي؟ أين نصارتي المتألقة
التي بشرتني بالسعادة لسنوات قادمة؟
كيف لي أن أنعم بالسعادة بهذا الوجه!
ومن يسعى للقائي بعد أن يطالعه!
كم أتمنى أن تشرق طلعتي بتورد زاه!
وتتألق عيناى برحيق حياة جديدة!
أيتها المرأة الغادرة، ردي علي نصارتي المعهودة،
للأسف! أنا أهذي، فلم يعد لتلك النضارة وجود!

السيدة مونتاجير "فلافيا"



نصب الشمس التذكاريّ، أقامه ويليام ويتنورث عام ١٧٤٧م تخليدًا لذكرى
السيدة ماري على أراضي قلعة ويتنورث (يوركشاير في إنجلترا):
”إحياء لذكرى السيدة المحترمة ماري وورثلي مونتاغيو التي أحضرت
عام ١٧٢٠م لقاح الجدريّ من تركيا إلى إنجلترا“

الرسالة الخامسة والعشرون

اقتحام الماضي

إلى محسن إلياس صوباشي

عزيزتي السيدة ماري،

أستمتع -مثلك- بزيارة المواقع واكتشاف الثروات الثقافية التركية؛ إذ خرجتُ في كثير من التَّزه التي خرجتُ فيها؛ لقد تجولتُ البوسفور في قارب طويل، وشاهدتُ على ضفافه المنازل الخشبية والحدائق والغابات والمساجد المرصوفة، مثل: "خزانة عرض للتحف زخرفتها أمهر الأيدي"، وزرتُ جامع السليمانية في أدرنة، واستكشفتُ شوارع بيرامرتدية لباساً مدنياً متواضعاً، وساومتُ تجار السوق الكبيرة "جراند بازار" بلغتك التركية المهيبة؛ فكان وصفك لتلك المزارات البوسفورية، وقصر طوب قابي، وكنيسة آيا صوفيا، وجامع السليمانية، والهيبودروم -ساحة الألعاب البيزنطية-، والمسجد الأزرق بناء السلطان أحمد، وصفاً دقيقاً، كوصف أي مرشد سياحيٍ معاصر حتى إنك زرت تكتية الدراويش، وشرحت طقوسهم.

أثارت رسالتك من أدرنة في بداية إقامتك بتركيا اهتمامي؛ إذ تحدّثت عن زيارتك لخان عثمانيّ -مخزن تجاريّ-، ووصفت دهشتك لرؤية الجمل هناك، هذا "الحيوان من فصيلة الأيائل، وهو أطول بكثير من الحصان، وسريع جدًّا؛ إذ يستطيع أن يسبق أكثر الجياد سرعة، وهو مخلوق قبيح، يفتقر إلى رشاقة الثور"، وأعطيت وصفًا مفصّلًا للمبنى: "أرى أنّ إنشاء هذه المؤسسات لفئة خيريّة أكثر منطقيّة من إنشاء أديرة الرهبان"؛ الآن تجذب هذه الأخوان^(١) -لا الجمال- اهتمامي أنا أيضًا حتى إنّها أصبحت جزءًا مهمًّا من حياتي طوال الثلاثين عامًا الماضية؛ فمِنذُ أن وقعت عيناى على مدرسة جوق في سيواس خلال زيارتي الأولى إلى تركيا، استحوذ عليّ ولع البحث عن الذهب، وكنت أسافر سنويًّا للبحث عنه، وبذلت كثيرًا من الوقت، والجهد، والنقود، والطاقة في سبيل ذلك، وارتديت أنا أيضًا في رحلاتي لباسا نسائيًا متواضعًا مثلك، لكي يميّزني عن السائحين المعتادين، ربّما لم يكن فخماً كالذي ارتديته، لكنّه كان متناسقًا على آية حال؛ فهو لباس عمليّ أكثر منه أنيقًا، مع حذاء متين، ونُقبة تصل إلى الكاحلين، وقميص بكمّين طويلين، ونظارة شمسيّة، وغطاء رأس يقي من أشعة الشمس ومن النظرات المستهجنة، اكتمل اللباس بزينة، مثل: حقيبة نسائيّة متينة، معلّقة على الكتف، مليئة بأدوات الاستكشاف الضروريّة: كشّاف، شريطة قياس، دفتر ملاحظات، أقلام حبر، أقلام رصاص، بطاريات وعدسات للمصوِّرة، زجاجة ماء تلازمي، كتيّبات إرشاديّة، أوراق، قليل من بسكويت «أولكر»، دفاتر رسم، صور قديمة مقصوصة من كتب مصفّرة... إلخ، كما ترين -يا سيّدة ماري-؛ فعملية البحث عن أحجار ذهبيّة أكثر تعقيدًا من نزهة لطيفة بقارب طويل عبر البوسفور؛ لأنّها تتطلّب التحمّل لقيظ سهول الأناضول، وغبارها، وطرقها الخطرة، وفنادقها، وأحوالها الصعبة، غير أنّ نداء تلك الأحجار كان دائمًا أقوى من أيّ عناء تحملته، وتألّقتها

(١) جمع خان، وتُجمّع على خانات أيضًا.

أضاء حياتي بوسائل عجيبة، لكنني لم أبحث عن أية أحجار ذهبية، بل عن تلك المستُخدمة في بناء الآثار الباقية من عهد الإمبراطورية السلجوقية، ولم أبحث عن أية آثار، بل عن أسلاف صرح شاهدته في أدرة؛ هي نُزل للمسافرين في سهول الأناضول الشاسعة المشيدة على الطرق المتشعبة من العاصمة السلجوقية قونيا.

تحدثت إليك في السابق عن السؤال المتكرر: «لماذا تركيا؟ ولماذا العودة إلى تركيا كل عام طوال الثلاثين عامًا الماضية؟»؛ أخبرتك في تلك الرسالة أنني ذهبت إلى هناك في بادئ الأمر لأشبع رغبتني في رؤية مبنى استحوذ على تفكيرني منذ أن وقعت عيناى أول مرة على صورة له أثناء محاضرة دراسية، حاولت أيضًا أن أشرح لك في رسائل كثيرة أخرى أسباب عودتي إلى تركيا كل عام؛ إنه الكرم التركي، وتلك البصمة التركية، وثمار الخوخ، وأوجه الشبه بين الأتراك والأشخاص الذين نشأت بينهم، لكن إذا أردت معرفة الحقيقة، فإنّ ولعي بهذا المبنى في سيواس وأمثاله من المباني التركية كان القوة الدافعة لأن أعود عامًا بعد عام؛ فقد تكون تركيا عامرة بأشخاص ودّ وبطيعة جميلة، لكنّ سحر تلك الأحجار هو المغناطيس الذي يجذبني للعودة كل عام.

يتعذّر عليّ تفسير هذه القوة المغناطيسية الجاذبة، وأحياناً أكتفي بهزّ كتفيّ قائلة للآخرين -كما أقول لنفسي-: لا تفسير للأمر؛ إذ ثمة ثوابت في حياة المرء لا يحاول تفسيرها، مثل: طريقة تناوله القهوة، أو خفقان قلبه كلما اقترب من مدخل منزله، أو نظرة مميزة منها يعرف أنه وجد حبّ حياته؛ فهذه الأمور لا يمكن تفسيرها من الناحية العلمية؛ فهي تحدث فقط، والحال نفسه لإعجابي الشديد بالعهد السلجوقي من جانين: جانب المجتمع والثقافة في هذا العهد، وجانب فنّ أنتجه.

من هم السلاجقة؟ وما إمبراطوريتهم؟ قد تبدو حضارة السلاجقة -كحال الإيتروسكان أو السلتيين- بعيدة، منعزلة، غير مهمة في مسيرة التاريخ المديدة، لكنها تمثل لي لحظة مجيدة في تاريخ الحضارة؛ انطلق السلاطين السلاجقة من عاصمتهم المتألقة قونيا؛ فكان عهدًا استثنائيًا من النواحي السياسيّة، والتجاريّة والفنيّة؛ دام عهدهم فترة قصيرة جدًا، لكنّه كان عهدًا ذهبيًا؛ ازدهر حكمهم من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، ووقع بين حدثين مصيريين غيرًا وجه العالم: هما الحروب الصليبيّة، والغزو المغوليّ، لكن في غضون مئتي عام فقط، عام ١٠٧٧م - ١٣٠٧م، تمكّن السلاجقة من ترك بصمة اقتصادية وثقافيّة قويّة، والأهم من ذلك أنّ العهد السلجوقيّ أنتج بعض أعظم الفنون المعماريّة والزخرفيّة وأجملها.

هؤلاء السلاجقة هم مؤسّسو تركيا المعروفة اليوم، وهم آخر القبائل التركمانيّة النازحة ببطء تجاه الغرب منذ القرن التاسع تقريبًا من المنطقة المحيطة ببحيرة بايكال في سيبيريا، بحثًا عن مراعي خضراء، ومواطن جديدة، وفرص واعدة، وهم مجموعة من الأتراك السلاجقة المستقرّين بالفعل في إيران اتّجهت غربًا، وعُرفت باسم: السلاجقة العظام أو الشرقيين؛ ترك هذا الفرع من السلاجقة الشرقيين بلاد ما وراء النهر -المنطقة الواقعة بين بحر آرال وبحر قزوين- وخراسان -المنطقة الواقعة في شمال غرب إيران- حتى وصل الأناضول مع بدايات القرن الحادي عشر، كان السلاجقة في الأصل شامانيين، ثمّ بدؤوا يعتنقون الإسلام خلال مسيرتهم نحو الغرب، ورغم أنّهم احتفظوا بعناصر معيّنة من ثقافتهم الأصليّة، فقد اعتنقوا الإسلام عن يقين، وصاروا مدافعين مخلصين عن العقيدة، وسرعان ما سيطروا تدريجيًا على أغلب مدن شرق الأناضول ووسطه، وحينما انتصروا على البيزنطيين في معركة «ملاذكرد» الفاصلة في شرق تركيا عام ١٧٠١م، انفتحت لهم أبواب الأناضول.

كان هؤلاء السلاجقة بُناة، سواءً للمباني أو الحضارات؛ وأشعر بشيء من الألفة مع تلك المساعي النشيطة لهؤلاء السلاجقة؛ لأنّ بلادي -الولايات المتحدة- حققت كثيرًا خلال مئتي عام، كان السلاجقة محاربين أشداء؛ حاربوا البيزنطيين ليشيدوا إمبراطوريتهم، واضطروا لصدّ الهجمات الصليبيّة المتوالية، تلك أراضيهم وتخرّب مدنها طوال عهدهم، وفي النهاية اضطروا لمواجهة المغول للدفاع عن أرواحهم، إلى أن خسروا إمبراطوريتهم بأسرها للمغول في النهاية، بالرغم من هذه القلاقل كلّها على مدار مئتي عام، تمكّنوا من بناء حضارة بزغ نورها أقوى من حضارة الدولة البيزنطية والصليبيين والمغول جميعًا.

تألّقت هذه الحضارة المزدهرة من عدّة أوجه؛ انظري إلى تلك الأحجار الذهبية، فسترينها أنت أيضًا، وتأملّي آثارهم الثقافيّة؛ يُعزّي الفضل للسلاجقة في إحياء الخلافة الإسلاميّة، وإضفاء الهيبة والاحترام مجدّدًا على حكمها، وقد شجّعوا الحياة الدينيّة، ونشطوا أيضًا في المجالين العلميّ والأدبيّ باعشرين روح إلهام جديدة في الحياة الثقافيّة الإسلاميّة، ولمّا كان السلاجقة الأناضوليّون عازمين على تبوّء مكانة مرموقة في النظام العالميّ وقتئذٍ، فقد بثّوا الحياة في العالم الإسلاميّ بفضل نظم حكمهم، وحرصهم البالغ على العدالة الاجتماعيّة، وأسلوب قيادتهم القويّ، وتقاليدهم الدينيّة، وموقفهم المشجّع لممارسة التجارة والعمل الحرّ، وعنايتهم بالتعليم، وعلاوة على هذا كلّ كان تقبّلهم للتعدّد الثقافيّ مكوّنًا حيويًا من مكونات نجاح مجتمعهم؛ فقد تقبلوا الأديان الأخرى كلّها في أراضٍ فتحوها؛ إذ كان هناك الروم، واليونانيّون، والأرمن، والبروفنساليّون، واليهود، وقد ثبت أنّ هذا التقبّل للآخر نموذج اجتماعيّ فعّال، جدير بالتقليد، بدءًا من العثمانيّين وصولًا إلى الأمريكيّين، لكنني أرى أنّ أعظم إرث ثقافيّ تركه السلاجقة هو خطة بنائهم؛ إذ شيّدوا صروحًا مذهلة حجمًا، وتنوعًا، وحرقة، وعلى صعيد المعمار كان السلاجقة سراع

التعلّم، استقوا دروسًا من أساليب التصميم كلّها في أراضٍ مرّوا بها؛ وبهذا اخترعوا أسلوب بناء ثريًا ثراء حَساء يعدّونه في حملات التخيم أثناء سيرهم نحو الغرب.

بدأ السلاجقة إعداد حَساء حضارتهم بوضع لمسات من أصولهم الغنيّة العائدة لآسيا الوسطى، ثمّ أضافوا دروسًا دسمة تعلّموها من احتكاكهم بالفنّ المعماريّ الفارسيّ، وحسّنوا النُكْهة بالاستفادة من الصروح العباسيّة والعربيّة الرائعة كلّها، واخترع السلاجقة منظومة تشييد معقّدة تعتمد على قناطر تحمل الأوزان الكبيرة، وكان لشكل الأواوين الأربعة -أربع قاعات مفتوحة مقبّبة تحيط بساحة مركزية- في مساجد إيران تأثير قويّ على ما شيّدوه كلّهُ؛ فأصبح هذا الشكل هو التصميم العامّ للسلاجقة الأناضوليّين في بناء أخوانهم، ومدارسهم -كليات التعليم العالي-، وقصورهم، ومستشفياتهم، ثمّ أضافوا إلى الطبخة لمستهم الخاصّة من خلطة التوابل المشتملة على ميزات زخرقيّة وتقنيات وأساليب بناء مبتكرة.

لم تكن هذه الصروح مجرد آثار بارعة جديدة بالمشاهدة؛ إذ أدرك السلاجقة أنّ المباني العمليّة النافعة من شأنها أن تدعم مباشرة أهداف إمبراطوريّة أرادوا تشييدها؛ يا لذكاء سلاطين قونيا السلاجقة! أدركوا أنّ الرخاء الاقتصاديّ ركن أساسيّ من أركان مجتمع أرادوا بناءه، وأنّ ذلك يتوقّف على سلاسة تدفق البضائع إلى أنحاء الإمبراطورية، وفهموا أنّ تشجيع البيع والتجارة سيمنّهم من تحقيق رخاء يقوم بتحفيز النموّ الفكريّ والفنيّ؛ ولتطبيق هذه الرؤية، كان من الضروريّ دعم التجارة والواردات من خلال تشجيع نقل البضائع عبر أراضيهم؛ فكيف نجحوا في إغراء التجار لجلب بضائعهم إلى الأناضول، ثمّ المغادرة بحقائب مليئة بمنتجات سهول الأناضول؟ كان السلاطين بحاجة إلى منطقة تجارية واعدة، آمنة، جاذبة لممارسة التجارة؛ فشمّروا عن سواعدهم، ووضعوا

خِطَّة تجارية مفعمة بإصرار لا يضارعه سوى إصرارهم في ساحة القتال. حرص السلاطين السلاجقة كلهم، واحداً تلو آخر على غزو مدن ساحلية مهمة كانوا يحتاجون إليها لإنشاء طرق تجارية بعرض الإمبراطورية تصل بين السواحل، مثل: أنطاليا عام ١٢٠٧م، وسينوب عام ١٢١٤م، وأخيراً ألانيا عام ١٢٢١م، وتمثلت الخطوة التالية في هذه الرؤية الإصلاحية للطرق التجارية القائمة بالفعل المستمرة تخدم التجار أجيالاً؛ كان هؤلاء السلاطين من الفطنة بحيث أدركوا أنّ كسب النقود يستوجب إنفاقها؛ فتضمّن منهجهم العمليّ لبناء مملكتهم الاستثمار في تشييد بنية تحتية قوية من الجسور والطرق؛ فقاموا بإصلاح الطرق والجسور القديمة وتقويتها بعد أن كانت مهمة تالفة طوال سنوات من الحروب المتواصلة والزلازل، وشيدوا طرقاً وجسوراً جديدة، وأعادوا تمهيد طرق التجارة الآشورية، والفارسية، والرومانية القديمة بين الشرق والغرب، وأضافوا إليها وصلات جديدة بين الشمال والجنوب للربط بين الموانئ المفتوحة حديثاً على ساحلي البحرين الأسود والأبيض المتوسط؛ وبذلك أضحت البلاد مفتوحة أمام التجارة؛ فطريق الحرير القائم، الرابط بين الصين ومنطقة البحر المتوسط، أصبح يصل إلى قونيا، حيث يبدأ الطريق الطويل الممتد حتى قيصري متفرعاً ليصل، إمّا إلى الشمال نحو: سيواس، أو أرضروم، والبحر الأسود، أو منطقة القوقاز، وأخيراً إلى شمال إيران، أو يصل جنوباً إلى ديار بكر، وبلاد ما بين النهرين وجنوب إيران.

كانت آخر خطوة في خِطّتهم التجارية المرسومة توفير بنية تحتية للتجار أنفسهم؛ فأنشؤوا -بطول طرق التجارة- ما يزيد عن مئتي محطة متوسطة للتجار، يطلق عليها اسم الخان أو التزل؛ ويرجع الفضل إلى هذه الشبكة -المبنية لسد احتياجات المدن الكبرى في الإمبراطورية- في زيادة حجم التجارة المحلية والدولية على سواء.

كانت هذه الأنزال أو الاستراحات تُبنى على مسافات متساوية بامتداد أهم الطرق التجارية، بحيث يفصل بينها مسيرة يوم على ظهر الجمل -قراية أربعين ميلاً- بطراز معماري يلبي احتياجات المسافرين كلها؛ فالجدران منيعة قوية، بها مساحات لتخزين البضائع، وغُرف للحراس، وإسطبلات، وغُرف للنوم، ومطابخ، ومراحيض، ومساجد، وأقبية، وكانت تعمل بوصفها محطات تجارية ونُزلاً للمبيت في الوقت ذاته، وإذا أردنا أن نصف هذه الأخوان من منظور عصري، فهي مزيج من محطة شواحن، ونُزُل، ومستودع؛ فهي كمحطة الشواحن؛ لأنها توفر مكاناً للتزوّد بالمؤن، المتمثلة يومئذ في تهيئة مكان للدواب للراحة والسقي وإصلاح نعالها، وعلاجها من أي مرض يصيبها خلال الطريق.

كانت الأخوان تتيح للتجار فرصة لتناول وجبة مطبوخة، والاستراحة من وعشاء السفر، والحدّ من الشعور بالوحدة أثناء الرحلة من خلال الاختلاط بغيرهم من المسافرين، وهي تشبه النُزُل؛ لأنها تتيح للتجار المبيت في غرف مريحة، ملائمة، تشبه المستودع؛ لأنها تمنح التجار الفرصة لتفريغ بضائعهم في مكان آمن، وتخزينها، وتصنيفها، وإعادة تغليفها إذا لزم الأمر، والاستعداد للمرحلة الشاقّة التالية من الرحلة.

يعدّ الخان بما يمنحه من خدمات اجتماعية مختلفة من أكثر المؤسسات المجانية السلجوقية؛ إذ بُنيت الأخوان لتكون مؤسسات خيرية؛ إذ كان من حقّ أيّ مسافر -بصرف النظر عن جنسيته، أو ديانته، أو طبقة الاجتماعية- أن ينزل فيها مجاناً ثلاثة أيام تشمل المبيت، والمأكل، والرعاية الطبية، وخدمات أخرى، وذلك كلّه على نفقة الدولة؛ إذ كان السلطان، أو رجال البلاط، أو الأثرياء ينشئون مؤسسات للاضطلاع بعملية بنائها، وتمويلها، وصيانتها؛ فستظلّ هذه الأخوان تُذكر لكرمها، ولدورها الخيري، وقد شدّت انتباهك بالفعل في أدرنة -يا سيّدة ماري-؛ فكان بمقدور التجار مقابلة غيرهم في الخان، وعقد

تحالفات تجارية، وتكوين صداقات جديدة، ولعبت الأخوان دوراً خبيراً مهماً؛ إذ أسهمت في نشر الأخبار والمعلومات في أرجاء الإمبراطورية؛ إذ فيها يلتقي أشخاص من كل الأنحاء والبلدان، ويقصّون القصص، ويتشاركون مواقف مرّوا بها بمختلف اللغات، ويتبادلون أخبار بلدانهم، ثمّ تنتقل هذه الأخبار إلى القرى والمدن؛ فكانت الأخوان مركزاً للمعلومات، ومركزاً محلياً للأخبار، وما يشبه مكتبة عامة شفهيّة؛ يستطيع أيّ شخص يسافر عبر الطرق الممتدّة بطول تركيا اليوم أن يشاهد ما بقي منها، في شكل استراحات رائعة على جانبي الطريق، تمنح خدماتها لسائقي الشواحن والمسافرين على حدّ سواء.

ما إن امتلأت خزائن الدولة بالأموال المحصّلة من هذه الأخوان، حتى تحوّل السلاطين السلاجقة إلى تشييد صروح معماريّة مبتكرة أخرى، اشتهروا بها، وهي: المدارس -الجامعات-، والمستشفيات، والجوامع، واستخدم سلاجقة الأناضول الحجارة لتعمر المباني طويلاً، ونبذوا الأجرّ الذي استخدمه أسلافهم الإيرانيون، فاخترعوا مباني تناسب احتياجات إمبراطورية أرادوا تشييدها، تتسم بالنموّ والنشاط، وقد تجلّت ألمع مواهبهم في مبانيهم المدنيّة، ووظيفتها، وشخصيّتها منذ لحظة تشييد المدرسة النقطة المحوريّة للمدينة؛ استُخدم تصميم الأواوين الأربعة في المدارس لبناء حرم يتسع لغرف دراسيّة، ومساكن الطلبة، وقاع الدرس، بالإضافة إلى الخدمات الملحقة، واستُخدم التصميم نفسه في بناء المستشفيات والمراكز الطبيّة، مع الالتزام دوماً بإضافة منارتين متناظرتين حول البوابات للترحيب بالزوّار؛ وتعدّ هذه المدارس والمستشفيات من أروع آثار تركيا اليوم، مثل: مدرستي كاراتاي وإينجه في قونيا، والمدرسة الخاتونيّة في قيصري، ومدرسة دار الشفاء الطبيّة في سيواس، ونزل جوهر في قيصري؛ بهرني ذلك كلّه بشدّة؛ لأنّه بدا تخطيطاً عملياً جدّاً، نابعاً من حكمة بالغة، وناصباً بالحياة في الوقت نفسه.

أحببت دراسة الفن الإسلامي منذ أن كنت في الجامعة؛ فقد اقتبس الفن الإسلامي من حضارات كثيرة، ومزج وأضفى رؤيته الخاصة ليخترع شيئاً فريداً، كثقافة الولايات المتحدة من عدة أوجه، انجذبت أيضاً إلى اختلاف يميّز الفن الإسلامي، وأردت أن أعبر بوابة حديقة الفن الأوروبي الغربي المعتاد؛ لأعرف كيف يفكر الآخرون؟ وبمّ يؤمنون؟ وكيف يشيدون؟ أردت أن أتقّب مجموعة من الفروق الفنية، ومن بين فنون العصور الإسلامية كلّها كانت فنون سلاجقة الأناضول هي الأقوى تأثيراً في نفسي، أضف إلى ذلك تميّز القرن الثالث عشر؛ لما شهده من ارتقاء كبير في أنحاء العالم كلّها؛ من الذي يسعه ألا يتأثر بعصر شهد الحروب الصليبية، وجنكيز خان، ودانتي، وشعر التروبادور البروفنسالي، والماجنا كارتا -ميثاق الحريات-، والكاتدرائيات القوطية الشاهقة في فرنسا؟ عصر جدير بأن يعيشه المرء، وقد عاش السلاجقة وسط هذا كلّه، ومنحوا إسهاماتهم الخاصة لإثراء هذا القرن؛ انجذبت بشدة إلى روح تسامحهم، وتقبّلهم للشعوب الأناضولية كلّها بعد دخولهم الأناضول، وأعجبني اجتهداهم العمليّ ورغبتهم في صياغة هويّة اجتماعيّة جديدة تحترم الأسلاف، لكنّها في الوقت نفسه تمنح جدول أعمال ملزماً، وانبهرت انبهاراً خاصاً بربطهم الفن المعماريّ بالتنمية الاجتماعيّة، وبإدراكهم أنّ الفنّ والمعمار يمكنهما، بل ويجب عليهما ألاّ يساعدا في بناء نموذج مثاليّ فقط، بل أن يضمنا رخاء المواطنين أيضاً؛ أردت أن أتعرّف إلى هؤلاء الناس وإلى مجتمعهم على نحو أفضل، وفوق هذا كلّه أردت أن أتعرّف إلى فنّهم المعماريّ على نحو أفضل.

من بين المباني السلجوقيّة كلّها بدت الأخوان أكثر جدّة ونفعاً؛ حيّرني هذه المجموعة من المباني العمليّة الجامعة بين المنفعة والجمال؛ يعرف المهندس المعماريّ، المدنيّ، الرومانيّ، الشهير فيتروفيو الفنّ المعماريّ بأنّه: «القوة، والمنفعة، والجمال»، وهذه الأخوان تضرب خير

مثال على المزج الموفق بين هذه السمات الثلاث: فالقوة تتمثل في أنها مشيدة بقوة بالطبع، والمنفعة تتمثل في أنها تفي بغرض تشجيع التجارة، والجمال يتمثل في بذل الجهد لتشييدها جميلة.

في الواقع وافقت الأخوان ذوقي؛ فهي كبيرة وقوية ودقيقة ونشيطة، وكلها سمات لا تحظى بإعجابي في الفن المعماري فقط، بل أيضاً في الناس، والأطعمة، والأدب، والفنون؛ فقررت لحظتها في ذلك المكان دراستها دراسة تفصيلية؛ فقضيت الثلاثين عاماً الماضية أتتبع خطوات السلاجقة، وأفتش عن آثارهم، وأتعرّف إلى تاريخهم، وأقرأ أدبهم، وأتسرّب تعاليم دينهم، وأستوعب عاداتهم العلمية؛ تعلمت كثيراً عن هذه الأمور كلها، وأصبحت معجبة جداً بالسلاجقة لعدة أسباب واضحة؛ فبالإضافة إلى رؤيتهم العملية النشيطة المشجعة للعمل الحر، أرى أنهم وضعوا الأساس للقيم الإنسانية كلها الملهمة للثقافة التركية، مثل: التسامح، والحرية، والحب، والصداقة، والكرم، والتعدّد الثقافي، وحسن الجوار، والوطنية، واحترام الآخرين، وفي الوقت نفسه شيّدوا طرقهم وأخوانهم، فأرسوا أحجار الأساس لتنمية القيم الثقافية، مثل: التقدّم، والتعليم، والنمو الاقتصادي، والتخطيط طويل الأجل، والتوسّع، والسعي الفكري، والعدالة، وحرية الرأي؛ وعمل حكّامهم على تحسين حياة المواطنين ببناء المدارس، والمساجد، والمستشفيات، والمراصد، وحفز علمائهم ومثقفهم إلى التقدّم في الطبّ والكيمياء والقانون والفلك، وتغنّى كتابهم الشعبيون وشعراؤهم ومتصوفوهم بمثل الحب، والود، والكرم، والروحانية في إبداعاتهم، وحصد فلاحوهم الكادحون الرخاء من الأرض السوداء، وحسّن تجّارهم أسواقهم بمهارة وأمانة، وشيّد معماريوهم وفنانوهم آثاراً تغنّت روعتها وتفصيلها بهذه القيم عبر سهول الأناضول؛ ليسمعها الناس جميعاً.

أمكن تشييد الكنوز المعمارية كلّها الباقية لنا من هذه الحقبة؛ لأنّ هؤلاء السلاطين -أصحاب الرؤية- أمروا ببناء مباني تدفع عجلة التجارة، فحفزت تشييد أنواع أخرى من المباني المصمّمة لتعكس تطلّعاتهم الثقافية، وبصورة أو بأخرى يبدو هذا التخطيط مألوفاً لمن يراقبون تركيا المعاصرة أو يعيشون فيها؛ فنمور تركيا الأقوياء اليوم ليسوا سوى أحفاد لسلاجقة قونيا، وأنا أوّمن أنه لولا الجهود الجبّارة للسلاجقة في بداية إنشاء الإمبراطورية، لما قامت الدولة العثمانية أو جمهورية تركيا الحديثة؛ وليس بمستكرّ أن يعود أتاتورك لقلب دولة السلاجقة الجغرافي المثالي كي يقيم عاصمته في أنقرة، وينشر من هناك رؤيته لتركيا المستقبل، ويعيد ترسيخ الشعور بالفخر النابع من العمل الجادّ والتقدّم والصناعة بوصفها مقوّمات المجتمع الناجح، وهي مقوّمات نراها تتجدّد يومياً بحيوية في تركيا اليوم.

ولما كان كثير من الأخوان ما زال قائماً حتى الآن، أمكنني دراستها وتحديد مبادئ عامّة تتعلّق بها، مثل: تصاميمها، ورعايتها، وشبكات الطرُق عليها، وزخارفها؛ فاستمتعت -بوصفي أمينة مكتبة- بالدراسة، والتصنيف، وموازنة هذه المجموعة الفريدة الموحّدة، وشرعت في تنفيذ خطة منهجية مدروسة، لزيارة منطقة تلو أخرى كلّ عام، ورؤية أكبر عدد ممكن من هذه الأخوان، كنت أخطّط للرحلات قبلاً بمنتهى العناية والاهتمام، وأزور عدّة أخوان في المنطقة الواحدة في كلّ رحلة، وكانت جلّ مغامراتي في رحلاتي مثيرة شائقة كالآثار نفسها.

كثيراً ما واجهت تحدّيات متزايدة للعثور على خان، كالخراط الخاطئة، والطرق الوهميّة، والعلامات الإرشادية الغائبة... إلخ، لكنّ أكثرها خيبة أمل كانت قلّة عدد الأتراك القادرين على مساعدتي، حينما أسأل عن الاتجاهات؛ فاجتمع ضعف لغتي التركية، ولهجتي الأجنبية، واختلاف اللهجات المحليّة؛ ليجعل سؤالي عن الاتجاهات تحدّياً إضافياً،

ومن الصعوبات الأخرى التي واجهتني أن الشخص التركي يكره الإقرار أنه لا يعرف ما تسألين عنه، أو لا يعرف مكانه؛ علمت أن الأتراك يفضلون حفظ ماء وجوههم على الاعتراف بالحقيقة، ويجدون أحياناً صعوبة في التمييز بين النظرية، والرغبة في المساعدة، والتطبيق؛ فهم يخبرونك أن شيئاً ما موجود، أو أنه في مراحل التخطيط لمجرد إسعادك، ولا يعرف سائقو سيارات الأجرة غالباً المكان المراد الذهاب إليه، لكنهم نادراً ما يعترفون بذلك، ويظلّون يدورون في دوائر، ويرفض التركي أن يريك شيئاً يعتقد أنه لا تجدر بك رؤيته، وهذا أشبه بنادل لا يسمح لك بتناول ما تشائين في المطعم، إذا لم يعتقد أنه في مصلحتك، وفي حال عرف سكان المنطقة كومة صخور قديمة أتحدث عنها، فإنهم يحكون رؤوسهم دهشة من رؤية هذه المرأة الأجنبية -السائلة عن الاتجاهات- لتلك الكومة، أحياناً أحسدك -يا سيّدة ماري-؛ لأنك حظيت دائماً بدليل خاص يرشدك أثناء جولاتك في القسطنطينية، ولما كنت أول من يرتاد هذه الأماكن، كثيراً ما وجدت نفسي في طرق معقّدة ملتوية للعثور على خان، لكنني حظيت خلال ذلك بفرصة قضاء الوقت في التحدث مع الناس، وتعلّم عادة محليّة ما كنت لأتعلّمها، لو أنني وصلت وجهتي مباشرة؛ لذا صارت قاعدتي الذهبيّة هي أن أتحدّى بالصبر، وألا أتعجل أو أنزعج؛ لأنني لا أستطيع الحصول على إجابة سريعة عن أسئلتني، وأن أتقبل حقيقة أن أية إجابة أحصل عليها قد تشوبها المبالغة، وأن أستغلّ هذه اللحظة في إقامة علاقات مثيرة؛ فالأفضل أن تسألي خمسة أشخاص مختلفين عن الاتجاه، وتأخذي برأي الأغلبية، وأن تأملي في العثور على مبتغاك بعد السفر خمس مئة ميل إلى مكان حارّ جافّ، وراقبي كلّ شيء حولك جيّداً، وفي نهاية المطاف ستتمكنين من العثور على خان تبحثين عنه؛ لأنّ التركي لن يقول أبداً: «لا أعرف»، ويترك حائرة، نقي من ذلك؛ لن يجيبك التركي أبداً: «لا أعرف»، إذا سألته عن معلومات،

بل سيقضي يوماً كاملاً بصحبتك محاولاً مساعدتك في العثور على كنزك؛ لأن التركيّ شخص متفائل دوماً.

ظهر هذا التفاؤل أثناء بحثي عن خان ألّتين أبا؛ كنت قد قرأت في عدّة كتب أنّه ما زال قائماً، ورأيت صوراً قديمة له في كتب عتيقة، لكن كان من المستحيل العثور عليه على الطريق خارج قونيا في البقعة المذكورة؛ أوقفت سيّارتي عند حديقة شاي على جانب الطريق؛ لأسأل عن الاتجاهات، وما أعقب ذلك كان أحد المشاهد الفوضويّة التركيّة العاديّة، فأنا أمام سِتّة أتراك يمنحون ستّ إجابات منقوصة مختلفة؛ في البداية اقتربت من رجل تركيّ في الخمسين من عمره ظناً منّي أنّه يعرف جيّداً منطقة عاش فيها، سكت برهة ثم قال:

- نعم، لقد سمعت به، نعم، دعينا نفكر، هذا صحيح، ثمّة خان في مكان ما...

لم يبدو أنّه يعرف شيئاً، لكنّه لم يرد أن يبدو عديم النفع، وواصل الحديث محاولاً منحيّ ألطف إجابة ممكنة، ثمّ ظهر تركيّ آخر، واشترك في الحديث، ثمّ صاح قائلاً:

- أعتقد أنّي أستطيع المساعدة! أنا واثق أنّ أصدقائي سيعرفون!

وأخذني إلى مكان ساحر يحوي طاولات لجلوس المتزّهين تطلّ على بحيرة تكوّنت بفضل سدّ ألّتين أبا؛ فرأينا ثلاثة أتراك جالسين هناك يستمتعون بالمشهد المطلّ على الماء، ويدخّنون اللفائف، ويحتسون الشاي، وضع التركيّ الثالث كوب الشاي، وأشار إلى الجهة الأخرى من البحيرة:

- أترين روضة أشجار الحور المائلة هناك؟ الخان خلفها، يمكنك العثور على طريق يوصلك إلى هناك.

فقاطعه رفيقه التركي الرابع قائلاً:

- كلاً، -يا أخوي- إنه ليس هناك قطعاً، لقد انهيار ذلك الخان تماماً، ولم يعد له وجود!

وبدأت نبرة الصوت تعلو، ثم تدخل رفيقهم الخامس قائلاً:

يا أخوي، أنتما مخطئان؛ فالخان في قاع البحيرة!

ثم اشتعلت نقاشات حامية تتضمن كثيراً من التلويح بالأيدي، والصياح، والوكز، واللكز مع طلب الشاي مرة أخرى بغية التوصل إلى الرأي السليم، أما التركي السادس -بدا أنه الحكم في هذا الموقف-، فقد أنهى النقاش بقوله:

- أينما كان، فأنا متأكد أنه بخير؛ لا تقلقي بشأنه سيدي السائحة، وستجدين كثيراً من الأخوان القديمة في هذه المنطقة، إذا رغبت في رؤية أحدها، ثم ما الذي يميز ذلك الخان خصيصاً؟ سأساعدك في العثور على خان آخر سينال إعجابك!

في الحقيقة كان التركي الخامس على حق؛ إذ راح خان ألتين أبا ضحية مأساوية لتنفيذ مشروع السد التركي القوي؛ فقد غمرته المياه، حينما شُيّد السد عام ١٩٦٧م.

في مناسبة أخرى واجهت صعوبة في العثور على خان كيركجوز بالقرب من أنطاليا؛ إذ حدث موقف مشابه لما حدث في ألتين أبا، حينما توقفت لأسأل عن الاتجاهات؛ إذ هرول خمسة أتراك تجاهي، وبدؤوا يتناقشون فيما بينهم، ولكل واحد منهم رأياً؛ احتدم النقاش بينهم احتداماً شديداً حتى إنني بدأت أخشى العواقب، وقبل أن أدرك ما يحدث ثارت ثائرتهم وبدؤوا يتدافعون ويتضاربون؛ تراجعت خشية إصابتي بإحدى اللكمات، لكنّ فارساً شهماً من بينهم رفض أن يدعني أنسحب خلسة،

ورغم أنّ صديقيه لم يصدّقاها، وأهاناه، وأوسعاه ضرباً، فإنّه صمد، وأخبرني بدقّة كيف أصل إلى هناك، ووصف لي علامات واضحة أبحت عنها في طريقي، شعرت بالثقة لسماعي وصفه الواضح، وتتبع العلامات واحدة تلو أخرى: نقطة شرطة عسكرية، وشجرة ذات ثلاثة أفرع، ومنزل بابّه أخضر، وتبيّن لي أنّه كان محقّقاً؛ وحده التركيّ الحقيقي يتحمّل هذا العناء كلّهُ؛ ليساعد غريباً حتى وإن أُصيبَ بكدمة حول العين!

كما ذكرت من قبل، تعلّمت من تجاربي الكثيرة أنّ الأشخاص لا يدركون دائماً الثروات التاريخيّة في منطقتهم، أو في المناطق المجاورة؛ فلا تشكّل قطعة معماريّة، تاريخيّة، رائعة -قطعت خمسة آلاف ميل لمشاهدتها- لهم سوى كومة من الأحجار؛ ييذل السكّان المحليون جُهدهم كلّهُ لفهم سؤالي، لكنّهم في أغلب الأحيان يهزّون رؤوسهم فقط، ويخبرونني: "أنّهم لا يعرفون البتّة ما أتحدّث عنه"، ورغم هذا تعلّمت طريقة مفيدة ساعدتني بحق، وهي أن أتزوّد بصور أو رسوم كلّما أمكن؛ ذات مرّة خطّطت للقيام برحلة إلى أغيردير لزيارة خان جلاندوست، قرأت أنّه يقع على بُعد ثلاثين ميلاً شمال المدينة؛ توجّهت إلى موقف سيارات الأجرة البلديّ بجوار محطة الحوافل، وتحدّثت إلى خمسة عشر سائقاً أو يزيد من الجالسين فوق جدار منخفض يقضون وقتهم في احتساء الشاي، ولعب الطاولة، وقراءة الصّحف، والثرثرة، واستخدام السّبح، والتدخين؛ عقدت آمالي على أحدهم، علماً منّي أنّ البقيّة سرعان ما ستشارك في الأمر على أيّة حال، وسألته: إن كان يعرف الخان؟ وما إذا كان بوسعه أن يوصلني إليه؛ تبيّنت فوراً أنّه لا يعرفه، لكن -كالمعتاد- لن يصرّح بذلك، تلا ذلك جلسة استشاريّة، أدلى فيها كلّ سائق من الخمسة عشر سائقاً برأيه، دون أن يكون لدى أيّ منهم علم بمكان الخان؛ علت الأصوات، وبدأ الجدال والتلوّيح بالأيدي، وخشيت هذه المرّة أيضاً نشوب عراك بالأيدي؛ ولكي أنقذ الموقف، أخرجت

صورة منسوخة من كتاب قديم للخان بغيتي، وعرضتها عليهم، وبالفعل تعرّف أحدهم إلى كومة أحجار أعنيها، رغم أنّه لم يعرف ماذا تمثل في واقع الأمر؟ فانطلقنا إلى هناك، ولم تواجه السائق أية مشكلة في العثور على الموقع، وكم استمتعت في تلك الظهيرة بسرده تاريخ المبنى وتوضيح السبب في أنّه أكثر من مجرد كومة أحجار؛ أنا واثقة أنّه نقل كلامي كلّهُ للسائقين الآخرين العائدين إلى منازلهم لينقلوا ما سمعوه إلى أسرهم، ومنذ ذلك الحين اكتشفت أنّ الصورة -إذا توفّرت- تعدّ وسيلة استكشاف قيّمة في موقع البحث!

لم أشعر بالإحباط قطّ بعد انتهاء مغامرة البحث عن خان، كان الشعور نفسه يتابني، حينما أقف أمام أيّ خان؛ كنت أتأمله بعيني مراهة مفتونة برؤية نجم سينمائي، وكما هو الحال مع كرات الثلج المتساقطة والقطط، كان كلّ خان يختلف عن الآخر؛ كانت ألوان الأحجار مختلفة، وزخارف البوابات أقلّ أو أكثر تفصيلاً، والموقع قاحل أو وارف، والمكان وسط حقول أو على جانب الطريق؛ أحببت الوقوف طويلاً أمام الأخوان، كي أستوعب هذه الاختلافات كلّها، وأستشعر تاريخ كلّ منها، وأتصوّر الطاقة المبذولة لتشييدها قبل ثماني مئة عام؛ أردت أن أحفظ شكل واجهاتها وشخصيّاتها المتفرّدة، وأن أعقد صداقة مع كلّ خان قبل أن أدخله وأنا أكنّ له كلّ احترام!

كان دخول الأخوان يثير المشكلات في أغلب الأحيان؛ فيقودني ذلك إلى المشكلة الثانية التي واجهتني في رحلاتي؛ فإمكانية دخول الأخوان لم تكن مضمونة قطّ، ودائماً ما يشكّل تحديّ الدخول مغامرة قائمة بذاتها؛ من المحبط والمخيّب للأمال بعد إنفاق كثير من النقود لزيارة تركيا، وبذل كثير من الجهد في الرحلة الشاقّة إلى سهول الأناضول، ثمّ محاولة العثور على خان، أن ينتهي الأمر برؤية سلسلة حديدية ضخمة وبوابة موصدة بقفل، لكن تذكّري، هذه تركيا، ولا شيء مستحيل هنا،

يمكن تحقيق كل شيء بمساعدة الأصدقاء المستعدين لفعل أي شيء لتلبية مطلبك بأيّة طريقة ممكنة؛ وتركيا عامرة بالأصدقاء، خاصة في حالة امرأة تريد دخول خان!

ذات مرّة حينما وصلت أعتاب خان دوراجان، جفّل قلبي؛ إذ كانت البوّابة موصدة بإحكام بقفل وسلسلة رهيبين، وفجأة رأيت بائع خضراوات يعدو نحوي من الناحية الأخرى من الطريق، وكأنّه سمع تنهيدتي بأذنين تسمعان أخفت الهمسات، وطلب منّي أن أنتظر حيث أنا، ثم ركض باتجاه آخر الشارع، وأمسك كنّاس بلدية كان يحمل سلسلة من المفاتيح، لم يفهم المسكين لماذا جذبه البائع من ذراعه؟ وانتزع مقشّته من يديه، وجره نحوي في أول الشارع؛ تجادل بائع الخضراوات مع الكنّاس كثيرًا، وفي النهاية استسلم الكنّاس المسكين المرتبك، واستخرج المفتاح من سلسلته، وفتح لي الباب كي أدخل الخان، كان قد رُمّم ليصبح مركز تسوّق، لكنّ أجنحته لم تؤجّر بعد، وكان المكان خاليًا تمامًا، ثم علمت أنّ الخضريّ لم يقصد أن يقلّل من شأن كنّاس الشارع أو أن يعامله بقلة احترام؛ فقد أدرك بفطرته أنّ الرجل رغم ضعف حاله، سيشعر بأهميته، إذا ساعد شخصًا حضر من مسافة بعيدة، وأنّي سوف أمنح الكنّاس مكافأة تقديرًا لوقته وجهده؛ فاصطاد الخضريّ عصفورين بحجر واحد؛ إذ ساعد كلينا على فعل الخير، وتمكّنت أنا من رؤية الخان بغيتي.

مرّة أخرى ذهبت إلى مدينة إنجاجوس؛ لأزور مجمع كارا مصطفى باشا وخانه العثمانيّ الواسع، كان الخان موصدًا بإحكام؛ وجفّل قلبي كالمعتاد، ورآني شخص تركيّ أكتام أي أقف على أطراف أصابعي محاولة اختلاس النظر من النوافذ المرتفعة، فاقترب، وطلب منّي أن أصطحبه، وحينما وصلنا إلى ركن بعيد من أركان الجدار الخارجي للخان، طلب منّي أن أنتظر قليلًا، ثم اختفى، لم يمرّ وقت طويل

حتى شاهدت حجرًا في الجدار يتحرك في مكانه، ثم يسقط بالداخل، ثم امتدت يد لي من الداخل، وجذبتني عبر الفتحة الصغيرة لأدخل الخان، وبينما تلوّيت خارجة من الفتحة إلى ساحة الخان الفسيحة، رأيت الرجل ينتظرنني بابتسامة عريضة، يملؤه الفخر بعمله البطولي، لكن مرّات كثيرة أخرى كنت أعرّ على الخان الموصد بالقفل في مكان مهجور تمامًا، دون أن تظهر يد تركيّة سحرية لتجذبني عبر ممرّ سرّي؛ حينئذٍ كانت الشخصية الأمريكيّة التقليديّة تتحرك فيّ، وتمنحني الجرأة بطرق ما كنت أحلم بها وأنا في وطني؛ فكنت أضغط قوامي الكبير نسيبًا لأمر عبر فتحة صغيرة في الباب، أو أتسلّق الجدران عبر التمسك بشقوقه لأؤمن موطئًا لقدمي لأتمكّن من تسلقه، ثم أرمي نفسي في ساحته، كقطة متلصّصة، وعندما يكون الجدار بالغ الارتفاع، أكّدس مجموعة من الأحجار لأصنع سلّمًا يعينني على بلوغ القمة، كنت أجري، ثم أثب من كومة أتربة، مثل لاعبي القفز على الزان في الألعاب الأولمبيّة؛ حقًا كان الانضغاط للمرور عبر باب ضيق، وتسلق الجدران لمشاهدة الأخوان من الداخل يهوّن خدوش مفاصل الأصابع، وتكسر الأظافر، وجرح اليدين، والكدمات، والتواء الكاحلين، وجرح الركبتين؛ لن أنسى أبدًا شعوري في أولى زيارتي لخان بازار، حينما تجرّأت على فتح الباب عنوة، وتسلّلت إلى الداخل، برغم الصيحات الغاضبة لقطيع الإوزّ الواقف بالخارج يحرس الخان، وبينما شققت طريقي عبر الشجيرات البريّة، والأعشاب الغزيرة منصّبة إلى صوت رفرقة لجناحي حمامة في الرواق، استطعت أن أرى ما وراء ركام الأنقاض والأحجار الملقاة؛ اكتشفت خانًا ذا تصميم غاية في القوّة، وعناصر زخرفيّة رائعة تنمّ عن غاية البراعة، الأكثر من هذا أنني استشعرت روح المكان؛ شعرت أنّ التاريخ يتحدّث إليّ، وأدركت أنّ واجبي منذ تلك اللحظة فصاعدًا أن أعيد الحياة لقصّة هذا الخان ولغيره من الأخوان

الكثيرة الأخرى، ورغم أنني كنت مبدعة ورياضية جدًا خلال محاولاتي مشاهدة الأخوان داخلها، لم يسبق لي أن كسرت قفلاً أو باباً كي أتمكن من الدخول؛ فحينما كان الأمر يصل إلى حدّ الكسر والاقتحام، كنت أعتمد على الأتراك كي يقوموا بهذه المهمة.

مرة أخرى رأيت بنفسي كيف لا يألوا الأتراك جهداً في سبيل مساعدتك، وخدمتك، والتأكد من تلبية مطلبك، وغالباً ما يقومون بذلك بطُرق مثيرة، ولعلّك تذكرين -يا سيّدة ماري- أنني حدّثتك عن زيارتي السارة لمدينة سيرت شرق تركيا؛ إذ نجوت من هجوم حشد غوغائي من أطفال الشوارع، ولما أفلت منهم عزمت على تحقيق رغبتني وزيارة المسجد الكبير في المدينة، وهو من أقدم المساجد في تركيا، بُني عام ١١٢٩م؛ خرج رجل من المنزل المجاور، وأخذني تحت جناحه، كما لو كان ملاكاً حارساً مرسلاً من السماء، لكنّ المسجد -وا أسفاه- كان موصداً بإحكام بالسلسلة والقفل، فهزّ الرجل رأسه أسفاً، وبعد ثوانٍ قليلة رأيت طفلاً قدراً من أطفال الشوارع يحدّق فيّ ويتعقّبني؛ بدا كأنه يعتذر عما بدر من رفاقه، وقال: إنّه مستعدّ لمساعدتي، ثمّ أخرج الشريد الصغير من جيبه قطعة معدنية طويلة جداً تبدو، كنصل سكين مكسور، وبدأ يعبث بالمِزلاج، ثمّ أمسك القفل، كما لو كان لصاً محنّكاً، وفي غضون ثوانٍ انفتح القفل، وفتح الصغير الباب أمامي في خيّلاء كي أدخل؛ فمنحني المتعة المحرّمة لتأمل هذا المسجد الرائع من الداخل؛ دخل معي الملاك الحارس والشريد، شريكاي في جريمة ارتكبت لخدمة إحدى الزوائر، ولخدمة التاريخ!

ليس هناك شيء يُعدّني لمغامراتي الخارقة لدخول بعض الأخوان؛ منها ما حدث في نُزل زازادين خارج قونيا؛ يقع الخان في منطقة مهجورة إلى حدّ ما، وسط حقول مزروعة، حينما اقتربت من الخان ورأيت الأبقار

ترعى أمامه، تذكرت منظرًا رأيته، وحينما حدّقت المرّة الأولى في هذه الأحجار الذهبية في مدرسة جوك في سيواس قبل عشر سنوات؛ سرت عبر حقل مهجور مليء بالحطام والأشواك لأصل إلى البوابة الرئيسة الرائعة، وبالطبع كانت مغلقة بالقفل؛ فجفّل قلبي بقوة تضارع قوّة القفل؛ ليس عدلاً أن يخيب أمني بعد تلك الرحلة الشاقة الحارّة عبر حقل شائك مزق حاشية ثوبي، وأدمى كاحلي!

ما من أثر لأية حياة في المكان باستثناء تلك الأبقار والذباب الطنان فوق رأسي؛ وفقدت الأمل في أن تمتدّ إليّ يد العون؛ فجدران الخان بالغة الارتفاع، فأدركت أنني لن أتمكن من تنفيذ إحدى محاولاتي المضنية لتسلّقها؛ كنت محبطة، لكنني عازمة على تحقيق أقصى استفادة من الزيارة؛ فسرعت أسير حول الخان الشاسع كي أشاهد جدرانه الخارجية الرائعة، كانت مزينة بعدد هائل من أحجار منقوشة أخذت من الكنائس البيزنطية، وبينما وقفت هناك أرسم على ورقة تصاميم إحدى الأحجار المعاد استخدامها، شعرت بشخص جواري؛ ظهر جانبي فجأة دون أن يصدر أي صوت، رجل غريب المنظر، أسود الشعر، ذو عينيّن جاحظتين، يرتدي زيّاً متسخاً كعكّي اللون، وحذاء عسكرياً، ويحمل بندقية سوداء طويلة من مقاس اثني عشر؛ تنهدت، وفكرت؛ كيف سأخلّص نفسي من هذا الموقف، وأنجو بحياتي؟ حدّق فيّ، ونظر إلى دفترتي، وبدأ يتحدث وعيناه الآبنوسيتان تلمعان في ضوء الشمس؛ واجهت بعض الصعوبة في استيضاح كلامه المتداخل، لكنني فهمت أنّه بدويّ يقات على ما يصطاده من الأرض، وأنّه جاء إلى هذا المكان لاصطياد الطيور، وأخبرني أنّ الخان كان عامراً بأنواع كثيرة من طيور سمينة يستطيع اصطيادها بسهولة، ثمّ قال:

- تعالي؛ سأريك.

وتبعته، رغم أنني كنت قلقة جداً؛ هل أتبع رجلاً شريداً، أشعث، ذا عيينين جامحتين، ويده بندقية، إلى منطقة مهجورة في أمريكا؟ لم أكن لأفعل ذلك أبداً، لكننا في تركيا، فشعرت أن مغامرتي لن تنتهي نهاية مأساوية، سرنا حتى وصلنا إلى واجهة الخان مرة أخرى، فرفع بندقيته دون أن يتردد لحظة، وصوب نحو الهدف؛ ظهر وميض، وسمعت فرقة أنهت أمر القفل؛ فتدلى من الجزء المعدني المحروق في إطار الباب، ولم يعد يشكّل عائقاً أمام دخولي أو أمام ذلك الباحث عن عشائه؛ وبهذه الطريقة المبتكرة تمكنت أن أدخل أحد أروع الأخوان وأكبرها في تركيا؛ إذ كان -بالفعل- مليئاً بطيور سميثة، وبينما انطلق رفيقي الصياد خلفها، غادرت سائلة نفسي: "هل سأحظى مرة ثانية بزيارة مثيرة كهذه؟"

بالطبع كان عليّ أن أعرف أنني سأحظى بمغامرات دخول استثنائية أخرى؛ فبعد سنوات قليلة أوقفت سيارتي أمام خان قاراتاي بعد قضاء وقت عصيب في محاولة العثور عليه، وقضاء ساعتين محبوسة في السيارة وسط قطع من الخرفان كان في طريقه إلى السوق، وهناك أيضاً وجدت قطعاً رائعاً من الإوز يحرس البوابة الأمامية، وكانت الجدران مرتفعة يتعذر تسلقها، ورأيت سلسلة وقفاً يوحي شكلهما بأنهما جديران بالتعليق على باب قصر طوب قابي، لا بوابة خان مهجور؛ شعرت باليأس، فلن أتحمّل مرة أخرى الفشل في زيارة خان! ركلت الباب محبطة، وحاولت أن أرفع السلسلة لأستشعر ثقلها، فلم يسبق لي أن شاهدت واحدة بهذه الضخامة، ظهر أمامي صبي لا يتعدى الخامسة من عمره، وحدّق في وجهي المحبط، وشعر بتعاستي من زفراتي، وتجهّمي، وركلي الباب؛ جرى مسرعاً وبعد عدة دقائق سمعت من بعيد صيحة ودّية:

- مرحباً، حضرتُ لأساعدك.

نظرت لأرى تركيًا يهرول نحوي، ويلوح لي مبتسمًا، والصبي الصغير يعدو خلفه محاولًا اللحاق به، عند اقترابه مني رأيته يحمل فأسًا في يده اليمنى، لم تكن مجرد فأس صغيرة، بل فأس من شأنه أن يسقط الشجر الأحمر، سألني:

- أعتقد أنك ترغبين في الدخول؛ لا تقلقي، حضرت لأهتم بذلك؛ اتركي لي الأمر!

بينما كان الصبي الصغير ذو العينين النجلاوين يقف إلى جواره، رفع الرجل فأسه الضخم وشرع يهوي بها على سلسلة ضخمة كأنها تين ناري، ولما كان فارسي الشَّهْم فخورًا باستعراض قوته ورجولته أمام فتاة تحتاج المساعدة، فقد ظلَّ يهوي بقوة على السلسلة محدثًا جلبة؛ وما هي إلا ضربات أربع قوية حتى انكسرت إحدى حلقات السلسلة، وتحرَّر القفل، وبجهد جهيد دفع الباب الخشبي صارًا، ثم استدار نحوي، وبابتسامة عريضة عرض بوابة الدخول، وبحركة مسرحية من ذراعه أشار لي بالدخول، كما لو كنت السلطان علاء الدين كيقوباد نفسه، ولوهلة شعرت فعلاً أنني، مثل ذلك السلطان الصالح!

كانت محاولات الاقتحام والدخول كلها جديدة بالمخاطرة، فلهظات المتعة الناجمة عن اكتشاف هذه الأخوان لا تقدَّر بثمن؛ كانت إحدى لحظاتي المفضَّلة، حينما عبرت سيرًا على الأقدام الجسر ذا الثلاث عشرة قنطرة -من أطول جسور تركيا- قريبًا من خان كيسك كُبرو، وأنا أنصت إلى صوت البقبة لمياه النهر الأحمر أسفل الجسر، وصيحات صبية صغار يستحمون في مياهه، واستمتعت بقضاء وقت بعد الظهيرة في خان إسيز جوار أبوليانت، بات مخزنًا لمنتجات المزارع؛ جلست وسط أكوام البصل الضخمة المخزَّنة هناك، وشعرت بالدَّوار من رائحتها المُسكِرة،

ثم شرعت أساعد الفلاحات في صفّ البصل أكوامًا حسب الحجم؛ ضحكُن منّي، حين تردّدت في العمل، أو ربّما ضحكُن من لهجتي، أو ثيابي الغريبة، لكنّنا ضحكنا، وتشاركنا لحظة من لحظات الاتحاد الأنثويّة، رغم ما بيننا من اختلافات؛ أذكر أيضًا أنّي استيقظت مبكرًا يوم ما، وذهبت لزيارة تمثال السلطان علاء الدين كيغوباد عند مدخل مدينة ألانيا، فكّرت -وأنا واقفة أمامه- في حياة سلطان سلجوقيّ فتّح هذه المدينة عام ١٢٢١م، وكان مسؤولًا عن بناء كثير من هذه الأخوان بغيتي، ظهر فجأة أحد عمال البلديّة، واختفى داخل قاعدة التمثال، ثم شغل الفوّارات كلّها في الحديقة المحيطة ليزيد من تأثير لحظة تقدير تاريخيّ أعيشها، وهذا مثال آخر للفتات لطيفة حدّثك عنها يا سيّدة ماري.

عشت تجربة أخرى رائعة أثناء بحثي عن خان دوغو بايزيد، تحت ظلال جبل أرارات بالقرب من الحدود الإيرانية؛ ذات صباح وأنا واقفة في شرفة غرفتي بالفندق المواجه لمحطّة "سيم أر" للشواحن في الساعة السابعة والنصف، سمعت جلبة شواحن النقل الدوليّ المتأهّبة للمغادرة؛ شاهدتها تغادر مواقفها في موكب يضمّ سبعا وخمسين شاحنة واحدة تلو أخرى؛ فتخيّلت مشهد التجار وجمالهم أثناء عبورهم كلّ صباح بوابات الأخوان الضخمة السلجوقية، متأهبين للانطلاق في الاتّجاهات كلّها ليسلموا بضاعتهم ويبيعوها؛ لا تزال الطُرق التجاريّة السلجوقية مفعمة بالحياة حتى اليوم.

يسألني الناس جميعًا دائمًا عن الخان المفضّل لي، لكنني لا أستطيع التحديد، كما لا أستطيع اختيار أفضل قصيدة، أو لوحة، أو صديقة، لكنني أتذكّر بعض الأخوان أكثر من غيرها، غالبًا بسبب مغامرات الاقتحام والدخول المثيرة، أو بسبب مواقعها، أو مميّزاتها المعماريّة،

أو عقبها التاريخي، أو لأسباب شخصية؛ فأنا أشعر بالمهابة لدى رؤية خان شارافسا يقف كالنسر في موقعه المثير المطلّ على البحر الأبيض المتوسط، وتعجّني الأبراج الضخمة لخان قاراتاي، تعكس قوّة صاحبه الوزير جلال الدين قاراتاي وبأسه، ويروق لي خانا أغزيقارا وساري بفضل أحجارهما المتلاثة بلون الشُّكر المحروق، وخان سلطان في قيصري بفضل رسوم الشعبان التّنين الأسرة المحفورة فوق ساحة جناح المسجد، ويؤثّر فيّ موقع خان كارجي المنعزل تمامًا، وتذهلني المكوّنات المتقنة لخان كيسك كبرو وذلك الجسر المجاور لا يُنسى، وأشعر بالضّالة أمام ضخامة ساحة خان كيركجوز، وبالإلهام من الزخارف الموحية على بوّابة خان إودير، ويحيّرني التفكير في أصول أحجار لامعة أخذت من الكنائس البيزنطيّة لترصّع جدران خاني أوبروك وزازادين، ثمّة أمر واحد أكيد؛ فأنا أستطيع في تلك الأخوان كلّها سماع أصوات أصحابها تتردّد في الأروقة، مثل السلاطين: علاء الدين كيقوباد، وقاراتاي، ماهيري خاتون، وغيث الدين كيقوباد، كما يتّضح لك من قصص ذكرتها.

علّمتني زيارتي هذه الأخوان كثيرًا عن الأتراك، وعن الفنّ المعماريّ السلجوقيّ، ورغم عدم وجود خانين متشابهين تمامًا في التصميم، فإنّ الأخوان جميعها تتخذ شكل مستطيل أو مربع، مع وجود قسم مغطّى أو عدمه في نهاية الساحة المفتوحة، وتعلّمت أن أقدر كتل الحجر الجيريّ المحليّ عسليّ اللون المنحوتة ببراعة المستخدمة في بناء جدران تلك الأخوان المرتفعة الثخينة، ومررت أيضًا ببوابات أثرية رائعة، مزخرفة بأروع نماذج النحت الحجريّ بالطريقة السلجوقيّة، ودرت حول أسوار الأخوان لأرى الأبراج الضخمة الشبيهة بالقللاع الشامخة فوقها، ووقفت في ساح شاسعة تحيطها غُرف، وحاولت أن أتخيّل تضارب الأصوات بين نهيق الحمير ولغات التّجار المتنوّعة أثناء عملية تحميل البضائع، وحينما

أمعنت النظر في الغُرف المظلمة، حاولت أن أتخيل استخدامها؛ هل كانت تُستخدم مخازن، أم حمامات، أم متاجر إصلاح، أم صوامع حبوب؟ وتخيلت أنني أشعر بحرارة كوانينها، وأرى الضوء المختلج من شموعها يتراقص على الجدران، وحينما دخلت القاعَ الكبير المغطاة وراء الساحة، استشعرت الرائحة النفاذة للحيوانات في الإسطبلات هنا، وتخيلت أنني أسمع الأذان أثناء صعودي السلم المؤدي إلى منابر المساجد أو الدور العلوي لمسجد مكتب وسط الساحة؛ كان الصمت التام المخيم على أغلب هذه الأخوان المهجورة يسهل عليّ مهمة تخيل الضجيج الصاخب الصادر حتماً من العاملين فيها ومن التجار والحيوانات.

فور عودتي إلى أرض الوطن وارتيادي قاع المطالعة في المكاتب، كنت أقرأ كل ما أستطيع عن السلاجقة وعن ثقافتهم وفنهم المعماري؛ عرفت أن أهم صوادهم كانت السكر المكرر وحجر الشب المحدود أهم مثبت كيميائي في صباغة الصوف، وعرفت أن أنشطة التجارة الرئيسة تركزت في مَدُن قونيا وسيواس وقيصري، وتعرّفت إلى بضائع كثيرة كانت تفرغ من فوق ظهور الجمال القادمة من مصر، والصين، وآسيا الوسطى، وجورجيا، وسوريا، والعراق، والقوقاز، وكانت توضع في نهاية اليوم في ساح الأخوان الكبرى في الأناضول؛ شملت هذه البضائع الأباذير، والأسلحة، والقطن، والصوف، والحريز، والمسك، والعطور، والزجاج، والكوبالت، والبارود، والخزف، والآلئ، والجواهر، والفلقل، والذهب، والفضة، والعقاقير الطيبة، والفراء؛ عرفت أيضاً أن هذه القوافل كانت تعود من تركيا محملة ببضائع، مثل: القصدير، وحجر الشب، والسكر، والبوراكس، واللازورد، والجلود، والموهر، والأخشاب، والمشمش، والزيتون، والقمح، والمنسوجات، والسجاجيد، والملح، فضلاً عن البريد، ووثائق حكومية رسمية كانت تُنقل عبر هذه الطرق التجارية.

أذهلتني هذه المعلومات كلّها، واستمتعت بإعداد كراريس ضمت رسوماتي، وصورتي، وأبحاثي، وكان باستطاعتي أن أزور هذه الأخوان كلّها مجدّداً، كلّما شئت على صفحات هذه الكراريس، وشعرت بالفخر لامتلاكي دليلاً خاصاً بي فيه حضارة السلاجقة وفنهم المعماري، وذات يوم أدركت أنّ هذه المعلومات يجب ألا تظلّ حبيسة كراريس مكدوسة فوق مكتبي؛ فقد شعرت -وأنا أمانة مكتبة- بضرورة نشر معلومات جمعتها ونظمتها، فأردت -وأنا عاشقة تركيا- أن أزيد انفتاح العالم على هذا الفنّ المعماري؛ ووجدت أيضاً أنّ المعلومات المتوفرة في الغرب عن الأخوان السلجوقية قليلة جداً، فتمنيت أن أملاً هذا الفراغ؛ فقرّرت عام ٢٠٠٠م مع انتشار الشبكة العنكبوتية أن أشارك العالم محتويات كراريسي عبر هذا الموقع الشعبي.

كان الهدف الأعمّ لموقعي تثقيف الناس، وغرس شعور عامّ بتقدير فنّ الحقبة السلجوقية وتاريخها ومعمارها، كانت أهدافي في بادئ الأمر بالغة السهولة؛ إذ أردت أن أوفّر مصدر معلومات باللغة الإنجليزية للتعريف بالخان التركي، وأن أسرد قائمة وصفية بأخوان لا تزال موجودة، وأن أقدم موارد للراغبين في دراسة عمارة الأخوان، أو في زيارتها، لم أكن واثقة وقتئذٍ إن كان هناك من يهتم لأمر هذه الأخوان، أو يريد أن يزور موقعي، لكنني قرّرت إنشاءه على كلّ حال، وصمّمته بنفسني دون مساعدة ألبّة، ولن أنسى السعادة والشعور بالإنجاز، حينما رُفِع عبر الشبكة العنكبوتية المرّة الأولى.

كان لي وراء هذه الأهداف العامة المعلنة عدّة أهداف شخصية أساسية؛ أردت أن أقدم هذه المعلومات له مجموعات المستخدمين المحتملة كلّها، لا المتخصّصين فقط في هذا المجال أو الجامعيين، وأردت أن يكون هذا

الموقع دراسة جادة، تتسم بدرجة عالية من الوضوح تجعل المستخدم العادي غير المتخصص يستمتع بها وفقاً لمستواه، واخترت شكل كتاب المعروضات لتنفيذ ما أردت، بدلاً من كتابة مقالات طويلة عن الموضوع، والأهم من الأسباب الأخرى كلها أنني أردت أن أشارك العالم حبي لتركيا وإعجابي بها، وهذا يشبه إلى حد بعيد رسائلي أكتبها إليك -يا سيّدة ماري-؛ فقد أردت أن أعبر عن تأثري بتركيا وشعوري بالألفة تجاه شعبها وطبيعتها وتاريخها وفنّها ومعمارها وآمالها؛ ولأنني كرّست حياتي المهنية لمجال العلائق بين الثقافات، شعرت أنّ هذا الموقع وسيلتي لعرض اهتماماتي، ولإشاعة مزيد من التفاهم والاحترام المتبادلين.

على مرّ السنين منحني موقعي -www.turkishhan.org- كثيراً من السعادة؛ فقد سرّرت بتنظيم الصور، وكتابة النصوص، واختيار شكل لتقديم المعلومات، وتصميم الشكل العام، منحني الموقع مباحج أخرى، كالدافع إلى مواصلة بحثي، والتحدّث إلى الطلبة والصحّاقين عن عملي، لكنّ أكبر مكافأة حصلت عليها تمثلت في رصد ردّ فعل الأتراك تجاه رأيي في فنّهم المعماريّ وتاريخهم.

حينما أقول للغربيين: "إنّني مهتمة بهذه الفئة المتناهية الصغر من التاريخ"، أجدني أقضي وقتاً طويلاً أشرح لهم مميّزات هذا العصر والسبب في إعجابي بهذه الحضارة، لكنني أقضي وقتاً طويلاً أيضاً في شرح الشيء ذاته للأتراك غير المدركين غالباً مدى ثراء هذه الحقبة من تاريخهم؛ غاب العصر السلجوقيّ تماماً عن النظر لتواريه ظلال العصر العثمانيّ الحافل بمجد الأتراك وشهرتهم؛ فيقتصر ذكر السلاجقة في الكتب الدراسيّة على أقسام مختصرة، وكلّما عاش المرء بعيداً عن مثلك قونيا وسواس وقيصري، قلّت معرفته بالحضارة السلجوقيّة؛ شعرت

بالسرور البالغ والرضا على مرّ السنين، كلّما شاركت الأتراك حماسي لهذه الحقبة، علاوة على أن بهجة تعلو وجوههم حين يشاركونني افتتاني بها تفوق في قيمتها أي ردّ فعل تلقّيته في الغرب.

استضافني التّلفاز التركيّ، وحالفني الحظّ أن أكون موضوع مقال من صفحة كاملة نُشر في إحدى الصُّحف التركيّة، مدعّمًا بصور لي وللأخوان، بالإضافة إلى حوار عن عملي؛ هذه سيّدة أمريكيّة أجنبيّة اتخذت (قدريّة) اسمًا لها شغلت اهتمام الأتراك؛ بدأتُ أتلقّى رسائل من أنحاء تركيا كلّها بسبب المقال، يخبرني مرسلوها: ”أنهم استمتعوا بقراءته وبمعرفة المزيد عن هذه الحقبة“، ومن خلال هذه الرسائل عرفت أن كثيرًا من الأتراك اكتشفوا هذه الحقبة من خلال موقعي، وأخبرني بعض الأتراك أنهم يخطّطون لقضاء عطّلتهم بصحبة الأسرة في زيارة الأخوان، وأرسلوا لي صورًا، وكتبًا، وقصائد، ودعوات لزيارتهم؛ إنّه عرض بالكرّم للطّيبة والاحترام المميّزين، وقد أشرت إليهما كثيرًا في حديثي معك -يا سيّدة ماري-؛ زرت بالفعل بعض تلك الأسر، وعقدت صداقاتٍ أساسها هذا الاحترام المتبادل للتاريخ، وشاهدت كيف ملأ هذا الموقع المتواضع الأتراك فخرًا بترائهم؛ فأتلج ذلك صدري أكثر من أي شيء آخر كنت أتصوّره، حينما قرّرت في بادئ الأمر أن أنشته.

عرفت أيضًا من ردود الأفعال على موقعي أن فنون الزخرفة السلجوقية، رغم طول فترة تواريتها خلف شهرة الفنون العثمانية، بدأت تلقى التقدير في عيون الأتراك، والفنّ السلجوقي شأنه شأن أي فنّ يشكّل أساسًا لحضارة ما، يسعى للتأكيد أو التعبير في كلّ عمل عن روح الإنسان وتكوينه الجسمانيّ وعلاقته بالمجتمع وبالطبيعة، مع العناية بالتفاصيل وإبراز التقنيات والبراعة والأناقة؛ ماذا يخبرنا الفنّ السلجوقي إذا عن

السلاجقة؟ يخبرنا أنهم أشخاص واثقون، أقوياء، مسؤولون، يتسمون بالصلاية، ميالون لعبادة الله وخدمة الناس.

لم يغب عن ذهن الأتراك أن هذه الفنون يجب أن تُصان لضمان الهوية الثقافية؛ وبالفعل أنشئ متحفان جديدان للسجاجيد في إسطنبول، وتمتلى قاع مَزادات لندن الإسلامية بمؤسسة سوئي بمزايدين أترك، وطرحت مؤسسة باشا بهجة الشهيرة للمنتجات الزجاجية مجموعة رائعة من قطع تحاكي نماذج القرون الوسطى؛ وذلك كله يدل على اهتمام الأتراك المتجدد بثقافتهم وافتخارهم بها.

أتذكر جيداً، حينما زرت تركيا عام ١٩٧٨م، وتمنيت شراء سجادة؛ وأأسفاه! لم تسمح لي ميزانيتي -وأنا طالبة- بشراء سجادة أحلامي؛ لذا خفضت سقف أحلامي من سجادة إلى مجرد خُرج، وهو عبارة عن إحدى الحقائق المستخدمة لتخزين أي شيء من الملح إلى الملاعق؛ ظلت ألح على صديقي التركي ليساعدني في العثور على واحدة، فنظر إليّ متحيراً؛ لم يفهم طلبي، وبدأ كلانا يشعر بالإحباط؛ وأخيراً رأيت واحدة في زقاق خلفي، وأريته إياها؛ فحدق في مندهشاً، وقال: "خُرج حمار! أتريدين خُرج حمار! هل جنتت؟ لماذا تريدين خُرجاً قديماً، رثاً، قذراً، مليئاً بالبراغيث والشعر؟"، لو طلبتُ هذا الطلب اليوم، فلن يُقابل برد فعل كهذا؛ لأن الأتراك -في رأيي- اكتسبوا احتراماً لتراثهم وفخراً به؛ إذ تسمح لهم حِرْفهم التقليدية اليوم بالاتصال بالماضي، وهو أمر بالغ الأهمية لهم؛ فبينما تمضي تركيا قُدماً نحو مستقبل جديد بسرعة هائلة، لا تزال هذه إحدى مجالات تُشكّل نقطة تواصل مع أسرهم وأسلافهم.

من دوافعي السرية لإطلاق موقعي عن الأخوان السلجوقية الرغبة في تحفيز الناس للمحافظة على التاريخ؛ فمند زيارتي أول خان، لاحظت

تغيّرًا هائلًا في طريقة صيانة الأخوان واستخدامها؛ فلکي أمعن النظر في جواهر رُصِّعت بها دائرة البروج بواجهة مدرسة جوك في سيواس عام ١٩٧٨م، اضطُرت أن أمرَ بين أبقار تطحن الحشائش بأسنانها في سلام أمام بوابة المدرسة، أمّا الآن فقد صارت المدرسة مصنونة وسط عمران حديث، كما هو الحال في كثير من الأخوان؛ من الضروريّ الحفاظ على الأخوان الباقية حاليًا للأجيال القادمة، لا أقصد معماريين سيأتون لدراستها فحسب، بل أيضًا لأطفال أترك سيقروون سيرة حضارتهم من خلال زيارتها.

تحوّلت آثار العهد العثمانيّ إلى متاحف فتحت للجمهور، أو رُمّت بمهارة لإعادة استخدامها على النحو الملائم في المدينتين السياحيّتين الرئيسيتين إسطنبول وأنقرة، وتحوّلت المدارس العثمانية بمهارة إلى عيادات طبيّة: بورصة يلدرم؛ وأيوب سوكولو؛ وأوسكودار ميهريماه، ومكتبات: شمسي باشا في إسطنبول، ومكتبة ميهريماه في أوسكودار، أو مستودعات تجارية: خان أکوز محمّد في ألوكيشلا، وخان أدرنة، وخضعت بيوت مدن عثمانية بأكملها، مثل: سافرانبولو، لأعمال الصيانة؛ ولاقت آثار العهد السلجوقيّ اهتمامًا مماثلًا؛ فالمدارس والمساجد الرائعة في قونيا، وسيواس، وأنطاليا، وقيصري تقدّم للطلبة المهتمّين بدراسة المعمار السلجوقيّ مادةً ثريّة لمعاينة هذا الفنّ.

تُشكّل الأخوان أيضًا تراثًا معماريًا جديرًا بالاهتمام، وعندما بدأت أبحث عنها في بداية الثمانينيات، لم تكن الحكومة التركيّة قد صانت سوى قليل منها، وحوّلتها إلى متاحف، من أبرزها خانان للسلطان علاء الدين كيقوباد، أحدهما يقع على الطريق بين قيصري وقونيا، والآخر يقع على طريق قيصري سيواس، ومنذ ذلك الحين حوّلت الحكومة

التركيّة عدّة أخوان أخرى إلى متاحف، من أبرزها خان أغزيقارا وخان ساري، نعم هذه أمثلة مثيرة للإعجاب ولكن ما تزال هناك آثار أخرى مهجورة تتداعى، ويُعتقد أنّ نحو نصف الأخوان المبنية في الأصل قد ضاعت، وليست هذه مفاجأة في أرض دكتها حشود الصليبيين والمغول وهزتها الزلازل المروعة، ورغم هذا لم تهتّم أخوان كثيرة بسبب هذه الأحداث، بل بأيدي مواطنين معاصرين غافلين؛ فقد هُدمت أخوان كثيرة لتحقيق الربح، عن طريق بيع أحجارها بوصفها عناصر للبناء، أو بيعها لهواة جمع القطع الأثرية، وهي ظاهرة شائعة في أوربا، ومن العواقب المأساوية الأخرى اختفاء خان نتيجة فيضان سدّ، حدث هذا في خان التين أبا الغامض، الواقع على الطريق بين قونيا وبيشهر؛ لحسن الحظ لا يزال كثير من الأخوان باقيًا في حالة جيّدة؛ إذ كانت في أغلب الأحوال تُستخدم في قراها مخازن للمخزون المحلي، أو مباني زراعية تعاونية لتخزين المِكان الزراعية، والماعز، والغنم، والمحاصيل، وهو استخدام ليس ببعيد عن غرض إنشائها الأصلي.

على مدار خُمس السنوات الماضية انتهجت الحكومة التركيّة سياسة إبرام عقود من الباطن مع شركات خاصّة أو متعهّدين لتنفيذ عمليّات لتجديد أثر على أن تستغله هذه الجهة تجاريًا فور الانتهاء من عمليّات التجديد؛ وهكذا تحوّلت بعض المدارس السلجوقيّة في قيصري، مثل: الصاحبيّة، وأفجونو، وسراج الدين، إلى متاجر لبيع الكتب، وتحوّلت مدرسة دار الشفاء في سيواس وخان خاتون في قيصري إلى مراكز تسوّق وحدائق شاي، ويجري حاليًا تنفيذ الإجراء نفسه على الأخوان المعدّلة لتلائم الاحتياجات المعاصرة؛ إذ يُستخدم خان دورأغان مركزًا تجاريًا للتسوّق، وتستخدم أخوان أخرى مطاعم للسائحين، مثل: هوروزلو، ونيدي، وتستخدم البلديّة خان كيسك كبرو دارًا للمناسبات وحفلات

الأعراس، ويُستخدم خان ساري الآن مركزاً ثقافياً متعدد الاستخدامات يرتاده السائحون، ويحوي خان الأرا كثيراً من أجنحة بيع تعرض المنتجات اليدوية والحرفية للسائحين القادمين من ألانيا بالحوافل، ثمّة استخدامات أخرى أقلّ شيوعاً للأخوان؛ إذ تحوّل خان قادين إلى متجر للأثاث، وتحوّل خان شارافسا إلى ملهى للرقص، وتحوّل خان ترّجان إلى قاعة ألعاب رياضية، وافتتح مسؤولو بلدية قونيا خان زازادين بعد تجديده عام ٢٠٠٧م؛ يراودني شعور غريب حين أفكر أن بوابته الأمامية تُفتح أمامي بطريقة مثيرة بطلقة من بندقيّة صديق، لتُفتح الآن أمام جموع الزائرين، وثمة مشاريع أخرى نُفذت في أخوان خاتون، وأزينا، وحكيم؛ إذ جرى تنظيف مواقعها وتأجيرها دون تخصيص مشاريع كبرى فيها.

أصبح الأتراك في حياتهم اليومية أكثر وعياً بالحاجة إلى الحفاظ على آثارهم المعماريّة التاريخيّة؛ فخلال السنوات القليلة الماضية، زاد صدور كتب عالية الجودة تضمّ صوراً جيّدة وتوثيقاً شاملاً للآثار، واعتاد الأتراك سنوات كثيرة نشر كتب تحمل الطابع العرقيّ عن مختلف مناطق تركيا، وتحوي صوراً بالأبيض والأسود للآثار التاريخيّة المحليّة، وأسطول شواحن القمامة، وعربات الإطفاء، والمحاصيل، والأزياء المحليّة؛ تشكّل هذه الكتب مجتمعة مع مفردات العاميّة المحليّة، والأمثال، والأغاني الشعبيّة كتاب معروضات يضمّ لمحات لشعب فخور، وقد بدأت هذه الكتب تزاد رقياً، وباتت الآن مدعومة بأسطوانات مضغوطة وأسطوانات فيديو رقميّة تحوي صوراً ذات جودة احترافيّة؛ التقيت ثلاثة مصوّرين مشهورين في قونيا -أحمد كوش، وإبراهيم ديفارجي، وفوزي شيمشك- شرعوا في تنفيذ مهمّة لإنتاج صور رائعة عالية الجودة للآثار الثقافيّة كلّها في قونيا وتركيا، لضمان تسجيل تراثهم؛ بدأ الأتراك يتنبهون لثرائهم الثقافيّ، وينشرون الوعي به.

جدير بالثناء ما تبذله الحكومة التركية من جهد للحفاظ على هذه الأخوان؛ فلا أحد يتوقع بقاء المباني كلها على حالها مع مرور الزمن، مع احتفاظها بشكلها واستخدامها الأصليين؛ فالحياة تمضي، وفي مجال الحفاظ على الآثار التاريخية لا بد أن يبعث المرء حياة جديدة في المباني؛ فأَيّ مبنى - شأنه شأن حضارته - يشكّل كائنًا حيًّا يُولد ثم يَشِبُّ ثم يشيب، وفي هذا السياق من المشجّع رؤية هذه الأخوان يُنتفع بها في القرن الحادي والعشرين؛ فمن خلال تشجيع استخدامها لأداء وظيفة اجتماعية معاصرة، تصبح صيانتها أمرًا مؤكدًا لإعادتها للحياة في العالم المعاصر؛ في شهر مايو/أيار عام ٢٠٠٨م أقيم حفل زفاف جماعيٍّ لخمسة وثلاثين زوجًا في قونيا بخان زازادين المُجدّد حديثًا، وهي بداية عظيمة لحياة هذا الخان الجديدة، كما هي بداية حياة هؤلاء الأزواج المحظوظين؛ فاحترام الإرث الثقافيّ جزء لا يتجزأ من التحوّل إلى دولة حديثة، ومن المأمول أن يستمرّ حماس الأتراك للحفاظ على الآثار بقدر تحمّسهم لجوانب حياتهم الأخرى؛ فهل رأيت - يا سيّدة ماري - كيف أثّرت الأخوان حياتي؟ فقد عرّفتني دراستُها الفنّ المعماريّ، ومنحتني الوعي الثقافيّ، وقَدّمت لي مغامرات خياليّة، وألّقت لي الضوء على الأتراك أنفسهم، وعرضت عليّ دينًا يدين به الأتراك لأسلافهم السلاجقة؛ إنّه دينٌ كبير حقًّا!

أستطيع أن أرى بوضوح أنّ قادة تركيا ومواطنيها يستخدمون اليوم في القرن الحادي والعشرين في إقامة إمبراطوريّتهم الجديدة أساليب استخدمها السلاطين السلاجقة قديمًا، واليوم يطبّق الأتراك بنجاح الخطّط السلجوقيّة الخاصّة بالعولمة، والتجارة الدوليّة، وحرية التجارة على الطرق والموانئ الآمنة، وتحسين البنية التحتيّة، واحترام المدنيّة والحوار، وتهيئة مناخ من التسامح والتنمية الثقافيّة؛ أرسى السلاجقة شعورًا بالهويّة في نفوس الأتراك، ومنحوهم الثقة ليتعاملوا بكرم مع الأجانب،

وليشاركوهم طعامهم وأرضهم وثقافتهم بمتهى الحرية؛ لقد ربّوا مواطنين واثقين، فخورين بما حقّقه وبما يستطيعون تحقيقه، وليس من الصعب رؤية آثار الروح السلجوقية في أترك اليوم الكادحين، بأكمّامهم المشمّرة، وهم يضطلعون ببناء بلادهم بالهمة وروح المبادرة والعزيمة نفسها.

كم كان السلاطين السلاجقة سيفخرون برؤية مملكتهم في الوقت الحالي مربوطة بشبكة من الطُرق الممتازة القائمة مكان طُرُقهم التجارية! كم كانوا سيفخرون بسدود ورخاء اقتصاديّ جلبته! ورغم أنّ دولة السلاجقة استمرّت مئتي عام تقريباً؛ فقد أرسّت أحجاراً آثارها وأعمدتها الثقافية أساسَ تركيا اليوم، ذلك الأساس القادر دون شكّ على دعم مستقبل ستبنيه تركيا في القرن الحادي والعشرين.

“الفنُّ باقٍ”

قدريّة براننج



مدرسة طاش في أكساراي



نسر برأسين رمز السلاجقة

Ağzıkarahan
Köyü
Kervansaray
Giriş Bileti

№ 2359

100.000 TL.



تذكرة نُزُل، قرية خان أغزيقارا



ضريح هودافنت خاتون في نيدي



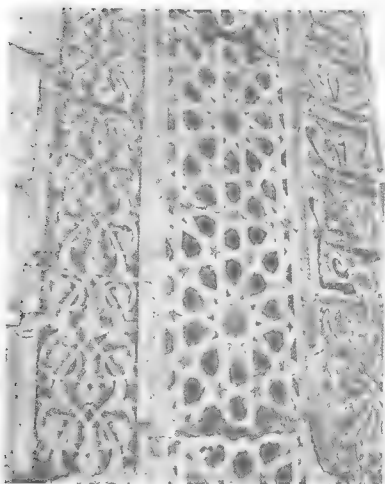
كيسيك كبرو في سيواس



روح السلاجقة مستمرة



ضريح الملك غازي

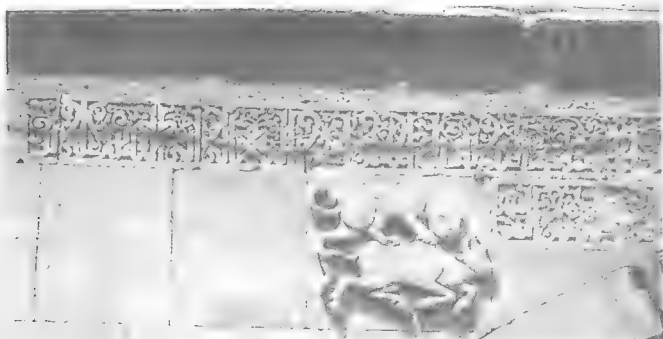


مدرسة برفاني في توقات



مجمع صاحباتا المرمم في قونيا

عام ٢٠٠٧م



ديار بكر



خان أزيينا بازار



Otel KERVANSARAY
TURİZM TİC. KOLL. ŞTİ.

الرسالة السادسة والعشرون

عُقد سريعة نشيطة

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة وجه تشابه آخر بين تجربتنا في تركيا؛ فكلتانا شهدت هذا البلد خلال فترة نشوء اجتماعي ثقافي مهمّة؛ إذ أقمت أنت في تركيا إبان عهد لاله -التوليپ-، وهو عصر شهد انفتاح الإمبراطورية العثمانية على الرؤى والمُثل الغريبة؛ وأنا أيضًا أقمت فيها فترة شهدت تغييرًا ملحوظًا، تحديدًا خلال ثمانينيات القرن العشرين، حينما تطلّعت تركيا بعناية إلى رؤى الغرب وأساليب حياته؛ فأناحت لي رحلاتي إلى تركيا كلّ عام فرصة ملاحظة التغيّرات الطفيفة والمتوسطة في أسلوب الحياة؛ إذ يفصل بين زيارة وأخرى فترة كافية تسمح لي بإحصاء عدد لَبَنات التغيّر في جدار أساس تركيا الناشئة؛ تبرز أمامي كلّ عام اختلافات محدّدة، وقد سجّلتها كلّها في يومياتي بدقّة، حتى أكثرها فهاهة.

لا شكّ أنّ بعض الأمور لا تتغيّر في تركيا؛ كرائحة كولونيا الليمون، وفوضى أمين أنو، وجلجلة الأبواق لدى نفير مراكب البوسفور، ونداء المؤذن، ورائحة الشّواء للحم الضّأن، وصوت الملاعق في كؤوس شاي تشبه زهرة التبولب، ومذاق اللبن الخثير في كانليجا، ولون تلال الأناضول

البنية المائلة للصفرة، إنها مُتَع خالدة، ورغم ذلك فكلّ عام يشهد ولادة عدد من المُتَع الأخرى!

لطالما أدهشتني مفارقة معالم جغرافية تركية تتبع القاعدة الذهبية نفسها في النظام النسبي (٣/٢) المعمول به في سجاجيدها؛ فمن عدّة أوجه أرى أنّ السجادة ذات العُقَد ترمز لتركيا الحديثة المنسوجة حاليًا؛ سجادة يمكنك أن ترى فيها زخارف الماضي وألوان المستقبل، ونولها هو جغرافية تركيا ذاتها بما تحويه من جبال، وأودية، وغاب، وبحار؛ نول قويّ قوّة أشجار الدُّب البالغ عمرها خمس مئة عام، المنتشرة هناك، وتنظم في هذا النول خيوط رأسيّة مضمفورة، تمثّل القيم الاجتماعية التركية التقليدية الأساسية للدين واللغة، والعادات، والهيكل الأسريّ، بينما تمثّل الخيوط الأفقية الحمراء المتقاطعة مع الخيوط الرأسيّة براعم ابتكار وتقدّم، وتواصل ملء هذه السجادة التركية من الأسفل إلى الأعلى حتى تكتمل، وتثبت أيضًا كلّ صفّ من العُقَد في مكانه، وأخيرًا أرى العُقَد الصوفية مربوطة في هذه الخيوط الرأسيّة والأفقية لتمثّل حبكة وضرّة فريدتين تميّزان هذا التقليد والتغير، ويبقى اختيار ألوان الصوف، وتصميم أشكال هذه العُقَد، وإظهارها، وتزيينها في يدي النساجة نفسها ورهن رؤيتها؛ إذ هي حيثنّد شعب الجمهورية التركية أجمع؛ فحينما تجلس النساجة أمام نول فارغ، وتلتقط الصوف لتغزل أوّل صفّ من العُقَد، تكون قد رسمت بالفعل تصميم السجادة في عقلها، لكنّها تعي جيّدًا أنّ التصميم المنشود ربّما لا يخرج دائمًا على نحو خطّطت له، وأنّ قوّة شدّ عُقدها ستتغيّر من يوم إلى آخر؛ فالسجادة كالحياة تبدأ بمقاصد ثابتة، لكنّها تتكيّف، وتتغيّر خلال سيرها.

راقبت شهرًا وسنوات صفوف العقد المتراكمة بعضها فوق بعض باتجاه قَمّة النول لسجادة تركيا، والآن تنعقد العُقَد بسرعة ونشاط مع سعي السجادة لبلوغ قَمّة النول، ورغم هذا يبدو أنّ هناك نوعين

من الأيدي يعقدان هذه العُقْد السريعة النشيطة، وهذان النوعان لنساجتين مختلفتين، تعمل كلتاهما بقوة، وجذبة، وشدة، مختلفة؛ إحدى الأيدي لحِرَفَيّ تركيا الحديثة، والأيدي الأخرى لتركيا التقليدية، ويمكن رؤية هذين النوعين من الأيدي في أبراج الشَّقَق الخرسانيّة المصقولة، والبيوت الخشبيّة القديمة المتواضعة، وفي الشوارع الواسعة والأزقة الخلفيّة الضيّقة، وفي الثراء الفاحش والفقر المدقع، ويمكن رؤيتهما في الصراع بين الشرق والغرب، وفي الرغبة في التغيير وضرورة تحقيق النجاح الاقتصاديّ في دنيا العولمة مقابل حنين ملحوظ لأسلوب الحياة التركيّ التقليديّ، وفي الارتباط القويّ بالدين الإسلاميّ مقابل الإعجاب بالعالم الأوربيّ، وفي الالتزام الصادق بثقافة أتاتورك مقابل الحاجة الملحوظة لمزيد من الديمقراطية الحديثة، لكنني أعتقد أنّه في خِصَم هذا الصراع لا يزال جلال تركيا العثمانيّة التي عرفتها -يا سيّدة ماري- مغروسًا في نفوس شباب الأتراك المتفرنجين اليوم تحت القشرة الخارجية؛ يكفي فقط أن تخدشي هذه القشرة لتعرفي أنّ التركيّ سيظلّ تركيًّا، مهما تغير العالم من حوله، ومهما ارتقى مظهره وفكره؛ فلطالما حظي شعب تركيا الممتدّة بين قارتين بالفرصة النادرة للنظر إلى العالم بمنظاريّن مختلفين؛ أحدهما غربيّ والآخر شرقيّ؛ لذا فإنّهم يحدّقون في العالم عبر نظارة مزدوجة الرؤية، ويُميلون رؤوسهم باستمرار لتعديل الصورة اللحظيّة، سواء كانت قريبة مباشرة أم بعيدة على امتداد الأفق؛ لهذا -يا سيّدة ماري- أودّ أن أطلعك على بعض صفوف عُقْد رأيّها تُنسج في هذه السجّادة، وكما منحنّا صورًا لدقائق الحياة اليوميّة في عهد التوليب، أودّ أن أصف لك بعض أمور شاهدها خلال أربع فترات مختلفة للنموّ على مدار ثلاثين عامًا من السفر إلى تركيا؛ لا أسرد هذه القصص بغرض التحليل التاريخيّ أو السياسيّ، بل تسجيلًا للحياة اليوميّة؛ وهذه الفترات الأربعة نتاج تصنيفي الخاصّ، لكنني ألتمس العذر للمؤرّخين، والاقتصاديّين،

وعلماء الاجتماع، إن لم يوافقوا على تصنيفي هذا؛ بدءاً من تاريخ أولى رحلاتي إلى تركيا عام ١٩٧٨م، وتأتي هذه الفترات على النحو التالي: سنوات الظلام من عام ١٩٧٨م إلى عام ١٩٨٥م، وعُقد الصحة من عام ١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٥م، والعهد الاستهلاكي من عام ١٩٩٥م إلى عام ٢٠٠٠م، والانطلاق نحو الحداثة من عام ٢٠٠٠م حتى الوقت الحالي، وامتداداً نحو المستقبل.

كما ذكرتُ لك -يا سيّدة ماري- كانت زيارتي الأولى إلى تركيا عام ١٩٧٨م خلال سنوات أَعَدّها الآن سنوات الظلام، وأنا لا أصف هذه الفترة بهذا الوصف لكونها كانت فترة عصية فحسب؛ بل لأنها كانت مظلمة بكلّ ما تعنيه الكلمة؛ إذ لم يكن لدى أحد في البلاد بأسرها مصباح كهربيّ؛ كان أصدقائي وأسرتي -لا سيّما أُمّي المشغولة بحالي- يقولون لي في ذلك الوقت: "لماذا تسافرين إلى بلد يعاني المشكلات، وبه خطر داهم، وتعمّه الفوضى، فضلاً عن كونه عُرضة لتلك الزلازل كلّها؟"، كانت أُمّي محقّة بالفعل؛ فقد كانت السبعينيّات فترة عصية على تركيا.

مرّت تركيا خلال سنوات سبقت زيارتي بعقد حافل بالاضطرابات، والصراعات السياسيّة، والعنف والبؤس، وهي عقبات اجتمعت، كما يبدو لتقويض أساس تركيا وأهدافها وهويّتها العلمانيّة الموروثة عن أتاتورك؛ كان الواضح على السطح أنّ المجتمع ماضٍ نحو تدمير نفسه؛ في عام وصولي تركيا أعلنت الأحكام العرفيّة في المناطق الكرديّة منها، وكانت الصراعات دائرة بين اليمين واليسار، وساد عنف سياسيّ في الشوارع، وطرأت تغيّرات متواصلة على الحكومة، وانتشرت مقاطعات للبضائع، وأغلقت المحاكم، وعمّت الإضرابات، والاعتقالات، والبطالة، والتضخّم الهائل، وشحّت الفرص الاجتماعيّة والتعليميّة، وأُقتحمت السجون، وارتفعت أسعار النفط ارتفاعاً جنونيّاً، وانقسم الداخل بين العلويين والسنيّين، وبين الأكراد؛ سار كلّ شيء في الاتجاه الخاطئ.

في فرنسا حيث كنت أقيم وقتئذٍ، كانت تلك الأخبار السياسية العصبية تُنشر في الصحف، لكن ترددت أصداؤها أيضاً داخل فرنسا؛ ففي الفترة بين عامي ١٩٧٥م و١٩٨١م تعقّب ثلاث مرّات مسلّحون أرمن سفارتين أترّاكاً إلى باريس وقتلوهما، وفجّروا مكتباً للخطوط الجوية التركية في شارع الشانزلزيه عقب أقلّ من عشر دقائق من مروري أمامه أثناء إحدى جولاتي بالشارع، وليس ذلك فقط، بل وقعت أكثر الحوادث تدميراً عندما تحطّمت طائرة الخطوط الجوية التركية للرحلة رقم تسع مئة وواحد وثمانين في الثالث من مارس/آذار عام ١٩٧٤م؛ لن أنسى ما حييت سماع نبأ سقوطها في المذيع فور استيقاظي صباح يوم أحد ربيعٍ مشرق؛ سقطت هذه الطائرة في غابات أرمينوفيل شمال باريس، وأسفر الحادث عن مقتل ثلاث المئة والستّة والأربعين راكباً عن آخرهم؛ كان الحادث أسوأ كارثة جوية في التاريخ، وأسهم إلى حدّ بعيد في تشويه سمعة الخطوط الجوية التركية وسمعة الدولة التركية؛ إذ بدت أمام العالم ضعيفة، غير مسؤولة، لكنّ أشدّ ما لطّخ صورة تركيا من هجمات هو الفنون؛ إذ عُرض فيلم "ميدنايت إكسبريس" عام ١٩٧٩م؛ نجح الفيلم -أخرجه ألان باركر- في تصوير التعذيب والعنف السائدين في السجون التركية، وفي حشد الكراهية العالمية ضد الأتراك، بعد أن ركّز على أسوأ مخاوف الغرب وتصوراته الخاطئة عن تركيا؛ سدّ الفيلم الآفاق المفتوحة كلّها أمام تركيا، وترك ندوباً عميقة ما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا؛ أفضى هذا الظلام الدامس كلّهُ إلى انقلاب عسكريّ في الثاني عشر من سبتمبر/أيلول عام ١٩٨٠م؛ تمخّض الانقلاب -المسمّى: "عملية العلم"- عن ثلاث سنوات من الحكم العسكريّ من عام ١٩٨٠م إلى عام ١٩٨٣م؛ تمركزت الدبّابات في أركان الشوارع، ووقف الجنود ببندقياتهم الآليّة في كلّ شارع، وقُطعت الاتصالات الداخليّة، وفُرض حظر تجول يبدأ من الساعة العاشرة مساءً، وفُرض حظر على السفر للخارج.

أقمت في تركيا خلال الفترة الأولى من الانقلاب العسكري، في شهر ديسمبر عام ١٩٨٠م؛ ولأنني لا أعني جَسامة الموقف، قرّرت أن أزور أحد الأصدقاء أسبوعاً؛ لأتعرّف إلى شكل الحياة في إسطنبول في فصل الشتاء، ولم أتوقع ما كان يتظرني؛ إذ جعلني كلّ ما قرأته في الصحف عن الانقلاب العسكري أعتقد أنّ الحياة تسير كالمعتاد؛ بالفعل كانت الأمور طبيعيّة في جوانب كثيرة، لكنّ الحياة اليوميّة كانت عسيرة جدّاً؛ أوّل ما أثار دهشتي انتشار الجنود برشاشاتهم في كلّ مكان؛ في مهابط الطائرات بالمطار، وفي كلّ مكان عامّ، وفي كلّ ركن من أركان الشوارع، وأمام كلّ متجر من المتاجر الكبرى، وفي دوريات متواصلة ذهاباً وإياباً.

كان الصوت المهيّب للبيانات العامّة المدويّة من مكبرات الصوت الضخمة يداهم المرء في الشارع، ولأنّ معرفتي باللغة التركيّة وقتئذٍ كانت شبه معدومة، استحال عليّ فهم فحواها، لكنّ نبرتها كانت كافية لأن أدرك جدّيّتها، وزادت رائحة الفحم الحجريّ الكريهة -المستخدم في التدفئة- الشوارع كآبة؛ إذ كان الجوّ قارصاً، وفي إحدى الليالي بدأت الثلوج تساقط واستمرت ثلاثة أيام؛ فكست الشوارع كساءً جميلاً لحظات قبل أن يغمرها الطين مجدّداً، ويتركها فوضى موحشة؛ لست متأكدة من السبب، أهو البرد القارس أم تساقط الثلوج أم الخوف وعدم اليقين؟ لكنّ الصمت المخيف خيّم على أرصفة إسطنبول؛ فأسكت السمر، والصخب المألوفين لحياة الشارع التركي؛ لم تكن المنازل التركيّة أحسن حالاً، بل سادت حالة من العوّز، وحاول الناس جميعاً مواجهة الموقف بكلّ ما أوتوا من قوّة صابرين، وظهر أفضل مثال على الالتزام القويّ بمبدأ التلاحم الاجتماعيّ -حدّثك عنه من قبل يا سيّدة ماري-؛ إنّها روح العشيرة الموروثة عن أسلافهم تظهر على السطح، ليربط بينهم في أوقات التحدّيات والصّعاب؛ كانت أقسى صّعاب واجهتهم عدم توفّر التدفئة؛

فلم يكن هناك وقود، وكما هي الحال دائماً في مثل هذه المِحَن، هجم فصل الشتاء ببرد لا يرحم!

قصصت ذات مرة -يا سيّدة ماري-: "كيف جلست في حديثك المشمسة بمدينة بيرا عصر يوم من شهر يناير/كانون الثاني، واستمتعت بالجوّ اللطيف العذب"، لكنني أوكد لك أنّ الجوّ لم يكن كذلك في شهر يناير/كانون الثاني أمضيته هناك؛ ظهرت وقتئذٍ وسيلة مبتكرة لضمان الحياة؛ ففي كلّ مساء كان أفراد عائلة صديقتي جميعاً يتجمعون في بيت أحدهم، ويقضون كلّ ليلة في بيت مختلف من بيوت العائلة؛ كانوا يشعلون المدفأة الثمينة وقتاً محدّداً، فيحظى كلّ واحد منهم ببعض الدفء عدّة ساعات على الأقلّ، واعتدنا أن نرتدي عدّة طبقات من السّتر، والقفافيز، والأوشحة، والجوارب مجتمعين كلّنا في غرفة واحدة مكدوسين على أرائك منخفضة، نحسّي الشاي، وتسامر، ونشاهد التلفاز انتظاراً لسماع أيّ جديد؛ أمضينا ليلة تلو أخرى على هذا النحو، بلا أيّ نشاط آخر؛ لأنّ معظم الأنشطة المعتادة كانت متوقّفة أثناء فترة الانقلاب، لكنّ أغرب شيء لاحظته كان نقص المصابيح الكهربائية؛ عادة لم يكن في كلّ بيت سوى مصباح واحد، وكان كالتعويذة السحرية يُنقل من مكان لآخر، ويُفكّ ويُركّب، حيثما دعت الحاجة للضوء، فيُضطرّ أهل البيت جميعاً للبقاء معاً كي يتمكنوا من الرؤية أو القراءة!

كان الليل يحلّ مبكّراً، في الساعة الرابعة عصرًا، وكان الظلام الدامس يخيم على الشوارع؛ فيجبرك على العودة إلى بيت يضاهيه ظلمة، ووقت الأصيل لم يكن ثمة ما يمكن فعله عدا الجلوس في صمت في غرفة مظلمة، والتكوير في معطفك بصحبة شمعة متآكلة؛ لم يعوزنا الوقود اللازم للتدفئة فقط، بل اللازم أيضاً لتسخين الماء؛ فبات الاستحمام تحدّيًا صعبًا، وكان الطعام متوقّفًا من دون زبد، أو قهوة، أو كثير من الصابون، وكانت المطاعم خاوية تمامًا، والمتاحف مغلقة، وأصبحت مواعيد

العمل للمتاجر والمصارف مضطربة، وحينما حان وقت رحيلي، توجهت إلى المطار للحاق برحلي لأكتشف أن المطار مغلق، وأن الرحلات جميعاً علقت حتى إشعار آخر؛ فتحوّلت خططي لعطلة أسبوعية قصيرة إلى محنة استمرت شهراً كاملاً، قبل أن أتمكن أخيراً من العثور على رحلة تقلني إلى منزلي في باريس.

رغم انتشار حالة اليأس والإحباط، لم يفقد هؤلاء الأتراك إقبالهم على الحياة خلال الانقلاب؛ فقد عبرت جسر البوسفور أول مرة حينئذ في سيارة عتيقة، وكانت عمّة صديقتي تدرّس الرقص العثماني التقليدي، وتعطيني دروساً في الرقص كل مساء، واعتادت أن تضحك من حركاتي الرعناء ضحكاً طويلاً كصبرها؛ رأيتُ بهجتها ورشاقتها، حينما رقصت رمزاً لما في تركيا كله من تفاؤل؛ فاقتنعت أن الأتراك سيساعدون البلاد على المرح حتى انتهاء هذه الفترة المظلمة الباردة.

أحمل ذكريات مؤلمة عن أعوام الانقلاب المظلمة من زيارات تالية؛ فبعد انتهاء فترة الانقلاب وعودة المصاييح الكهربائية للمنازل، خلت المصارف والمباني العامة من الإضاءة، وتكرّر انقطاع التيار الكهربائي؛ فكم من وجبة عشاء أكلت على أضواء الشموع للضرورة لا للشاعرية! واكتظت شوارع إسطنبول بسيارات أمريكية ضخمة ثقيلة الحركة من الخمسينيات، تعمل سيارات أجرة شعبية، مثل: "دي سوتو"، و"ريجال سيفروليه" طراز عام ٥٨م، و"بونتياك" ذات اللون الأحمر الملكي؛ وبفضل هذه البلاد العامرة بالحرفيين المهرة ظلّت هذه الخيل العصرية الأصيلة في أبهى حلّة، تنشر الأضواء الكاشفة المبهرة فوق صفحة البوسفور الزرقاء؛ وعجّت شوارع إسطنبول أيضاً بأسراب من الباعة الجائلين منادين على بضاعتهم نداءات أشبه بالأغاني، ينادون على: الخبز بالسمسم، والقُثد الصابح، والحليب، ولقائف التبغ المفردة، والماء، والصُحف، وتذاكر اليانصيب؛ وفي المناطق التجارية المزدهمة في بيوغلو وأمين أنو،

تدافع الحَمَّالون يحملون البضائع على ظهورهم كالإبل، وجابوا الأحياء المزدهمة المحيطة بالسوق بكفاءة وسرعة أكبر من أية شاحنة أو عربة تجرّها الحيوانات؛ ذات مرّة رأيت حمّالاً يحمل على ظهره أثاث حجرة طعام كاملاً حتى الطاولة، وخزانة الأدوات، والمقاعد! -خُفي هؤلاء الحَمَّالون الآن-، وكان كَتَّاب العرائض والنسّاح ينصبون طاولاتهم في أغلب الحدائق والأسواق، ويستخدمون آلاتهم الكاتبة لكتابة كل شيء؛ بدءاً من العرائض الرسمية إلى الوثائق الحكومية إلى الرسائل الغرامية للمحوبات البعيدات لخدمة قرويين قصدوهم.

برغم ما خُفِلت به إسطنبول من بقايا مجد إمبراطوريّتها العثمانية وذكريات شوارع رائعة ورَدَ ذكرها في روايات بيير لوتي، ظلّت في معظمها مدينة تتداعى وقتئذ؛ كانت هناك مبان مهجورة، وجدران متصدّعة، وخرائب للقمّامة، وأزقة مليئة بالنباتات المعترشة والنُفَيات، وكانت المنازل الخشبية المهذّمة، بأبوابها وأُطر نوافذها المتداعية، تميل للأمام بدرجة تجعل السائر في الشارع يخشى أن تسقط عليه، وأُضيف إلى هذه الأزمات الحضريّة بدء غزو الفلاحين الريفيين، وازدياد الأحياء العشوائية؛ كان عدد السكّان عام ١٩٧٨م، حينما زرت إسطنبول أوّل مرّة أربعة ملايين نسمة، وبحلول عام ١٩٨٨م بلغ عدد السكّان اثني عشر مليون نسمة.

تطايّر دخان اللفائف في كلّ مكان، وكانت سحب دخان اللفائف المنبعثة من على متن مراكب البوسفور كثيفة كثافة الدخان المنبعث من مداخنها؛ نفث التّجار والزبائن الدخان وهم يعقدون صفقاتهم، ونفث موظفو المصارف الدخان في أوجه العملاء وهم يحصون ليراتهم، وقد فحصني عام ١٩٧٩م طبيب يمسك بإحدى يديه لفافة، ويفحص بيده الأخرى غُدَّتَي المتورّمتين، وكانت صديقاتي الممرّضات في أيوب يدخّن في أماكن عملهنّ؛ بالفعل كان التدخين جزءاً لا مفرّ منه

من الحياة التركيّة؛ يغمرك برائحته في سيارات الأجرة، وداخل المتاجر، وفي المطارات، ومكاتب البريد، والحوافل، والمطاعم، أما أكثر مدخن قابلته إثارةً للدهشة، فهو أمين مكتبة يُتبع اللقافة الأخرى بمنتهى السهولة أثناء قيامه بفهرسة كتب نادرة!

ربّما كانت الشوارع متهالكة، لكنّها بدت مفعمة بالحياة والبهجة؛ وقتئذٍ لم تكن الأكياس والزجاجات البلاستيكية قد ظهرت، حينما كانت كلّ سلعة تُشترى تُلفّ بإحكام في ورق الصُحف أو ورق تغليف أنيق التصميم، وتُربط بخيط بحيث تبدو كالهديّة حتى المشتريات من الصيدليّات، ولو كانت عبوة أسبرين صغيرة، كانت تُلفّ في ورق لضمان ستر محتواها، وكانت مئات القطط في كلّ مكانٍ قططاً هزيلة، أو قذرة، أو عرجاء، أو عوراء، أو عاجزة عن اصطيد الفئران، أو ذات آذان مشرشرة، أو أنوف مدمّمة، أو ذيول معقوفة، أو فراء ملبد، وبين حين وآخر تدخل قطعة أنقرية رائعة الجمال من باب أحد المتاجر بخيلاء سلطان في موكبه، وكثيراً ما كان المرء يشعر في المطاعم أو المتاجر بفراء القطط يتمسّح في كاحليه.

ساد الطابع الريفي في المدن خارج إسطنبول، في زيارتي الأولى لسيواس كان الطريق المؤدّي للفندق وعراً، وكانت الأبقار ترعى في هدوء حول مدرسة جوك في البلدة؛ في تلك الأيام كانت عربات جرّ الخيل تفوق السيارات عدداً في شوارع الأناضول، كانت سنوات الظلام واضحة الأثر على السائحين أيضاً؛ ورغم محاولات الأتراك الجاهدة للظهور بمظهر جيّد، تعذّر غالباً إخفاء ملاءات الأسرّة المبقّعة والمرتوقة بعناية، وأكوام التراب في قصر طوب قابي، وأسراب البعوض في فنادق مدينة لالالي، أو مشن يغرق الغرفة كلها حتى المرحاض بالطبع؛ لا عجب أن احتوت أراضيّات الغرف على بواليع كبيرة، وخفّ بلاستيكيّ جانب الفراش.

عندما كنت أعود لوطني، لم أقرأ قط مقالات رائعة في الصحف أو المجلات عن السفر إلى تركيا، ولم يكن هناك سوى كتّيبين سياحيين مطبوعين فقط عن تركيا؛ كنت أقف في أي مطار أو محطة حوافل جانب حقائب أمتعتي الأنيقة المتشابهة، بينما كان الأتراك يجرون صُرَرًا، وغرائر، وصناديق المقوَّى مربوطة بخيط القُنْب، وحقائب صوفيّة، ووضعت فوق طاولات المطاعم أوعية بلاستيكية زرقاء مليئة بشرائح الخبز، وأباريق من الألمونيوم مليئة بمياه الشرب، ورغم استغراق وقت طويل مضمّن في تغيير العملات، كان السائح يتجنّب تغيير مبلغ كبير في المرّة الواحدة؛ لأنّ متوسط التضخّم كان يشهد تغيّرات كبيرة بين يوم وآخر -أثر ذلك باستمرار على سعر الصرف-، وباتت جولات الحوافل عبر سهول الأناضول معاناة لا تطاق بسبب دُخان اللفائف، وافتقار الحوافل إلى مكيف.

اجتازت تركيا مرحلة الأحكام العرفيّة وسنوات الأزمات، وكانت تلك هي المرّة الأخيرة يخيم فيها الظلام والبرد على تركيا؛ لأنّ المجتمع منذ ذلك الحين بدأ يفتح على مستقبل أكثر إشراقًا، رغم الاضطرابات السياسيّة، ظللت أعود إلى تركيا لاقتناعي منذ أولى نُزْهي عبر جسر البوسفور -حدّثك عنها يا سيّدة ماري- بأنّ هذا البلد مقدّر له أن يحتلّ مكانة مرموقة؛ صيغ دستور جديد عام ١٩٨٢م، وافتتح مشروع جنوب شرق الأناضول، وعادت حبوب القهوة مجدّدًا عام ١٩٨١م، وإن كان ذلك للسّياح فقط؛ أُطلق على هذا العام اسم "عام أتاتورك" -إذ صادف الذكرى المئويّة لميلاده-، ونقشت المدارس والحدائق المفتحة في ذلك العام جانب لافتاتها عبارة: "مئة عام" بكلّ اعتزاز؛ لم يعد هناك سبيل للقهقري؛ فأخذ المجتمع التركيّ يفتح على المستقبل، وينطلق، كطائرة من المدرج نحو أفق جديد.

بدأت تظهر بواكير المستقبل المشرق عام ١٩٨٥م؛ إذ انفتحت تركيا على العالم من خلال التجارة والسياحة؛ كان الأتراك عازمين على محو الذكرى السيئة لهذه السنوات المظلمة، فانطلقت خيل السباق بسرعة مذهلة، وأنا أعدّ العقد الممتد من عام ١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٥م سنوات الصحو؛ فعقب صياغة الدستور عام ١٩٨٢م ظهرت على الساحة قوة سياسية يقودها تورجوت أوزال بحزبه الجديد "الوطن الأم"؛ فتح هذا الزعيم الإصلاحية الاقتصاد التركي على التجارة الحرة، ووضع حدًا للاعتماد الكبير على المساعدات الخارجية، وأطلق العنان للطاقة الحبيسة لجيل شاب طموح من رواد الأعمال، وتزامنت رؤيته مع اندلاع ثورة الحاسوب؛ فبدأت التقنية تجتاح القطاعات كلها، وافتتحت المصانع في أرجاء تركيا جميعًا، وزادت الصوادر لا سيما المنسوجات والسلع الغذائية، كانت خطة تورجوت أوزال تشكل ثورة لتركيا المعتمدة قبل ظهوره على القمح والبنادق فقط بوصفها صوادر رئيسة، واستيقظت تركيا بين عشية وضحاها على جينز أزرق ضيق غدت تشتهر بتصديره لأسواق العالم، وكان طرازه ناجمًا عن نموها السريع وعن تغير حلّ عقب سنوات الظلام؛ إذ واصل الأتراك كفاحهم للارتقاء؛ فأصبحت عقولهم تجارية في المقام الأول، وأثبتوا لأنفسهم وللعالم أن النفط أو المعادن أو الألماس ليست أكثر مواردهم الطبيعية ثراء، بل العمل الجاد والإصرار والجرأة؛ وهكذا وُلد الثمر التركي.

اليوم يرى السائحون تركيا واعدة راقية، لكنّ الحال لم تكن دائمًا كذلك؛ عاصرتُ افتتاح سوق الأوراق المالية التركي، واندماج تركيا في أسواق العالم، وخصخصة الصناعة، ولاحظت في دقائق الحياة اليومية ميلاد جمعيات ومؤسسات مدنية وإنشاء وسائل إعلام وقنوات فضائية ومحطات تلفزيونية خاصة تتمتع بحرية الإعلام؛ غمرت المتاجر بالسلع المستوردة والخدمات حتى الحاسوب؛ أتذكر أنني كنت أسير

في ضاحية تشكيرجا بمدينة بورصة ورأيت لافتة تعلن عن صفوف لدراسة حاسوب المعرفة، ولم أعرف ماذا يكون ذلك، لكنني عرفت فيما بعد أن هذا هو الوصف التركي لجهاز الحاسوب؛ الأهم من ذلك أن تركيا بدأت تتوّد لأوربّا أوّل مرّة؛ فتقدّم أوزال، حينما كان رئيساً للوزراء -في لفظة مفاجئة خيالية كانت الأولى من نوعها- بطلب لحصول تركيا على عضوية المفوضية الأوروبية عام ١٩٨٧م.

في رأيي كان أكبر تغيير حدث في تلك الفترة هو سرعة تشييد مشاريع بناء هزت البلاد كالزلازل؛ يمكن القول: "إنّ تركيا بنت نفسها من العدم بين عشية وضحاها، بكلّ ما تحمله كلمة البناء من معنى"، وكما فعل السلاطين السلاجقة من قبل، أعاد قادة تركيا ورجال أعمالها بناء البنية التحتية للبلاد بأسرها؛ فأصلحت الطُرق، وبُنيت المطارات، وحُسّنت محطّات الطاقة الكهربيّة، وحمداً لله؛ إذ أُعيد بناء المطار المخيف الذي كان يخدم عاصمة البلاد في أنقرة، ولم يكن في إسطنبول سوى فندقين فقط من طراز خمسة نجوم عام ١٩٨٧م، واليوم يزيد عدد الفنادق عن عشرين فندقاً جميعها محجوزة بالكامل، وباتت شواطئ بحر إيجه والبحر المتوسط -وكانت خاوية تماماً عقب الحرب العالميّة الثانية- تحمل لافتة "الكراسي كلها محجوزة"، وطبّقت البلاد سياسة مدروسة لتوزيع السُلطات؛ فصارت مُدُن، مثل: بورصة وقيصري وأضنة في الصدارة تنافس أختيها الكبيرتين أنقرة وإسطنبول، وفي عام ١٩٩٠م اكتمل بناء سدّ أناتورك المحور المركزي لمشروع شمال شرق الأناضول المحتوي على اثنين وعشرين سدّاً وتسع عشرة محطة لتوليد الطاقة الكهربائيّة المائيّة؛ وبدأ المشروع يوفرّ مقادير ضخمة من مياه الريّ والطاقة الكهربيّة للمناطق القاحلة في جنوب شرق تركيا؛ فزاد من إنتاج الماء وهو مورد آخر من الموارد الطبيعيّة التركيّة؛ فمشروع شمال شرق الأناضول من أضخم مشاريع التنمية في العالم، وقد وضع تركيا على خريطة العالم؛

ليس لأنه مشروع مبتكر فقط، بل أيضاً لما أثاره من جدل؛ إذ غمر مواقع تاريخية، وحول المسارات المائية في المناطق الواقعة على مجرى النهر.

خضعت إسطنبول لعملية تجميل هائلة خلال تلك الفترة؛ إذ نُقلت مدابغ الجلود خارج أسوار المدينة في يدكولي بين عامي ١٩٨٥م و١٩٩١م، ومن حسن الحظ أن الشخص القادم من المطار لم يعد مضطراً لتحمل رائحة كريهة تنبعث من تلك المدابغ وترك انطباعاً مبدئياً سيئاً عن إسطنبول، وأعلنت منظمة اليونسكو عام ١٩٨٥م أن أسوار إسطنبول البيزنطية ضمن المواقع التراثية في العالم؛ أدى ذلك إلى تنفيذ خطة جادة لصيانة المواقع الأثرية، وإنشاء الحدائق، وهدم كثير من المباني القديمة المجاورة، وبدءاً من عام ١٩٩٣م تقريباً جرت تنقية المياه الراكدة في القرن الذهبي، وتوسيع الطرق الساحلية الضيقة المطلة على البوسفور، لكن لسوء الحظ نُقلت أيضاً الطاولات اللطيفة لمطاعم المأكولات البحرية المتراسة على جانبي الأرصفة بالجهة المقابلة من الطريق، وهذا طبع الحياة؛ فهي لم تصبح مشرقة وردية بلا منغصات؛ فارتفعت الأسعار، وزاد متوسط التضخم حتى تجاوز حاجز العشرة، وارتفع متوسط البطالة، وظل فقراء الريف يتدفقون على المدن، فأسفر ذلك عن اتساع الفجوة الاجتماعية بين أسلوب الحياة الإسلامي المتحفظ والأسلوب الثخني العلماني المتأثر بالغرب.

شهد صيف عام ١٩٨٩م نشوب مشكلات تتعلق بلاجئين بلغاريين، وبدء حرب كردية؛ واستمرت الهجمات على الشركات التركية في باريس، فوقع تفجير مطار أورلي عام ١٩٩٣م مسفراً عن مصرع ثمانية أشخاص، وفي أغسطس ١٩٩٠م غزت العراق الكويت؛ فنشبت أولى الحروب العراقية الأمريكية، وفي عام ١٩٩٤م أدت أزمة مالية مصحوبة بكساد وتراجع اقتصادي إلى هبوط قيمة الليرة إلى النصف على مدى عدة أشهر، فساءت أحوال البلاد، وظل سعر صرف السوق السوداء أعلى

بنحو ٣٠٪ عن أسعار صرف المصارف طوال عام ١٩٨٨م، لكنّ تركيا ظلّت تكافح على طريق التقدّم في مجالات أخرى خلاف مجالي الصوادر والبناء، على سبيل المثال فإنّ الرباع نعيم سليمان أوغلو - ذا الوزن الخفيف، الملقّب باسم: "هرقل الصغير" - أسر قلوب الأتراك ورفع رؤوسهم، حينما أحرز القلادة الذهبية في دورات الألعاب الأولمبية أعوام ١٩٨٨م، و١٩٩٢م، و١٩٩٦م؛ إذ أظهر أنّ رجلاً صغير الحجم - مثل تركيا بلاده - يستطيع أن يحقق فوزاً كبيراً في مجالات الرياضة الدوليّة، وعلى الصعيد السياسيّ أيضاً أرسلت تركيا رسائل مهمّة إلى العالم؛ فرشحت امرأة، هي تانسو تشيلر لتولّي منصب رئيس الوزراء من عام ١٩٩٣م إلى عام ١٩٩٦م؛ فعُدّ ذلك إنجازاً في مجال المساواة بين الجنسين سبقت به تركيا أيّ بلد غربيّ آخر بمراحل، وبدأت الحكومة التركيّة تقيم المعارض الثقافيّة في الخارج، وهي طريقة ذكيّة لجذب أنظار مستهلكي الثقافة الأجنبيّة؛ أذكر أنّي حضرت بكلّ فخر حفل افتتاح المعرض الضخم: "عصر السلطان سليمان العظيم" المقام في المتحف الوطنيّ للفنون بواشنطن في يناير/كانون الثاني عام ١٩٨٧م، بحضور شخصيّات عالمية مرموقة في المجالين السياسيّ والثقافيّ.

شهد بلدي أمريكا التغيّرات السياسيّة والاقتصاديّة والماديّة الهائلة نفسها خلال الثمانينيات، وكان وراءها بزوغ فجر عصر الحاسوب، كلّما فكّرت كيف تغيّرت حياتنا بفضل "حاسب المعرفة"، بدت لي التغيّرات السريعة الطارئة على تركيا أكثر إذهالاً؛ فبعد أن أيقظ أوزال تركيا في الثمانينيات، بدا أنّ كلّ شيء متعلّق بالنظام السابق رُمي في أعماق هوّة؛ في تلك الفترة أعجبني التقدّم المتحقّق، وفي الوقت ذاته بدأت أشعر بالحنين للماضي؛ إذ أصبح كلّ شخص يرغب في العيش في شقق بالبنائات الخرسانيّة أو في مبانيّ مقامة في الضواحي بدلاً من بيوت خشبيّة تحوّلت إلى فنادق سياحيّة، ولم يعد أحد يرغب في التسوّق في السوق المغطّاة،

بل في السوق المركزية، ولم يعد أحد يفخر بارتداء الأزياء والجواهر التقليدية، وحلّت الحقائق البلاستيكية محلّ الأخراج المنسوجة يدويًا.

تركت هذه التغيّرات آثارها على أمثالي من السائحين الأجانب؛ فقد سعدت لرؤية مستجّدات كثيرة؛ فسيّارات الأجرة لها عدّادات جديدة، وضعت حدًا للمساومة والجدال والاستغلال، ولم أعد مضطّرة للإقامة في فنادق متهالكة، والمراحيض والمِشَنّات أصبحت تعمل، والمواطنون غدوا قادرين على الانتقال بقطار الأنفاق في أنقرة وإسطنبول بكفاءة عالية وتكلفة معقولة، وكنت أتحرق شوقًا لاكتشاف الموسيقى الكرديّة عام ١٩٩١م، حينما رُفع الحظر عن بيع أشرطة تسجيل تحوي هذه الموسيقى المميزة، وظلّت لفائف التبغ والقّداحات والفيثامينات الأمريكيّة هديّة مفضّلة تقدّمها لأيّ تركي؛ لأنّها كانت شحيحة آنذاك في تركيا، وظلّت أوّل قاعة تابعة للخطوط الجويّة التركيّة في مطار نيويورك بأمریکا -المخصّصة لتسليم الركاب أمتعتهم- تشبه محطة حوافل في قلب تركيا؛ صاحبة تعجّ بمسافرين يجرون أجهزة ميكروويف في صناديق المقوّى، وغرائر ملفوفة بشرائط، ولافتة دائمة في القاعة تحمل اسم الخطوط الجويّة التركيّة حتى الآن، بل أدّت هذه المهمّة قطعة من الورق المقوّى، مكتوبة بخط اليد بقلم أسود ثخين خطّه، معلّقة بخيطين فوق مكتب تسجيل الأمتعة، ولم توفرّ الخطوط الجويّة التركيّة رحلات مباشرة من الولايات المتّحدة إلى إسطنبول أو أنقرة، بل يجب الهبوط أولاً في مدينة بروكسل.

تغيّر أيضًا شكل الشوارع؛ فمنذ عام ١٩٨٩م تقريبًا خاصّة عقب سقوط الشيوعيّة في روسيا عام ١٩٩١م امتلأت منطقة لالالي بمواطني دول أوربّا الشرقيّة، لم تظهر علامات إرشاديّة في الشوارع، لكنني بدأت أرى أوّل مرّة من يقتنون الكلاب -كلاب البودل الفرنسيّة!- بوصفها حيوانات مدلّة، وقلّ عدد القطط الضالّة، وأصبح مطعم إسكندر للكبّاب -مكاني المفضّل في قيصري- مكيف الهواء مزودًا بستائر وردية رائعة،

أما بلدات، مثل: نيدي وأفيون - كنت وجدتهما في رحلتي الأولى عام ١٩٧٨م ضائعتين وسط السهول المغتربة السرمدية-، فقد بدتا الآن كأنهما عاصمة عمرانية مكتظة بالسكان، وشُيّدت مشاريع معمارية عملاقة في جميع أنحاء تركيا، غير أن عددًا لا يحصى من المواقع لم يكتمل بناؤه ويات مهجورًا، وظلّت المتاحف الكبرى مغلقة للتحسينات، ورفعت لافتات تعلن إعادة افتتاحها في تاريخ أقدم بستين من تاريخ وقوفك أمام أبوابها!

لعلّ أعظم تغيير في رأيي هو ما رأيته في مدينة أنطاليا المزدهرة ازدهارًا هائلًا عقب ظهور سلسلة من فنادق النجوم الخمسة الفخمة، مثل: "فالاز" و"شيراتون فويدجار" عام ١٩٩١م، حينما زرت تركيا أول مرة عام ١٩٧٨م كانت أنطاليا بلدة صاخبة بها ميناء تاريخي داخلي خلّاب مليء بالآثار السلجوقية ومراكب الصيد الراسية عند واجهات بحرية قديمة؛ أقيمت في نُزل صغير على طريق لارا شرق البلدة، كان متهاكًا جدًّا، لكنّه ساحر بفضل موقعه الرائع على الساحل، أهمّ ما يلفت الانتباه لهذا النُزل المتواضع شجرة دُلب ضخمة، قد يصل عمرها إلى ثلاث مئة عام في حديقته المطلة على الجُرف؛ كان شكل الشجرة مميزًا بأغصانها الطويلة الممتدة أفقيًا بطول حافة الجُرف الصخري، كما لو كانت تحاول توفير أقصى قدر من الحماية؛ اعتدت تناول وجباتي تحت فيء هذه الأغصان الطويلة وأوراقها العريضة، وتنسّمت النسمات المنعشة، وقرأت، وتمشّيت، وتأمّلت المنظر الرائع لميناء أنطاليا؛ قدّمت لي هذه الشجرة ملاذًا آمنًا يفيض سلامًا ومحبة وسكينة نادرًا ما شعرت بها.

بعد مرور سنوات، وتحديدًا في عام ١٩٩١م، قرّرت أن أعود للإقامة في ذلك المكان المتواضع لأنعم ثانية بتلك السكينة تحت شجرته، في محاولة للهروب من تلك الفنادق الحديثة المفتقرة إلى الحميمية؛ جفّل قلبي حين وصلت إلى الطريق المؤدّي إليه، ورأيت أنّ الأرض قد حُفرت،

وأحيطت بسياج من الأسلاك الشائكة؛ كانت اللافتة المثبتة أعلى السياج تقول: "موقع بناء؛ ممنوع الدخول، أعمال هدم خطيرة"، شجرتي الحبيبة، هل اقتلعتها الجرافة وألقتها في البحر؟ انتابني حزن شديد ذلك اليوم، وسألت نفسي: هل تدرك تركيا أنّ التقدّم يحمل في طياته مسؤوليات محدّدة تجاه التراث والتقاليد من دونها يصبح التقدّم وعدًا أجوف لا أساس له؟

بدءًا من عام ١٩٩٥م تقريبًا، وفور انطلاق خيل سباق أوزال، بدأت تقطع المضمار، كما لو أنّ شيئًا لا يقف في طريقها، وطراً تغير مجتمعي آخر على تركيا استمرّ نحو خمس سنوات؛ إذ برز اتجاه معين، وبدأت الأمور تتصاعد حتى باتت معها القهقري مستحيلة؛ فقد فتح أوزال الباب على مصراعيه أمام الاستهلاك؛ فهرع الأتراك إليه برغبتهم العارمة في التقدّم والتغيير، والتزمت تركيا مسارًا محدّدًا نحو العصرية؛ فانطلقت لتصبح أكبر وأفضل من أية دولة أوروبية أو من أمريكا، ونجحت على عدّة أصعدة، وفي غضون خمس سنوات، كان المارد النائم -المستيقظ في العقد السابق- قد اتخذ مكانه على الساحة العالمية، وصاح: "أخلوا لي الطريق، فانا قادم!"; فبدأت تركيا تشقّ طريقها صبيّة تكبر، وتتجه نحو البلوغ، وكلّ ذلك من خلال اندماج سريع سلس مع الثقافة الاستهلاكية العالمية، تغيّرت الحياة اليومية تغييرًا ملحوظًا حتى أثناء فترات قصيرة كانت تفصل بين زياراتي، ولو أنّني زرت تركيا بعد غياب عشرين عامًا، لا مرّة كلّ عام، فلم أكن لأصدق ما رأيته عيناى؛ تزامنت تلك الفترة من التقدّم السريع أيضًا مع ظهور شبكة المعلومات الدوليّة بوصفها قوّة محرّكة عالميّة متفجّرة، وشهد هذا العصر المزيد والمزيد من الاستهلاك الملحوظ تدفعه نخبة جديدة ظهرت بفضل التعليم والكفاءة المهنيّة، كما فعلت الإنكشاريّة في عهد الدولة العثمانية. كان عام ١٩٩٦م عامًا حافلًا بالتغيير، وهو عام عُقد فيه مؤتمر الأمم

المتحدة للمستوطنات البشرية - الموثل الثاني - بمدينة إسطنبول؛ فلا إظهار إسطنبول مشاركا فاعلا في الساحة الثقافية العالمية، خضعت المدينة لعملية تزيين شاملة، وزودت الشوارع بالعلامات الإرشادية، وحُسنّت وسائل المواصلات العامة، وخفيت الكلاب والقِطط الضالة الكثيرة من الشوارع بين عشية وضحاها، وخفيت الإشارات الأهلية للطريق في الأحياء، ووضعت العلامات الإرشادية في مكانها الصحيح، لكن فقدت إسطنبول الجديدة النظيفة من عدة أوجه كثيرا من غموض خَلْب لبّ بيز لوتي، وبحلول عام ١٩٩٦م زاد عدد سكّانها البالغ أربعة ملايين نسمة لدى وصولي عام ١٩٧٨م ليتجاوز اثني عشر مليون نسمة؛ وبات ازدحام المدينة ملحوظا.

عددت من سمات هذه الفترة ظهور ثروة جديدة على كثير من الأصعدة، خاصة في ازدهار حركة تشييد المنازل والمراكز التجارية الحضرية؛ فقد أنشئت في منطقة لوانت في إسطنبول مجمعات عمرانية فخمة مغلقة ببوابات - يطلق عليها اسم (موقع)، ينطقونها بالطريقة الفرنسية - توفر بيئة معيشة كاملة تضم منازل، وطرقا، وحدائق، ومروجاً خاصة، ودور سينما، وساح تسوّق، ونوادي صحّية، وملاعب لكرة المضرب، وحمّامات سباحة، وشهدت تركيا وقتئذ حركة نمو سريعة في تشييد مراكز التسوق التجارية المخططة لتكون بمنزلة متدنيات اجتماعية؛ بدأ ظهور هذه المراكز التجارية في كلّ مكان في نهاية التسعينيات، بدءاً من مركز "جاليريا" المشيد عام ١٩٨٨م، و"أكميركز" و"كانيون" في إسطنبول، و"مترو" و"أناكولا" في أنقرة، ومركز "كولا سيتي" المكوّن من اثنين وأربعين دوراً أنشئ في قونيا عام ٢٠٠٦م، وانقلبت أجواء الأسواق الشعبية التي يغلب عليها الطابع الذكوري إلى أجواء مراكز التسوّق الأكثر ميلاً للطابع الأنثوي، ورأيت أول مرة سيدات يعملن بائعات، لم تكن هناك موازنة بين الأرضيات الرخامية

اللامعة لهذه المراكز والشوارع الموحلة للأسواق القديمة في المدينة، ويُضطرّ المرء للذهاب إلى تلك المراكز بالسيارة لا سيرًا على الأقدام؛ وهي علامة أخرى على السمة الاستهلاكية المتزايدة؛ تضمنت مراكز التسوق ساحًا لتناول الطعام حافلة بسلاسل المطاعم الغربية، مع بقاء بعض أكواخ الكباب، حمدًا لله! هُرع تجار التجزئة الأجانب لشغل متاجر هذه المراكز، بدءًا من مقهى "ستاربك" إلى متجر "هارفي نيكلز".

شهدت هذه الفترة، بالإضافة إلى ظاهرة مراكز التسوق، تحولًا كاملاً لمتجر عمّ البدال، من شكل المتجر العاديّ إلى شكل مركز التسوق، مثل: "إسمار"، وأخيرًا إلى شكل مركز التسوق المتكامل، مثل: "ميجروس" و"كارفور"، واستمرت موجة تشييد الفنادق أيضًا، مع التركيز على الفخامة، فكلّما كانت التجهيزات أكثر ترفًا كان الفندق أفضل، وبصفة عامة أعادت موجة ازدهار حركة البناء رسم شبكة المناطق الحضرية، وتفكّك الرابط القويّ بين العناصر التقليدية الثلاثة للمدينة العثمانية - الحي، السوق، المسجد المحلي - وأعيد تشكيلها على نحو مختلف؛ إذ لم يعد الأطفال الصغار يترعرعون في حيّ السلطان أحمد في إسطنبول المتحوّل إلى منطقة سياحية حافلة بالبيوت العثمانية.

راقبتُ هذه التغيّرات أيضًا على صعيد الاتصالات والطراز والطعام وقطع أوقات الفراغ بأشكال متباينة، لكنني أعتقد أنّ النزعة الاستهلاكية المحمومة هي السمة الغالبة لتلك الفترة؛ شعر كلّ شخص بحتمية اقتناء هاتف نقال وسيارة وشراء احتياجاته من مركز التسوق المركزي؛ لطالما كانت إسطنبول بوابة للتجارة، وفي تلك الفترة طرق الأوربيون والغربيون هذه البوابة، لا ليروجوا لبضاعتهم فقط، بل أيضًا لأسلوب معيشتهم في مجتمع متعطّش لذلك، ورغم التحمّس للتقدّم والاستهلاك، ظلّ هناك تناقض شاسع بين الثروة الهائلة والأموال المتدفقة بظهور الأغنياء الجدد

في إسطنبول من جهة، والفقر المدقع البادي في المناطق الريفية عادة في الشرق من جهة أخرى.

أقبل الأتراك على الاستهلاك، لكنهم أقبلوا على الإنتاج أيضاً؛ فخلال هذه الفترة فاجأت تركيا العالم بخنكتها وإنجازاتها التقنية في الداخل والخارج، وصارت مشاركاً بارزاً على الساحة بما حقّقه في مجال الاتصالات، وحينما أفتتحت القاعة (١) الجديدة المجهزة بأحدث التجهيزات في مطار ”جون إف كينيدي“ في نيويورك عام ١٩٨٨م، ارتقت الخطوط الجوية التركية لتصبح من الخطوط الجوية الدولية الخمس المستخدمة هذه القاعة، مثل: شركتي الطيران المرموقتين ”إيرفرانس“ و”لوفتهانزا“، وصارت رحلات الخطوط الجوية التركية من الولايات المتحدة إلى إسطنبول رحلات مباشرة تقلع كاملة العدد، واستبدلت قاعة تسجيل الأمتعة -الشبيهة بمحطة حوافل- بخدمة سريعة سلسلة راقية، وأضحى الأتراك يحملون أمتعة أنيقة ذات علامات تجارية شهيرة، ومن مظاهر التقدّم التقنيّ المبهّر المميّز لهذه الفترة في تركيا، أنني استخدمت أول مرة في حياتي مَكينة صرف آليّ لأسحب نقوداً في بلدة أفيون الزراعية المتربة، لا في شارع ”ول ستريت“ في مانهاتن، واستخدمت أول مرة في حياتي نظام ترشيد الطاقة عن طريق تشغيل الإضاءة بالبطاقات الممغطسة في فندق بمدينة قيصري، لا في لاس فيجاس أو باريس، واستمتعت بالهواء البارد المنعش المنبعث من وحدات تكييف حائطية ذات كفاءة عالية في أكساراي، وافتتح مشروع قطار الأنفاق بين تكسيم ولونت عام ١٩٩٩م، وقد جلست في سيارتي أول مرة أنتظر تغيير الإشارة الحمراء وأنا أتابع العدّ التنازليّ بالثواني على شاشة عدّاد رقمي، لم يكن هذا في نيويورك، بل في بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر الأسود، وهدر قطار ”الطلقة الفضيّة“ السريع في أولى

رحلاته من سيركجي إلى أمين أنو عبر طريق "ديفان يولو" التاريخي في إسطنبول، كان قد شهد من قبل مسيرات الإنكشارية في زمنك يا سيّدة ماري.

تغيّر شكل الشوارع تغيّرًا سريعًا أيضًا، وبدأت أرى عربات يد تباع الأطعمة الغربية، مثل: الذرة الحلوة المسلوقة والبطاطس الحارّة والمنفوش (الفشار)، فضلًا عن مظاهر التفاخر بالكلاب في سلاسلها والسيارات الفخمة أمام الأكواخ القديمة، وحلّ الغاز الطبيعي محلّ فحم حجريّ بطيء الاشتعال منح إسطنبول رائحة مميزة خلال فصل الشتاء، وانتشرت مقاهي شبكة المعلومات الدولية في كلّ مكان بعد عام ١٩٩٥م، وأزهرت أسطح المنازل بأطباق استقبال القنوات الفضائية بسرعة تعادل سرعة نموّ نبات إبرة الراعي في صفائح زيت الزيتون المنتشرة أمام أبواب المنازل، وبدأ ظهور الدراجات عام ١٩٩٦م مع ظهور عربات الأطفال -لم يكن لها وجود من قبل في تركيا-؛ إذ شاعت ثقافة حمل المرأة طفلها قريبًا منها، سواءً على ذراعها أو فوق وركيها، ورُمّت منطقة السلطان أحمد عام ١٩٩٧م، مع إقامة حديقة جديدة وتنظيف الخرائب القديمة، وأقيم سياج خاصّ حول حمام السباحة العميق الحالم في مدرسة كاراتاي في قونيا لحماية السائحين الحمقى، وأقيم دور جديد في السوق المغطى عام ١٩٨٨م.

لم يقتصر الأمر على تدفّق سلع وأساليب استهلاكية جديدة على تركيا، بل انعكست أيضًا العولمة في الصور والأسماء ونجوم الفنّ والأطعمة وأساليب الحياة بفضل وسائل الإعلام والمحطّات التلفازيّة الفضائية، وبدأ الشباب الأتراك يعتمدون المظهر العالميّ؛ الجينز ونصف الكُمّ والحذاء الرياضيّ وقميص البيسبول (بلا كُمّ)، ورسومات الوشم على الجلد، واستشرت ظاهرة البدانة بين الأطفال، وتألّقت المجلّات

اللامعة في أكواخ بيع الصُحف؛ فظهرت النُسخ التركيّة من مجلّتي "كوزموبوليتان" و"ماري كلير"، وتنافست مجلّات التزيّن ومجلّات الطراز ذات الورق المصقول على جذب الاهتمام، وصار مصمّمو الأزياء الأتراك يتبخترون على ممشى عروض الأزياء الدوليّة، بدءًا من رفعت أوزبك وأتيل كوتوغلو، قدّما في منتصف التسعينيّات مجموعة أزياء مبتكرة تتسم بطابعها الشرقيّ الخياليّ؛ وقتئذٍ لاحظت أنّ فرع متجر "كي مارت" القريب منّي في أمريكا يستورد من تركيا الجيتز الأزرق وقمصان بولو.

نقل الأتراك أساليب الحياة الاستهلاكيّة الغربيّة المترفة بطريقتهم التركيّة، فبدأت المرأة تهتمّ بصحّتها وجمالها، ليس فقط بمتابعة المقالات المنشورة في مجلّات الطراز الراقية، بل أيضًا من خلال متابعة المقالات المنشورة في الصحافة المحليّة والإعلان، وبلاستعانة بمنتجات التجميل العالميّة في السوق التركيّة، ومما لا يُصدّق أنّ في هذا البلد المشهور بتدخين النارجيلة والمرتبطة اسمه بتدخين التبغ، حظر الأتراك التدخين في الأماكن العامّة قبل أوروبّا بوقت طويل، وبعد الولايات المتّحدة مباشرة، وظهرت المقاهي العصريّة ومطاعم الوجبات السريعة، وشاهدت منتجات غذائيّة جديدة في تركيا قبل أن أشاهدها في نيويورك، وصارت الهواتف النقالّة في يد الناس جميعًا، وأصبحت أطعمة، مثل: كعك الشيكولاتة، ومكعّبات السُكّر، والقهوة، من الرموز المألوفة في الحياة اليوميّة.

لم يقنع الأتراك بجلب السلع الاستهلاكيّة فقط، بل سعوا أيضًا لتوفير فرص تعليم أفضل لأبنائهم؛ فظهرت الجامعات الخاصّة في وقتٍ تدفّق فيه الأتراك بأعداد غير مسبوقّة على الالتحاق بمعاهد التعليم العالي في أمريكا؛ فالحصول على شهادة أمريكيّة كان جواز مرور لتحقيق النجاح في تركيا، ومثلما بُعث الأمراء العثمانيّون في الماضي إلى المدن القرويّة ليتعلموا الحرف على يد معلّم خاصّ، بات ورثتهم الشرعيّون المعاصرون

يُبتعثون إلى الولايات المتحدة للالتحاق بأرقى الكليات والحصول على أرفع الشهادات العلمية.

لم يقتصر التغيير على إسطنبول وحدها، بل على البلاد بأسرها، لكنه اتخذ منحى مختلفاً في الأناضول؛ إذ تضافرت الجهود لنبد الماضي واتباع أساليب الحياة الغربية للتدليل على طابع الحداثة، وحلت أدوات عملية فعالة محلّ الأدوات المنزلية التقليدية، فحلت مجموعة أواني ألمونيوم رَوّجت لها إعلانات الصحف محلّ الأواني النحاسية القديمة يدويّة الصنع، وحلت أدوات المائدة المصنوعة من الإينوكس محلّ الملاعق الخشبيّة المنحوتة يدويّاً، وحلّ الموكيت محلّ الكليم والسجاجيد المنسوجة يدويّاً، وحلّت الأرائك والكراسي المنمّقة محلّ مصاطب "صدر البيت" المنخفضة التي استمتعت كثيراً بالجلوس عليها يا سيّدة ماري؛ أذكر أنني في إحدى زيارتي قونيا عام ١٩٨١م كدت أتعرض للدهس تحت عجلات مئات عربات تجرّها الخيل أمام مجمع "صاحب عطا"، وهي منطقة مخصّصة لمحلات الصيانة وقطع الغيار؛ لم تكن هناك سيّارة واحدة وسط مئات عربات تجرّها الخيل، لكنني حينما عدت إلى المنطقة نفسها عام ١٩٩٥م، كانت برمتها تخلو من أية عربة تجرّها الخيل.

لا شك أنّ التغيير يستتبع لا محالة عواقب عارضة، وقد كانت مظاهر التلوّث البصريّ على جانبي الطريق أكثر تغير مؤسف لاحظته في الأناضول وقتئذ؛ ففي السابق كان المرء يتجول ساعات دون أن تقع عيناه على أية لوحة إعلانات؛ لا شيء سوى أميال من مناطق ريفيّة نقيّة ممتدّة؛ كان الريف بالغ النقاء حتى إنه يُشعر المرء بالانفصال عن العالم، وأنّه قادر على مدّ بصره وخياله نحو الأفق وما ورائه، أمّا الآن فلوحات الإعلانات في كلّ مكان، مليئة بمعلومات فجّة لا أهميّة لها؛ لم تكن هذه اللوحات وحدها تلوّث الريف، بل كانت هناك قُمامة أيضاً، لا سيّما تلك

الزجاجات والأكياس البلاستيكية غير القابلة للتحلل؛ في السابق لم يكن للقمامة وجود قطّ على طرقات تركيا، لكنّها الآن في كلّ مكان.

رأيت تغييرًا مؤسفًا آخر في قونيا عام ١٩٩٦م، إذ اختفت التشكيلة الزاهية لسجاجيد الصلاة المنسوجة يدويًا السابغة لأرضيات مسجد علاء الدين، وحلّت محلّها مساحات ساذجة من الموكيت الأزرق المائل للخضرة؛ تغيّر هذا المسجد الفخم، أشهر وأقدس المساجد السلجوقية، بمنبره المزخرف الشهير المصنوع من خشب الجوز منذ عام ١١٥٥م، وبمحرا به ذي البلاطات الفيروزية المزججة الرائعة، وسجاجيده الأصلية البديعة، أمر السلطان علاء الدين كيغوباد بصنعها، والآن سلب من المسجد مجده التاريخي بسبب تلك السجاجيد الصناعية، وكلّ هذا باسم التقدّم والتنمية.

في ظلّ تلك النزعة الاستهلاكية والتغيّر الطارئ على الحياة التركية خلال الفترة من ١٩٩٥م إلى ٢٠٠٠م، لعلّ المشهد السياسيّ الناشئ كان إرثًا خالداً لهذه الفترة، ترك أكبر أثر على مستقبل تركيا؛ فقد شهدت هذه السنوات الخمس كفاح بلد للتكيف مع تغيّر كان في أغلب الحالات مربكًا يصعب استيعابه؛ فقد تركت النزعة الاستهلاكية الغربية شعورًا بالإقصاء لدى قطاع كبير من المجتمع، خاصّة أولئك الذين يعيشون خارج المراكز الحضرية، وكما هو متوقّع تحوّل كثيرون إلى شيء أكثر أمناً وألفة وملاءمة مع نظام القيم، وتطلّعوا إلى نظام يقبل أساليب الحياة المختلفة ويحقّق الاستقرار الاقتصاديّ؛ لذا لم تكن مفاجأة أن تنتخب تركيا نجم الدين أربكان أول رئيس وزراء إسلاميّ في يوليو ١٩٩٦م، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة في الحكم.

أما فترة النشوء الرابعة والأخيرة -عاشتها في تركيا-، فقد بدأت منذ عام ٢٠٠٠م إلى اليوم في أعقاب حادثين مدمرين؛ هما زلزال إزميت

عام ١٩٩٩م وتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م في نيويورك؛ فقد تغيّرت تركيا والعالم بعد هذين الحدثين، وقادوا حملة حماسية أخيرة للتحديث رغبت تركيا في تحقيقها؛ تتسم هذه الفترة -من وجهة نظري- بتدفق سياحي هائل، وحملة مكثفة من التودّد لأوروبّا، وظهور شعور بالعداء تجاه الثقافة الأمريكية بسبب حربها الثانية على العراق، وبروز أحزاب سياسية دينية قوية على الساحة، وتصدّر تركيا الساحة العالمية على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

تغيّر المناخ السياسي تغيّراً سريعاً، وشهد إلغاء عقوبة الإعدام عام ٢٠٠٢م، ورغم انتهاء التمرد الكردي عام ١٩٩٩م بإلغاء قانون الطوارئ في نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠٠٢م، ظلّ من الشائع جداً رؤية جنود يحملون البندقيات الرشاشة يقفون في مداخل الفنادق والأماكن العامة حتى عام ٢٠٠٤م، عام بثّت قناة "تي آر تي" (TRT) التلفزيون التركية المرة الأولى برنامجاً باللغة الكردية؛ ولما تسببت أزمة مالية -وقعت عام ٢٠٠١م- في هبوط سعر العملة التركية وخسارتها نصف قيمتها، طبقت البلاد إصلاحات اقترحها صندوق النقد الدولي، والتزمت بتنفيذها؛ نتيجة لذلك لم تحقّق تركيا نمواً هائلاً في متوسط الناتج المحلي الإجمالي فقط، بل خلّصت نفسها أيضاً من تضخم شديد أصابها خلال معظم سنوات التسعينيات.

واصلت تغيّرات العقد السابق ظهورها السريع؛ إذ استمرت عملية ازدهار البناء، فشيدت مشاريع إسكان ضخمة على أراضٍ خارج مدن، مثل: قيصري ومالاطيا وقونيا، وشيدت أبراج إدارية في أنقرة وإسطنبول، ومراكز تسوّق تجارية ومتاجر متكاملة في أنحاء البلاد كلّها، وباتت الطرق المتقاطعة بطول البلاد وعرضها تضارع نظيراتها في الدول الأوروبية، وواصلت التقنية تقدّمها؛ فشهد عام ٢٠٠١م افتتاحاً لمشروع قطار أنفاق جديد في أنقرة ولمطار دولي في إسطنبول، وفي إشارة لتغيّر الزمن،

أصبحت المساجد توضع لافتات كُتب عليها: ”برجاء إغلاق الهاتف النقال“، ووُضعت في بلدة صغيرة خارج توقات شاشة رقمية فوق المسجد لتعلن مواقيت الصلاة بحروف حمراء ساطعة.

في الأول من يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٥م أُلغيت من العملة التركية ستة أصفار، وصدرت الليرة التركية الجديدة؛ وبكفاءة مذهلة استطعت أن أسحب أولى الليرات التركية الجديدة من مَكينة الصرف الآلي في الساعة العاشرة من صباح يومئذٍ، ولم أتوقّع يومها أن تُخرج لي المَكينة العملة الجديدة، لكنّ كل شيء مضى بسلاسة، بل بسلاسة أكثر ممّا حدث، حينما تحوّلت أوروبّا إلى اليورو.

ما من إعلان يظهر الآن دون أن يكون مصحوبًا بعنوان موقعه على شبكة المعلومات الدوليّة، علاوة على أنّ استخدام أجهزة التقاط إشارة الشبكة الهوائية -واي فاي- في تركيا أكثر شيوعًا وفعاليّة منها في أمريكا، ناهيك عن أنّها أكثر تقدّمًا من مثيلتها في أوروبّا، علاوة على ذلك أصبحت تركيا تهتمّ بحماية البيئة، فطلّت تقنيّة نموّ المناطق الحضرية، وتنشئ حدائق جديدة ومواقف للسيّارات، وخصّصت شوارع تسوّق للمرّة فقط مغلقة أمام السيّارات كما في شارع ”استقلال“ والشوارع الفرنسيّة في إسطنبول، ووزّعت الطُرق المروية المؤدّية إلى مداخل المدن، ومن الشائع الآن رؤية عمال غربيين يعيشون في إسطنبول؛ فقد أصبحت إسطنبول تستقبل نحو ثلاث مئة ألف إلى أربع مئة ألف مهاجر سنويًا، وأصبح قطار ”الطلقة الفضيّة“ الآن مكيف الهواء لراحة الركاب.

تواصل السوق الدوليّة نموّها، مع تصدير الأتراك نسبة ٩٠٪ من سيّاراتهم إلى أوروبّا، وقد رأيت في أبريل/نيسان عام ٢٠٠٧م بعض المشروبات التركية تُباع في زاوية صغيرة بمتجر البقالة في شارع بنيويورك، وصارت لافتة الرّحلات المغادرة في مطار إسطنبول تعلن

عن قيام رحلات جوية إلى كل مكان يتصوره المرء؛ فما أبعد هذا عن تلك اللافنة من المقوى المعلّقة يوماً ما فوق مكتب الخطوط الجوية التركية في مطار نيويورك! لكن أكبر تغيّر شهدته تلك الفترة تمثّل في التدفق السياحيّ الهائل على تركيا؛ إذ لم أعد أستطيع المشي في شوارع إسطنبول دون أن أقابل أجانب، وتحولت إسطنبول إلى روما الجديدة؛ والأترك شعب مضياف كريم كعادته، لا يدخّر جهداً للترحيب بالسياح.

وضعت تركيا منظومة مواصلات ممتازة تشمل وسائل راقية لنقل الركاب في المدن بحوافل وقطارات وخطوط قطار بطيء ومراكب وحوافل عائمة وسيّارات أجرة وخطوط قطار أنفاق يجري تحسينها حالياً، وتخضع خطوط السكك الحديدية والطرق العامة للتحسين؛ إذ ضمّ كثير من الطرق أربع مسارات، وشقّت طرق سريعة بضرائب واجبة التحصيل لتيسير الحركة فيها، وستجدين دائماً على هذه الطرق ضباطاً مبتسمين يتقنون عدّة لغات لضمان سلامة الرّواد، وتعدّ نافذة تقديم المعلومات للسائحين في منطقة السلطان أحمد أعجوبة من حيث كفاءة الأداء، وتستخدم البيوت والأخوان العثمانية التاريخية في سفارانبولو وديار بكر وأماسيا دوراً للضيافة، وسيجد السائح مقهى "ستاربك" في انتظاره بشارعي "ديوان يولو" و"استقلال"، في حال لم يكتف بكوّوس الشاي التقليديّة الصغيرة والقهوة بالحليب، والقهوة التركية، وتتشرّ مكان المثلجات في الفنادق، ويستطيع السياح أن يرقصوا على أنغام الأغاني العالمية الشهيرة وإيقاعات الراب التركي في عدد لا يحصى من ملاهي ديسكو شبابيّة افتتحت خصيصاً لهم.

من بين الثمار الناضجة لانتاح تركيا نحو وجهة ثقافيّة عالميّة زيادة الوعي بكيفيّة عرض تراثها القوميّ؛ فبالإضافة إلى تحسينات متاحف التركية المرموقة في أنقرة وإسطنبول وأنطاليا، فتحت سلسلة من متاحف القطاع الخاصّ، مثل: متاحف "قادر هاس"، و"كوتش"، و"صابانجي"،

و"ييرا"، و"صدبرك هانم" في إسطنبول لاستقبال الأجانب وأتراك استيقظ اهتمامهم بهويّتهم الثقافية؛ إذ ترسّخ تركيا قدميها بوصفها مشاركا رئيسا في الساحة الثقافية العالمية بفضل هذه المتاحف، لا سيّما متحف إسطنبول للفنّ الحديث المقام عام ٢٠٠٤م، وهو أوّل متحف من نوعه في تركيا للفنّ المعاصر، غير أنّ الفنّون التقليديّة حاضرة؛ فهناك خطّط حاليّة في إسطنبول لإنشاء متحف خاصّ للسجاد المسطّح، أمّا الكتيّبات السياحيّة وكتيّبات المتاحف التي كانت من قبل عصيّة على الفهم لما تحفل به من أخطاء لغويّة فادحة، فقد صارت الآن أنيقة مكتوبة بلغة راقية، وتتوافر الأدلة السياحيّة المسموعة الآن بمجموعة كبيرة من اللغات الأجنبية، وتطبع الكتيّبات الإرشادية باللغات كلّها، إضافة إلى ذلك فقد بدأ الشعب التركيّ يزداد وعيه الثقافيّ، مثله مثل السائحين؛ فأصبح إصدار الكتب أكثر رقيّا وتعقيداً، وزوّدت الكتب بأغلفة ملوّنة مصمّمة تصميمًا فنيًا وبورق أبيض عالي الجودة؛ وهو تحسّن ملحوظ في الأغلفة الشاحبة المضجرة وورق الصُحف المستخدم في الماضي.

في السابق كانت تركيا تصدر عشرة آلاف كتاب تقريبًا سنويًا، وفي عام ٢٠٠٦م أصدرت نحو ثلاثين ألف كتاب، والآن صارت متاجر بيع الكتب الراقية في كلّ مكان، بواجهات تقدّم عروضًا جذابة للكتب المتوفّرة بها، ولما أعلنت منظمة اليونسكو عدّ تسعة مواقع في تركيا ضمن المواقع التراثيّة العالميّة، وأعقبه اهتمام مثقفي العالم بالاكشافات الأثريّة؛ زاد الوعي في تركيا بوجوب الحفاظ على التراث وتقديره والاعتزاز به؛ والآن أصبح الأتراك أكثر إدراكًا أنّ ثقافتهم تتسم براء هائل يستوجب الاعتزاز به وصيانته مع مراعاة العناية والحريّة اللازمة.

ألاحظ تغيّرات كثيرة تعدّ مؤشّرًا لي؛ إذ أصبح من الصعب العثور على خبز جيّد، وصار شراب الخثير متوفّرًا في أكواب معقّمة، ولم يعد يُصنع منزليًا ويقدم في أباريق، وسمعت هذا العام أوّل مرّة في الشوارع

صوافر سيارات الشرطة والإسعاف، وبات من النادر رؤية الأكواخ القديمة وبائعى اليانصيب الجائلين، وصارت العصائر معلّبة في عُلَب المَقْوَى، لا في قوارير مخروطيّة صغيرة الحجم زاهية اللون، ولم يعد بمقدورك تناول رشفة ماء في أيّ مكان إلّا إذا كانت معلّبة في زجاجات بلاستيكيّة؛ إذ باتت أباريق الألمونيوم -كانت توضع فوق طاولات المطاعم- أو الكؤوس التي يقدّمها الباعة الجائلون غير صحيّة في نظر الناس جميعًا، وأصبح الأطفال الرضّع صعب الإرضاء، وصار الأطفال أكثر وقاحة وبدانة، وفقد سوق الأباذير أصالته، بعد أن خبا زهو تلاله الشهيرة من التوابل الملونة، وتحوّل لبيع هدايا وتذكارات رخيصة وقمصان نصف كُم للسيّاح، أضف إلى ذلك أنّ متاجر الجواهر صارت تزحف عليه، فقد رأيت هذا العام أحد هذه المتاجر بواجهة زجاجيّة متطفّلة دون أدنى احترام لملاءمة معماريّة يتّسم به هذا الأثر التاريخي.

في خِصَمَ هذه التغيّرات كلّها، أدعو الله أن يظلّ التميّز المحليّ لكلّ إقليم في تركيا -بثرائه كلّه وتفرد- صامدًا أمام العولمة وقالبها العالميّ القياسيّ المانح الأماكن كلّها طابعًا موحدًا؛ لأنّ ذلك التنوّع الإقليميّ هو أحد الموارد المهمّة في تركيا، ولا بدّ من الحفاظ على العاد المحليّة والأزياء التقليديّة والأغاني الشعبيّة واللهجات واللكنات المحليّة والأطعمة والموسيقى والنماذج الفنيّة؛ فأنا أريد قونيا مختلفة عن شانليورفا، ولا أريد أرضروم الغالب عليها الطابع الرماديّ أن تشبه أنقرة الذهبيّة، أو أن تستخفي اللهجات الإقليميّة التركيّة؛ أريد أن أسمع الموسيقى العلويّة في إليستان وأن آكل المثلجات المكثفة في قهرمان ماراش، وأن أنبهر بزرقه البحر الأبيض المتوسط في أنطاليا، وبصفرة السهول المتربة في نيدة، وخلال مسيرة التحسين الحاليّة آمل على وجه الخصوص ألا يخسر الشعب التركيّ رفته الأصليّة وروحه النقيّة؛ فلا شكّ أن عمليّات سطو وسرقات وأعمال إجراميّة قد تحدث، وكلّها عناصر

ناجمة عن تأثير الغرب على القيم التقليدية؛ أذكر حينما زرت إسبارطة عام ١٩٩١م وأغلقت مزلاج سيارتي، ضحك المسؤول عن موقف السيارات وسخر مني قائلاً: "يا لك من امرأة حمقاء! لا تحتاجين لذلك هنا؛ فنحن في تركيا حيث لا يسرق أحد غيره!"; كم أتمنى أن يظلّ دوماً على حق!

كلّ ما ذكرت ليس سوى عقبات صغيرة في طريق التقدّم الفائق السرعة؛ أنا أيضاً أشارك الأتراك حماسهم عند ركوب سفينة البوسفور العظيمة المنطلقة نحو المستقبل؛ فثمة مشروعات كبيرة يُخطّط لإقامتهما على البوسفور، يذكّران الناس جميعاً بمدى التغيّر الطارئ على تركيا منذ أن حلم السلطان سليمان العظيم بتشييد جسر فوق البوسفور: مشروع "مرمراي"، المتوقّع إتمامه عام ٢٠١٢م، سيربط شطري إسطنبول الأوربيّ والآسيويّ بنفق سكّك حديدية يمتدّ أسفل البوسفور مسافة ثلاثة عشر كيلومتراً، ليكون بذلك أعمق نفق تحت الماء في العالم، ومن المخطّط أيضاً أن ينتهي في ذلك الوقت نفسه تشييد جسر ثالث فوق مياه البوسفور، ورغم هذا القدر الهائل من النشوء والتقدّم، سرعان ما سيصبح من الصعب على فرنسا أو النمسا أو أية دولة أخرى في العالم تجاهل تركيا؛ إذ يعمل في الوقت الحاليّ جيل من عابري الجسور على قدم وساق لتصميم مخططات تنفيذ هذه المشاريع، ولا يسعني إلّا أن أمل أن تكون تجربتهم مع تركيا ثريّة كتجربتي منذ بدأت أعمل على ترجمة وثائق مشروع جسر الفاتح!

هل أصابك الدوار لقراءة هذا كلّ يا سيّدة ماري؟ رجاء لا تقلقي؛ فعلى الرغم من ظهور هذه التغيّرات كلّها التي وصفتها لك، ستظلّ كثير من انطباعات ومباهج أمتعتك خلال إقامتك في تركيا كما هي دون تغيير مهما أغدت تركيا في طريقها نحو التقدّم؛ ستظلّ تلك الجدران المكسوة بالبلاط المزجّج قائمة في جامع السليمية بأدرنة لثير إعجابك، وسيبقى مشهد رأيتّه من نافذتك أعلى مرتفعات بير، وستبقى متعة نزه الزوارق

في مياه البوسفور الزرقاء، وستبقى النسوة الفواتن المرتديات ماسًا كبارًا بحجم ثمار البندق، وستبقى ثمار بندق منطقة البحر الأسود، وسيبقى ولع الأتراك بالأطفال، وحب العائلة، وسجاجيد تُسَط في التُّزَه الخلوية.

سيّدة ماري، أنا معجبة إعجابًا عميقًا بمدينة قيصري، وكم تمنيت لو أنك زرتها! أعتقد أنّ من أسباب إعجابي بها أنها ترمز للملاءمة الدائمة بين الأساليب القديمة والحديثة، حينما أقف في الميدان الرئيس ناظرة حولي في الاتجاهات جميعها، أرى مشهدًا كاملاً لتاريخ تركيا وقوة تقدّمها؛ فجبل أرجيز البركانيّ يمثّل بدء الزمن، والسوق الصاخبة تعيد أصداء لخطوات التجّار الآشوريّين والحيثيّين، وجدران المدينة الحجرية تشهد على عهد الرومان والبيزنطيّين، ومدرستا ماهيري خاتون والصاحبية تبرزان أهمية هذه العاصمة السلجوقية، ومسجد علي باشا -بناه سنان- يلخّص عظمة الإمبراطورية العثمانية، وقيم المد الجمهوريّ تماشى مع تمثال أتا تورك الممتطي صهوة جواده وسط الميدان؛ وتلمّع تركيا الأحلام الأوربيّة في الواجهة الزجاجيّة لفندق هيلتون، المصمّم ليعكس منظر جبل أرجيز المهيّب في الجهة الأخرى؛ أتمنى أن يستطيع كلّ مواطن تركي أن ينظر حوله في مدينته، وأن يشعر بالفخر نفسه بمسيرة التاريخ والتقدّم الرائعة!

أنا على ثقة تامة أنّ سجّادة تركيا العملاقة المنسوجة الآن بطول ألف ميل وعرض ثلاث مئة ميل ستصبح سجّادة خلابة تنال إعجاب العالم أجمع، وآمل أن يدرك الأتراك أنّ الموكيت الأزرق الساذج المفروش في مسجد علاء الدين بقونيا حاليًا لن يغلّق بالذاكرة كالسجاجيد المنسوجة إبان عهد السلطان علاء الدين كيغوباد المزيّنة أرضيات هذا المسجد في الأصل؛ إذ دخلت سجاجيد هذا السلطان العظيمة كتب تاريخ الفن بوصفها من أروع أمثلة فنّ النسيج، وتعدّ الآن دُررًا نادرة تتوّج متحف الفنّ الإسلاميّ بإسطنبول، وتجذب ملايين الزوّار سنويًّا؛ وهكذا أتمنى

لتركيا أن تظلّ هي وشعبها ينسجون سجّادة البلاد المتلاثة ذات التفرد والتميّز العظيمين، وروعة التصميم، وبراعة التنفيذ.

لم أنس قطّ شجرتي في ذلك التزلّ المتهالك في أنطاليا؛ إذ سكنت ذاكرتي وأحلامي منذ خشيتُ تدميرها خلف ذلك السياج من الأسلاك الشائكة؛ فعدت هذا العام إلى أنطاليا عازمةً على أن أعثر عليها؛ إذ كنت مقتنعة أنها ما زالت على قيد الحياة؛ لأنني لا أصدق أنّ شيئاً نفيساً ونيلاً مثلها يمكن اقتلاعه لتنفيذ مشروع إنشاء؛ سرت في طريق لارا إلى أن وصلت مكاناً ظننت أنها كانت فيه، ودخلت منطقة مقاماً عليها فندق حديث الآن، وخينما كنت على وشك فقدان الأمل في العثور عليها، رأيتها فجأة تقف في متاهة الممرّات أمامي؛ لم تنجُ الشجرة فقط، بل أصبحت محور تصميم المنظر المطلّ عليه الفندق كله؛ فُبُنيت حولها شرفة واسعة كي تشرف على عظمتها، ووقفت الشجرة -كعادتها- ترخّب بالجلّسة تحت ظلالها الوارفة لينعموا بسكيتها وإطلالتها الرائعة على خليج أنطاليا؛ أعتقد أنّ تركيا سوف تلقى مصير شجرتي نفسه؛ ستبقى دائماً، لكنّها ستتغيّر، وستنشأ نشوءاً محموداً بمرور الزمن، وستكيّف كي تظلّ دوماً واقفة بفخر وشمم، وجذورها ضاربة في عمق الأرض للأجيال القادمة، وأغصانها ممتدة نحو القمر والنجوم!

صديقتكم

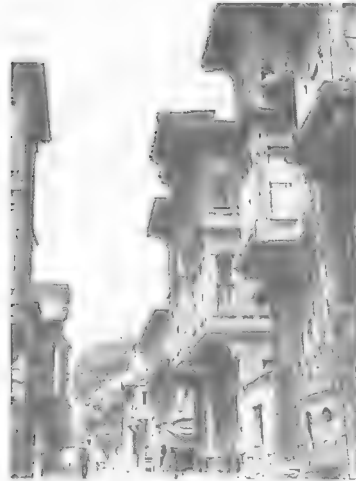
قدريّة براننج

Since 1958,
1958'den beri.

An Istanbul Classic
Bir İstanbul Klasik



فندق شينار المؤسس عام ١٩٥٨م، من أول الفنادق في إسطنبول
ذات النجوم الخمسة



شارع سفوق جشمة "السييل البارد"، إسطنبول، عام ١٩٧٨م



شارع سغوق جشمة "السييل البارد"، إسطنبول عام ٢٠٠٨م



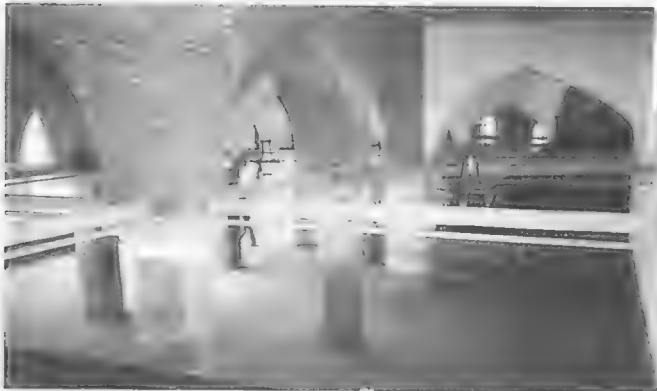
حافلة قديمة في توقات



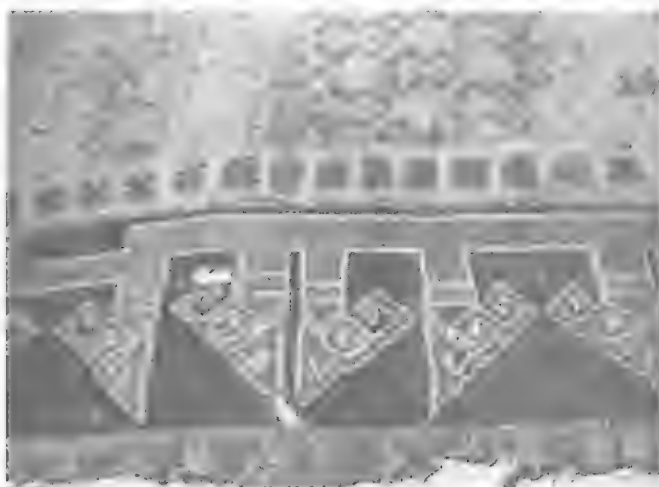
تخلّصوا من هذه الأصفار!



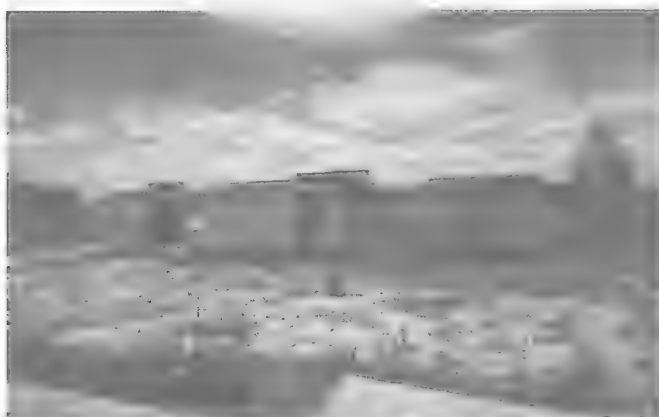
عملية إنشاء جارية



الموكيت المبسوط في مسجد علاء الدين بقونيا عام ١٩٩٦م



سجادة صوف من مسجد علاء الدين بقونيا عام ١٢٢٠م، متحف الفنون التركية والإسلامية، إسطنبول، قطعة رقم ٦٨١



مدرسة جوهر في قيصري عام ١٩٨٥م



مدرسة جوهر في قيصري عام ٢٠٠٤م



عيون تنظر إليك في الشارع وفراء يتمسح بقدميك



مجمع "صاحب عطا" في قونيا



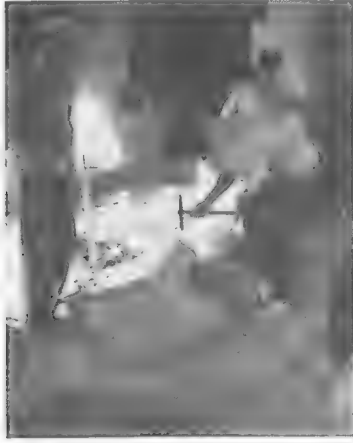
امتزاج القديم بالحديث في بيشهير



أسوار المدينة البيزنطية المرممة في إسطنبول



عتبة أبلاها الزائرون في مدخل منطقة ضريح السلطان سليمان العظيم في إسطنبول



أَعْمَالُ تَرْمِيمٍ بِمَجْمَعِ إِسْمَاعِيلِ بَكْ فِي قَاسْطُمُونِي



فَوَارَة عَثْمَانِيَّة عَامَّة فِي إِسْطَنْبُول تُوَزَّعُ الْآنَ الْكُوكَاكُولَا وَزَجَاجَاتُ الْمِيَاهِ الْمَعْلَبَةِ



كاتب عرائض عام



فندق هيلتون في قبصري المشيد عام ٢٠٠٢م يقف في ظلّ جبل أرجيز



فندق هيلتون في قونيا المشيد عام ٢٠٠٢م، نُزِلَ حديث في سهول الأناضول



شجرة الدُّلْب في نُزُل بَانطاليا، طريق لارا بيتش عام ١٩٨١م

الرسالة السابعة والعشرون

طاقة أزهار التوليب

عزيزتي السيدة ماري،

ليتك تستطيعين رؤية مدى ما أحرزه هذا البلد من تقدّم منذ أن كنت هنا! فلو أنّك هنا الآن، فلن تعرفي تركيا؛ إنها مختلفة تمامًا عن تلك التي حكمها سلطانٌ أثرٌ أشر عرفته؛ هذا البلد مسالم، ولم يعد عازماً على تحقيق فتوحات خارجية، بل بات يركّز على خوض حرب داخلية لضمان مكانة سياسية، ومالية، واجتماعية، وأخلاقية لمواطنيه؛ لا شك أن تركيا تنمو؛ فشبابها - وفقاً لإحصائياتها ٧٠٪ من السكّان تحت سن الخامسة والثلاثين - يضطلعون الآن بالمسؤولية، وهم شباب متحمسون، ينظرون عن يمينه وعن شماله قبل عبور الطريق، ويرغبون في أن يكونوا سعداء متعلّمين، يحلمون بمشاركة الرؤية الأوروبية لتحقيق التقدّم الاجتماعي، والعدالة، وحرية التعبير، والتقدّم التقني، والرخاء المالي؛ لا شك أنّهم سيصبحون سادة هذه البلاد في غضون سنوات قليلة، وورثة تراث غنيّ جدّاً، تركه لهم السلاجقة، والعثمانيون، ولن يخشوا التحرّر من الماضي، وتقديم التضحيات والمخاطرة، وسيخرج من جموعهم الغفيرة آخرون على شاكلة علاء الدين كيقوباد وسليمان العظيم ليحدّدوا شكل مستقبل تركيا؛ بلد يمكن أن يفاجئ الناس جميعاً ويصبح من أنجح الدول في القرن الحادي والعشرين!

في رسالة لأليكساندر بوب بتاريخ الحادي والعشرين من فبراير/شباط عام ١٧١٧م، تصفين المرور في ساحة قتال كارلوفيتز؛ ساحة كانت فيها الغلبة للمضابط النمساويّ يوجين أمير سافوي على العثمانيين في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ١٦٩٧م؛ دفعك منظر الميدان المتناثرة فيه الجماجم والأشلاء للتصريح ببعض التعليقات السياسية النادرة، لكنك سرعان ما توقفت قائلة: "لن أشغلك بهم، لنعد لأحداث رحلاتي"؛ في الواقع يصعب دائماً على أيّ أجنبي أن يعلّق على الأحداث دون أن يبدو نزاعاً لانتقاد مسائل يفترق إلى المعرفة العميقة بها، وهذا من أصعب الدروس المستفادة من التطواف في العالم؛ أن يتعلّم المرء متى يكفّ لسانه.

وفي رسائل كتبتها إليك أمسكت قلمي عن تناول الجوانب المظلمة في الثقافة التركية؛ لعلك تظنين أنني رسمت صورة بالغة المثالية لهذا البلد، وتغاضيت عن مواطن الضعف، كما ذكرت في رسالة بتاريخ ثلاثين من أغسطس/آب ١٧١٦م من مدينة راتيسبون: "أعتقد أن من الحكمة البالغة أن يظلّ المرء محايداً"، وقد اخترت السير على النهج نفسه؛ لأنني مثلك رَحالة، لست صحفية ولا عالمة سياسية متمرسة؛ لذا أترك لهؤلاء تحليل مسائل الفروق المجتمعية والمشكلات المتعلقة بالسياسة والدين والثقافة والعرق، وأنت أيضاً عشتِ عصرًا كانت المشكلات فيه تُلقى بظلالها على المجتمع، لكن كلّ شيء بدا على حقيقته، ومن ذلك عصر التوليب البهيج في زمن السلطان أحمد الثالث، المكرّس للحفلات والشعر وزهور التوليب، غير أنّ ضرائب فرضها السلطان أحمد لتمويل أسلوب حياته المترف تسببت في اندلاع ثورة شعبية أدت إلى خلعه عن العرش عام ١٧٣٠م، بعد مغادرتك تركيا باثني عشر عاماً، لكن من ذا الذي يتذكّر الآن -وقد مرّ أكثر من مئتين وثمانين عاماً- تلك المشكلات الاجتماعية في عصره؟ فلم يبقَ في ذاكرة العالم سوى زهور التوليب بألوانها الزاهية وسوقها المتمايلة، وبعد أن حصلت عليها

هولندا، بات العالم بأسره ينظر إليها بوصفها رمزاً لتجدد فصل الربيع وللأمل البهيج، لكنني سأظل أنظر إلى تركيا بلداً يحمل طاقة كبيرة من التوليب للعالم!

حينما أحدثت من حولي عن تركيا، غالباً ما أجد مشقة في تجاوز رؤية سلبية تسببت فيها جوانب مظلمة قرؤوا عنها في الصحف، يبدو أنها تؤثر على رؤيتهم الفعلية لهذا البلد، لكن الجوانب المظلمة في كل ثقافة وشعب وبلد، وقد تكون أشد ظلمة أو أكثر إشراقاً وفقاً لرؤيتك أنت؛ يمكنني أن أرى بوضوح الجوانب المظلمة في تركيا؛ لأن كثيراً منها في بلادي، وقد ساعدني السفر إلى تركيا ورؤية صراعاتها مع هذه المشكلات ذاتها علي رؤية بلادي ومؤسساتها من منظور مختلف؛ فالتعامل مع الجوانب المظلمة لا يعني الشعور بالخزي منها، بل يعني مواجهتها وبحثها، ومناقشة وجهات النظر المختلفة، وتحليل المشكلات، ثم التحرك واتخاذ إجراءات لمنع تكرارها.

بلغت تركيا الآن درجة من النضج تستتبع تحمل المسؤولية، وباتت البلاد مستعدة لإجراء تغييرات استثنائية؛ كبر البلد النامي وصار قادراً على اتخاذ قراراته بنفسه؛ فتركيا الراشدة تكافح لتقرر شكل ديمقراطية مستقبلها وكيفية دعمها، وأنا على يقين تام أن الشعب التركي بما تعلمه وبذكائه وقوته وعزمه وقيمه المجتمعية، سيتمكن دوماً من اختيار طريق يحقق أفضل أحلامه للمستقبل؛ ستقف تركيا على الساحة العالمية بفخر على مرأى ومسمع من مواطني العالم أجمع.

قبل أن أختتم مجموعة رسائلتي إليك، أود أن أعبر لك -يا سيّدة ماري- عن الإهام شديد استوحيتك منك عند كتابتها؛ وكيف ساعدتني دروسها أن أجيد عبور الجسور، ومن أكثر ما أعجبني في رسائلك -بجانب مرحها وتفاؤلها وأسلوبها الساحر السهل المعبر عن فكرك- هو أنك

كنت صادقة ومفتحة بشأن ما شاهدته كله في تركيا؛ ولأنك كاتبة موهوبة تمكنت من وصف محيطك وصفاً مفعماً بالحياة، بأسلوب يجعلنا نشعر أننا إلى جوارك، لكنني أعتقد أن الهدية الحقيقية في رسائلك هي أنك لم تترفعي عما دار حولك، فليس فيها نبرة استهزاء أو تعال؛ كيف استطعت أن تظلي بعيدة كل البعد عن تعصب وتحيز كانا سمة كثير من معاصريك الإنجليز؟ يسعدني أيضاً أنك صغت فكرك بأسلوب متزن، يحترم مشاعر قراء رسائلك أيّا كانوا، وأيّا كانت مواقفهم وقيمهم، وأقدر كذلك انتقاءك قصصك بعناية بالغة، حين أردت توضيح نقطة معينة لأصدقائك المثقفين في إنجلترا أو دحض فكرهم السلبية أو المتحيزة عن الأتراك؛ رسائلك ليست مجرد ثروة جوفاء تسرد أنشطتك اليومية، بل هي رؤى مهمة نابضة بالحياة للعالم من حولك، كما كتبت للسيدة ريتش: ”دخلت الآن عالماً جديداً؛ إذ يبدو كل شيء أراه مختلفاً عما اعتدته“، لكنك بدلاً من التركيز فقط على الاختلافات، أدركت النقاط المشتركة بين الثقافات، وحينما لاحظت اختلافات، قررت ألا تتناولها بأسلوب متحيز، وتحسنت نظرتك إلى نفسك، ورأيت حضارتك بوضوح أكبر، وأخذت بأيدينا كي نحذو حذوك؛ وكتبت: ”الحال عندهم كما هو عندنا“؛ لهذه الأسباب كلها، أعلن أنني لست وحدي أقول: إن رسائلك تُقرأ اليوم بالحماسة نفسها المقروءة بها عندما كتبتها أول مرة؛ لذا كان من دواعي سروري أن أكتب لك هذه الرسائل -يا سيّدة ماري-، ويسعدني أن تتاح لي الفرصة كي أعبر لا عن تقديري لتركيا وشعبها الذي نشترك في حبه واحترامه فحسب، بل عن تقديري لك أنت أيضاً!

رغم أنني سأحرص على اتباع نصيحتك بأن أظل محايدة؛ فسأختم رسائلي ببعض معتقداتي، مع ثقتي بأنك -يا سيّدة ماري- امرأة مستنيرة جداً وستشاركيني الرأي في معظمها؛ أنا أؤمن بالعلم وبقدرته على دفع عجلة التقدّم وتحقيق الرخاء في العالم، وأؤمن بالقانون وسلطته لضمان

المساواة، وأومن بالتعليم وقدرته على مساعدة الناس علي رؤية الأمور بحجمها الكبير لا كما يتصورونها وتجنّب شراك الجهل والحق والتحيّز، وأومن أنّ التعليم قادر على تبديد ظلمة البشر وخلق دافع للتعاطف والتفاهم والتغيير، وأومن أنّ الحكمة يمكن أن تُؤتي بكثير من المصادر والأساليب، وأومن بالمجتمع وبقدرة البشر على التعاون في المجتمع وفي الحكم لإقامة عالم عادل لمواطنيه، وأومن بوجود يد خفية تدفع الناس دائماً في اتجاه يحتاجونه لاتخاذ القرارات السليمة، وأومن أنّ هذه اليد ذات السلطة قد تنبثق من رسائل سماوية أو من سوق المال، وقد تأتي من الطب، أو من قاعة المحكمة، لكنّها تأتي دائماً للشعب الديمقراطي، وأومن أنّ كلّ لقاء بين شخصين، وكلّ محادثة قصيرة، وكلّ كوب يحتسيه من الشاي يمثل صدعاً في جدار التعصّب، ومع احتساء كوب تلو آخر، ربّما يصبح عالم أحلامي حقيقة يوماً ما!

هل لمثل هذا العالم وجود؟ ربّما ليس الآن، لكنّ الاستبداد لن ينتصر أبداً؛ ستظلّ حقوق الإنسان فوق كلّ شيء، وسينتصر دائماً حبّ الحرية، أتمنّى لتركيا -مواطنيها وسياسيّها ومشروعها وجيشها وعلمائها- أن تعبر عدّة جسور أخرى لتحقيق هذه الأهداف، وأن تزرع بستاناً جميلاً جمال بستان رائع يرسمه الأتراك على أواني مدينة إزنيك الخزفية المزخرفة بزهور التوليب، وأهمّ من كلّ شيء آخر: أنا أومن بشعب تركيا!

صديقتكم

كاثرين براننج

الرسالة الثامنة والعشرون

ما شاء الله!

عزيزتي السيدة ماري،

لا شك أنك نجوت من بعض المخاطر الجسيمة خلال رحلاتك، سواء في طريقك إلى تركيا أو في رحلة عودتك إلى لندن؛ في رسالتك المؤرخة بالحادي والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني ١٧١٦م تسردين قصة مثيرة عن عبورك جبال الألب خلال رحلة ذهابك إلى تركيا:

«...على ضوء القمر عبرنا المنحدرات المربعة الفاصلة
بوهيميا عن ساكسونيا الجاري أسفلها نهر ألب، لكنني لم أخش
الغرق؛ لأنني كنت مقتنعة تمامًا أنني لو تعثرت، فمن المستحيل
أن أصل إلى الأسفل حيّة، كان الطريق يضيق في عدة أماكن
حتى أنني لم أستطع رؤية بوصة واحدة بين العجل والمنحدر،
ورغم هذا كنت نعم الزوجة؛ فلم أوقف السيّد ورتلي، الغارق
في سُبات عميق جواري، ليشاركني مخاوفي... قيل لي بعدها:
"إن من الشائع العثور على جُثث المسافرين في نهر ألب".

لكن حمدًا لله أننا نجونا من هذا المصير، بالرغم من القصص المرعبة لمخاطر السفر المحتملة كلها المنتظرة في الطريق، فقد سافرت لاحقًا بكل جسارة من فيينا:

”لم أصدق كلام الناس هنا؛ حذروني من أنواع الأهوال كلها؛ وبالفعل فقلّة من الناس جرّوت على السفر في مثل هذا الجوّ، وفي الوقت نفسه يتهدّدني خطر أن أتجمّد حتى الموت، وأدفن في الثلوج، وأن يختطفني التار المهاجمون هذا الجزء الذي سأعبره من المعجر...“.

وكان صعبًا مررت بها في رحلتك إلى تركيا لم تكن كافية، فقد شهد الجزء قبل الأخير من رحلتك إلى وطنك عبورًا شاقًا، وهذه المرّة كان عبورُ مسطّح مائيّ بدلًا من جبال مغطّاة بالثلوج:

”وصلت هذا الصباح إلى دوفر عقب أن تقاذفتني سفينة البريد طوال الليل بحركات عنيفة حتى إن الرّبّان أعطانا إنذارًا بالخطر؛ اتصلنا بمركب صيد صغير تمكّن بصعوبة من الوصول إلينا، بينما ظلّ ركاب سفيتنا جميعًا يتضرّعون إلى الله؛ لا أتخيّل نفسي في موقف أشدّ رعبًا من هذا الموقف...“

تعرّضتُ أنا أيضًا إلى بعض الأحداث الخطيرة وأنا أسافر في طرقات تركيا؛ فقد شاهدت بعض شواحن النقل الضخمة وهي تنقلب على جوانبها على حَيْف طُرُق ليليّة سريعة محفوفة بالمخاطر، وخاطرت -مثلك- بالوقوع في بعض الكمائن عندما سافرت إلى مناطق نائية شرق تركيا أثناء الأزمة الكرديّة، وقد نجوت من بعض أفضع الحوادث لتحتطم السيّارات، وتعرّضت لبعضها الآخر، وشاهدت حوادث تصادم تقذف الأشخاص في الهواء كالدمى المهلهلة، وشاهدت من الأسفل ذات مرّة حادثًا وقع في جنوب تركيا لسيارة تحمل أسرة من أربعة أفراد سقطت عموديًا من أعلى طريق الشاطئ الصخريّ لترقد كالجثة الهامدة أمامي؛ تذكّرني هذه المواقف

كلّهما بأعياد شكر قلّت عنها -يا سيّدة ماري-: "وصلت سالمة... خاترة القوى من الرعب والإنهاك؛ فلا أستطيع حمل نفسي على الكتابة..."

أريد أن أقصّ عليك قصّة مختلفة عن تجربة سفر صعبة مررت بها، وهي رحلة عودة إلى وطني مليئة بالأحداث، لكنني بخلافك لم أجد نفسي وحيدة خائفة في غربة سفر إلى جوار زوج نائم قليل الحيلة، بل كان أفراد الشعب التركيّ جميعاً إلى جوارى في هذه المحنة؛ توجّز هذه القصة من عدّة جوانب طيّعة الشعب التركيّ والجمهورية التركيّة؛ بدأت هذه الرحلة في صباح يوم دافئ منعش في أواخر فصل الصيف في إسطنبول؛ كان اليوم الأخير في رحلة رائعة إلى شرق تركيا، حيث شاهدت بعض أجمل مناظر طبيعيّة عرفها الإنسان؛ بدءاً من الثلج الأبيض الكاسي قمة جبل أرارات -يُعتقد أنّه جبل النبيّ نوح-، والمياه شديدة الزرقة لبحيرة وان وبهاء اللون الزمرديّ القاتم لجبال كاتشكار؛ شعرت في ذلك اليوم بسعادة غامرة لأنني كنت محظوظة، إذ أشاهد هذه المناظر الطبيعيّة الخلابة؛ أؤمن نعم الله إلى الإنسان، وكنت أتطلّع بشوق إلى العودة إلى زوجي الحنون ودفع علاقات زملائي في المكتبة، وكانت سماء ذلك اليوم صافية بلون الباقوت والشمس ساطعة؛ إنّه صباح الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م.

بدأت رحلة عودتي إلى وطني كغيرها من الرحلات السابقة؛ خرجت في طريقي المعتاد إلى المطار، يملؤني حزن شديد لفراق تركيا بعد فترة حيويّة مثيرة من التعلّم والاستمتاع ومعايشة التاريخ، تختلط بمشاعر الترقّب والسعادة للقاء الأحباب في وطني؛ اشتريت الحلويات والحلوى الطحينيّة والمُلبّن والقهوة التركيّة من متجر السوق الحرّة، ودسست في حقيرة يدي آخر نسخة من صحيفة "حريت" التركيّة، واشترت بالعملات المعدنيّة التركيّة المتبقّية معي عقداً من حبّات الخرز الزرقاء، وأثناء مروري عبر نقاط التفتيش الأولى والثانية والثالثة، علّقت في نفسي

على دقة الأتراك فيما يتعلّق بالأمن خاصّة في هذا العالم المتقلّب؛ شعرت بالأمان!

حدث تأخير ساعتين تقريباً، سُوِّغ بالكلمات الغامضة الشهيرة: ”عُطل فني“، أثناء تلك الفترة قُدِّمت لنا شطائر الجبن الأبيض والطماطم اللذيذة، وأخيراً أفلعت الطائرة، لكن بعد مرور ساعة واحدة أعلن الرُّبّان عبر مكبّر الصوت أنّنا مضطّرون للعودة إلى إسطنبول، لظهور المشكلة المزعجة مرّة أخرى على ما يبدو؛ أعادت المضيفات عربات تقديم الطعام، ورُبِطت أحزمة المقاعد، وعدنا إلى إسطنبول، ونزلنا من الطائرة وانتظرنا ساعتين إضافيتين في نفس منطقة الإقلاع نفسها؛ بدأ الحال يصبح مرهقاً؛ لهذا سعدنا، حينما أعلنت موظّفة الخطوط الجوية التركيّة العثور على طائرة جديدة من المتوقّع أن تغادر فيها خلال وقت قصير، ومرّة أخرى أفلعت الطائرة وكلّنا يقين أنّ المشكلات جميعها حلّت هذه المرّة.

المفاجأة أن الرُّبّان تحدّث بعد مرور ساعة، وأعلن باللغة التركيّة أنّنا مضطّرون للعودة إلى إسطنبول المرّة الثانية؛ امتعض الركّاب جميعهم وتأفّفوا، وبدأت آياس من عودتي إلى وطني ذلك اليوم، غير أنّ الرُّبّان تحدّث تلك المرّة بصوت تشوبه نبرة غريبة، وقال كلمات مبهمّة فحوّاهّا: ”أنّنا مضطّرون للعودة؛ لأنّه تمّ إغلاق المجال الجويّ الأمريكيّ بأكمله“؛ فأصابني الذعر فوراً لإدراكي أنّ شيئاً رهيباً قد حدث لأنّ المجال الجويّ الأمريكيّ لم يُغلق قطّ على مدار تاريخنا كلّهُ؛ شرعت أبكي خوفاً من المجهول؛ إذ إنّني لم أتمكّن من معرفة ما حدث لكنّني كنت متأكّدة أنّه أمرٌ جلل؛ اقترب منّي صبيّ تركيّ، وسألني عن سبب بكائي، وعجزت عن إخباره بمصيبة أتوقّعها؛ لم أشأ أن أخيفه هو والأتراك الآخرين على متن الطائرة؛ فأجبتّه أنّني أبكي لحزني الشديد على فراق أصدقائي في إسطنبول.

بعد مرور نصف ساعة، تحدّث الرُّبّان مرّة أخرى باللغة التركيّة، وأبلغنا أنّ المشكلة على ما يبدو كانت "تعرّض أحد مباني نيويورك الكبيرة لهجوم ما"؛ فشعرت في قرارة نفسي أنّني أعرف المبنى الكبير المقصود؛ فلا يمكن أن يكون أيّ شيء سوى ذلك المبنى الذي أراه ليّل نهار من نافذة شِقّتي يقف شامخًا، كحارس جُسور ليراه العالم أجمع: إنّهُ برج التجارة العالميّ، وشعرت بطريقة ما أنّ ما حدث لم يكن مجرد حادث، بل لا بدّ أنّها كانت هجمة إرهابيّة، أخيرًا هبطت الطائرة في إسطنبول، وتحدّثت المضيفة في مكبّر الصوت تطلب من الركّاب جميعًا البقاء في مقاعدهم، ثمّ تحدّث الرُّبّان باللغة التركيّة، أعقبها بعبارات إنجليزية كي يتمكّن الأمريكيّان القليل على متن الطائرة من فهم ما يحدث؛ تحدّث بوضوح وبطء، لا لضعف لغته الإنجليزية، بل ليتيح لنفسه فرصة انتقاء الكلمات المناسبة لنقل رسالته بأكبر قدر ممكن من الرقّة والحذر؛ فقال بصوت مرتعد مفعم بالمشاعر: "السيدات والسادة، يؤسفني أنّ أحمل لكم بعض الأنباء المحزنة؛ وقعت هجمة إرهابيّة على المبنى الشاهق في نيويورك، مبنى مركز التجارة العالميّ؛ الحال سيّء جدًّا، وقد أصيب كثير؛ وللأمريكيّين جميعًا على متن الطائرة، أتقدّم اليوم بخالص عزائي لكم ولبلدكم"، ثمّ سمعناه يكيّ؛ جعلني صوت بكائه أدرك محنته؛ فهو مجبر على إبلاغنا بهذه الأخبار، ذلك المضيف التركيّ الكريم اضطرّ لإبلاغ ضيوفه الجالسين في طائرته بما يزعجهم ويعكّر صفوهم؛ لا بدّ أن الرُّبّان شعر بالحزن الشديد لاستخدام أحدهم الطائرة، مصدر رزقه أداة للتدمير؛ لعلّه استاء أيضًا لأنّه تدربّ في الأغلب على يد ربابين أمريكيّين، ولأنّه يمرّ كثيرًا بأمريكا خلال رحلاته، ويدور حول هذين البرجين المميّزين بجزيرة مانهاتن، لا شكّ أنّه أصيب بالحسرة والمرارة لأنّه قيل: إنّ الإرهابيّين يُظنّ أنّهم مسلمون مثله؛ ضاعف بكاءه صوت انفجار الاصطدام في أذنيّ، ورأيت الحادث في مخيلتي بوضوح، رغم أنّني

لم أعلم حينئذ أن البرجين سيسقطان، وأن الفاعلين يُزعم أنهم مسلمون. بفضل ذلك "العطل الفني" نجونا من مصير كثيرين عادوا إلى أمريكا بالطائرة في ذلك اليوم، وبدلاً من أن نتوه، كان الأمريكيون القليلون على متن تلك الطائرة التابعة للخطوط الجوية التركية محظوظين؛ ففي خضمّ الفوضى اللاحقة عادوا إلى بلد مستعدّ لاحتضانهم والاعتناء بهم.

عندما نزلنا من الطائرة ودخلنا قاعة المطار، وجدنا أماناً أشخاصاً من الأشكال والألوان كلّها مصطفين في صمت تام؛ كان العاملون في المطار جميعاً قد اجتمعوا لاستقبالنا؛ فمنهم الموظفون بزيهم الرسمي ذي الأربعة المرسلة أو بزي الخطوط الجوية التركية والأرب المرسلة، ومنهم الحمّالون بسترهم الرمادية، ومنهم عوامل النظافة بمراويلهنّ الزهرية الواقفات بحذر إلى جوار عرباتهنّ، ومنهم رجال الشرطة بأحزمتهم الجلدية السوداء الثخينة، ومنهم المسؤولون عن خدمة تقديم الطعام بقبعاتهم الورقية البيضاء، وضباط الأمن بسترهم السوداء، وآخرون كثر وسط زحام الألوان والملابس؛ بدا أنّ من في المطار جميعاً حضر ليشكل حائطاً بشرياً يحيطنا برعايته وعنايته؛ منذ تلك اللحظة وكلّ شيء مشوش في ذاكرتي، كأنما كنت على وشك أن أفقد الوعي، أو كأنما كنت تحت الماء أرى أشخاصاً تقترب منّي وتتحدّث، لكنني لا أسمع كلامهم، غير أنني أتذكّر بوضوح كلّ يد امتدّت -تلك أيادي تركية سحرية شهيرة تظهر وقت الحاجة- لتأخذنا من مرفقنا وتدُلنا على منطقة استلام الأمتعة؛ لا أذكر ما وُجّه لي من كلام في تلك الفترة، لكنني أذكر نظرات العيون؛ فحزن رأيت في تلك العيون جعلني أدرك فداحة الموقف، ورغم هذا أتذكّر بوضوح أنّ رجلاً أنيقاً رمادي الشعر يرتدي زياً أسود ويده جهاز لاسلكي اقترب منّي، وقال بعبارات إنجليزية متقنة: "من فضلك لا تقلقي؛ فسنعني بكم؛ سنصطحبك في سيارة مغلقة لتزلي في فندق قريب،

هو مكان جميل وممتع، لا تقلقي؛ يمكنك الإقامة هناك حتى تستقر الأحوال، وحينها يمكنك العودة إلى وطنك؛ لا تقلقي، سنعتني بك، لكن اعلمي أنك حينما ستدخلين غرفتك وتفتحين التلفاز، سترين مشاهد وحشية لم تربها من قبل وستزعجك جداً، سيكون هناك شخص في انتظارك على طاولة في ردهة الفندق، هو طبيب نفسيّ مستعدّ للإنصات إليك إذا كان الحال غير محتمل لك؛ بالتوفيق والشفاء؛“ أستطيع حتى يومنا هذا رؤية القسّمات الحادة للوجه الأدكن غير الحليق لهذا الرجل النحيف المرتدي سُرّة سوداء بالية، والمادّ يده ليرفع حقيتي بسرعة ويضعها في العربة المغلقة.

على مَنْ يعود الضمير ”نحن“ في كلام الرجل، حينما قال: ”إنهم سيعتنون بنا“؟ لا شكّ أنّه يعني الخطوط الجوية التركية، لكنني شعرت أنّ كلّ شخص في البلاد سيشارك في هذه المهمة؛ كيف تمكّنت دولة يُشاع أنّها فوضويّة أن تجهّز في أقلّ من ساعتين عملية رعاية كاملة، تشمل الإقامة ووسائل المواصلات وطبيباً نفسياً ينتظر على طاولة؟ كيف تصرّفوا بهذه المهنيّة والهدوء، وقَدّموا المساعدة لكي نركّز نحن على مصيبتنا، ونواجهها؟ كنت فاقدة الحسّ، فلم أتمكّن من استيعاب ذلك كلّهُ، عندما وصلنا أنا والأمريكيون القلّة على متن تلك الرحلة إلى الفندق، أرشدونا إلى غُرفنا في حالة من صمت ومراعاة تراها في الجنائز؛ دخلت غرفتي في ذلك الفندق الجميل بالفعل، وجلست على حافة الفراش، وشاهدت تلك المشاهد على شاشة التلفاز؛ فعلمت أنّ الرجل ذا الشعر الرماديّ لم يكن مبالغاً؛ عرفت تفاصيل قصّة تحكي تعرّض أحد المباني الكبيرة في نيويورك لهجوم ما“، وعرفت أنّه هجوم ألصق باسم الدين وباسم الله الرحمن الرحيم!

أقمت في الفندق أسبوعاً لم أتمكن خلاله من الحصول على أخبار شخصية عن الحادث المأساوي، بل تابعت تقارير إخبارية مملّة أذاعتها شبكة "سي إن إن"، وشاهدت صوراً لا تنتهي لحادث الاصطدام تُعرض مرّة تلو أخرى، وكأنّ مرّة واحدة ليست كافية لتُحفر الصورة في أذهاننا للأبد؛ هل مازال زوجي بخير؟ هل مازالت مساعدتي بخير، اعتادت أن تمرّ كلّ صباح وهي في طريقها لعملها من نيو جيرزي أسفل البرجين اللذين وارتهما أطنان الحطام؟ كيف حال الأشخاص كلّهم في جيرتي بوسط المدينة المعزولة عن باقي العالم، وكيف تعاملوا مع المأساة؟

كلّما شاهدتُ تلك الصور واللقطات للثقب في البرج، شعرت بثقب يُفتّح في قلبي، وكلّما شاهدت تلك العوارض المهشّمة، شعرت بتَهشّم عظام جسدي، بعد ساعات قليلة اشتعلت النيران في كلّ شيء، كأنّ الوقت توقّف وتوقّفت معه أنفاسي، لكنني أذكر بوضوح أنني خرجت من الفندق في الصباح التالي لاستنشق الهواء، فرأيت العلم التركي المرفرف أمامي منكسّاً بمنتصف السارية العملاقة؛ يرمز لونه الأحمر لدماء ضحاياه، في تلك اللحظة أدركت أنّ هذه المأساة لم تحلّ بمدينتي فقط، بل تركت آثارها على العالم أجمع.

حيّانا الأتراك في الشوارع كلّها وأعينهم تفيض حزناً بكلمة عزاء أو ابتسامة شاحبة أو تربيطة على الكتف، وتحدّث كثير منهم عن مأساة حلّت بهم في يوم من شهر آب/ أغسطس الحارّ قبل عامين؛ مأساة زلزال إزميت؛ كانت أربعون ثانية -استمرّ خلالها الزلزال في جنح ظلام ليل السابع عشر من أغسطس/ آب عام ١٩٩٩م- كافية لقتل ما يُقدّر بنحو أربعين ألف شخص أثناء نومهم، أما زلزال عام ٢٠٠١م المستمرّ خمس ثوانٍ، فقد أودى بحياة ثلاثة آلاف شخص في أماكن عملهم؛

لم يغفل الأتراك أوجه الشبه بين الحادثين المروّعين؛ فقد تجرّعوا قبلي مرارة خشية أن يكون الأحباب محبوسين أسفل العوارض المتحطّمة، يستنشقون التراب بدلاً من الهواء النقيّ.

جافاني النوم ذات ليلة، فنهضت لأكتب رسالة شكر، لم أعلم لمن سأوجّهها بالضبط أو كيف سأوصلها إليه، لكنني شعرت أنّ كتابة رسالة في تلك اللحظة ستخفّف من حدة توتري؛ إذ بدا لي أنّ التنفيس عن مشاعر حزن تكتنفني هو السبيل الوحيد المتاح أمامي، بعد أن امتلأت مرارة بسبب الصدمة؛ على الأقلّ سأشعر في تلك اللحظة بالذات أنّي أتحرّك في شيء واحد في العالم؛ ألا وهو تدفّق كلماتي على الورق في عالمي الخاصّ.

بعد ثمانية أيام تقريباً، اتصل العاملون في الفندق ذات صباح ليطلبوا منّا الاستعداد للمغادرة خلال ساعة؛ فقد فُتح المجال الجويّ الأمريكيّ وسنعود إلى وطننا، وكان من المقررّ أن تحضر سيّارة خاصّة تابعة للخطوط الجوية التركيّة إلى الفندق لتقلّنا إلى المطار، وقبل أن أغادر توجّهت إلى المكتب الأمميّ في الفندق لأستعلم عن تكاليف الأجر المستحقّ نظير إقامتي في غرفة فاخرة، وتناولي وجبات الإفطار، وإجرائي مكالمات هاتفية غير مجدّية، وإرسالي برقيات للوطن؛ لم أعرف التصرف الملائم في تلك الأحوال، لكنني أردت تصفية كلّ شيء؛ وقفت الشابة في المكتب الأمميّ تنظر إليّ، وأومات برأسها، ثمّ قالت بصوت رقيق: "لا تدينين لنا بشيء"، كأنّها استحييت أن ترفع بصرها وتنظر إليّ لإدراكها مدى ألمي وأنا في كنفها؛ استحييتُ أنا أيضاً أن أنظر في عينيها بعد أن غمرني كرم الفندق؛ لأنني كنت سأرى فيهما انعكاسات تلك المأساة، ولم أكن سأتمكّن من شكرها على ما فعلته لضمان راحتي؛ لم أتكلّم، بل أعطيتها ظرفاً فيه رسالة كتبها ليلة جافاني النوم؛ نظرت الشابة

إلى اسم المُرسَل إليه وبدا عليها التأثير، ثم نظرت إليّ، وقالت بصوت خفيض: "شكرًا لك!"، حينها فقط سالت دموعي، وكأنَّ كلَّ لمسات عزاء ولفئات حانية تلقَّيتها على مدار الأسبوع السابق جعلت شدة المحنة فجأة أكثر ممَّا يمكنني أن أتحمَّل.

أقلَّتنا الحوافل ووصلنا مطارًا يخيِّم عليه الصمت، وصعدنا الطائرة المتَّجهة إلى مدينة نيويورك، في محاكاة لخطوات الأسبوع السابق نفسها، ومررنا بنقاط التفتيش الثلاثة نفسها، ولاحظت الاهتمام نفسه بالتفاصيل والإجراءات والكفاءة نفسها في العمل، لم تُدرُ أحداث كثيرة خلال تلك الرحلة العائدة إلى الوطن المستمرة إحدى عشرة ساعة؛ فنحن إمَّا خائفون وإمَّا متشائمون من التحليق في السماء على متن إحدى الطائرات التي غدت مرتبطة بأسلحة الدمار الشامل، دعكَّ مما سيلقاه كلُّ فرد لدى وصوله.

كانت المدينة التي وصلت إليها تلك الليلة واجمة وجوم ركاب الطائرة، والمشهد الرائع السابق لمركز التجارة العالمي من نافذة شِقتي بحيّ "قرية جرينيتش" خيَّمت عليه الآن كُتْل من الضباب الرماديّ المصفرّ، تشعّ نهارًا فيظهر غبارها في أشعة الشمس المنعكسة، وتشعّ ليلاً في أضواء المصابيح الشديدة العملاقة المثبَّة في الموقع؛ اكتست مفروشات منزلي، في ذلك اليوم ولعدة أشهر تالية، بغبار تحطَّم هذين البرجين ورماد ضحاياه ثلاثة الآلاف؛ وأنا أنظف المنزل كلَّ يوم لعدة أشهر، ظللت أتلو صلوات وآيات من الكتاب المقدس للأرواح البريئة كلّها المستحيلة غبارًا أكنسه!

تعافت مدينة نيويورك، وتعافت الولايات المتَّحدة، وكذلك فعلتُ؛ ما زلنا نعيش تبعات ذلك الحدث المشين حتى اليوم، البسيط

منها والمعقد، المحلي منها والعالمي؛ أسأل نفسي كثيرًا إن كان تجاوز أحداث ذلك اليوم أصعب عليّ من أغلب الأمريكيين، فرغم أنني لم أؤمن بخسائر شخصية في الأرواح، فقد شعرت بخسارة مدينتي الهائلة وفقدت الثقة في إخواني البشر؛ شعرت أن لصيقة الإرهاب بالمسلمين كارثة، فالإسلام دين ذو مكانة خاصة في قلبي؛ شعرت بخيانة أشخاص متعصّبين يُقال إنهم ينتمون لدين عددته طاهرًا نبيلًا لَطَخُوا سمعته ولوثوه بما لا يدع مجالًا للغفران، لم أصدق أن إسلامًا عرفته، من خلال دراستي ومعايشتي للمسلمين ومن خلال مسلمين كثر قابلتهم في تركيا ووجدتهم يؤمنون بالله الرحمن الرحيم، لم أصدق أن له صلة بأولئك مرتكبي تلك الفعلية.

حينما أدركت منحني خطيرًا يدفعني إليه حزني باتجاه الشك والمرارة والخداع، تيقّنت أن ذلك كله لا بد أن ينتهي، فقطعت عهدًا على نفسي؛ قلت لنفسي: ”ربما لا أستطيع السيطرة على ما تؤول إليه أحداث العالم كلها، لكنني أستطيع السيطرة على محيطي القريب؛ محيط يمكنني التأثير فيه“؛ يُقال: ”إنّ كلّ شيء يحدث في الحياة ليساعدنا أن نعيش“؛ لهذا علمت أنني يجب أن أستغلّ ذلك اليوم وأوجه جهودي لدعم التفاهم بين الشعوب والأديان، وأن أواصل تكريس وقتي أكثر من ذي قبل لإرساء علاقات بين الثقافات؛ قلت في نفسي: لو أنّ شخصًا مثلي يكنّ كلّ الاحترام للإسلام تراوده تلك المشاعر السلبية ضد المسلمين، فماذا يشعر الأمريكي العادي؟ شعرت بضرورة أن أبني جسورًا أكثر من أيّ وقت مضى.

لم تنتهِ قصّتي في تركيا مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول؛ فبعد مرور خمسة أشهر على الحادث، عدت إلى عملي من استراحة الغداء ذات يوم لأجد وظيفة الاستقبال تنتظرنني بصندوق خشبي كبير،

ملصق به ظرف من الخطوط الجوية التركية يحمل اسمي؛ غاص قلبي في صدري، وفاضت عليّ الذكريات -الحسنة والسيئة- لأسبوع قضيته في إسطنبول، لم أفتح الصندوق على الملأ، وانتظرت حتى أعود إلى المنزل لأنني كنت متأكدة أنه شيء خاص، أو لمسة إضافية من الطيبة التركية الموجهة إليّ؛ كانت الرسالة من مدير الخطوط الجوية التركية في نيويورك، تمنى لي السعادة وأخبرني برغبته في أن يقدم لي هدية رمزية بالنيابة عن العاملين في الخطوط الجوية التركية بسبب رسالة إلى الخطوط الجوية التركية والشعب التركي، تركتها بمكتب الاستقبال في الفندق منذ أشهر، وقد وصلت إليه أخيرًا؛ لم أصدق أن بعد ما قدمه الأتراك كلّه لي من مساعدات معنوية وحسية، ما زالت اليد التركية الدافئة قادرة على احتضاني بحنانها وطيبتها؛ في الصندوق الضخم وجدت لوحة بيضيّة كبيرة يحيطها إطار أبيض من خشب الجوز والزجاج، مغلفة برقّة، وعلى اللوح نقش بحروف رائعة للرسالة الخالدة "ما شاء الله"، الحاملة معنى الشناء على خلق الله، ويستخدمها الأتراك بمعنى "حفظك الله من كل شر"، أثبتت لي تركيا -تلك الأمة العظيمة السخية- أنني لا ينبغي أن أفقد الثقة في الطيبة الدائمة لإخوتي البشر.

صديقتكم

قدريّة براننج

TURKISH AIRLINES
TÜRK HAVA YOLLARI

BOARDING PASS/Biniş Kartı

SURNAME OF PASSENGER
BRANNING K

FROM
ISTANBUL

TO
NEW YORK

FLIGHT
 CLASS
0001

DATE
11 SEP

TIME
11:20

SEAT
26A

NO SMOKING

PCS
4

WT
70

UNCKD
200

BA/GAGE ID NUMBER

CP/4

DOCUMENT NUMBER

OK

رحلة الخطوط الجوية التركية رقم: ٠٠٠١،
 الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م



“ما شاء الله”



مشهد من نافذة شقة المؤلفة في نيويورك قبل الحادي عشر من سبتمبر/أيلول

عام ٢٠٠١م